www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

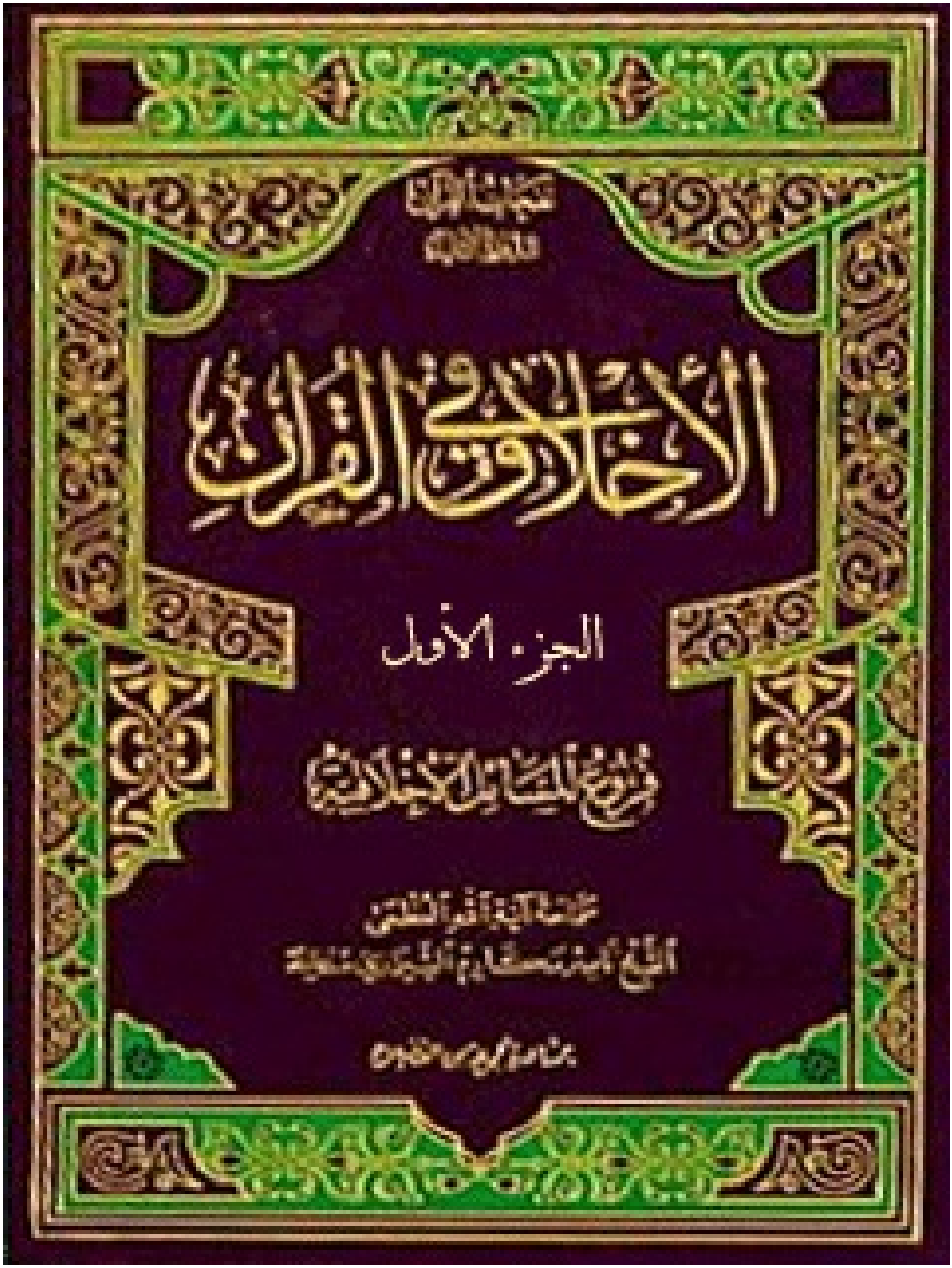

الأخلاق في القرآن
الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخلاق فی القرآن

كاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الاخلاق فی القرآن ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
الجزء الأول ----- ۱۴
المقدمّة: ----- ۱۴
۱ أهمیّة الأبحاث الأخلاقیّة ----- ۱۵
تنویه: ----- ۱۵
النّتیجة: ----- ۱۶
أهمیّة الأخلاق فی الرّوایات الإسلامیّة: ----- ۱۶
إشارات مهمة: ----- ۱۷
۱- تعریف علم الأخلاق ----- ۱۷
۲- علاقة الأخلاق بالفلسفة ----- ۱۸
۳- علاقة الأخلاق بالعِرفان ----- ۱۸
۴- علاقة العلم بالأخلاق ----- ۱۹
۵- هل أن الأخلاق قابلة للتغییر؟ ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
الآیات و الرّوایات التی یستدل بها، علی إمکانیّة تغیّر الأخلاق: ----- ۲۱
أدلّة مُؤیّدی نظریة ثبات الأخلاق، و عَدم تغیّرها: ----- ۲۲
الجواب: ----- ۲۲
۶- المَسار التّأریخی لِعلم الأخلاق ----- ۲۳
دور الأخلاق فی الحیاة والحضارة الإنسانیّة ----- ۲۴
اشارة ----- ۲۴
تفسیر و إستنتاج: ----- ۲۵

النتيجة: ----- ۲۸
علاقة الحياة الماديّة بالمسائل الأخلاقيّة فی الرّوايات الإسلاميّة: ----- ۲۹
المذاهب الأخلاقيّة ----- ۲۹
اشارة ----- ۲۹
۱- الأخلاق فی مدرسة الموحّدين: ----- ۳۰
۲- الأخلاق المادية: ----- ۳۰
۳- الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة العقليّين: ----- ۳۱
۴- الأخلاق فی مذهب محوريّة الغير: ----- ۳۱
۵- الأخلاق فی المذهب الوجدانی: ----- ۳۱
اشارة ----- ۳۱
النّتيجة: ----- ۳۱
ملاحظات: ----- ۳۲
۱- الأخلاق والنسبيّة ----- ۳۲
اشارة ----- ۳۲
الإسلام ينفی نسبيّة الأخلاق: ----- ۳۲
سؤال: ----- ۳۳
الجواب: ----- ۳۳
۲- التّأثير المتقابل بين (الأخلاق و (السّلوک) ----- ۳۴
اشارة ----- ۳۴
التّأثير المتقابل للأخلاق والعمل فی الأحاديث الإسلاميّة: ----- ۳۵
۳- الأخلاق الفرديّة و الإجتماعيّة ----- ۳۶
دعائم الأخلاق ----- ۳۶
اشارة ----- ۳۶
۱- دَعامة الإنتفاع ----- ۳۷

۲- الدّعامة العقليّة ----- ۳۷
۳- دعامة الشخصيّة ----- ۳۸
۴- الدّعامة الإلهيّة ----- ۳۸
اشارة ----- ۳۸
ملاحظة: ----- ۴۱
الأخلاق والحريّة ----- ۴۱
اشارة ----- ۴۱
الإعتقاد بالجَبر، و بالمسائل اللاأخلاقيّة: ----- ۴۲
اصول المسائل الأخلاقيّة فی القرآن الكريم ----- ۴۴
اشارة ----- ۴۴
نقد وتحليل: ----- ۴۵
العودة للُاصول الأخلاقيّة فی القرآن الكريم: ----- ۴۶
اصول الأخلاق الإسلاميّة فی الرّوايات: ----- ۴۷
إرتباط المسائل الأخلاقيّة مع بعضها ----- ۴۹
تنويه: ----- ۴۹
من أين نبدأ؟ ----- ۵۰
اشارة ----- ۵۰
ثلاث نظريّات فی كيفيّة التعامل مع المسائل الأخلاقيّة: ----- ۵۰
النظريّة الأولی ----- ۵۰
النظريّة الثّانية: نظريّة الطّب الرّوحانی ----- ۵۱
النظريّة الثالثة: نظريّة السّير و السّلوک ----- ۵۲
تنوع الطّرق لأرباب السّير و السّلوک ----- ۵۳
اشارة ----- ۵۳
۱- السّير و السّلوک المنسوب: «للسيد بحر العلوم» ----- ۵۳

اشارة ----- ۵۳
کیفیة السّیر و السّلوک فی هذه الطریقة: ----- ۵۴
۲- طریقة المرحوم الملکی التّبریزی ----- ۵۵
۳- طریقةٌ اخری ----- ۵۶
اشارة ----- ۵۶
خلاصة ما تقدم من مذاهب السّیر و السّلوک: ----- ۵۷
هل یلزم وجود المُرشد فی کلّ مرحلةٍ؟ ----- ۵۷
اشارة ----- ۵۷
دور الواعظ الداخلی (الباطنی): ----- ۵۸
العناصر اللّازمة لتربیة الفضائل الأخلاقیة ----- ۵۹
اشارة ----- ۵۹
۱- طهارة وصفاء المحیط ----- ۵۹
اشارة ----- ۵۹
تفسیر و إستنتاج: ----- ۵۹
۲- دور الأصدقاء والعِشرة ----- ۶۱
اشارة ----- ۶۱
تفسیر و إستنتاج: ----- ۶۲
دور الأخلّاء فی الرّوایات الإسلامیّة: ----- ۶۳
تأثیر العِشرة فی التحلیلات المنطقیّة: ----- ۶۳
۳- تأثیر الاسرة والوراثة فی الأخلاق ----- ۶۴
اشارة ----- ۶۴
تفسیر و استنتاج: ----- ۶۵
الأخلاق والتربیة فی الأحایث الإسلامیّة: ----- ۶۶
۴- معطیات العلم و المعرفة فی التربیة ----- ۶۷

اشارة ----- ۶۷
۱- الجهل مصدرٌ للفساد و الإنحراف ----- ۶۸
۲- الجهل سبب للإنفلات و التّحلل الجنسی ----- ۶۸
۳- الجهل أحد عوامل الحسد ----- ۶۸
۴- الجهل مصدر التّعصب و العناد و اللؤم ----- ۶۹
۵- علاقة الجهل بالذرائع ----- ۶۹
۶- علاقة سوء الظنّ مع الجهل ----- ۶۹
۷- الجهل مصدر لسوء الأدب ----- ۶۹
۸- أصحاب النّار لا یفقهون ----- ۶۹
۹- الصبر من معطیات العلم ----- ۶۹
۱۰- التّفاق والفرقة ینشآن من الجهل ----- ۷۰
النتیجة: ----- ۷۰
علاقة «العلم» و «الأخلاق» فی الأحادیث الإسلامیّة: ----- ۷۰
۵- دور الثّقافة الإجتماعیّة فی تربیة الفضائل والرذائل: ----- ۷۲
اشارة ----- ۷۲
تفسیر و إستنتاج: ----- ۷۲
علاقة الآداب و السّنن بالأخلاق فی الرّوایات الإسلامیّة: ----- ۷۴
۶- علاقة العمل بالأخلاق ----- ۷۵
اشارة ----- ۷۵
تفسیر و إستِنْتاجٌ: ----- ۷۵
النّتیجة: ----- ۷۸
کیفیّة تأثیر «العمل»، فی «الأخلاق» فی الرّوایات الإسلامیّة: ----- ۷۸
۷- علاقة «الأخلاق» و «التّغذیة» ----- ۷۹
اشارة ----- ۷۹

علاقة التّغذية بالأخلاق فى الرّوايات الإسلاميّة: ----- ۸۰

النّتيجة: ----- ۸۱

الصفات و الأعمال الأخلاقيّة: ----- ۸۲

الخُطى العمليّة فى طريق التّهذيب الأخلاقى ----- ۸۲

اشارة ----- ۸۲

الخطوة الاولى: التّوبة ----- ۸۲

اشارة ----- ۸۲

۱- حقيقة التّوبة ----- ۸۳

۲- وجوب التّوبة ----- ۸۴

۳- عموميّة التوبة ----- ۸۴

۴- أركان التّوبة ----- ۸۶

۵- قبول التوبة: هل هو عقلى أم نقلى؟ ----- ۸۷

۶- التّبعيض فى التّوبة ----- ۸۸

۷- دوام التّوبة ----- ۸۹

۸- مراتب التّوبة ----- ۹۰

۹- معطيات و بركات التّوبة ----- ۹۰

الخطوة الثّانية: المشارطة ----- ۹۱

الخطوة الثّالثة: المراقبة ----- ۹۲

الخطوة الرّابعة: المحاسبة ----- ۹۳

اشارة ----- ۹۳

۱- كيفيّة محاسبة النّفس و إستنطاقها ----- ۹۵

۲- ما هى معطيات محاسبة النّفس؟ ----- ۹۵

الخطوة الخامسة: المعاتبة والمعاقبة ----- ۹۵

الخطوة السّادسة: «النيّة» و «إخلاص النيّة» ----- ۹۷

اشارة ----- ۹۷
الإخلاص: ----- ۹۸
الإخلاص فی الرّوایات الإسلامیّة: ----- ۱۰۰
حقیقة الإخلاص: ----- ۱۰۰
موانع الإخلاص: ----- ۱۰۱
معطیات الإخلاص: ----- ۱۰۱
الرّیاء: ----- ۱۰۲
تفسیر و إستنتاج: ----- ۱۰۲
الرّیاء فی الرّوایات الإسلامیّة: ----- ۱۰۳
فلسفة تحریم الرّیاء: ----- ۱۰۴
علامات المُرائی: ----- ۱۰۵
علاجُ الرّیاء: ----- ۱۰۶
هل النّشاط فی العبادة یُنافی الإخلاص؟ ----- ۱۰۶
ما الفرق بین الرّیاء و السّمعة: ----- ۱۰۷
الخطوة السّابعة: السّکوت و إصلاح اللّسان ----- ۱۰۸
اشارة ----- ۱۰۸
السّکوت فی الآیات القرآنیّة الکریمة: ----- ۱۰۸
السّکوت فی الروایات الإسلامیّة: ----- ۱۰۹
إزالة وَهم: ----- ۱۱۰
إصلاح اللّسان: ----- ۱۱۰
علاقة اللّسان بالفکر والأخلاق: ----- ۱۱۲
آفات اللّسان: ----- ۱۱۳
الاسس الکلیّة للوقایة من أخطار اللّسان: ----- ۱۱۴
اشارة ----- ۱۱۴

۱- الإنتباه الحَقیقی لأخطار اللّسان ---- ۱۱۴
۲- السّکوت ---- ۱۱۴
۳- حِفظ اللّسان: «التفکّر أولًا ثّم الکَلام» ---- ۱۱۵
الخُطوة الثّامنة: معرفة اللّه تعالی و معرفة النّفس ---- ۱۱۵
اشارة ---- ۱۱۵
۱- علاقة معرفة النّفس بتهذیبها ---- ۱۱۵
۲- معرفة النّفس فی الرّوایات الإسلامیّة ---- ۱۱۶
۳- معرفة النّفس طریقٌ لمعرفة الرّب ---- ۱۱۷
التّفاسیر السّبعة، لحدیث من عَرف نفسه: ---- ۱۱۸
موانع معرفة النّفس: ---- ۱۱۹
الخُطوة التّاسعة: العبادة و الدّعاء تصقل مرآة القلب: ---- ۱۲۰
اشارة ---- ۱۲۰
تفسیر و إستنتاج: ---- ۱۲۱
النّتیجة: ---- ۱۲۲
تأثیر العبادة فی صقل الرّوح فی الرّوایات الإسلامیّة: ---- ۱۲۳
النّتیجة: ---- ۱۲۴
ذِکر اللّه و تربیة الرّوح: ---- ۱۲۴
تفسیر و إستنتاج: ---- ۱۲۵
کیف یکون ذِکر اللّه؟ ---- ۱۲۶
النّتیجة: ---- ۱۲۸
علاقة ذِکر اللّه، بِتهذیب النّفوس فی الأحادیث الإسلامیّة: ---- ۱۲۸
اشارة ---- ۱۲۸
۱- ما هی حقیقة الذِّکر ---- ۱۲۹
۲- مراتب الذّکر ---- ۱۲۹

۳- موانع الذّکر ----- ۱۳۰
القُدوات فی خطّ الإستقامة ----- ۱۳۰
إشارة: ----- ۱۳۰
تفسیر و إستنتاج: ----- ۱۳۱
النّتیجة: ----- ۱۳۴
التولّی و التبرّی فی الرّوایات الإسلامیّة: ----- ۱۳۴
قصّة موسی و الخَضر علیهما السلام: ----- ۱۳۶
الوجه الآخر للولایة، و دوره فی تهذیب النّفوس ----- ۱۳۷
اشارة ----- ۱۳۷
کلام العلّامة الشّهید المطهّری: ----- ۱۳۹
الاستغلال السّیء: ----- ۱۴۰
تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۴۲

الاخلاق فی القرآن

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، ۱۳۰۵ - عنوان و نام پدیدآور : الاخلاق فی‌القرآن/ناصر مکارم‌شیرازی ؛ لمساعده مجموعه من‌الفضلاء ؛ تعریب‌الموسسه‌الاسلامیه‌للترجمه. مشخصات نشر : قم: مدرسه‌الامام علی‌بن‌ابی‌طالب (ع ۱۴۲۵ ق ۱۳۸۴. مشخصات ظاهری : ۳ج. فروست : نفحات‌القرآن؛ الدوره‌الثانیه. شابک : ۹۰۰۰۰ ریال: دوره ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۷-X ؛ ج.۱ ۹۶۴-۸۱۳۹-۰۵-۹ ؛ ج.۲ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۶-۱ ؛ ج.۳ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۵-۳ ؛ ۸۰۰۰۰ ریال (دوره، چاپ دوم) یادداشت : عربی. یادداشت : عنوان اصلی: پیام قرآن دوره دوم: اخلاق در قرآن. عربی. یادداشت : ج. ۳(چاپ سوم: ۱۴۲۸ق=۱۳۸۶). یادداشت : ج. ۱ - ۳ (چاپ دوم: ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۵). یادداشت : کتابنامه. مندرجات : ج.۱. اصول‌المسائل‌الاخلاقیه. -ج.۲-۳. فروع‌المسائل‌الاخلاقیه. موضوع : قرآن -- اخلاق موضوع : اخلاق اسلامی موضوع : احادیث اخلاقی -- قرن ۱۴ شناسه افزوده : موسسه اسلامی ترجمه شناسه افزوده : مدرسه‌الامام علی‌بن ابی‌طالب (ع). رده بندی کنگره : BP۱۰۳/۳/م۷پ۹۰۴۳ ۱۳۸۳ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۹ شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۵۳۴۰۹

الجزء الأول

المقدّمة:

لا یخفی أنّ المسائل الأخلاقیّة، تخطی بأهمیّةٍ کبیرةٍ فی کلّ زمانٍ، ولکنّ فی عصرنا الحاضر، إکتسبت أهمیة خاصة، وذلک: ۱- إنّ قوی الإنحراف و عناصر الشرّ و الفساد، قد إزدادت فی هذا العصر، أکثر من جمیع العصور السّالفة، فإذا کان التّحرک فی الماضی فی خطّ الباطل و الإنحراف، یکلّف الإنسان مبلغاً من المال، أو شیئاً من الجهد، ففی هذا الزّمان و بسبب التّقدم العلمی والتّطور الحضاری، أصبحت أدوات الفساد فی متناول الجمیع، هذا من جهةٍ: ۲- ومن جهةٍ اخری، إنّنا نعیش فی هذا العصر ضخامة المقاییس، فبینما کانت المقاییس والموازین محدودةً فی الماضی، و بتبع ذلک نری محدودیّة المفاسد الإجتماعیة والأخلاقیّة، فإنّ القتل فی هذا الزّمان بسبب أسلحة الدّمار الشّامل، والفساد الأخلاقی بسبب انتشار أشرطة الفیدیو والسّینما الخلیعة، وکذلک ما یفرزه «الأنترنیت» من معلوماتٍ فاسدةٍ، و یضعها فی متناول الجمیع، کلّ ذلک یحکی عن إنفجار فی دائرة الفساد و الإنحراف، و کسر القوالب الضّیقة الّتی کانت تحدد قوی الباطل فی الماضی، لیسری إلی خارج الحدود، و یصل إلی أقصی بقعةٍ فی العالم. وإذا کان إنتاج المواد المخدّرة فی السّابق، ینحصر بقریةٍ أو منطقةٍ محدودةٍ، و لا یتجاوز ضرره سوی المناطق المجاورة، فالیوم نری أنّ الابتلاء بمرض الإدمان، و من خلال عملیّة التّهریب الواسعة لعصابات الموت، قد غطی أجواء العالم أجمع. ۳- ومن جهةٍ ثالثةٍ، أنّنا نشاهد توسّعاً هائلًا فی العلوم النّافعة لِلبشر، فی مختلف جوانب الحیاة فی علوم الطّب و الفضاء، و الإتصالات والمواصلات وأمثال ذلک، و کذلک الحال فی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶ العلوم الشّیطانیة ووسائل الفساد و الإنحراف، حیث تطورت بشکل مذهلٍ، الی حدٍ إنّ القوی الشیطانیّة التی تقف وراء إنتاج أدوات الإفساد الإجتماعی، یتوصلون إلی تحقیق أهدافهم بطرق ملتویةٍ کثیرةٍ و یسیرةٍ، و مثل هذه الظّروف و الأجواء تحتم علینا الإهتمام بالمسائل الأخلاقیة أکثر من أیّ وقت مضی، وإلّا فعلینا أن نتوقّع الکارثة، أو الکوارث التی تشلّ فی الناس إرادة المواجهة، و تحولهم إلی کیاناتٍ مهزوزةٍ أمام حالات الخطر. و یجب علی العلماء الواعین و المفکّرین المخلصین، أن یتحرکوا من موقع التّکاتف فیما بینهم، لتعمیق الأخلاق فی قلوب الناس، و تفعیل عناصر الخیر فی وجدانهم، والإنتباه إلی الخطر المحیط بالأخلاق، بحیث إنّ البعض أنکر فائدتها من الأساس، أو ذهب إلی أنّها غیر ضروریّةٍ، والبعض الآخر تعامل معها من موقع

المصلحة و البرُ اجماتیة، للوصول إلی مطامعه السّیاسیة. ولحسن الحظ فإنّنا کمسلمین، نمتلک مصدراً عظیماً للمعارف الأخلاقیّة، و هو القرآن الکریم، الـذی لا ـ یُـدانیه أیّ مصـدر دینی آخر فی العالم. ورغم أنّ العلماء والمفسّرین، قـد تناولوا البحوث القرآنیـة فی دائرة الأخلاق، بـالبحث والدّراسـة، إلّاأنّ هـذه الأبحـاث و الـدراسات جـاءت متفرقـة و لا تفی بالغرض، ولهـذا إفتقرت السّاحـة الثقافیـة و التّفسیریة، إلی کتابٍ أو کُتبٍ لدراسـة هـذا الموضوع، بالإستیحاء من الآیات القرآنیـة، فکان هـذا الکتاب الـذی بین أیدیکم و بإسم: (الأخلاق فی القرآن)، إسـتجابة عملیّةً لِهـذه الحاجة الماسّة فی حرکة الواقع الثّقافی و الدّینی، لسدّ هذه الثّغرة فی صـرح البناء الثقافی والحضـاری للإسـلام. وجـاء هـذا الکتـاب، بعـد بحوثٍ و دراسـات فی التّفسیر الموضوعی للقرآن الکریم شـملت المعـارف والعقائد الإسـلامیّة فی دورته الاولی، و لتکون الدّورة الثّانیة، مختصّةً ببحوث الأخلاق الإسـلامیّة فی القرآن الکریم. وبحمد اللّه فقد إنتهینا من هـذه الأبحاث الأخلاقیة فی ثلاث أجزاء، تناول الجزء الأوّل منها، دراسة المسائل الأخلاقیّة الکلیّة فی دائرة الأخلاق، و هذا هو الکتاب الـذی بین أیدیکم، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷ حیث یمکن الإسـتفادة منه بعنوان کتابٍ درسی للرّاغبین، ویتکفل الجزء الثانی و الثالث، ببیان تفاصـیل هذه المسائل الکلیّةً و جزئیّاتها ومصادیقها. نأمل أن تکون هذه الأبحاث الأخلاقیة، المستوحاة من أجواء القرآن الکریم، خطوة اخری علی طریق حلّ المشاکل الأخلاقیّـة و الثقافیّـة للإنسان، فی حرکة الحیاة والواقع الإجتماعی، ونسأل اللّه تعالی أن ینظر إلیهـا بنظرة القبول، و یجعلها ذخیرةً لنا یوم لا ینفع مالٌ و لا بنون، ونرجو من الاخوة أن یتفضـلوا علینا بإرشادنا إلی موضع النّقص إن وجد. والحمد للّهربّ العالمین ربیع الأول ۱۴۱۹ ه. ق

۱ أهمیّة الأبحاث الأخلاقیّة

تنویه:

هـذا البحث یعـدّ من أهم الأبحـاث القرآنیّـة، ویعتبر من أهمّ أهـداف الأنبیـاء کـذلک، إذ لولاـ الأخلاـق، لمـا فهم الناس الـدّین و لَما إسـتقامت دنیـاهم: و کما قال الشّاعر: وإنما الامم الأخلاق ما بَقیتْ فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذَهبوا فلا یُعتبر الإنسان إنساناً إلّاباخلاقه، و إلّاسوف یصبح حیواناً ضاریاً کاسراً، یحطّم و یکتسح کلّ شیء، وخصوصاً و هو یتمتّع بالذّکاء الخارق، فیثیر الحروب الطّاحنة، لغرض الوصول لأهـدافه المادیّـة غیر المشـروعة، ولأجـل أن یبیع سـلاحه الفتّـاک، یزرع بـذور الفُرقـة و النّفاق ویقتل الأبریاء! نعم، یمکن أن یکون متمـدّناً فی الظّاهر، إلّاأنّه لا یقوم له شـیء، و لا یمیّز الحلال من الحرام، ولا یفرّق بین الظّلم و العدل، و لا الظّالم و المظلوم! بعد هـذه الإشارة نعرّج علی القرآن الکریم لنسـتوحی من آیاته الکریمـة التالیة، تلک الحقیقة: ۱- «هُوَ الَّذی بَعَثَ فی الاـمّیینَ رَسُولًا مِنْهُم یَتلُوا عَلَیْهِمْ آیـاتِهِ وَیُزَکِّیهِمْ وَیُعَلِّمُهُمُ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰ الْکِتابَ وَالْحِکْمَةَ وَإِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَـلالٍ مُبینٍ» «۱». ۲- «لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَی الْمؤْمِنینَ اذْ بَعَثَ فِیهِمْ رَسُولًـا مِنْ أَنْفُسِـهِمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَیُزَکِّیهِمْ وَیُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَالْحِکْمَـةَ وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَـلالٍ مُبینٍ» «۲». ۳- «کَمـا أَرْسَـلْنا فِیکُمْ رَسُولًـا مِنْکُم یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِنـا وَیُزَکِّیکُمْ وَیُعَلِّمُکُمُ الْکِتـابَ وَالْحِکْمَـةَ وَیُعَلِّمُکُمْ مـا لَمْ تَکُونُـوا تَعْلَمُونَ» «۳». ۴- «رَبَّنـا وَابْعَـثْ فِیهِـمْ رَسُولًـا مِنْهُمْ یَتْلُـوا عَلَیْهِمْ آیاتِـکَ وَیُعَلِّمُهُمُ الکِتـابَ وَالحِکْمَـةَ وَیُزَکِّیهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ العَزیزُ الْحَکِیمُ» «۴». ۵- «قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها» «۵». ۶- «قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکّی وَذَکَرَ اسْمَ ربِّهِ فَصَـلّی «۶». ۷- «وَلَقَدْ آتَیْنا لُقْمانَ الْحِکْمَةَ أَنِ اشْـکُرْ لِلّهِ» «۷». الآیات الأربع الأُول: تقرّر حقیقـةً واحـدةً، ألا و هی، أنّ إحـدی الأهداف المهمّة، لبعثة النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، هو تزکیة النّفوس و تربیّة الإنسان، و بلورة الأخلاق الحسـنة، فی واقعه الوجدانی، بحیث یمکن أن یقال: إنّ تلاوة الآیات وتعلیم الکتاب والحکمة التی أشارت إلیها الآیة المبارکة الاولی یعُد مقدمة لمسألة تزکیة النّفوس وتربیة الإنسان، والذی بدوره یشکّل الغایة الأساسیّة لعلم الأخلاق. ولأجل ذلک یمکن تعلیل تقدم کلمة: «التزکیة»، علی: «التعلیم»، فی الآیات الثلاث، من حیث إنّ «التّزکیـة» هی الهـدف والغایـة النهائیّة، وإن کان «التّعلیم» من الناحیة العملیّة مقدمٌ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱ علیها. وإن نظرنا

«للآیـة الرابعـة»: من بحثنـا هـذا، و تقـدیمها لکلمـة التّعلیم علی التّزکیـة، فهی نـاظرةٌ إلی المسألـة من حیث الترتب العملی الطبیعی لها، بإعتبار أنّ التّعلیم مقدمـةٌ «للتربیـة و التّزکیة». ولهذا نری أنّ الآیات الأربع الاولی کلّ منها تنظر إلی المسألة من منظارها الخاص. ولیس بعیـداً إحتمـال رأیٌ آخر، من التّفسیر فی الآیـات المبارکـة الأربع، وهو أنّ الغرض، من التّقـدیم و التّأخیر الحاصل لهـذین الکلمتین: (التّربیة والتعلیم)، بإعتبار أنّ إحداها تؤثّر فی الاخری یعنی کما أنّ التعلیم الصّحیح یکون سبباً فی الصّعود بالأخلاق، و تزکیة النّفوس، تکون تزکیـة النفوس هی الاخری مؤثّرة فی رفع المسـتوی العلمی، لأنّ الإنسان بوصوله للحقیقـة العلمیّة، یکون قد تطهر من «العناد» و «الکِبر» و «التّعصب الأـعمی ، حیث تکون الأـخیرة مانع من التّقـدم العلمی، ومعها سوف یُران علی قلبه علی حـد تعبیر القرآن الکریم، ولن یری الحقیقـة کمـا هی فی الواقع. ویمکن الإشـارة الی نکـات اخری فی الآیـات الکریمـة الأـربعُ: الآیـة الاولی تشـیر إلی أنّ بعث رسول یُعلِّم الأخلاـق، هی من علامات حضور الباری تعالی فی واقع الإنسان لتفعیل عناصـر الخیر فی وجـدانه، و أنَّ النقطـة المعاکسـة (للتربیة والتعلیم) هی الضّـلال المبین، فهی تبین مدی إهتمام القرآن الکریم بالسـلوک الأخلاقی للإنسان فی حرکة الحیاة. الآیة الثّانیة: نجـد فیها أن إرسال رسول یُزکیهم و یُعلّمهم الکتاب و الحکمة، هی من المنن و المواهب الإلهیّة العظیمة، التی منّ اللّه بها علینا، وهی دلیل آخر علی أهمیّـة الأخلاق. الآیـة الثّالثـة: وهی الآیـة التی نزلت بعـد آیات تغییر القبلـة، من القدس الشّـریف إلی الکعبة المشـرّفة، حیث عُدَّ هذا التغییر من النّعم الإلهیّة الکبری وأنّ هذه النعمة هی کإرسال الرسول للتعلیم والتّزکیة وتعلیم الإنسان اموراً لم یکن یعلمها ولن یتمکن من الوصول إلیهـا إلّاعن طریق الوحی الإلهی «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲ الآیة الرّابعة: تتحدث عن أنّ إبراهیم الخلیل علیه السلام، و بعد إکماله لبناء الکعبة، طلب من الباری تعالی أن یخلق من ذریّته امّةً مسلمةً؛ و أن یبعث فیهم رسولًا من ذریّته، لیزکّیهم فی دائرة التربیـة الأخلاقیّـة، و یعلّمهم الکتاب والحکمـة. الآیـة الخامسـة: نجـد أن القرآن الکریم، وبعد ذکر أحدَ عشرَ قَسَـماً مهماً، وهی من أطول الأقسام فی القرآن،- قسـماً بالشّـمس و القمر و النّجوم و النفس الإنسانیة-، و بعد ذلک قال: «قد أفلح من زکّاها وقـد خـاب من دسّاهـا». وهـذا التأکیـد المتکرّر و الشّدیـد فی هـذه الآیـات، یـدلّ علی أنّ القرآن الکریم، یـولّی أهمیّـةً بالغـةً لمسـألة الأخلاـق، و أنّ التّزکیـة هی الهـدف الأـهم للإنسـان، و تکمن فیهـا کـلّ القیم الإنسانیّـة، بحیث تکون نجاة الإنسان بها. ونفس المعنی أعلاـه ورد فی: «الآیـة السّادسـة»، و اللّطیف فیها أنّ ذکر التّزکیـة جاء قبل الصـلاة، و ذکر اللّه تعالی، إذ لولا التّزکیـة و صـفاء الرّوح لا یکون للصّـلاة معنی و لا لـذکر اللّه. وجاء فی «الآیـة الأخیرة»، ذکر لُقمان الحکیم، حیث عبّر عن علم الأخلاق بالحکمـة، فقال: «وَلَقَدْ آتَیْنا لُقْمانَ الْحِکْمَـةَ أَنِ آشْـکُرْ لِلَّهِ». وبالنّظر للآیات الشّـریفة، نری أنّ خصوصـیّة: «لقمان الحکیم»، هی تربیة النّفوس والأخلاق، ومنها یتّضـح أنّ المقصود من الحکمـة هنا، هو الحکمة العملیّة و تعالیمها المؤدّیة إلیها، و بعبارة اخری یعنی: «التّعلیم» لأجل «التّربیة». ویجب الإنتبـاه و کمـا ذکرنـا مراراً، إلی أنّ أصـل معنی «الحکمـة» هو لجام الفرس، وبعـدها أطلقت علی کلّ شـیء رادعٍ، و بإعتبار أنّ العلوم والفضائل الأخلاقیّة، تردع الإنسان عن الرّذائل فأطلقت علیها هذهِ الکلمة.

النّتیجة:

نسـتوحی من هـذهِ الآیـات، الإهتمـام الکبیر للقرآن الکریم بالمسائل الأخلاقیّـة وتهـذیب الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳ النفوس، بإعتبارها مسألـةً أساسـیّةً، تنشأ منها وتبتنی علیها جمیع الأحکام والقوانین الإسـلامیّة، فهی بمثابة القاعدة الرّصـینة و البناء التحتی، الذی یقـوم علیه صـرح الشّـریعة الإسـلامیّة. نعم إنّ التّکامـل الأخلاـقی للفرد و المجتمع، هو أهم الأهـداف الـتی تعتمـد علیه جمیع الأدیـان السّـماویة، إذ هو أساس کلّ صـلاحٍ فی المجتمع، و وسـیلةٍ رادعـةٍ لمحاربـة کلّ أنواع الفساد و الإنحراف، فی واقع الإنسان و المجتمع البشری فی حرکة الحیاة. والآن نعطف نظرنا إلی الروایات الإسلامیّة، لنری أهمیّة هذه المسألة فیها:

أهمیّة الأخلاق فی الرّوایات الإسلامیّة:

لقد أولت الأحاديث الشّريفة لهذه المسألة أهمية بالغةً سواء كانت فی الروايات الواردة عن الرّسول الأعظم صلی الله عليه و آله، أم عن طريق الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ونورد بعضاً منها: ۱- الحديث المعروف عن الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله: «إنّما بُعثتُ لأُتمّمَ مكارمَ الأخلاقِ» «۱». وجاء فی حديثٍ آخر: «إنّما بُعثتُ لأُتمّمَ حُسنَ الأخلاقِ» «۲». وجاء فی آخر: «بُعثتُ بمكارمِ الأخلاقِ ومحاسِنها» «۳». ونری أن كلمة «إنّما» تفيد الحصر، يعنی أنّ كلّ أهداف بعثة الرّسول الأكرم صلی الله عليه و آله، تتلخص فی التّكامل الأخلاقی. ۲- وجاء فی حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال: «لَو كُنّا لا نَرجو جنّةً ولا ناراً ولا ثواباً ولا عِقاباً، لكان يَنبغی لَنا أن نُطالِبَ بِمكارمِ الأخلاقِ فإنّها ممّا تَدُلُّ علی سبيلِ النجاحِ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴ يبيّن لنا هذا الحديث أهمية الأخلاق وفضائلها، إذ هی ليست سبباً فی النجاة فی الاخری فقط، بل هی سبب لصلاح الدّنيا أيضاً، (وسنتناول هذا البحث مفصّلًا فی القريب العاجل إن شاء اللّه تعالی . ۳- الحديث الآخر الذی ورد عن رسول اللّه صلی الله عليه و آله، حيث قال: «جَعَلَ اللّهُ سُبحانَهُ مكارمَ الأخلاقِ صِلةً بينه وبين عبادِهِ فحسب أَحدِكُم أن يتمسّكَ بخُلقٍ مُتّصلٍ باللّهِ» «۱». و بعبارةٍ اخری: أنّ البارئ تعالی هو المعلم الأكبر للأخلاق، و هو مربّی النّفوس، ومصدر لكلّ الفضائل، والقرب منه تعالی لا يتمّ إلّابالتّحلی بالأخلاق الإلهيّة. وعلی هذا نری أنّ كلّ فضيلةٍ يتحلی بها الإنسان، تؤدی إلی تعميق العلاقة بينهوبين ربّه، و تقربه من الذّات المقدّسة أكثر فأكثر. وحياة المعصومين عليهم السلام كلّها تبيّن هذهِ المسألة، فإنّهم كانوا دائماً يدعون إلی الأخلاق، و التّحلی بالفضائل، و هم القُدوة الحسنة فی سلوك هذا الطريق، وسنتطرق فی المستقبل إلی نماذج من أخلاقيّاتهم عليهم السلام، ويكفی شرفاً للرّسول الأكرم صلی الله عليه و آله، أنّ اللّه تعالی نعته فی سورة القَلم: «وإِنَّكَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِيمٍ». «۲»

إشارات مهمة:

۱- تعريف علم الأخلاق

أخلاق جمع خُلق (علی وزن قُفل)، و خُلُق علی وزن افُق، وعلی حد تعبير الرّاغب فی كتابه المفردات، أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلی أصلٍ واحدٍ، و هو «خلق» بمعنی الهيئة والشّكل الذی يراه الإنسان بعينه، والخُلق بمعنی القوی و السّجايا الذاتية للإنسان. ولذا يمكن القول بأنّ: «الأخلاق هی مجموعة الكمالات المعنويّة و السّجايا الباطنيّة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵ للإنسان»، و قال بعض العلماء: إنّ الأخلاق أحياناً تُطلق علی العمل و السّلوك، الذی ينشأ من الملكات النفسانية للإنسان أيضاً، (فالأولی الأخلاق الصفاتية والثانية السلوكيّة). ويمكن تعريف الأخلاق من آثارها الخارجيّة أيضاً، حيث يصدر أحياناً من الإنسان فعل إعتباطی ولكن عندما يتكرّر ذلك العمل منه: (مثل البخل وعدم مساعدة الآخرين)، يكون دليلًا علی أنّ ذلك الفعل يمدّ جذوره فی أعماق روح ذلك الإنسان، تلك الجذور تسمی بالخُلق والأخلاق. وفی ذلك قال «ابن مِسكَويه»، فی كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»: إنّ الخُلق هو تلك الحالة النفسانيّة التی تدعو الإنسان، لأفعالٍ لا تحتاج إلی تفكّر و تدبّر» «۱». وهو نفس ما إشار إليه المرحوم الفيض الكاشانی فی كتاب «الحقائق»، حيث يقول: «إعلم أنّ الخُلق هو عبارة عن هيئة قائمة فی النفس، تصدر منها الأفعال بسهولة من دون الحاجة إلی تدبّر وتفكّر» «۲». وعليه قسّموا الأخلاق إلی قسمين: الملكات التی تنبع منها الأعمال و السّلوكيات الحسنة وتسمی «الفضائل»، واخری تكون مصدراً للأعمال والسلوكيات السّيئة و تسمی الرذائل. ومن هنا يمكن أن نعرّف علم الأخلاق بأنّه: «علمٌ يُبحَث فيه عن المَلكات و الصّفات الحسنة والسيئة وآثارها وجذورها». وبعبارة اخری «علمٌ يُبحَث فيه عن اسس إكتساب هذهِ الصفات الحسنة، و طُرق محاربة الصّفات السّيئة، و آثارها علی الفرد والمجتمع». طبعاً وكما ذكرنا سابقاً، يُطلق علی الأعمال و الأفعال النّابعة من هذهِ الصفات أحياناً «الأخلاق»، فمثلًا الشّخص الذی يعيش فی حالةٍ من الغضب والحدّة دائماً، يقال عنه بأنّه ذو أخلاقٍ رديئةٍ، وبالعكس عندما يكون الشّخص كريماً، فيقولون أنّ الشّخص الفلانی يتحلی بأخلاقٍ طيّبةٍ، وفی الحقيقة أن هذين الإثنين هما عِلّة ومعلول للآخر، بحيث، يطلق

إسم أحداهما على الآخر. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶ وعرّف بعض الغربيين الأخلاق بما يُوافق تعاريفنا لها، فمثلًا فی كتاب: «فلسفة الأخلاق»، لشخصٍ يدعى (جكسون)، و هو أحد فلاسفة الغرب، عرّف الأخلاق فيه بقوله: (علمُ الأخلاق عبارةٌ عن التّحقيق فی سلوك الإنسان على الصورة التی ينبغی أن يكون عليها) «۱». وللبعض مثل «فولكيه»، رأی آخر فی المسألة، حيث عرّفوا علم الأخلاق بأنّه: (مجموعة قوانين السّلوك التی يستطيع الإنسان بواسطتها أن يصل إلى هدفه) «۲». هذا هو كلام اناس لا يعيرون للقيم الإنسانيّة أهميّة، والمهم عندهم الوصول إلى الهدف كيفما كان وكيفما إتّفق، إذ الأخلاق عندهم ليست إلّاوسيلةً تُمكّن الإنسان من الوصول إلى الهدف!.

۲- علاقة الأخلاق بالفلسفة

الفلسفة فی معناها ومفهومها الكلی، تعنی: معرفة العالم بما لدی الإنسان من قدرة، وبهذا المعنی يمكن أن تدخل جميع العلوم تحت هذا المفهوم الكلّی، بحيث نری فی الأعصار السّابقة والقديمة، عندما كانت العلوم محصورةً و معدودةً كانت الفلسفة تلقی الضوء عليها جميعاً، والفيلسوف كان له الباع الطويل فی جميع العلوم، وفی ذلك الوقت قسّمت الفلسفة إلى قسمين: أ- الامور التی لا دخل للإنسان فيها، و التی تستوعب جميع العالم، عدا أفعال الإنسان. ب- الامور التی تنضوی تحت إختيار الإنسان وله دخل فيها، يعنی أفعال الإنسان. فالقسم الأول يسمّی بالحكمة النظريّة، وتقسم إلى ثلاثة أقسام: الفلسفة الاولى أو الحكمة الالهيّة: وهی التی تتناول الأحكام الكلية للوجود والمبدأ والمعاد. ۲- الطّبيعيات: وفيها أقسام مختلفة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷ ۳- الرّياضيات: وهی أيضاً لها فروع متعددة. وأما التی تتعلق بأفعال الإنسان، فتسمی بالحكمة العمليّة، وهی بدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ۱- الأخلاق والأفعال: التی تكون سبباً فی سعادة أو ضلال الإنسان، و تكون جذورها ومصدرها النفس الإنسانيّة. ۲- تدبير المنزل: وكل ما يتعلق بالعائلة. ۳- سياسة وتدبير المدن: والتی تتناول طرق إدارة المجتمعات البشرية. و هكذا فقد أفردوا للأخلاق حقلها الخاص بها، فی مقابل (تدبير البيت) و (سياسة المدن). وعليه يمكن القول بأنّ علم الأخلاق هو فرع من: «الفلسفة العملية» أو «الحكمة العمليّة». ولكنّ تعدد العلوم فی عصرنا الحاضر دعی للفصل بينها، و غالباً ما تأتی الفلسفة والحكمة، و الفلسفة بمعنی الحكمة النظريّة من نوعها الأوّل، وهی الامور التی تتعلق بالعالم والكون وكذلك المبدأ والمعاد. ويوجد اختلاف بين الفلاسفة، فی أيّهما أفضل: الحكمة النظريّة أم الحكمة العمليّة، فقسم إدّعی الأفضلية للُاولی، وقسم آخر إدّعی الأفضلية لِلثانية، وعند التّدقيق فی مدّعاهم نری أنّ الإثنين على حق و هذا ليس بحثنا الآن. وسنتعرض لعلاقة الأخلاق بالفلسفة، فی موارد اخری فی المستقبل، إن شاء اللّه تعالى.

۳- علاقة الأخلاق بالعِرفان

أمّا بالنسبة لعلاقة (الأخلاق) ب (العرفان) و (السير و السلوك إلى اللّه)؛ فيمكن القول أنّ العرفان أكثر ما ينظر للمعارف الإلهيّة، ولكن ليس عن طريق العلم و الإستدلال، بل عن طريق الشّهود الباطنی، بمعنی أنّ قلب الإنسان يجب أن يكون كالمرآة الصافية، لدرجةٍ يستطيع فيها أن يری الحقيقة لتزول عنه الحُجب، وليری بقلبه الذّات الإلهيّة و أسمائه و صفاته، ومنها يصل إلى العشق الإلهی الحق. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸ وبما أنّ علم الأخلاق، له اليد الطُولى فی المساعدة على دفع ورفع الرذائل، و التی هی بمثابة الحُجب على القلوب، فمن البديهی أن تكون الأخلاق من اسس ومقدمات العرفان الإلهی وأما «السّير والسّلوك إلى اللّه»، والذی يكون هدفه النّهائی هو معرفة اللّه والقرب منه، فهو فی الحقيقة مجموعة من «العرفان» و «الأخلاق»، فما كان من «السّير والسّلوك الباطنی»، فهو نوع من «العرفان»، الذی يوصل الإنسان يوماً بعد يوم للذات الإلهيّة، ويرفع عن قلبه الحجب والأدران، ويمهد الطّريق إليه؛ وما كان من «السّير و السّلوك الخارجی»: فهو نفس الأخلاق التی تهدف لتهذيب النفوس، و ليس فقط لأجل الحياة الماديّة

المرفّهة.

۴- علاقة العلم بالأخلاق

بالنّسبة للآيات السّابقة و كما ذكرنا أنّ القرآن الكريم، أتى ب: «تعليم الكتاب والحكمة» إلى جانب: «التزكية والتّهذيب الأخلاقى»، فتارةً يقدِّم «التّزكية» على «التّعليم»، و اخرىٰ يقدِّم «التعليم» على التزكية، و هو أمر يُبيّن مدى العلاقة الوثيقة التى تربط بين الإثنين. وهذا يعنى أنّ الإنسان، عندما ينفتح على المعرفة، و تكون لديه خبرةٌ بالأعمال الحسنة والسيئة، ويعرف عواقب «الفضيلة» و «الرذيلة»، فممّا لا شكّ فيه أنّها ستؤثر فى تربيته، بحيث يمكن القول أنّ كثيراً من الرذائل ناتجة من عدم الإطّلاع والفهم. ومن ذلك يمكن القول؛ أنّه إذا ما إستطعنا أن ننهض بالمستوى العلمى للأفراد، وبعبارةٍ اخرى: إذا أمكننا نشر الثقافة بين الناس، فستحل الفضائل مكان الرّذائل، وإن كان هذا الأمر ليس كليّاً. ومع الأسف الشديد، نرى أنّ البعض بالغوا فيها لدرجة الإفراط والتّفريط. فبعض إتّبعوا الحكيم سُقراط اليونانى، حيث كان يعتقد بأنّ العلم والحكمة هى منشأ الأخلاق الحميدة، والرّذائل الأخلاقيّة منشؤها الجهل، ولذلك فإنّه كان يعتقد أيضاً أنّه ولأجل محاربة الفساد و الرّذائل الأخلاقية وإحلال الفضائل الأخلاقية محلّها، يجب العمل على رفع المستوى العلمى للمجتمع، و بالتّالى تتساوى (الفضيلة) مع (المعرفة). الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۹ هؤلاء يدّعون أنّه لا يوجد إنسان يتجه نحو الرّذيلة وهو على علم بها، وإذا ما شخّصَ الإنسان الفضيلة فسوف لن يتركها، ولذلك يتوجّب علينا كسب العلم، ومعرفة الخير وتمييزه من الشر لنا و لغيرنا، كى تزرع فى نفوسنا بذور الفضائل الأخلاقية!. وفى المقابل يوجد من ينفى هذهِ العلاقة بين الإثنين بالكامل، لأنّ العلم والذكاء للإنسان المجرم سيكون عاملًا مساعداً له فى إرتكاب جرائم أخطر، وعلى حدّ تعبير المثل الذى يقول: (إذا كان مع اللص مصباحاً فانه سوف ينتفى البضائع الجيدة). ولكن الحق و الإنصاف أنّه ليس بإمكاننا نفى تأثير العلم بالكامل، و لا نفى معلولية أحداهما للاخر. والشّاهد على ذلك المُثل الحيّة التى نراها فى المجتمع، فكثيراً ما شاهدنا اناساً كانوا يفعلون الرذائل، و عندما أدركوا قبح فعالهم ونتائجها السيئة، أقلعوا عنها و إتجهوا نحو الفضائل، ووجدنا هذا الأمر حتى فى وقتنا الحاضر هذا. وفى المقابل نعرف أشخاصاً عندهم المعرفة التامة بالخير والشرّ، ولكنهم يُصرّون على الشرّ و هو متأصل فى نفوسهم. و كلّ ذلك لأنّ الإنسان لديه بُعدان: بعد العلم و الادراك و بُعد عملى، وهو الميول والغرائز والشّهوات، و لأجل ذلك فساعةً يميل الى هذا، و ساعةً يُرجحُ ذلك. والذى يقول بأحد القولين، فانه يفترض أنّ الإنسان فيه بُعدٌ واحد لا أكثر، ويغفل عن وجود البعد الآخر. ونشير هنا إلى الآيات القرآنية التى وردت فى هذا الباب، و التى أكدت على التّأثير المتبادل بين عُنصر الجهل وسوء العمل، قال تعالى: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَانَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ؛» «۱». ويوجد شبيه لهذا المعنى فى سورة النساء: الآية (۱۷)، وسورة النحل: الآية (۱۱۹). ومن البديهى أنّ الجهل المذكور ليس هو الجهل المطلق الذى لا يوائم التوبة، بل هو مرتبةٌ من مراتب الجهل، فإذا إرتفع فسوف يهتدى الإنسان بعدها للطّريق القويم. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰ وذكرنا فى الجزء الأول من دورة نفحات القرآن أنّ الجهل هو السبب لكثير من الضلالات، فهو- الجهل- سبب للكفر وإشاعة الفساد والتعصب والعناد والتقليد الأعمى والفُرقة وسوء الظّن والجسارة و قلّة الأدب، و فى واحدةٍ يمكن القول، أنّ الجهل عامل لإفساد كثير من القِيم «۱». ومن جهة اخرى تُصرِّح الآيات الشريفة بوجود حالة العناد فى الإنسان، مع علمه بأنّه يتحرك فى طريق الظّلم والطغيان، مثل آل فرعون، حيث يتحدث عنهم القرآن الكريم: «وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً» «۲». وكذلك ما ورد بالنسبة إلى بعض أهل الكتاب، كما قال البارى تعالى: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» «۳». وورد هذا المعنى فى ما بعدها من الآيات «۴». وقد يكون المراد من الآية هو موضوع الكَذب، ولكنّه أيضاً يؤيّد مدّعانا، لأنّ قبح الكذب حكم به العقل و الشّرع، وهو من الامور الواضحة التى لا تخفى على أحد. فالحقائق والتجارب أثبتت، أنّ المعرفة والعلم بنتائج الأخلاق الرذيلة على الفرد والمجتمع، يمكنه أن يكون فى كثير من الموارد، عاملًا مهماً فى ردع الإنسان عن غيّه و الرّجوع إلى ساحة الصّواب، ولكن ومن جهة اخرى أيضاً نجد أنّ هناك من يعرف الرّذيلة حقَّ معرفتها؛ ولكنه يُصرّ عليها ويعاند

علی سلوک طریق الإنحراف، والطریقة الوسطی فی الحقیقة هی الجادّة وتنطبق علی الواقع أکثر.

۵- هل أن الأخلاق قابلة للتغییر؟

اشارة

إنّ مصیر علم الأخلاق وکلّ الأبحاث الأخلاقیة، یتوقف علی الإجابة عن هذا السؤال، إذ لولا قابلیتها للتغییر لأصبحت کلّ برامج الأنبیاء التربویّة و الکتب السماویّة، و وضع القوانین و العقوبات الرّادعة، لا فائدةٍ و لا معنی لها. فنفس وجود تلک البرامج التربویّة وتعالیم الکتب السماویّة، و وضع القَوانین فی المجتمعات البشریّة، هو خیر دلیل علی قابلیّة التغییر فی الملکات والسلوکیات الأخلاقیّة لدی الإنسان، وهذه الحقیقة لا یعتمدها الأنبیاء علیهم السلام فحسب، بل هی مقبولةٌ لدی جمیع العقلاء فی العالم. والأَعجبْ من هذا، و الغریب فیه؛ أنَّ علماء الأخلاق والفلاسفة ألّفوا الکتب الکثیرة حول هذا السؤال: «هل أنّ الأخلاق قابلة للتغییر أم لا»؟! فالبعض یقول: إنّ الأخلاق غیر قابلة للتغییر، فمن کانت ذاته ملوَّثة فی الأصل یکون مجبولًا علی الشرّ، وعلی فرض قبوله لعملیّة التّغییر، فإنّه تغییر سطحی، وسرعان ما یعود إلی حالته السّابقة. ودلیلهم علی ذلک، بأنّ الأخلاق لها علاقةٌ وثیقةٌ مع الرّوح و الجسد، و أخلاق کلُّ شخصٍ تابعة لکیفیة وجود روحه وجسمه، وبما أنّ روح وجسد الإنسان لا تتبدلان، فالأخلاق کذلک لا تتبدل ولا تتغیر. وفی ذلک یقول الشاعر أیضاً: إذا کان الطّباع طِباعَ سوءٍ فلا أدبٌ یفید ولا أدیبُ واستدلوا علی ذلک أیضاً، بمقولة تأثر الأخلاق بالعوامل الخارجیة؛ و أنّ الأخلاق تخضع لمؤثّراتٍ خارجیَّةٍ من قبیل الوعظ و النّصیحة و التأدیب، فبزوال هذهِ العوامل، تعود الأخلاق لحالتها الاولی، فهی بالضّبط کالماء البارد، الذی یتأثر بعوامل الحرارة، فعند زوال المؤثّر، یعود الماء لحالته السّابقة. و مما یؤسف له وجود هذا النّمط من التّفکیر و الإستدلال، حیث أفضی لتردی المجتمعات البشریّة و سُقوطها! الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲ أمّا المؤیدون لتغییر الأخلاق، فقد أجابوا علی الدّلیلین السّابقین وقالوا: ۱- لا یمکن إنکار علاقة الأخلاق وإرتباطها بالرّوح والجسم، ولکنه فی حدّ (المقتضی)؛ ولیس (العلّةَ التّامةَ) لها، و بعبارةٍ اخری یمکن أن تهیّیء الأرضیّة لذلک، لکن ذلک لا یعنی بالضّرورة أنّها ستؤثر تأثیراً قطعیّاً فیها، من قبیل مَن یولد من أبوین مریضین، فإنّ فیه قابلیةٌ علی الابتلاء بذلک المرض، ولکن وبالوقایة الصّحیحة، یمکن أن یُتلافی ذلک المرض من خلال التّصدی للعوامل الوراثیة المتجذرة فی بدن الإنسان. فالأفراد الضّعاف البَنیة یمکن أن یصبحوا أشداء، بالإلتزام بقواعد الصّحة و ممارسة الرّیاضة البدنیة، وبالعکس یمکن للأشداء، أن یصیبهم الضّعف و الهزال، إذا لم یلتزموا بالامور المذکورة أعلاه. و علاوةً علی ذلک یمکن القول؛ أنّ روح وجسم الإنسان قابلانِ للتغییر، فکیف بالأخلاق التی تعتبر من معطیاتهما؟ نحن نعلم، أنّ کلّ الحیوانات الأهلیّة الیوم، کانت فی یوم ما بَرّیّةً و وحشیّةً، فأخذها الإنسان وروّضها و جعل منها أهلیةً مطیعةً له، وکذلک کثیر من النّباتات والأشجار المثمرة، فالذی یستطیع أن یُغیّر صفات و خُصوصیّات النّبات والحیوان، ألا یستطیع أن یغیّر نفسه وأخلاقه؟ بل توجد حیوانات روّضِت، لِلقیام بأعمالٍ مخالفةٍ لطبیعتها، و هی تُؤدّیها بأحسن وجهٍ!. ۲- وممّا ذُکر أعلاه، یتبیّن جواب دلیلهم الثّانی، لأنّ العوامل الخارجیّة قد یکون لها تأثیرها القوی جداً، ممّا یؤدّی إلی تغیر خصوصیّاتها الذاتیّة بالکامل، و ستؤثر علی الأجیال القادمة أیضاً، من خلال العوامل الوراثیّة، کما رأینا فی مثال: الحیوانات الأهلیّة. ویقصّ علینا التأریخَ قصصاً، لُاناسٍ کانوا لا یراعون إلّاً ولا ذِمّةً، ولکن بالتّربیة و التّعلیم تغیّروا تَغیُّراً جَذریّاً، فمنهم من کان سارقاً محترفاً؛ فأصبح عابداً متنسّکاً مشهوراً بین الناس. إنّ التعرّف علی کیفیة نشوء الملکات الأخلاقیةِ السّیئة یعطینا القُدرة والفرصة لإزالتها، والمسألة هی کالتّالی: إنّ کلّ فعلٍ سیّءٍ أو حسنٍ یخلّف تأثیره الإیجابی أو السّلبی فی الروح الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۳ الإنسانیة، بحیث یجذب الروح نحوه تدریجیاً، و بالتّکرار سوف یتکرّس ذلک الفعل فی باطن الإنسان، ویتحول إلی کیفیّةٍ تسمی: (بالعادة)، وإذا إستمرت تلک العادة تحوّلت إلی

(مَلَكَةٍ). وعلى هـذا، وبما أنّ المَلَكات والعادات الأخلاقيّة السّيئة، تنشأ من تكرار العمل، فإنّه يمكن مُحاربتها بواسطة نفس الطّريقة، طبعاً لا يمكننا أن ننكر تأثير التّعليم الصّحيح والمحيط السّالم، فى إيجاد المَلَكات الحَسنة، و الأخلاق الصّالحة، فى واقع الإنسان وروحه. و هناك «قولٌ ثالثٌ»: و هو أنّ بعض الصّفات الأخلاقيّة قابلةٌ لِلتغير، وبعضها غير قابل، فالصّفات الطّبيعيّة و الفطريّة غير قابلةٍ لِلتغير، ولكنّ الصّفات التى تتأثّر بالعوامل الخارجيّة يمكن تغييرها «۱». وهذا القول لا دليل عليه، لأنّ التّفصيل بين هذهِ الصّفات، مدعاة لقبول مَقولة الأخلاق الفطريّة والطبيعيّة، والحال أنّه لم يثبت ذلك، وعلى فرض ثُبوته، فمن قال بأنّ الصّفات الفطريّة غير قابلةٍ لِلتغيّر والتّبدّل؟. ألم يتمكن الإنسان من تغيير طِباع الحيوانات البريّة؟. ألا يمكن لِلتربية و التّعليم، أن تَتجذّر فى أعماق الإنسان وتغيّره؟.

الآيات و الرّوايات التى يستدل بها، على إمكانيّة تغيّر الأخلاق:

ما ذكرناه آنفاً كان على مستوى الأدلة العقليّة و التّأريخيّة، و عند رجوعنا للأدلة النّقلية، يعنى ما وصل إلينا من مبدأ الوحى وأحاديث المعصومين عليهم السلام، سوف تتبيّن لنا المسألة من خلاله بصورةٍ أفضل لأنّه: ۱- إنّ الهدف من بعث الأنبياء و الرّسل و إنزال الكتب السّماوية، إنّما هو لأجل تربية وهداية الإنسان، وهذا أقوى دليل على إمكان التربية، و ترشيد الفضائل الأخلاقيّة لدى جميع أفراد البشر، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: «هُوَ الَّذى بَعَثَ فِى الْاُمِّيينَ رَسُولًا مِنْهُم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۴ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبْينٍ» «۱». وأمثالها من الآيات الكريمة التى تبيّن لنا أنّ الهدف من بعثة الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله: هو تعليم وتزكية كل اولئك الذى كانوا فى ضلالٍ مبينٍ. ۲- كلّ الآيات التى توجّه الخطاب الإلهى إلى الإنسان، مثل: «يا بنى آدم» و «يا أيّها النّاس» و «يا أيّها الإنسان» و «يا عبادى»، تشمل أوامر ونواهى تتعلق بتهذيب النّفوس، و إكتساب الفضائل الأخلاقيّة، و هى بدورها خير دليل على إمكانيّة تغيير «الأخلاق الرّذيلة»، و إصلاح الصّفات القبيحة فى واقع الإنسان، وإلّا ففى غير هذه الصّورة تَنتفى عُموميّة هذه الخطابات الإلهيّة، فتصبح لغواً بدون فائدةٍ. وقد يقال: إنّ هذهِ الآيات، غالباً ما تشتمل على الأحكام الشرعيّة، و هذه الأحكام تتعلق بالجوانب العمليّة و السلوكيّة فى حياة الإنسان، بينما نجد أنّ الأخلاق ناظرةٌ للصفات الباطنيّة؟ ولكن يجب أن لا ننسى أنّ العلاقة بين «الأخلاق» و «العمل»، هى: علاقة اللّازم و المَلزوم لِلآخر، و بمنزلة العلّة والمعلول، فالأخلاق الحسنة تُعتبر مصدراً للأعمال الحسنة، والأخلاق الرذيلة مصدراً للأعمال القبيحة، وكذلك الحال فى الأعمال، فإنّها من خلال التّكرار تتحول بالتّدريج، إلى ملكاتٍ و صفاتٍ أخلاقيّةٍ فى واقع الإنسان الداخلى. ۳- القول والإعتقاد بعدم إمكان التّغيير للأخلاق، مدعاة للقول و الإعتقاد بالجَبر؛ لأنّ مفهومها هو: أنّ صاحب الخُلق السّيء و الخُلق الحسن، ليسا بقادرين على تغيير أخلاقهم، وبما أنّ الأعمال و السّلوكيات تعتبر إنعكاساً للصفات والملكات الأخلاقيّة، ولِذا فمثل هؤلاء يتحرّكون فى سلوكياتهم من موقع الجَبر، لكننا نرى أنّهم مكلّفين بفعل الخيرات وترك الخبائث، وعليه يترتب على هذا القول جميع المفاسد التى تترتب على مقولة الجبر «۲». ۴- الآيات الصّريحة التى ترغّب الإنسان فى تهذيب أخلاقه، و تُحذّره من الرذائل، هى أيضاً دليلٌ محكمٌ على إمكانيّة تغير الصفات و الطّبائع الإنسانية، مثل قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۵ مَنْ زَكّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها» «۱». فالتّعبير بكلمة دَسّاها، والتى هى فى الأصل بمعنى: خلطُ الشيءِ بشيءٍ آخر غير مرغوب فيه من غير جنسه، مثل «دسّ الحنطة بالتراب»، يبيّن لنا أنّ الطّبيعة الإنسانيّة مجبولةٌ على الصفاء و النّقاوة و التقوى، و التلويث، و الرذائل تعرض عليها من الخارج وتنفذ فيها، والإثنان قابلان للتّغير والتّبدل. نقرأ فى الآية (۳۴) من سورة فُصّلت: «إِدْفَعْ بِالَّتى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ». تُبيّن لنا هذهِ الآية أنّ العداوات المتأصّلة و المتجذّرة فى الإنسان: بالمحبّة والسّلوك السليم، يمكن أن تتغير وتتبدل إلى صداقةٍ حميمةٍ بالتّحرك فى طريق المحبّة و السّلوكيات السليمة، ولو كانت الأخلاق غير قابلةٍ للتغير، لما أمكن الأمر بذلك. ونجد فى هذا المجال أحاديث إسلامية، تؤكّد هذا المعنى أيضاً، من قبيل الأحاديث التالية: ۱- الحديث المعروف الذى يقول: «إنّما بُعثتُ لُاتمم مكارم

الاخلاق» «۲» هو دلیل ساطعٌ علی إمکانیّة تغییر الصّفات الأخلاقیّة. ۲- الأحادیث الکثیرة التی تحث الإنسان علی حسن الخُلق، کالحدیث النّبوی الشریف الآتی: «لَو یَعلَمُ العَبدُ ما فِی حُسنِ الخُلقِ لَعَلِمَ أَنَّهُ یَحتاجُ أن یکونَ لَهُ خُلقٌ حسنٌ» «۳». ۳- و کذلک الحدیث النبوی الشریف الآخر حیث یقول: «الخُلقُ الحسنُ نِصفُ الدِّینِ» «۴». ۴- نقرأ فی حدیثٍ عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «الخُلقُ المَحمُودُ مِن ثِمارِ العَقلِ وَالخُلقُ المَذمُومُ مِن ثِمارِ الجُهلِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۶ وبما أنّ کلًا من «العلم» و «الجهلَ» قابلان للتغییر؛ فتتبعها الأخلاق فی ذلک أیضاً. ۵- وفی حدیثٍ آخر، جاء عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «إنّ العَبدَ لَیَبلُغُ بِحُسنِ خُلقِهِ عَظیمَ دَرجاتِ الآخِرَةِ وَشَرفِ المَنازِلِ وَأَنَّهُ لَضَعِیفُ العِبادةِ» «۱». حیث نجد فی هذا الحدیث، مقارنةً بین حُسن الأخلاق والعبادة، هذا أولًا. وثانیاً: إنّ الدرجات العُلی فی الآخرة تتعلق بالأعمال الإختیاریّة. وثالثاً: التّرغیب لکسب الأخلاق الحسنة، کلّ ذلک یدلّ علی أنّ الأخلاق أمرٌ إکتسابی، و غیر خارجة عن عنصر الإرادة فی الإنسان. مثیل هذهِ الرّوایات والمعانی القَیّمة کثیرٌ، فی مضامین أحادیث أهل البیت علیهم السلام، وهی إن دلّت علی شیءٍ فإنّها تدلّ علی إمکانیّة تغیّر الأخلاق، وإلّا فستکون لغواً وبلا فائدةٍ «۲». ۶- وفی حدیث آخر ورد عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، نقرأ فیه أنّه قال لأحد أصحابه و أُسمه جریر بن عبداللّه: «إنّک امرُءٌ قَد أحسنَ اللّهُ خَلقَکَ فأَحسِنْ خُلْقَکَ» «۳». وخلاصة القول أنّ روایاتنا ملیئةٌ بهذا المضمون، حیث تدلّ جمیعها علی أنّ الإنسان قادر علی تغییر أخلاقه «۴». ونختم هذا البحث بحدیثٍ عن الإمام علی علیه السلام، یحثّنا فیه علی حُسن الخلق، حیث قال علیه السلام: «الکَرَمُ حُسنُ السّجیةِ وَ إجتنابِ الدَّنِیّةِ» «۵».

أدلّة مُؤیّدی نظریة ثبات الأخلاق، و عَدم تغیّرها:

وفی مقابل ما ذکرناه آنفاً، إستدلّ البعض بروایاتٍ یظهر منها أنّ الأخلاق غیر قابلةٍ للتغییر، ومنها: ۱- الحدیث المعروف الوارد عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، حیث قال: «النّاسُ مَعادِنٌ کَمَعادِنِ الذَّهبِ وَالفِضَّةِ، خِیارُهُم فِی الجَاهِلیّةِ خِیارُهُم فِی الإسلام». ۲- الحدیث الآخر الوارد أیضاً عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «إذا سَمِعتُم أَنَّ جَبَلًا زالَ عَن مَکانِهِ فَصدِّقُوهُ، وَإذا سَمِعتُم بِرَجُلٍ زَالَ عَن خُلقِهِ فَلا تُصَدِّقُوهُ! فإنَّهُ سَیعُودُ إلی ما جُبِلَ عَلَیهِ» «۱».

الجواب:

إنّ تفسیر مثل هذهِ الروایات، و بالنّظر للأدلة السّابقة، و الروایات التی تصرّح بإمکانیة تغیر الأخلاق، لیس بالأمر العسیر، لأنّ النّقطة المهمّة والمقبولة فی المسألة، أنّ نفوس الناس بالطبع متفاوتة، فبعضها من ذَهبٍ و البعض الآخر من فضّةٍ، ولکنّ هذا لا یدلّ علی عدم إمکانیة تغییر هذه النفوس والطبائع. وبعبارةٍ اخری إنّ مثل هذهِ الصّفات النّفسیة فی حدّ المقتضی: لیس علّةً تامّةً، ولذلک رأینا وبالتجربة أشخاصاً تغیّرت أخلاقهم بالکامل، ویعود الفضل فی ذلک للتربیة والتعلیم. و علاوةً علی ذلک، إنّنا إذا أردنا أن نعمّم الحکم، فی الحدیث الشّریف، علی جمیع النّاس، فهذا یعنی أنّهم کلّهم ذَووا خُلقٍ حَسنٍ. فبعضهم حسنٌ و البعض الآخر أحسَن، (کما هو الحال فی الذّهب و الفضّة). و علیه فَلَن یبقی مکانٌ للأخلاق السّیئة فی طبع الإنسان. (فتأمّل). و بالنّسبة للحدیث الثانی، نری أنّ المسألة أیضاً هی من باب المُقتضی، و لیس علّةً تامّةً، أو بعبارة اخری إنّ الحدیث ناظرٌ لأغلبیة الناس، ولیس جمیعهم، وإلّا لخالف مضمون الحدیث، صریح التّأریخ، الذی حکی لنا قَصصاً حقیقیّةً عن أفرادٍ إستطاعوا تغییر أنفسهم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۸ وبقوا علی ذلک حتّی الممات. ولخالف أیضاً التّجارب الیومیّة، التی رأینا فیها الکثیر من الأشخاص الفاسدین، غیّروا طریقة حیاتهم بسبب التّعلیم و التربیة، و إستمروا یسیرون فی خطّ الهدایة و الصّلاح حتی الممات. و خُلاصة القول: أنّه وفی نفس الوقت الذی

تختلف فيه سَجايا النّاس، لا يوجد أحد مجبور على الرّذائل و الأخلاق السّيئة، وكذلك الحال بالنسبة للأخلاق الحسنة، فذَوُوا السّجايا الطيّبة إذا ما إتّبعوا هواهم، سيسقطون إلى الحضيض، وذَووا السّجايا الخبيثة، قادرون على بناء أنفسهم و ذاتهم، من موقع التّهذيب و التزكية، و الوصول إلى أعلى درجات الكمال الرّوحى. ويجب التّنويه إلى أنّ بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين، ولأجل توجيه أعمالهم المخالفة للطريق السّليم، يتذرّعون بحججٍ واهيةٍ من هذا القبيل؛ و أنّ اللّه تعالى قد جَبَلنا على ذلك الخُلق السّيء. وإن شاء أن يُغيّرنا لفعل؟! .... وعلى كلّ حال، فإن الإعتقاد بعدم إمكانيّة تغيير الأخلاق، ليس له نتيجةٌ إلّاالوقوع فى وادى الإعتقاد بالَجبر، ورفض ما دعا إليه الأنبياء، و القول بأنّ سعى علماء الأخلاق و أطّباء النفس فى إصلاح النفوس، هو سعىٌ غير مثمر، ويترتب على ذلك بالتّالى فساد المجتمعات البشرية.

۶- المَسار التّأريخى لِعلم الأخلاق

نختم البحث أعلاه، بشرح مقتضب للمسار التأريخى لعلم الأخلاق: فمما لا شك فيه أنّ الأبحاث الأخلاقية، ولدت مع أوّل قدم وضعها الإنسان على الأرض، لأن النّبى آدم عليه السلام لمْ يعلّم أبناءه الأخلاق فقط، بل إنّ البّارى تعالى، عندما خلقه وأسكنه الجنّة، أفهمه المسائل الأخلاقيّة و الأوامر و النّواهى، فى دائرة السّلوك الأخلاقى مع الآخرين. وآتخذ سائر الأنبياء عليهم السلام طريق تهذيب النّفوس والأخلاق، و التى تكمَن فيها سعادة الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۹ الإنسان، حتى وصل الأمر إلى السيّد المسيح عليه السلام، حيث كان القسم الأعظم من تعاليمه، هو أبحاثٌ أخلاقيّةٌ، فَنَعَته حواريّوه و أصحابه بالمعلِّم الأكبر للأخلاق. ولكن أعظم مُعلِّمى الأخلاق، هو: رسول اللّه صلى الله عليه و آله، لأنّه رفع شعار: «إنّما بُعثت لُاتمّم مكارَم الأخلاق». وقال عنه البارى تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «۱». ويوجد قديماً بعض الفَلاسفة، مَنْ لُقّب بمعلّم الأخلاق، مثل: إفلاطون، و أرسطو، و سُقراط، و جَمعٌ آخر من فَلاسفة اليونان. و على كلّ حال، فإنّه وبعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فإنّ الأئمّة عليهم السلام هم أكبر معلّمى الأخلاق، و ذلك بشهادة الأحاديث التى نُقلت عنهم، حيث ربّوا أشخاصاً بارزين يمكن أن يعتبر كلّ واحد منهم مُعلِّماً لعصرهِ. فحياة المعصومين عليهم السلام و أتباعهم، هى خيرُ دليلٍ على سُمّو نفوسهم، و رفعة أخلاقهم، فى حركة الواقع. ويبقى السّؤال فى أنّه متى تأسّس علم الأخلاق فى الإسلام، ومن هم مشاهيره؟. و هذا البحث مذكورٌ بالتّفصيل فى الكتاب القيّم: تأسيس الشّيعة لعلوم الإسلام، بقلم آية اللّه الشّهيد الصّدر قدس سره. ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما جاء فيه، حيث قسّم السيد الصدر الموضوع إلى ثلاثة أقسام: أ- يقول إنّ أوّل من أسّس علم الأخلاق، هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، (وذلك من خلال الرّسالة التى كتبها لإبنه الإمام الحسن عليه السلام) بَعد رجوعه من صفّين، حيث بيّن الاسس الأخلاقيّة، و تطرق للمَلكات الفاضلة و الصّفات الرذيلة، و حلّلها بأحسن وجهٍ «۲». و نقل هذهِ الرّسالة، بالإضافة إلى السيّد الرّضى فى نهج البلاغة، الكثير من علماء الشّيعة أيضاً. ونقلها كذلك بعض علماء أهل السُنّة، مثل: أبو أحمد بن عبداللّه العسكرى، فى كتابه الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰ الزّواجر والمواعظ، حيث أوردها كلّها وقال: (لو كانَ مِنَ الحِكمةِ ما يجب أن يُكتبَ بالذّهبِ لكانتْ هذِهِ). ب- أوّل من كتب كتاباً فى دائرة (علم الأخلاق)، هو: إسماعيل بن مهران أبو النصر السكونى، وهو من علماء القرن الثانى، و أسماه: المؤمن والفاجر، (و هو أوّل كتاب أخلاقى عُرف فى الإسلام). ج- بعدها يذكر بعض من أسماء أكابر العلماء فى هذا المجال، (وإن كانوا لم يألفّوا كُتباً فيها) مثل: «سلمان الفارسى»، حيث قال فى حقّه الإمام على عليه السلام: «سَلمانُ الفارسِى مِثلُ لُقمانِ الحَكيم، عَلِمَ عِلمَ الأوّلِ والآخرِ، بحرٌ لا يُنزفُ، وهو مِنّا أهلَ البيتِ» «۱». ۲- «أبوذَرْ الغَفارى»، و الذى بقىَ طويلًا يُروّج للأخلاق الإسلاميّة، و هو النّموذج الحىّ لها، والمشاحنات التى كانت بينه وبين الخليفة الثّالث «عَثمان»، و «معاوية»، فى المسائل الأخلاقيّة معروفةٌ لدى الجميع، حيث أودت بحياته، ومات فى سبيل ذلك الطّريق القويم. ۳- «عَمّار بن ياسِر»، و قد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام فى حقّه و حقّ إخوانه و أصحابه المخلصين، يبيّن منزلتهم الأخلاقية السّامية، فقال: «أينَ إخوانى الّذين رَكِبُوا الطَّريقَ وَمَضوا عَلَى الحَقِّ، أينَ عَمّارُ ... ثُمَّ ضَربَ يَدَهُ عَلَى لِحيَتِهِ الشَّريفَةِ الكَريمَةِ فأطالَ البُكاءَ، ثُمَّ قَالَ: اوَّهْ عَلى

إخوانى الَّذِينَ تَلَوا القُرآنَ فأحكَمُوهُ، وَتَدّبَرُوا الفَرضَ فأقامُوهُ، أَحْيَوا السُّنّةَ وأماتُوا البِدعَةَ» «۲». ۴- «نوف البكّالى»، كان مثال الزّهد و العبادة و حُسن الأخلاق، و توفّى بعد السّنة (۹۰) للهجرة. ۵- «محمد بن أبى بكر»، كان من خُلّص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ويحذو حَذو الإمام الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۱ فى الزّهد والعبادةِ و الأخلاق. ۶- «الجارود بن المنذر»، كان من أصحاب الأئمّة الرابع والخامس والسادس عليهم السلام، و من كبار العلماء فى العِلم و العمل، وله مقامٌ رفيعٌ جدّاً. ۷- «حذيفة بن المنصور»، كان من أصحاب الأئمّة: الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام، وقيل عنه: (أنّه أخذ عن اولئك العظام، وقد نبغ فى مكارم الأخلاق وتهذيب النفس). ۸- «عثمان بن سعيد العمرى»، هو أحد الوكلاء الأربعة للإمام المهدى عليه السلام، ومن أحفاد عمّار بن ياسر رحمه الله، وقالوا فيه: (ليس له ثانٍ فى المعارف والأخلاق والفقه والأحكام). و كثيرٌ من العظماء الّذين يطول ذكرهم. ونودُّ الإشارة إلى أنّ كثيراً من الكتب الأخلاقيّة، و على مدى التأريخ الإسلامى، قد كُتبت، ونذكر منها: ۱- من القَرن الثّالث، كتاب: «المانعاتُ من دخول الجنّة»، بقلم جعفر بن أحمد القُمى، و هو من كبار العلماء فى عصره. ۲- من القَرن الرّابع، كتاب: «الآداب» وكتاب «مكارم الأخلاق»، بقلم علىّ بن أحمد الكوفى. ۳- كتاب: «طهارة النّفس» أو «تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق»، بقلم إبن مَسكويه، و المُتوَفّى فى القَرن الخامس، فهو من الكتب المعروفة فى هذا المجال، وله كتاب آخر فى علم الأخلاق، و إسمه «آداب العرب والفُرس»، ولكن شهرته ليست كشهرة الكتاب المذكور آنفاً. ۴- كتاب: «تنبيه الخاطر و نزهةُ الناظر»، والذى عُرِف ب: «مجموعة ورّام»، أحد الكتب المعروفة أيضاً فى هذا المجال وكاتبه «ورّام بن أبى الفوارس»، من علماء القَرن السّادس الهجرى. ۵- و نرى فى القَرن السّابع كتابى: «الأخلاق النّاصرية و أوصاف الأشراف وآداب المتعلمين»، للشيخ خَواجة نصير الطّوسى رحمه الله، فكلّ واحد منها مَعلَم من مَعالم التّصنيف فى هذا المجال، فى ذلك القرن. ۶- وفى باقى القُرون نرى كتباً مثل: «إرشاد الديلمى»، «مصابيح القلوب للسبزوارى»، الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۲ «مكارم الأخلاق لحسن بن أمين الدين»، و «الآداب الدينية لأمين الدين الطّبرسى»، و «المحجة البيضاء للفيض الكاشانى»، و هو كتاب قيّم جداً فى هذا العلم، و: «جامع السّعادات» و «معراج السّعادة»، و كتاب: «أخلاق شبّر»، وكثير من الكتب الاخرى «۱». والمرحوم العلّامة الطّهرانى، أورد عشرات التّصانيف فى كتابه المعروف ب: «الذريعة» «۲». ويجب الإشارة إلى أنّ كثيراً من الكتب الأخلاقيّة، طُبعت بعنوان كتب: السير والسلوك إلى اللّه، والبعض الآخر طُبع بعنوان: الكتب العرفانيّة، و تطرّق البعض الآخر لمسائل الأخلاق فى فصل أو فصلين، ككتاب: «بحار الأنوار» و «اصول الكافى»، حيث يُعدّان من أفضل مصادر هذا العلم.

دور الأخلاق فى الحياة والحضارة الإنسانيّة

اشارة

يعتقد البعض من غير المطّلعين، أنّ المسائل الأخلاقيّة تمثل أمراً خاصاً فى حدود الحياة الشّخصية للإنسان، أو أنّها مسائل مقدّسة معنويّة، لا تفيد إلّافى الحياة الاخرويّة، وهو أشتباه محظ، لأن أكثر المسائل الاخلاقيّة لها أثرها فى واقع الحياة الإجتماعيّة للإنسان، سواء كانت ماديّة أم معنويّة، فالمجتمع البشرى بلا أخلاق، سينقلب إلى حديقةِ حيواناتٍ لا يُجدى معها إلّا الأقفاص، لِردع أفعال الحيوانات البشريّة عن أفعالها الضّارة، و ستُهدر فيها الطّاقات، وتحطّم فيها الإستعدادات، وسيكون الأمان والحريّة لعبة بيد ذوى الأهواء، وستفقد الحياة الإنسانية مفهومها الواقعى. وعندما نتحرى التأريخ، نرى أنّ كثيراً من الأقوام البشريّة قد حَلّ بهم البوار، وتمزقوا شرّ مُمَزّق نتيجةً لإنحرافاتهم الأخلاقيّة. وكم رأينا فى التأريخ حُكّاماً، عرّضوا شعوبهم لمصائب أليمةٍ و ويلاتٍ، نتيجةً لضعفهم الأخلاقى!!. وكم يوجد من امراء فاسدين وقيادات عسكريّة متعنّتة، عرّضوا حياة جنودهم للخطر الفادح، بسبب استبدادهم بالرّأى وعدم المشورة. والحقيقة أنّ الحياة الفرديّة للإنسان، لا لَطافةَ ولا شفافيّة لها بدون الأخلاق. ولن تصل العوائل إلى برِّ الأمان من دونها، ولكنّ الأهمَّ من ذلك هو الحياة الإجتماعيّة للبشر، فما لم الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۴ يتمسك أفراد المجتمع بالأخلاق،

فستكون نهايـة المجتمع أليمة وموحشة جدّاً. ولرب قائل يقول: إنّ السّعادة و التكامل فی واقع المجتمع البشری، يمكن أن يتحقّقا فی ظِلِّ العمـل بالقوانين و الأحكام الصّحيحة، من دون الإعتماد على مبادیء الأخلاق فی الفرد. و نقول له: إنّ العمل بالقوانين، من دون وجود قاعدةٍ متماسكةٍ من القِيم الأخلاقيّة لدى الفرد غير ممكن، لأنّه إذا لم يتوفر الدّاعی الذّاتی للإنسان، فالسّعی الظّاهری لن يُجدی نفعاً. فالقوّة و الضّغط من أسوأ الأدوات لتنفيذ القوانين و الضّوابط، و لا يصحّ إستعمالها إلّافی الضّرورات، وبالعكس فإنّ الإيمان و الأخلاق، يُعتبران من أفضل الأساليب لتنفيذ أيّة قرارات. بعد هذه الإشارة، نعود للآيات القرآنيّة الناظّرة إلى هذه المسألة المهمّة، لنستوحی منها بعض المعانی فی هذا المجال: ۱- «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ آتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَاخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» «۱». ۲- «وَلا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ إِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَاذَا الَّذی بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِيمٌ وَ ما يُلَقّاها إِلّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۲». ۳- «فَبِما رَحْمةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَآسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِی الأَمْرِ فَاذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» «۳». ۴- «وَما أَرْسَلْنا فِی قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنّا بِما اُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» «۴». ۵- «وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِی الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قالَ إِنَّما اوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدی أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ... يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» «۵». ۶- «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُم مِدْراراً- وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً» «۶». ۷- «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْانْجِيلَ وَما انْزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَبِّهِمْ لَاَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ امَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ» «۷». ۸- «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ انْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» «۸». ۹- «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْری فَانَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» «۹». ۱۰- «وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» «۱۰».

تفسير و إستنتاج:

«الآية الاولى : تكلّمت عن الرّابطة بين بركات الأرض و السّماء و بين التّقوى حيث يُصرّح فيها بأنّ التّقوى سبب البركات التی تنزل من السّماء على الناس، وبالعكس فإنّ عدم التّقوى و التّكذيب بآيات اللّه، سبب لنزول العذاب: «وَلَوْ أَنَّ اهْلَ الْقُری آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَآلْارْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَآخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ». فبركات الأرض و السّماء لها معنى وسيع جداً، بحيث يشمل: نزول الأمطار، و إنبات النّباتات، و كثرة الخيرات، وكثرة القوى البشريّة. «البركة»: أصلها الثّبات و الإستقرار، و بعدها اطلقت على كلّ نِعمةٍ و موهبةٍ تبقى ثابتةً لا تتغير، و لذلك فإنّ الموجودات غير المبارك فيها، تكون غير ثابتةٍ و تفنى بسرعةٍ. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۶ إن الكثير من الامم لديها إمكاناتٌ ماديّةٌ كبيرةٌ، و معادن و مصادر للثروة تحت الأرض، و كذلك لديها أنواع الصّناعات، ولكن بسبب أعمالهم السيئة و التی لها علاقة مُباشرة بإنحطاطهم الأخلاقی، فإنّ تلك المواهب والمنن الإلهيّة، ستتعرض للإهتزاز وتفقد البركة فی مضمونها الإجتماعی، حيث تُستعمل تلك النعم الإلهيّة فی الغالب، لتعجيل فنائهم وزوال نعيمهم من موقع النقمة الإلهيّة. وقد صرّح القرآن الكريم بذلك، حيث قال فی سورة التوبة فی الآية (۸۵): «وَلا- تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيْدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِی الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ» نعم إنّ هذه النِّعم إذا إقترنت بفساد الأخلاق، فستكون سبباً لعذاب الدنيا و خُسران السّعادة فی الآخرة!. و بعبارةٍ اخرى إذا إقترنت هذه المواهب الإلهيّة، بالإيمان والأخلاق والقيم الإنسانية، فستجلب الرّفاه و السعادة و العمران للمجتمع البشری، وهذا هو الشّیء الذی تُشير إليه الآية الآنفة الذّكر. وبالعكس فيما لو سلك الإنسان معها، اسلوب البُخل و الظُّلم و الإستبداد، و سوء الخُلق و إتّباع الأهواء، فستكون من وسائل الإنحطاط و الفساد و الإنحراف!. «الآية الثانية»: تتحرك فی إطار بيان طريقةٍ مُهمّةٍ و مُؤثرةٍ جداً لدفع العداوات والضّغائن، وتوضّح أيضاً دور الأخلاق فی إزالتها: «إِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَاذَا الَّذِی بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِيمٌ». ويضيف قائلًا: إنّ هذا الأمر، أی سِعة الصّدر، أمرٌ لا يقدر عليه كلّ أحد، بل يختصّ بها من

اوتى حظّاً عظيماً من الإيمان و التّقوى، فيقول: «وَما يُلَقّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيْمٍ». إنّ إحدى المشاكل الكبيرة للمجتمعات البشريّة، هى تراكم الحقد و الكراهيّة فى النفوس، وفى حال وصولها الذّروة، فإنّ من شأنها أن تفضى إلى إشعال نيران الحروب، التى تحرق معها الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۷ كلّ شىء وتحوله إلى رماد. ومع تحرك الإنسان من موقع: «إدفع بالّتى هى أحسن»، فستذوب الأحقاد و الكراهيّة كالثّلج فى الصّيف، وستتخلص المجتمعات البشريّة من خطر الحروب، و تقلّ الجنايات، و تنفتح البشريّة على أجواء المحبّة و التعاون و التّكامل الإجتماعى. وكما يقول القرآن الكريم،: إنّ هذا المستوى الأخلاقى لا يصدر من كائن من يكن، حيث يتطلب قوّة الإيمان و التّقوى والتربية الأخلاقيّة. ومن الطبيعى أنّ الخُشونة إذا ما قابلتها الخُشونة، و السّيئة دُفعت بالسّيئة، فستطّرد هذه السّلبيات وتتوسع يوماً بعد يوم، و بالتّالى ستجر الويلات و المآسى على المجتمع البشرى. ومن البديهى أنّ: (مسألة إدفع بالّتى هى أحسن)، لها شروطٌ و حدودٌ و إستثناءاتٌ، سنشرحها بالتّفصيل فى المستقبل إن شاء اللّه. «الآية الثالثة»: تحدثت عن تأثير حُسن الخُلق فى جلب و جذب الناس، وبيّنت أنّ المدير المتخلق بالأخلاق الإلهيّة إلى أىّ حدّ يكون موفقاً فى عمله، وكيف يجمع القلوب المُتنافرة و يوحّدها التوحيد الذى يصعد بها إلى الرّقى و الكمال الإجتماعى: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوْا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِى الْامْرِ فَاذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ». ففى هذه الآية، نرى التّأثير العميق لحسن الأخلاق فى تقدّم أمر الإدارة، و جلب و جذب القلوب و وحدة الصّفوف، و النّجاح على مُستوى التّفاعل الإجتماعى لأفراد المجتمع؛ فأثر حسن الأخلاق لا يتحدّد بحدود البُعد الإلهى والمعنوى فقط، بل له آثاره الوسيعة فى حياة الإنسان الماديّة. و الأوامر الثّلاثة التى جاءت فى ذيل الآية، يعنى مسألة: «العَفو عن الخَطأ» و «طلب المغفرة من البارى تعالى» و «المشورة فى الامور»، هى أيضاً تصبّ فى دائرة تفعيل عناصر الأخلاق فى النّفس، لأنّ تلك الأخلاق النّابعة من الرّحمة و التّواضع، تكون سبباً للعفو و الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۸ الإستغفار وتصحيح الأخطاء السّابقة، و إحترام شخصيّة و وجود الإنسان أيضاً. «الآية الرابعة»: تبيّن الآثار السّلبية لبعض الأخلاق السيئة، حيث يقف فى مقابل الأنبياء الإلهيين، جماعة من المترفين، و هم المُنعّمين الذين ملأ الكبر والأنانيّة أنفسهم ووجودهم: «وَما أَرْسَلْنا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلّا قالَ مُتْرَفُوها إِنّا بِما ارْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ». وبعدها يعقّب قائلًا: أنّ الغُرور وصل بهم إلى درجةٍ كبيرةٍ، فقالوا: «وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ». فمثل هذه الأخلاق القبيحة، تُعدّ سبباً فى التّصدى للإصلاح الإجتماعى، على مُستوى قتل رجال الحقّ، و خنق أصوات طلّاب الحقيقة، وبالتالى زرع بذور الفساد و الظّلم والطغيان فى المجتمعات، وهنا يتّضح نموذج آخر من آثار الأخلاق السّيئة فى المجتمعات البشريّة. والعجيب فى الأمر، أنّ روحيّة الإستكبار النّاشئة من الرّفاه المادى و سبوغ النّعمة، هى السّبب فى التّورط فى مُستنقع الخطيئة و إرتكاب أخطاء فاضحة جدّاً، فإعتقدوا بأنّ وفور النّعمة و كثرتها، هو دليل للقرب الإلهى، وقالوا: لولا قُربنا من اللّه تعالى لما آتانا تلك النّعم!؟. و بذلك أنكروا جميع القيم الأخلاقيّة و المعنويّة، ولكنّ القرآن الكريم فى الآية التاليّة يُفنّد منطقهم الواهى، و يجعل المعيار هو الإيمان والعمل الصّالح. فلم يكن موقف المترفين المشركين من قُريش بالوحيد فى عصرهم، فهذا هو موقف جميع المترفين فى الأقوام السّالفة مع الأنبياء والمصلحين. «الآية الخامسة»: تنظر لوجهٍ آخر من المسألة، و تبيّن قصّة «قارون» الغنى المغرور والأنانى و هو من بنى إسرائيل. فعندما نصحه أهل العلم والمعرفة من قومه، و قالوا له: «وَابْتَغِ فِيما أتاكَ اللَّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۹ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» و قال و بكلّ تكبر و غُرور: «قالَ إِنَّما اوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى». يعنى أنّ اللّه لا دخل له فى وفور النّعمة علىّ، ولكنّ علمى ودرايتى بالامور هى السّبب فى ذلك؛ وهكذا أودى به الكِبر و الغُرور إلى السّقوط فى وادى إنكار الآيات الإلهيّة، و بالتّالى التّحرك من موقع التعاون مع أعداء الحقّ و العدالة، و فى لحظةٍ وحادثةٍ عجيبةٍ، خُسِفَت به وَ بأمواله الأرض. وهنا نرى كيف أنّ الرّذائل الأخلاقيّة، بإمكانها تغيير وجوه الأشخاص و المجتمعات، و منعهم من الوصول إلى الخير والسّعادة. و الطّريف فى الأمر، أنّنا نقرأ فى الآيات التى قبلها، بأنّ قومه قالوا له: «إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللّه لا يُحِبُّ الفَرِحينَ». ومن البديهى أنّ الإسلام لا يعارض الفرح و السّرور، ولكنّ المقصود هنا الفرح النّاشىء من

الغَفلة و الغرور و نِسیان اللّه تعالی، و المقترن بالظّلم و الفساد و مُمارسة الخطیئة والذی بدوره یجرّ الإنسان لِلعربدة و الجُموح والفساد، وکلّ ذلک منشؤه الصّفات القبیحة التی تضرب بجرانها فی القلب. «الآیة السادسة»: نقرأ فیها شکوی النّبی نوح علیه السلام إلی الباری تعالی، فنری فی طیّاتها معانٍ تُشیر إلی تأثیر أعمال الإنسان، و الأخلاق التی تدعم تلک الأعمال، فی الحیاة الفردیّة و الإجتماعیّة للإنسان، فیقول: «فَقُلْت اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُم إِنَّهُ کانَ غَفّاراً* یُرْسِلِ السَّماءَ عَلَیکُم مِدْراراً* وَیُمْدِدکُم بِأَمْوالٍ وَبَنَینَ* وَیَجْعَلْ لَکُم جَنَّاتٍ وَ یَجعَلْ لَکُم أَنهاراً». وفی الإستمرار فی قراءة تلک الآیات، نری عصیانهم وتمرّدهم علی الأوامر الإلهیّة، وکذلک تبیّن الآیات صفاتهم القبیحة، و التی هی بمثابة المَنبع الآسن الذی یمدهم بالذّنوب. ویمکن القول أنّ ما ذُکر آنفاً، هو العلاقة المعنویّة و الإلهیّة بین الإستغفار وترک الذنوب، و بین زیادة النعم، ولا یوجد منع من سرایة هذه العلاقة لتشمل البُعد الظّاهری و البُعد المعنوی، لذلک نقرأ فی آیةٍ اخری من القرآن الکریم: «ظَهَرَ الفَسادُ فِی البَرِّ والبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیدِی النّاسِ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۰ وقد ورد هذا المعنی فی سورة هود بشکل آخر علی لسان الرسول صلی الله علیه و آله، فی خطابه لُمشرکی مکّة: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَیهِ یُمَتِّعْکُم مَتاعاً حَسَناً إِلی أَجَلٍ مُسَمّیً» «۱». لا شک أنّ التّمتع «بالمتاع الحسن»، لأجلٍ مُسمّی، هو إشارةٌ إلی المواهب المادیّة الدنیویّة، فهی رهینة الإستغفار و التّوبة من الذّنب، و العودة إلی الباری تعالی، و التّخلق بالأخلاق الحسنة. ولا شکّ أنّ الصّفات القبیحة هی الأساس والأصل لأنواع الذّنوب، و الذّنوب بدورها سبب لنشر الفساد فی المجتمع وتفکیک لِعُری الوحدة، و أواصر الصّداقة و الاخوّة والإعتماد بین الناس، و بالتّالی التّأخر فی العُمران و النّمو الإقتصادی و الرّفاه المادی، و التّکامل المعنوی وسلامة النّفوس. وفی «الآیة السابعة»: إشارةٌ إلی حالة أهل الکتاب وعصیانهم وطغیانهم، فیقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْانْجیلَ وَما انْزِلَ إِلَیهِمْ مِن رَّبِّهِمْ لَاکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ امَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَکَثِیرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما یَعْمَلُونَ». ونری هنا أیضاً تقریراً، للعلاقة الوطیدة بین العمل الصالح و التّقوی من جهةٍ، و نزول البرکة السّماویة والأرضیة من جهةٍ اخری، وهذه العلاقة یمکن أن تحمل الجانب المعنوی أو الطّبیعی، أو بالأحری الإثنین معاً. نعم فإنّ الفیوضات الإلهیّة لا حدّ لها، ویتوجب علینا تحصیل الأهلیّة و القابلیّة، لنتصل بالمصدر الأصلی للفیض، ولکن الإفراط و التّفریظ و العُدول عن جادّة الإعتدال و التّوازن، سوّدت وجه الحیاة الإنسانیّة، و سلبت منها الراحة. فالحروب المدمّرة تعرّی النفوس الإنسانیّة من الفضیلة و الصّلاح، و تُزهق الثّروات المادیّة و المعنویّة، و تفضی بالإنسان إلی الزّوال. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۱ و جُملة: «وَما انْزِلَ إِلَیهِمْ مِن رَّبِّهِمْ»، تعنی کلّ الکتب السّماویة، و من جُملتها القرآن الکریم، وذلک لأنّ اصولها فی الواقع واحدةٌ، رغم أنّه وبمرور الزّمان، و حرکة المجتمع الإسلامی فی خط التّکامل و التّطور، نزلت أوامر وأحکام أکثر تطوراً من السابق. «الآیة الثامنة»: نستوحی منها تعبیراً جدیداً عن علاقة الحیاة الطیبة بالأعمال الصالحة، (و الصّفات التی هی منشأ لتلک الأعمال)، فتقول الآیة: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ انْثی وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاةً طَیِّبَةً وَلَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ». الآیات السّابقة، کانت تؤکّد علی تأثیر الأخلاق علی آفاق وأبعاد حرکة الإنسان فی الحیاة الإجتماعیة، وفی الآیة هذه نجد أنّها تتناول الحیاة الفردیة، فیذکر فیها أنّ کلّ إنسانٍ من ذکر و انثی، إذا ما آمن وعمل صالحاً فسیحیی حیاةً طیّبةً. ولا نری فی هذه الآیة أیّةَ إشارةٍ إلی أنّ «الحیاة الطیّبة» محدودةٌ بیوم القیامة فقط، بل تشیر ظاهراً إلی (الحیاة الطیّبة) فی الدنیا، أو تستوعب المفهوم العام للحیاة فی الدنیا والآخرة. ولکن ما هی الحیاة الطیّبة؟ إختلف المفسّرون فی تفسیر معنی الحیاة الطیّبة، فبعض فسّرها باللقمة الحلال، وقال آخر أنّها القناعة والرضا بما قسمه اللّه تعالی، وقال البعض أنّها العبادة مع لقمة الحلال، و قال آخرون أنّها التّوفیق لطاعة اللّه تعالی، و تبنّی آخرون تفسیرها بالنّظافة من جمیع الأوساخ والأدران، مثل الظّلم و الخیانة والعدوان و الذلّة و الطّهارة و النّظافة و الرّاحة، فکلّها تندرج تحت ذلک المفهوم، ولکن بالنّظر إلی جملة: «وَلَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ»، النّاظرة للأجر الاخروی، یتبیّن أنّ المقصود من کلمة «الحیاة الطیّبة»، هو الإشارة للحیاة السّلیمة فی هذه الدنیا. «الآیة التاسعة»: تقرر أنّ الإعراض عن ذکر اللّه تعالی و الغفلة عنه، هو السّبب فی ضَنک العیش وصعوبة الحیاة، فیقول الله تعالی «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْری فَانَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۲ وَنَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ أَعْمی» و نعلم أنّ ذکر اللّه و معرفة اسمائه و صفاته المقدسة، هو منبع لکلّ الکمالات، بل هو عَین

الکمال، فذِکره سبب لتربیه وترشید الفضائل الأخلاقیّة فی واقع الإنسان، و الصّعود به إلی آفاقٍ معنویّةٍ ساميةٍ، فی عالم التّخَلّق بالأسماء و الصّفات الإلهیّة، و هذا الخُلق هو مصدر الأعمال الصّالحة، و هو السّبب فی الإنفتاح علی الحیاة السعیدة وتطهیرها، و بالعکس، فإنّ الإعراض عن ذکر اللّه تعالی، یبعده عن مصدر النّور الإلهی، و یقترب به من الخُلق الشّیطانی و الجوّ الظّلمانی، ممّا یؤدی بالإنسان إلی أن یعیش ضنک العیش، و ینحدر فی مُنزلق النّهایة المأساویّة فی حرکة الحیاة، وهذه هی آیةٌ اخری تبیّن بصراحةٍ، علاقة الإیمان والأخلاق مع الحیاة الفردیة و الإجتماعیة للبشر. وقد فسّر بعض أرباب اللّغة، کلمة «معیشةٍ ضنکا»: بالحیاة والمعیشة التی یتکسّب فیها من الحرام، لأنّ مثل هذه المعیشة، هی سبب القَلق و الإضطراب الرّوحی فی کثیر من الامور. و علی حدّ تعبیر بعض المفسّرین: إنّ الأفراد غیر المؤمنین، یغلب علیهم الحِرص الشّدید فی امور الدنیا، و عندهم عطشٌ مادی لا ینفذ، وخوف من زوال النّعمة، ولأجل ذلک یغلب علیهم البخل، و الصّفات الذّمیمة الاخری التی تضعهم فی نارٍ محرقةٍ من الآلام الروحیّة و الضّغوط النفسیة، (بالرغم من توفر الإمکانات المادیّة الکثیرة عندهم). و عندما یعیشون العمی فی الآخرة؛ فإنّما هو بسبب العمی فی هذه الدنیا عن السیر فی طریق الحقّ و السّعادة، وغرقهم فی ظلمات الشّهوات المادیّة. وسنشرح فی نهایة هذا القسم هذه المسألة شرحاً وافیاً. «الآیة العاشرة»: تتطرق لأحد الآثار السّیئة للعداوة و النّزاع، الموجب لتدمیر عُری الوحدة و مُصادرة القوّة والقدرة، فتقول: «وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِیحُکُمْ». ومن البدیهی أنّ المنازعات و الإختلافات فی حرکة الواقع الإجتماعی، إنّما هی من إفرازات الأخلاق الرّذیلة المنحطّة الکامنة فی أعماق النّفس البشریّة مثل: الأنانیّة، التکبر، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۳ الحرص، الحقد، الحسد، وأمثال ذلک من عناصر الشرّ والإنحراف، و یترتب علی ذلک توکید عناصر الفشل و الإنحطاط، وزوال عناصر العزّة والقوّة من واقع المجتمع البشری. والجدیر بالذّکر، أنّ القُرآن عبّر هنا ب: «تذهب ریحکم». «الریح» فی الأصل بمعنی «الهواء»، و هی کنایة عن: «القدرة و القوّة والغلبة»، و یمکن إستیحاء هذا المعنی من أنّ الرّیح عندما تُحرّک رایات القبیلة؛ فانّه یُعدّ مظهراً للقوّة و الغَلبة، وعلیه یکون مفهوم الجُملة؛ أنّ الإختلاف هو سبب زوال قوّتکم وعظمتکم وقدرتکم. أو أنّ المفهوم مقتبس من هبوب الرّیاح الموافقة، و التی هی سبب فی سرعة حرکة السّفن للوصول إلی المکان المقصود، و مع إنعدامها تتوقف الحرکة. ویقول صاحب «التّحقیق»: یُوجد علاقة بین الرّوح و الرّیح، فالرّوح ما یحدث فی ما وراء الطّبیعة، و الرّیح بمعنی الحدوث فی الطّبیعة. وجاءت کلمة «ریح» فی بعض الموارد، بمعنی العَطر الجمیل، مثل: «إنّی لأجِدُ رِیحَ یُوسُفَ لَولا أنْ تُفَنِّدُون» «۱». وعلی هذا یمکن القول أنّ معنی الجملة هو: أنّ الإتحاد یفضی إلی إنتشار نفوذکم ورائحتکم فی العالم، وإذا ما إختلفتم، فستفقدون نُفوذکم فی العالم. وعلی أیّة حال فأیّاً کان السّبب فی الإختلاف، سواء کان: (الأنانیّة، الإنتفاعیّة، الحسد، البخل، والحقد و غیرها)، فسیکون له الأثر السّلبی فی الحیاة الإجتماعیّة و تخلّفها، ومن هنا تتجلی علاقة المسائل الأخلاقیة بالمسائل الإجتماعیة فی حرکة الواقع الإجتماعی للبشر.

النتیجة:

نستوحی من الآیات الآنفة الذّکر، أنّ الخُلق السّامی الإنسانی، لا یقتصر تأثیره علی السّلوک المعنوی والاخروی للإنسان فحسب، بل له الأثر الکبیر فی الحیاة المادیّة و الدنیویّة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۴ للبشر، وعلیه لا ینبغی أن نتصور أنّ المسائل الأخلاقیّة، مُنحصرة بالفرد وَحده علی حساب الحیاة الإجتماعیة، بل العکس صحیح؛ فالأخلاق علی علاقة قویّة و وطیدة مع الحیاة الإجتماعیّة، و أیّ تحوّل إجتماعی فی واقع الحیاة البشریة، لا یمکن أن یحصل إلّاعلی أساس التّحول الأخلاقی. وبتعبیر آخر: إنّ النّاس الذین یعیشون فی مجتمع کبیر، و یرغبون فی حیاةٍ سعیدةٍ مقرونةٍ بالسّلم والتعاون المشترک، یجب علیهم علی الأقل أن یَصِلوا إلی رُشدٍ أخلاقی، یدرکون معه الحقائق المتعلقة بإختلاف أفراد الإنسان فکراً وروحاً و عاطفةً، لأنّ الأفراد یختلفون عن بعضهم البعض، فلا نتوقع أبداً من الآخرین أن یتبعونا فی کلّ شیء، والمهم فی المسألة هو السّعی فی الحفاظ علی الاصول المشترکة بین المجتمع، و إختلاف الأذواق والأفکار یجب التّجاوز عنه، إلی حیث اللّیونة و الحلم و سِعة الصّدر و النّظر إلی المستقبل، فلا یمکن لنفرین أن یُجسّدا بینهما تعاوناً

حقیقیاً فی حرکة الحیاة ولمدّةٍ طویلةٍ، إلّابعد التحلّی بأحد الاصول الأخلاقیّة الآنفة الذّکر. ومن البدیهی أنّ التّهیؤ الأخلاقی لهضم نقاط الإختلاف، و الوصول إلی الوحدة والقدرة و العظمة، هو أمر لازم وضروری، وهو أمر لا یتحقق بالکلام فقط، بل یحتاج إلی تهذیبٍ و تعلیمٍ و تربیةٍ لنفوس الأفراد، کی یصل المجتمع إلی النّمو و التّکامل فی المجالات الأخلاقیة.

علاقة الحیاة المادیّة بالمسائل الأخلاقیّة فی الرّوایات الإسلامیّة:

ما إستفدناه من الآیات القرآنیة فی الموضوع الآنف الذّکر، له أصداءٌ واسعةٌ فی الرّوایات الإسلامیّة أیضاً؛ حیث یحکی عن التّأثیر العمیق للصفات الأخلاقیّة فی الحیاة الفردیّة و الاجتماعیّة، ونشیر إلی قسمٍ منها: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۵ ۱- نقرأ فی حدیثٍ عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «فِی سِتّعةِ الأخلاقِ کُنُوزُ الأرزاقِ» «۱». ۲- ورد فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصّادق علیه السلام، قال: «حُسنُ الخُلقِ یَزیدُ فی الرِّزقِ» «۲». ۳- ورد فی حدیثٍ آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام: کیف أنّ الأخلاق الحسنة تُؤثّر فی جلب النّاس و تحکیم أواصر الصّداقة بینهم: «مَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ کَثُرَ مُحِبُّوهُ وَآنَسَتِ النُّفُوسُ بِهِ» «۳». ۴- ورد فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، یتطرّق فیه إلی هذا المعنی بصراحةٍ أکثر، فیقول: «إِنَّ البِرَّ وَحُسنَ الخُلقِ یَعْمُرانِ الدِّیارَ وَیَزیدَانِ فِی الأَعمَارِ» «۴». ولا شکّ أنّ تصاعد العمران وتماسک المجتمعات، یکون من خلال الإتحاد و التعاون بین أفراد المجتمع وطوائفه المختلفة، و کلّ ما یؤدّی إلی تقویة روح الاتحاد و التّعاون بین الناس، یُعتَبر من العوامل المهمّة فی تحکیم المرتکزات الأساسیّة لبقاء المجتمع، و تفعیل حرکة العمران فیه، وبالنسبة إلی طول العمر، نجد أنّه معلول غالباً، إلی الحیاة الهادئة والبعیدة عن حالات القلق و الإضطراب، و فی ظلّ التّعاون المشترک بین الأفراد. و کلّ هذه الامور تُعدّ من معطیات الأخلاق الحسنة فی حرکة الإنسان والحیاة. ۵- وفی هذا المضمار ورد فی حدیثٍ عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، قال: «حُسنُ الخُلقِ یُثبِّتُ المَوَدَّة» «۵». وتوجد أیضاً أحادیث مُتعدّدة، تحکی عن تأثیر سوء الخُلق فی إیجاد الکراهیّة فی النفوس، و توهین الرّوابط بین الأفراد، و أنّه یورث النّفور و التّشتّت وضنک المعیشة وسلب الرّاحة و الطّمأنینة. ۶- ورد فی حدیثٍ عن الإمام علی علیه السلام: «مَنْ ساءَ خُلْقُهُ ضاقَ رِزقُهُ» «۶». ۷- وجاء فی حدیثٍ آخر أیضاً عن علی علیه السلام، أنّه قال: «مَنْ ساءَ خُلْقُهُ أَعْوَزَهُ الصَّدِیقُ والرَّفِیقُ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۶ ۸- وجاء أیضاً عن علی علیه السلام: «سُوءُ الخُلقِ نَکدُ العَیشِ و عَذَابُ النَّفسِ» «۱». ۹- سأل الإمام علی علیه السلام: مَنْ أدومُ النّاسِ غَمّاً، قال: «أَسوَؤهم خُلقاً» «۲». ۱۰- وأخیراً نورد نصیحة لقمان الحکیم لإبنه، و هی: «وإِیّاکَ والضَّجَرِ وَسُوءُ الخُلقِ وَقِلَّةِ الصَّبرِ فَلا یَسْتَقِیمُ عَلَی هذِهِ الخِصالِ صاحِبٌ» «۳»

المذاهب الأخلاقیّة

اشارة

یوجد فی علم الأخلاق مذاهبٌ کثیرةٌ، إنحرف أکثرها، و آلَ بها الأمر إلی مُخالفة الأخلاق، فمعرفتها لیس بالأمر الصّعب و خصوصاً فی ظِلّ الهدی القُرآنی؛ فیقول القرآن الکریم: «وأنَّ هذا صِراطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُم عَنْ سَبِیلِهِ ذلِکُمْ وَصَّاکُم بِهِ لَعَلَّکُم تَتَّقُونَ» «۱». فأتت هذه الآیة، بعد ذکر قسمٌ مهمٌّ من العقائد والبرامج العملیّة و الأخلاقیّة فی الإسلام، و قد تضمّنت عشرة أوامر إسلامیّة، جاءت لِتوصی المسلمین بأن یتحرکوا فی العقیدة فی خط الإستقامة، بعیداً عن السّبل الاخری التی تورثهم الفُرقة و الإنحراف، عن خطّ الإیمان باللّه تعالی. المذاهب الأخلاقیّة مثلها مِثلُ سائر المناهج الفردیة الإجتماعیة، فهی تستمد اصولها من النّظرة الکلیّة لمفهوم العالم، وهذان المفهومان: «الأخلاق والنظرةالکونیة»، منسجمان و مرتبطان مع بعضهما بصورة وثیقة جدّاً، فالّذین یفصلون: «معرفة العالم»، النظریّة عن الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۴۸ الأخلاق والأوامر والنواهی الأخلاقیة للعقل العملی، وینکرون

أیـة علاقـة بینهمـا، إنطلاقـاً من أنّ معرفـة العـالم و الکائنات الطبیعیّـة تعتمـد علی الـدلائل المنطقیّـة و التجریبیّـة، والحال أنّ «الأوامر» و «النّواهی» الأخلاقیـة، هی سلسـلة من القضایا تحکم السّـلوک، فهؤلاء أغفلوا نقطةً مهمةً، ألا وهی أنّ الأوامر الأخلاقیّة تصـبح حکیمةً، إذا ما کوّنت لها علاقةً بالعالم الخارجی، و إلّافستکون اموراً اعتباریةً فارغةً و غیر مقبولةٍ، ویوجد هنا أمثلةٌ واضحةٌ تبیّن المطلب بصورةٍ جیّـدةٍ: عنـدما یُصـدر الإسـلام حکماً ب: «حرمـة شـرب الخمر»، أو فی القوانین الدولیّـة: حول «خطر المخدرات»، فهذه أوامر إلهیّة أو بشـریّة إسـتمدت اصولها من سلسـلة الکائنات الواقعیّة، لأنّ الحقیقة المحضة؛ أنّ الشّـراب و المخدّرات لها أثر تخریبی خطر علی روح وجسم الإنسان، فلا یسـلم من تأثیر هذه المواد الضّارة و المدمّرة أیّ إنسان، وهذه الحقیقة هی سبب لذلک (الأمر)، و (النّهی). وعندما نقول أنّ الأحکـام الإلهیّـة ناشـئة من المصالـح و المفاسـد؛ فإنّنا بالضّـبط نسـتوحی ذلک من خلال القاعـدة التی تقول: «کلّما حکم به العقل حکم به الشّرع»، وهی أیضاً تُقرر وجود علاقة وثیقة بین الواقع والأحکام: (الأوامر و النّواهی). فما یُشرّع من قوانین فی المجالس التّشـریعیّة البشـریّة، و دراسـة عواقبهـا الفردیّـة و الإجتماعیّـة و وضـع القـوانین علی أساسـها، یصـب فی نفس ذلـک المصب بالضّـبط. وخلاصـة القول: أنّه من الُمحال علی الحکیم أن یصـدر حکماً بعیداً عن الواقعیات فی حیاة البشـر، وإلّا فلن یکون قانوناً بل هو لَغو فی لَغو، ولأنّ الواقع هو واحـد لا ـ أکثر، فمن الطّبیعی أن یکون الطریق الصّـحیح و المسـتقیم والقـانون الأمثـل واحـد لا ـ غیر، ممّا یـدعونا للسّـعی الحثیث لإصابـة الحق والواقع والأحکـام والقوانین التی نشـأت عنهـا. إن ما ذُکر آنفاً یبیّن علاقـة النّظریات الکلیّـة، فی مجموعة الوجود وخلق الإنسان بالمسائل الأخلاقیّة، ومن هنا فإنّ نشوء المذاهب الأخلاقیّة و تنوعها، یکمن فی هذا السبب بالذات. و بالنّظر إلی ما ذُکر أعلاه، نستعرض الآن المذاهب الأخلاقیة:

۱ـ الأخلاق فی مدرسة الموحّدین:

هؤلاء یـذهبون إلی أنّ اللّه تعـالی خـالق الکائنـات کلّهـا، فنحن منه ونعود إلیه. والهـدف من خلق الإنسـان، هو التّکامـل فی الجوانب المعنویّة و الروحیّة، و مادام التقدم المادی و التّطور الحضاری للبشریة، یتحرک فی خطّ التکامل المعنوی، فهو یُعتبر هدفاً معنویّاً أیضاً. ویمکن تعریف التّکامـل المعنوی بـأنّه: «القرب من اللّه تعـالی، والسّـیر علی الطّریق الـذی یقرّب الإنسـان لصـفات الکمـال الإلهیّـة». و إعتماداً علی هـذا المعیار، فإنّ الأخلاق من وجهه نظر هـذا المـذهب، هی کلّ صـفات الأفعال التی تساعـد الإنسان فی سیره علی هذا الطریق، و التّقییم الأخلاقی فی هذا المذهب، یدور حول القِیَم و المُثل و الکَمالات الرّوحیة و المعنویّة و القُرب من اللّه تعالی.

۲ـ الأخلاق المادیة:

من المعلوم أنّ المادّیین لهم مذاهب متعددّة، و المعروف منها الشیوعیّة، حیث یرون کلّ شیء من خلال منظار المادّة، ولا یؤمنون باللّه والمسائـل الروحیّـة و المعنویّـة، ویقولون بأصالـة الإقتصـاد، و یعطون للتأریـخ ماهیّـةً مادیّـةً و إقتصادیـةً، فکـلّ شـیء یؤدی إلی تقویة الإقتصاد الشّـیوعی فی المجتمع، فانّه یعتبر من الأخلاق أو علی حد تعبیرهم: «کلّ شیء یعجّل فی الثورة الشیوعیّة، فهو الأخلاق»، فمثلًا المعیار الأخلاقی للکَذب و الصّدق، یقاس بمدی تأثیر ذلک السّلوک الأخلاقی علی الثّورة، فإذا أدّی الکذب إلی التسّریع بالثورة فهو أمر أخلاقی، وإذا أضـرّ الصّدق بالثّورة، فهو أمر غیر أخلاقی! و المذاهب المادیّة الاخری کذلک، فکلّ مذهب یُفسّـر الأخلاق حسب ما یرتئیه مسـلکه، فالّـذین یقولون بأصالـة اللّذة، و الإسـتفادة من اللذائذ المادیّة، لا یوجد شـیء عندهم بإسم الأخلاق، أو بالأحری أنّ الأخلاق عنـدهم، هی الصّـفات و الأفعال الّتی تمهـد الطّریق للوصول إلی اللـذّة. وأمّا الّذین أعطوا الأصالة للفرد والمصالح الشخصـیّة، والمجتمع محترم عنـدهم مـادام الاخلاـق فی القرآن، ج۱، ص: ۵۰ منسـجماً مع منـافع الفرد الشّخصـیة، (کما هو الحال فی المـذاهب الغربیة الرأسـمالیة)، فهم یفسّـرون الأخلاق بالامور التی توصـلهم إلی مصالحهم المادیّة و الشخصـیّة، و یضحّون بکلّ شیء لأجل هذه الغایة.

۳- الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة العقليّين:

أمّا الفلاسفة الذين يقولون بأصالة العقل، ويذهبون إلى أنّ غاية الفلسفة هى: (صَيرورة الإنسان عالماً عقليّاً مضاهياً للعالم العينى)، ففى مجال الأخلاق، يفسّرون الأخلاق بالصّفات و الأعمال التى تساعد الإنسان على تحكيم العقل، و سيطرته على القوى و النّوازع البدنية، بعيداً عن الخضوع للشّهوات و الطّبائع الحيوانيّة، و الأهواء النّفسية فى حركة الحياة.

۴- الأخلاق فى مذهب محوريّة الغير:

جماعة اخرى من الفلاسفة أعطت الأصاله للمجتمع، وقالوا أنّ الأصالة للجماعة لا للفرد، فهم يفسّرون الأخلاق بالأفعال التى يكون الغير فيها هو الهدف، وكلّ فعل يعود بالنّفع للإنسان نفسه، فهو فعل غير أخلاقى، والأفعال التى يكون محورها نفع الغير تكون أخلاقيّة.

۵- الأخلاق فى المذهب الوجدانى:

اشارة

قسم من الفلاسفة قالوا بأصالة الوجدان لا العقل، ويمكن تسميتهم ب: «الوجدانيّين»، أو بمؤيّدى: «الحسن والقبح العقلى»، و قصدهم من ذلك العقل العملى لا النّظرى، فالأخلاق عندهم عبارةٌ عن سلسلة من الامور الوجدانيّة غير البرهانيّة، أى أنّها تُدرك بدون حاجةٍ إلى منطقٍ و استدلالٍ، فمثلًا الإنسان يدرك أنّ العدل حسنٌ، و الظّلم قبيحٌ، و يُشخّص أنّ الإيثار و الشّجاعة أمران جيّدان، الأنانيّة و الظّلم و البخل امورٌ قبيحةٌ، و لا يحتاج فى إدراك هذا المعنى، إلى إستدلال عقلى من خلال دراسة تأثير هذه الأفعال و السّلوكيات فى واقع الفرد والمجتمع. وعليه يجب أن نتحرك من موقع تقوية الوجدان الأخلاقى فى الإنسان، و نُزيل من الطّريق كلّ ما يُضعف الوجدان، وبعدها سنرى أنّ الوجدان قاضٍ و حاكمٌ جيّدٌ لتشخيص الأخلاق الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۵۱ الحسنة من القبيحة. المؤيدون: «للحُسن و القُبحِ العقليين»، رغم أنّهم يتكلّمون دائماً عن العقل، ولكن ومن الواضح أنّهم يقصَدون العقل الوجدانى، لا العقل الإستدلالى، فهم يقولون إنّ حُسن الإحسان، و قبح الظّلم فى الدائرة الأخلاقيّة لا يحتاج فيهما إلى دليل وبرهان، فالإنسان السّليم النّفس يعيش هذه المفاهيم الأخلاقية، من موقع الوضوح فى الرؤيّة والبداهة، وعلى هذا فإنّهم يقولون بالأصالة للوجدان فى دائرة الأخلاق. ولكن الكثير منهم لا ينكرون سكوت الوجدان عن بعض الامور، و عدم إدراكه لها، وهنا يجب الإستعانة بالشّريعة والوحى لفصل الامور الأخلاقية عن غيرها، وبالإضافة إلى ذلك، إذا ورد تأييد من الشّرع لما حكم به العقل، فإنّ ذلك سيكون عاملًا مهماً فى ترسيخ هذه المفاهيم فى عالم الوجدان، و ترجمتها على مستوى الممارسة والعمل.

النّتيجة:

بعد الإشارة إلى أهمّ المذاهب الأخلاقية فى هذا الفصل، تتبيّن خصوصيات المذهب الأخلاقى للإسلام بصورةٍ كاملةٍ، حيث يرى أنّ: (أساس هذا المذهب الأخلاقى، هو الإيمان بربوبيّة اللّه تعالى، الذى هو الكمال المطلق و مُطلق الكمال و أوامره ساريةٌ و جاريةٌ على جميع العالم، وكمال الإنسان فى تطبيق صفاته الجلاليّة و الجماليّة، و القرب من اللّه تعالى أكثر فأكثر). وهذا لا يعنى أنّه لا أثر للصفات الأخلاقية فى إنقاذ الإنسان والمجتمع البشرى، من عناصر الشّر وقوى الإنحراف، ولكن وفى نظرةٍ إسلاميّةٍ عالميّةٍ صحيحةٍ، أنّ العالم عبارةٌ عن وحدةٍ متماسكةٍ، وأنّ واجب الوجود هو قُطب هذه الدائرة، و ما عداه مُتّصل به و مُعتمد عليه، و فى الوقت نفسه هناك علاقة و إنسجام تام بين المخلوقات، فكلّ شىء يساعد على إصلاح المجتمع البشرى وتطهيره من البؤر وأشكال الخلل الأخلاقى،

فسيكون عاملًا مؤثراً فى الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٥٢ إصلاح الفرد فى دائرة السّلوك الأخلاقى، وبالعكس. وبعبارة اخرى: إنّ القيم الأخلاقيّة لها إزدواجيّة فى التأثير، فتصنع الفرد والمجتمع على السّواء، و الذين يتصورون أنّ المسائل الأخلاقيّة هدفها الغير وليس النّفس على أشتباه كبير، لأنّ مصلحة الإثنين فى الواقع واحدةٌ، لا تتجزّأ إلّافى مراحل مقطعيّة محدودة وقصيرة، و قد تقدّم الحديث عن هذا المفهوم، و سيأتى فى المستقبل إن شاء اللَّه تعالى.

ملاحظات:

١- الأخلاق والنسبيّة

اشارة

هل أنّ الأخلاق الحسنة و القبيحة، و الرّذائل و الفضائل، جيدةٌ أو قبيحةٌ ذات أبعاد مطلقةٌ فى كلّ مكان وزمان، أم أنّ هذه الصفات نسبيّة؛ فربّما تكون فى مكان وزمان آخر جيدة أو سيئة؟ الذين يقولون أنّ الأخلاق نسبيّة ينقسمون إلى قسمين: الفئة الاولى: هم الّذين يقولون بنسبيّة عالم الوجود كلّه، فإذا كان الوجود والعدم نِسبّيان، فإنّ الأخلاق تدخل فى هذه الدائرة أيضاً. الفئة الثانية: هم الذين لا يرون أنّ هناك علاقةُ بين عالم الوجود وبين الأخلاق، فالمعيار عندهم لمعرفة الأخلاق الجيّدة من غيرها هو المجتمع، و قبوله وعدم قبوله لها، وهذا يعنى أنّ الشّجاعة ربّما تكون فضيلة عند مجتمع، فى ما لو كانت مقبولةٌ، و قد تكون نفس تلك الفضيلة رذيلة فى مجتمعٍ آخر. وهذه الفئة، لا تعتقد بالحُسن و القُبح الذاتى للأفعال أيضاً، والمعيار هو قبول وعدم قبول المجتمع لها. وقد رأينا فى البحث السّابق، أنّ المسائل الأخلاقيّة تعتمد على معايير للقياس، تكون وليدة النّظرات الكونيّة، فالمذهب الذى يعتبر المجتمع هو الأصل والأساس لقبول الامور، و الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٥٣ بشكلها المادى، فان أفراده لا وسيلة لهم إلّاالقبول بنسبيّة الأخلاق، لأنّ المجتمع البشرى يكون دائماً فى حالة تغيّر وتحوّل، وعلى هذا فليس من العجيب فى أمر هذه الجماعة أنّهم جعلوا الرأى العام للمجتمع، هو المرجع لتشخيص الحَسن و القَبيح من الأخلاق. و نتيجةُ مثل هذه العقيدة، معلومةٌ و واضحةٌ قبل أن تظهر للوجود؛ لأنّها تُسبب فى تبعيّة القيم الأخلاقية للمجتمعات البشريّة، و التّوافق مع الظّروف ومتغيرات وأحوال ذلك المجتمع، والحال أنّ المجتمع هو الذى يجب أن يتبع الاصول الأخلاقيّة: لِتُصلح مفاسده. فمن وجهة نظر هذه الجماعة، أنّ وأد البنات و هنّ أحياء، فى زمن المجتمع الجاهلى العربى القديم، هو أمر أخلاقى، وكذلك الغارات التى كانت تشنّها القبائل على بعضها البعض، و تعتبر عندهم من المفاخر، و لأجلها كانوا يُحبّون الأولاد ويقدّرونهم، حتى يكبروا و يحملوا السّلاح ليحاربوا مع آبائهم، فهى أيضاً أمر أخلاقى، وكذلك الجنسيّة المثليّة المتفشيّة فى الغرب، تُعتبر من وجهة نظرهم أمراً أخلاقيّاً؟! فالعواقب الخطيرة التى تحملها أفكار هذه المذاهب فى حركة الواقع الإجتماعى، لا تخفى على عاقلٍ طبعاً. ولكن فى الإسلام، فإن المعيار الأخلاقى و الفضائل و الرّذائل، تُعيّن من قبل البارى تعالى وذاته ثابتةٌ لا تتغير، فالمُثل و القِيم الأخلاقيّة ستكون ثابتةً و لا تتغير، ويجب أن تكونَ هى القاعدةُ الأصلُ للأفراد والمجتمع فى سلوكهم الأخلاقى، لا أن تكون الأخلاق تابعةٌ لرغبات و مُيول المجتمع. الموحدون يعتقدون أنّ الفطرة والوجدان الإنسانى إذا لم تتلوث؛ فستبقى ثابتةً أيضاً، بإعتبارها تمثل النّور المنعكس عن الذّات المقدسة للبارى تعالى وعلى هذا فإنّ الأخلاقيّات تعتمد على الوجدان، و بعبارةٍ اخرى فإنّ القُبحَ و الحُسنَ العَقليان: (المقصود العقل العملى لا النّظرى)، يثبتان أيضاً.

الإسلام ينفى نسبيّة الأخلاق:

طرح القرآن الکریم فی آیاتٍ عدیدةٍ کلمة «الطیّب والخبیث» بصورةٍ مطلقةٍ، ولم یجعل الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۵۴ للمجتمعات البشرّیة دور فی صیاغة القیم فی هذا المجال، فنقرأ فی الآیة (۱۰۰) من سورة المائدة: «قُل لا یَسْتَوی الخَبِیثُ وَالطَّیِّبُ وَلَو أَعْجَبَکَ کَثرَةُ الخَبِیثِ». وفی الآیة (۱۵۷) من سورة الأعراف فی وضعها للرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَیُحِلُّ لَهُم الطَّیِّباتِ وَیُحَرِمُ عَلِیهِم الخَبَائِثَ». و فی سورة البقرة الآیة (۲۴۳) یقول الله تعالی «إنَّ اللَّهَ لَذُو فَضلٍ عَلَی النَّاسِ وَلَکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لایَشکُرُونَ». وفی الآیة (۱۰۳) من سورة یوسف علیه السلام یقول الله تعالی «وَما أَکْثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصْتَ بِمُؤمِنِینَ». فی هذه الآیات یُعتبر الإیمان و الطّهارة و الشّکر، من القیم والمُثل وإن کان أکثر الناس یخالفون ذلک، والکفر و الخُبث و کفران النعمة، تعتبر فی مقابل القِیم، رغم أنّ الأکثرّیة تتحرک فی هذا الخط. وقد ذکر أمیرالمؤمنین علیه السلام، هذا المعنی کثیراً فی خُطَبِه فی نهج البلاغة. و أنّ قبول و عدم قبول الأکثرّیة لُخلقٍ أو عملٍ ما، لا یکون مِعیاراً للفضیلة و الرّذیلة و کذلک الحُسن و القُبح. فقال الإمام علیه السلام فی خطبةٍ: «یا أَیّها النّاسُ لا تَستَوحِشُوا فی طَرِیقِ الهُدی لِقِلَّةِ أَهلِهِ فإنَّ النّاسَ قَد إجتَمَعُوا عَلی مائِدةٍ شِبَعِها قَصِیرٌ وَجُوعِها طَوِیلٌ». «۱» وقال فی خطبة اخری «حَقٌّ وَ باطِلٌ، وَلِکلٍّ أهلٍ؛ فَلإن أمِرَ الباطِلُ لَقَدِیماً فَعَلَ وَ لإن قَلَّ الحَقُّ فَلَرُبَّما وَلَعَلّ» «۲». فکلّ هذه النّصوص الإسلامیّة تنفی النسبیّة فی الأخلاق، و لا تعتبر قبول الأکثرّیة فی المجتمع معیاراً لها. ویوجد فی القرآن الکریم والروایات الإسلامیّة، شواهد کثیرة علی هذه المسألة، لو جمعت لبلغت کتاباً کبیراً.

سؤال:

وهنا سؤال یفرض نفسه وهو: إنّ النسبیّة فی الأخلاق قد تکون مقبولةً فی بعض الموارد فی الشّرائع السّماویّة، (و خُصوصاً الإسلام)؛ فمثلًا یعتبر الکذب ضد القیم والمُثل وعملًا غیر أخلاقی، لکنّ الکذب لغرض الإصلاح بین الناس أو فی مقام المشورة، یعتبر عملًا أخلاقیّاً، وهذه المسألة لیست بقلیلة الموارد فی التعالیم الإسلامیة، فیعتبر هذا نوعاً من قبول النسبیّة للأخلاق.

الجواب:

إنّ نسبیّة الأخلاق و الحُسن و القُبح مطلبٌ، و الإستثناء مطلب آخر. و بعبارةٍ اخری لا یوجد أصل ثابت فی النسبیّة، فالکذب لا هو حسن ولا هو قبیح، وکذلک العدل والإحسان أو الظّلم و الطّغیان، فحُسنها و قُبحها لا یتبیّن للإنسان إلّاإذا قبلتها الأکثرّیة من موقع القیم أو رفضتها کذلک. ولکن فی الإسلام والتعالیم السّماویة، فالکذب و الظّلم والبخل و الحسد و الحقد، کلّها تعتبر ضد القیم و المُثل، سواء قبلتها أکثرّیة الناس أم لا، وبالعکس، فالإحسان والعدالة والصّدق و الأمانة، قیم و مُثل رفیعةٌ سواء قبلها المجتمع، أم لا. فهذا هو الأصل الکلّی للمسألة، و لا مانع من وجود الإستثناء له، فالأصل کما هو واضحٌ من إسمه أساس وجذر الشیء، و الإستثناء بمنزلة بعض الفروع والأوراق الزّائدة، ووجود بعض الإستثناءات فی کلّ قاعدةٍ لا یمکن أن یکون دلیلًا علی نسبیّتها، فإذا تجلّی لنا هذا الفرق بین هذین الإثنین، أمکننا تجنّب الوقوع فی کثیر من الأخطاء. ویجب الإلتفات أیضاً الی أنّ الموضوعات یمکن أن تتغیّر بمرور الزّمان أیضاً، فالأحکام التابعة للموضوعات تتغیّر أیضاً، وهذا الأمر لا یمکن أن یُعتبر دلیلًا علی النسبیّة. بیان ذلک: إنّ لکلّ حکم موضوعه الخاص؛ العدوان علی الآخرین یعتبر جنایةً قابلةً للقصاص و التّعقیب، ولکن یمکن أن یتغیّر الموضوع، فی ید الطّبیب والجرّاح الذی یمسک الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۵۶ المِبضع لینقذ حیاة المرضی فیفتح بمشرطه القلب ویخرج الغدد الخبیثة، فالموضوع یتغیّر هنا، فلا یمثّل هذا العمل جنایة، بل یستحق عمله التّقدیر و الجائزة. فلا یمکن لأحد أن یعتبر تغیّر الأحکام والموضوعات دلیلًا علی النسبیّة، والنسبیّة تقوم علی أساس تبدّل الأحکام، بالرّغم من عدم تحوّل وتغیّر الموضوع الماهَوی، والموضوعی بالنسبة للأشخاص أو

الأزمان المختلفة. وأحكام الشّرع كذلك، فالخمر حرام ونجس، ولكن من الممكن وبعد مرور عدّة أيّام، أو بإضافة مادّةٍ ما يمكن تحويله إلى خلّ طاهر محللّ، فلا يمكن لأحدٍ أن يعتبر هذه من نسبيّة الأحكام، والنسبيّة هنا أن يكون الخمر حلال عند مُستحلّيه وحرامٌ عند مانعيه، من دون أن يتغيّر شيء في ماهيّة الخمر. في المسائل الأخلاقيّة أيضاً، يمكن أن نصادف موضوعات، تكون للوهلة الأولى من الفضائل، ولكن و بالتّحول في دائرة الموضوع، يمكن أن تتغيّر إلى رذيلةٍ؛ فعدم الخوف مثلًا وإلى حد الإعتدال يُعتبر شجاعة وفضيلةٌ، ولكن إذا تعدّى الحدود، فيكون تهوّراً ويدخل في حيّز الرّذائل. وكذلك في الامور الاخرى التي تُشابهها، فالكذب يعتبر منشأ للمفاسد الكثيرة، وسبباً لزوال الثّقة بين النّاس، ولكن إذا كان لغرض الإصلاح بين الناس، فهو حلالٌ و فضيلةٌ. و يمكن أن يعتبر البعض، هذه الامور والتغيّرات في المواضيع من النسبيّة، ولا نزاع فيما بيننا في التّسمية، ومثل هذا النزاع يعتبر لفظيّاً، لأنّه مثل هذه الموارد تعتبر من قبيل التغيّر في الموضوع و الماهيّة، وإذا كان قصد أصحاب النسبيّة هذا، فلا بأس، ولكنّ المشكلة في أن يكون المعيار: للفضيلة و الرّذيلة و الحُسن و القُبح الأخلاقيين، هو قبول أكثريّة المجتمع. و من مجموع ما تقدم، نستنتج أنّ نسبيّة الأخلاق مردودة، من وجهة نظر الإسلام والقرآن والمنطق والعقل، وطرح مسألة النسبيّة تلك تُعتبر أو تُساوي عدم الأخلاق، لأنّه وطبقاً للنظريّة النسبيّة للأخلاق، فإنّ كلّ رذيلةٍ إنتشرت في المجتمع فهي فضيلةٌ، و كلّ مرضٍ أخلاقي تفشّى بين الناس؛ فهو صحّةٌ و سلامةٌ، و بدلًا من أن تكون الأخلاق عاملًا لرقيّ المجتمع في خطّ الاخلاق في القرآن، ج۱، ص: ۵۷ التّكامل الحضاري، فستتحول إلى عامل لنشر الفساد والإنحطاط.

۲- التّأثير المتقابل بين (الأخلاق و (السّلوك)

اشارة

علاقة الأخلاق والعمل، وتأثير الأخلاق في السّلوك أمر لا يخفى على أحد، لأنّ الأعمال عادةً تنبع من الصّفات الداخليّة في النّفس الإنسانية، فالشّخص الذي تسيطر حالة البخل والحسد و الكِبر على قلبه و فكره و روحه، فمن الطّبيعي أن تكون أعماله على نفس الشّاكلة، فالحسود يتحرك في أعماله دائماً من موضع هذه الخصلة الذميمة، التي هي كالشّعلة المتّقدة في روحه، تسلب الرّاحة منه، وكذلك الأفراد المتكبرين، مشيتهم وكلامهم و قيامهم و قعودهم، كلّها تعطي حالة الغرور فيهم، و تشير إلى روح التّكبر في نفوسهم، و هذا الحكم يشمل الصفات، و الأخلاقيّة الصّالحة والطالحة على السّواء. و لأجل ذلك، يعتبر بعض المحقّقين مثل هذه الأعمال، أعمالًا أخلاقية، يعني أعمال تنشأ من الأخلاق الصّالحة و الطّالحة بصورةٍ بحتةٍ، وفي مقابل الأعمال التي تصدر أحياناً من الإنسان، تحت تأثير الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، و الإرشاد و النّصح مثلًا، من دون أن يكون لها جذر أخلاقي، وطبعاً مثل هذه الأعمال تعتبر أقلّ بالنسبة للأعمال الأخلاقيّة. و هنا يمكن أن نستنتج، أنّه ولأجل إصلاح المجتمع وإصلاح أعمال الناس، يتوجب علينا إصلاح جذور الأعمال الأخلاقيّة، لأنّ أغلب الأعمال تعتمد على الجذور الأخلاقيّة، وعلى هذا كان أكثر سعي الأنبياء عليهم السلام والمصلحين الإجتماعيين الإسلاميين، يصبّ في هذا السبيل، لأنّه و بالتّربية الصّحيحة، تنمو وتتبلور الفضائل الأخلاقيّة في كلّ فرد من أفراد المجتمع، و تصل الرذائل إلى أدنى الحدود، وبذلك يمكن إصلاح الأعمال التي تترشح من الصّفات الأخلاقيّة، و الإشارة في بعض الآيات القرآنية إلى «التّزكية»، تصبّ في هذا المصب أيضاً، هذا من جهةٍ: و من جهةٍ اخرى، أنّ التّكرار لفعل ما يمكن أن يكون له الأثر في تكوين الأخلاق، لأنّ كلّ الاخلاق في القرآن، ج۱، ص: ۵۸ فعل يفعله الإنسان سيؤثر في روحه و نفسه، و سيعمّق ذلك الأثر حتى يصبح عادةً، وإذا تكرّر بصورة أكبر فسيتعدّى مرحلة العادة، و يتبدّل إلى «مَلَكةٍ» و «حالةٍ»، تدخل في الخصوصيّات الأخلاقيّة للإنسان. و على ذلك، فإنّ العمل والأخلاق لهما تأثيرٌ مُتقابل، ويمكن أن يكون أحدهما سبباً للآخر. ولهذه المسألة شواهدٌ

کثیرةٌ فی القرآن الکریم منها: ۱- فی الآیة (۱۴) من سورة «المطفّفین»، وبعد الإشارة إلی الصفات القبیحة لطائفةٍ من أهل النار، و المعذبین، قال الله تعالی «کَلّا بَل رانَ عَلی قُلُوبِهِم ما کَانُوا یَکْسِبُونَ». وهذه الآیة دلیلٌ علی أنّ الأعمال القبیحة تجثم علی القلب، کما یجثم الصّدأ علی الحدید، و تُزیل النّور و الصّفاء الفطری الدّاخلی للإنسان و تُطفئهُ، وتصوغه بقالبها. ۲- فی الآیة (۸۱) من سورة البقرة قال الله تعالی «بَلی مَن کَسَبَ سَیِّئَةً وَأحاطَتْ بِهِ خَطِیئَتُهُ فَاولئِکَ أصحابِ النّارِ هُم فِیها خالِدُونَ». والقصد من الإحاطة للخطیئة، هو تراکم إفرازات الخطیئة فی نفس الإنسان حتی تصل النّفس إلی مرحلة الختم، و الطّبع، و تتطبّع بالذنوب، فلا یُفید فیها النّصح و الموعظة و لا الإرشاد، و کأنّه قد تغیّرت ماهیّة ذلک الإنسان، و صفاته الإخلاقیة فی واقعه النفسی، بل و بالإصرار علی الذّنوب، فإن المعتقدات الدینیّة للفرد ستطالها ید التّغییر أیضاً. کما وأشارت الآیة (۷) من سورة البقرة الواردة فی بعض الکفار المعاندین، إلی هذا المعنی أیضاً، حیث تقول: «خَتَمَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِم وَعَلی سَمعِهِم وَعَلی أبصارِهِم غِشاوةٌ وَلَهُم عَذابٌ عَظِیمٌ». ومن الواضح أنّ الباری تعالی شأنه: لا یتعامل مع أحد من الناس من موقع العداوة و الخُصومة، ولکنّ الواقع أنّ آثار أعمال الناس هی التی تضع الحُجب والحواجز علی الحواسّ، فلا تُدرک الحقیقة، (و نسبة هذه الامور للباری تعالی، إنّما هو لأجل أنّ اللّه تعالی هو مُسبّب الأسباب و کلّ شیء إنّما یصدر عن ذاته المقدّسة). و فی الآیة (۱۰) من سورة «الرّوم» یتعدی ذلک و یقول الله تعالی إنّ الأفعال السیّئة تغیّر الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۵۹ عقیدة الإنسان و تُؤدی به إلی الحضیض: «ثُمَّ کَانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ أساءوا السُّوأی أنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ کَانُوا بِهایَستهزءُونَ». و منها یتبیّن أنّ الأعمال و الصّفات القبیحة وإرتکاب الذنوب، إذا ما أصرّ و إستمرّ علیها الإنسان، ستمتد إلی أعماق نفس الإنسان، و لا تؤثّر علی أخلاقه فحسب، بل تقلب عقائده رأساً علی عقب أیضاً. و نقرأ فی آیةٍ اخری من القرآن الکریم: أنّ الإصرار علی الذنب وتکراره وسوء العمل، یُمیت عند الإنسان حسّ التّمییز و التّشخیص، بحیث یری الحسن قبیحاً والقبیح حَسناً، فنقرأ فی الآیة (۱۰۳ و ۱۰۴) من سورة الکهف حیث تقول: «هَلْ نُنَبِّئُکُم بِالأخسَرِینَ أعمالًا الّذینَ ضَلَّ سَعیُهُم فِی الحَیاةِ الدُّنیا وَهُم یَحْسِبُونَ أنّهُم یُحْسِنُونَ صُنعاً». ۳- و فی آیةٍ اخری یصرح القرآن الکریم بأن الإصرار علی الکذب و خُلف الوعد مع اللّه سبحانه، سیورث الإنسان صفة النّفاق فی قلبه، فیقول الله تعالی: «فَأعقَبَهُم نِفاقاً فِی قُلُوبِهِم إلی یَومِ یَلقَونَهُ بِما أخلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما کَانُوا یَکذِبُونَ». ویعلم القاری الکریم أنّ «یکذّبون»: هو فعل مضارع ویدل علی الإستمرار، حیث یُبیّن تأثیر هذا العمل السّیء و هو الکذب فی ظهور روح النّفاق؛ لأننا نعلم أنّ الکذب و خاصّةً فی لباس الإنسان الصادق، لیس هو إلّاإختلاف الظّاهر و الباطن، و النّفاق الباطنی هو تبدیل هذه الحالة إلی ملکةٍ.

التّأثیر المتقابل للأخلاق والعمل فی الأحادیث الإسلامیّة:

الحقیقة أنّ الأعمال الصالحة والطالحة تؤثر فی روح الإنسان وتبلورها، وتحکّم الخلق السیّ، و الحسن فیها، ولهذا الأمر صدیً واسعاً فی الأحادیث الإسلامیّة، ونذکر منها هذه الأحادیث الثلاثة الآتیة: ۱- نقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الصادق علیه السلام: کان أبی یقول: «ما مِن شیءٍ أفسدُ لِلقَلبِ مِن الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۰ خَطیئةٍ، إنّ القَلبَ لَیُواقِع الخَطِیئةَ فَما تَزالُ بِهِ حتّی تَغلِبَ عَلَیهِ فَیَصِیرَ أعلاهُ أسفَلَهُ» «۱». طبعاً هذا الحدیث، أکثر ما ینظر إلی تحول وتغیّر الأفکار و تأثّرها بالذّنوب، ولکن و بصورة کلیّة، فهو یبیّن تأثیر الذّنوب فی تغییر روح الإنسان. ۲- فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام: «إذا أذنَبَ الرّجلُ خَرَجَ فی قَلبِهِ نُکتَةٌ سَوداءُ، فإنْ تَابَ إنمَحَتْ وَإنْ زَادَ زادَتْ، حتّی تَغلِبَ عَلی قَلبِهِ، فَلا یَفلِحُ بَعدَها أبداً» «۲». ولأجل ذلک نبّهت الأحادیث الإسلامیّة علی خطورة الإصرار علی الذّنب، و أنّ الإصرار علی الذّنوب الصّغیرة یتحول إلی الکبائر «۳». وجاء هذا المعنی فی الحدیث المعروف، عن الإمام علیّ بن موسی الرّضا علیه السلام، فی معرض جوابه للمأمون، و فیه تبیان کُلّی حول مسائل الحلال و الحرام، و الفرائض والسّنن، فمن المسائل التی أکّد علیها الإمام علیه السلام، هو أنّه جعل الأصرار علی الذّنب، من الذّنوب الکبیرة «۴». ۳- جاء فی کتاب (الخصال)،

عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «أربعُ خِصالٍ یُمِتْنَ القَلبَ: الـذَّنبُ عَلَی الذَّنبِ ...». «۵» وجاء مُشابه لهذا المعنی فی تفسیر «الدُّر المنثور» «۶». هـذه التّعبیرات توضّـح جیّـداً أنّ تکرار عمـلٍ مـا، له تأثیر فی قلب و روح الإنسان بصورةٍ قطعیـةٍ، و یصـبح مصـدراً لتکوین الصّـفات: الرّذیلة والقبیحة، ولأجل ذلک جاءت الأوامر للمؤمن إذا ما أذنب وأخطأ، بالتّوبة السّریعة، لیمحی آثارها من القلب، ولئلّا تصـبح عنـده علی شـکل «حالةٍ» و «مَلکةٍ» و صـفةٍ باطنیّةٍ، فجاء فی الأحادیث الشّـریفة، أنّه یتوجب علی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۱ الإنسـان أن یجلو الصّـدأ من علی قلبه، کما نقرأ فی الحـدیث عن الرّسول الکریم صـلی الله علیه و آله: «إنّ القُلُوبَ لَتَرِینُ کَما یَرِینُ السّیفُ، وَ جَلاؤها الحَدِیثُ» «۱».

۳- الأخلاق الفردیّة و الإجتماعیّة

المسألة الاخری الّتی یتوجب ذکرها هُنا هی: هل أنّ المسائل الأخلاقیّة تتشـکل من خلال علاقة النّاس بالآخرین، بحیث أنّ الإنسان إذا ما عاش وحیـداً فریداً لا یکون لدیه مفهوم حول الأخلاق، أو أنّ بعض المفاهیم الأخلاقیّة لها موارد فی سـلوک الإنسان حتی لو عاش لِوَحـده، بـالرّغم من أنّ أعظم المسائـل الأخلاقیّـة، تتجلی أکثر فی عملیّـة علاقـة الأشـخاص مع بعضـهم البعض، ولهـذا یمکن تقسـیم الأخلاق إلی قسمین: فردیّة و إجتماعیّة؟. للجواب عن هذا السّؤال، یجب أن نلفت أنظارکم، إلی البحث الذی جاء فی کتاب «زندگی در پرتو أخلاق»، «الحیاة علی ضوء الاخلاق» و سنورده بالکامل هنا: (یعتقـد البعض أنّ کلّ الاسـس الأخلاقیـة، تعود إلی العلاقات الإجتماعیة مع الآخرین، فلو إنعدم المجتمع وعاش الإنسان وحیداً فریداً، أو أنّ کلّ إنسان عاش مسـتقلّاً عن الآخر، لا یعرف عنه شیء، فلن یکـون هنـاک مفهوم للأخلاق أصـلًا!، لأنّ الحسـد و التّواضع والکِبَر، و حُسن الظّن، والعدالـة والجَور والعفّـة والکَرم، کلّهـا من المسائـل الّتی لاـ یتجلی مفهومهـا إلّـا بوجود المجتمع خاصّـة، وتعامـل النّـاس مع بعضـهم البعض، وبناءاً علی هـذا، فإنّ الإنسان بـدون المجتمع، یساوی الإنسان من دون أخلاق). (ولکن بعقیـدتنا، وعلی الرّغم من الإعتراف، بأنّ کثیراً من الفضائل والرّذائل الأخلاقیّة، لها علاقـة مباشـرة بالحیـاة الإجتماعیـة، ولکنّها لیست بصورةٍ مطلقـةٍ، فکثیرٌ من الأخلاق لها جوانب فردیـة، و تصـدق علی الإنسان الوحید بصورةٍ خاصـةٍ، فمثلًا الصّـبر والجزع، والشّـجاعة والخوف، والمشـاجرة والکسـل، وأمثـال ذلـک من الحالات والصّـفات النّفسـیة التی تفرضها حالات الصّراع مع الطّبیعة، وکذلک الغفلة والشّعور تّجاه الخالق الکریم، و الشّکر والکفران الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۲ لنعمه التی لاـ تُحصـی وما شابه تلک الامور، الّتی بحثها علماء الأخلاق فی کتبهم، وعـدّوها من الفضائل أو الرّذائل، فکلّ تلک الامور یمکن أن تـدخل فی الإطـار الفردی للسّـلوک، وتصـدق علی الإنسـان المعزول عن المجتمع ومن هنـا یتبیّن أنّ الأخلاق علی قسـمین: «أخلاقٌ فردیّـةٌ» و «أخلاقٌ إجتماعیّـةٌ». و من المعلوم أنّ الأخلاق الإجتماعیّة، التی لها الثّقل الأکبر فی علم الأخلاق، وصـیاغة شخصـیّة الإنسان: تـدور حول هذا المحور، وإن کنّا لا ننسـی أیضاً أنّ الأخلاق الفردیّة لها وزنها، و وضـعها الخاص بها) «۱». ولا شکّ أنّ هذا التّقسـیم، لا یقلّل من قیمة المسائل الأخلاقیّة، ولکنّه یُقسّم المباحث الأخلاقیّة إلی درجاتٍ من حیث الأهمیّة، ولا داعی لإتلاف الوقت فی معرفـة وتمییز الأخلاق، هل أنّها فردیـة أم إجتماعیـة، وما أشـرنا إلیه آنفاً، یکفی للإحاطـة بمعرفةٍ إجمالیّةٍ حول هذا الموضوع. ولا یمکن انکار أنّ الأخلاق الفردیة، لها تأثیرها غیر المباشر فی القضایا الإجتماعیة أیضاً.

دعائم الأخلاق

اشارة

إذا شـبّهنا الأخلاق بشـجرة باسـقةٍ مثمرةٍ، معرضةٍ للآفات والأخطارِ، فدعامتها الأخلاقیّة یمکن أن نُشـبّهها بالفلّاح، أو الماء الذی یجری من تحتهـا، ولولاـ المـاء والفلّاح لیَبِست تلـک الشّـجرة، أو لأصـیبت بـأنواع الآفـات و الأمراض، حتی تموت أو یغـدو ثمرها قلیلًا. وقد

إختلف علماء الأخلاق والفلاسفة، فی صياغة الدّعائم الأساسيّة للأخلاق بشكلٍ كبيرٍ، فكلّ مجموعةٍ تذكر آرائها و نظراتها حول المسألة، تبعاً لرأيها ونظرتها فی مسألة معرفة العالم. و نشير هنا إلی عدّة نماذج مهمّة:

۱- دَعامة الإنتفاع

يوصی البعض بالأخلاق، لأنّها تعود علی الإنسان بالنّفع المادّی المباشر، فمثلًا تُراعی إحدی المؤسّسات الإقتصادية، أصل الأمانة والصّدق بشكلٍ دقيقٍ جدّاً، وتعطی المعلومات الواقعيّة لزبائنها بدون أیّ تلاعب، فمثل هذه المؤسّسة ستكون بعد سنوات، مورد ثقة النّاس و محل إعتمادهم، مما سيعود عليها بالنّفع الكبير الطّائل. وبناءً علی ذلك، قد يتحرك الأشخاص فی سلوكهم الأخلاقی، كلٌّ حسب موقعه. فمثلًا عندما يكون موظّفاً فی المصرف أو البنك، فهو يُراعی منتهی الأمانة والدّقة، لكی يعود علی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۴ البنك بالنّفع الكبير، ولكن يمكن أن يتحول إلی خائن، بمجرد أن يضع قدمه خارج المصرف، لّانّ فائدته ستكون فی الخيانة حينها. وقد نری تاجراً، يحرص أن يكون فی منتهی الأدب و اللّطف و اللّياقة مع زبائنه، لأجل كسب المزيد منهم، ولكنّه مع عائلته و أولاده، يكون فی منتهی الفضاضة، لا لشیء إلّالأنّ الأخلاق الحسنة مَحلُّها فی محلّ عمله، وستعود عليه بالنّفع المادی الأكثر. فمثل هذه الأخلاق لا دعامة لها، إلّاالنّفع و الإستغلال، وأهمّ عيبٍ فی المسألة، هو أنّه لا يعير للأخلاق أهميّةً ولا أصالةً، لأنّه يستمر فی إستغلاله، سواءً كان عن طريق الأخلاق، أم بعقيدته التی هی ضدّ الأخلاق. وذهب البعض الآخر إلی صياغة حِكمةٍ معدّلةٍ لهذا النمّط من الأخلاق، و نادوا بالأخلاق لا من أجل المصالح الشّخصيّة، ولكن لتعود علی مصلحة البشر جميعاً، لإعتقادهم بأنّ الأسس الأخلاقيّة إذا تزلزلت فی المجتمع، فستتحول الحياة إلی جهنّم تحرق كلّ شیء، وستتحول أدوات الإلفة والتعاون فی المجتمع، إلی حطبٍ يُبقی النار مشتعلةً، فی حركة الواقع الإجتماعی المضطرب. هذا النّوع من التّفكير يعتبر أرقی من سابقه، ولكنّ الأخلاق هنا مجرد وسيلةٍ لجلب النّفع و الرّاحة و الرّفاه، ولا أساس للفضائل الأخلاقية فيها. فالماديّون لا يمكنهم أن يتجنبوا مثل هذا النوع من التّفكير، لأنّهم لا يعتقدون بالوَحی ولا نُبوّة الأنبياء، وينزلون بالأخلاق من السّماء إلی الأرض، و يجعلونها مُجرد وسيلةٍ للإنتفاع والرّاحة والإستغلال لا أكثر. ولاـ شكَّ ولا ريب، فی أنّ الأخلاق لها مثل هذه المعطيات الماديّة الإيجابية، فی وعی الناس كما أشرنا سابقاً، و لكن السّؤال هو: هل أنّ أسس ودعائم الأخلاق، تنحصر فی هذه المرتكزات الماديّة، أو أنّ مثل هذه المرتكزات والمعطيات، يجب أن تُدرس علی أساس أنّها من المسائل الجانبيّة، و المتفرّعة علی علم الأخلاق؟. و علی أيّة حال، فإنّ الإيمان بالأخلاق الّتی يكون أساسها النّفع و الإستغلال، يخدش الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۵ أصالة الأخلاق، ويقلل من قيمتها وقدسيّتها، ومن ناحيةٍ اخری فإنّ الإنسان فی حالة تقاطع مصلحته مع الأخلاق، فإنّه سيضرب بالأخلاق عَرض الحائط، و يتّبع مصلحته الشخصيّة، الّتی إعتبرها دعامته و أساسه، فی حركة السّلوك الإجتماعی والأخلاقی.

۲- الدّعامة العقليّة

الفلاسفة الّذين يعتقدون بحكومة العقل ولزوم اتّباعِه فی كلّ شیء، يعتبرون دعامة الأخلاق هی إدراك العقل: للقبيح والحسن من الأفعال والصّفات الأخلاقيّة، فمثلًا يقولون أنّ العقل يُدرك جيّداً أنّ الشّجاعة فضيلةٌ والجبنُ رذيلةٌ، و الأمانةُ و الصّدقُ فضيلةٌ وكمالٌ، و الخيانةُ و الكذبُ نقصانٌ، ونفس إدراك العقل لها، هو الباعث والمحرّك لإتّباع الفضائل وترك الرذائل. وقال البعض الآخر، إن إدراك الوجدان هو الأساس، فيقولون: أنّ الوجدان وهو العقل العملی، أهمّ شیء فی الإنسان، لأنّ العقل النّظری يمكن أن يُخطیء، ولكن الوجدان و الضّمير ليس كذلك، وبإمكانه أن يقود البشريّة إلی ساحل الأمن والسّعادة. و عليه، و بما أنّ الوجدان يقول: إنّ الأمانة و الصّدق و الإيثار، و السّخاء، و الشّجاعة هی امور حسنةٌ وجيّدةٌ، فهو بمفرده يكون دافعاً و مُحرّكاً، نحو نيل تلك الأهداف والفضائل. وكذلك بالنّسبة للبُخل، والأنانيّة و أمثالها، فإنّ الوجدان يقول أنّها قبيحة، وذلك يكفی فی الإرتداع عنها وتركها. وهنا

تتحد الدّعامة العقلية و الوجدانيّة، فهما تعبيران مختلفان لحقيقةٍ واحدةٍ. و لا شكّ أنّ وجود هذا الأساس و الدّعامة للأخلاق، لا يخلو من حقيقةٍ، و هو فی حدّ ذاته دافعٌ حسنٌ للسّعی إلی تربية النّفوس، و ترشيد الفضائل الأخلاقية، فی واقع الإنسان والمجتمع. ولكن و بالنّظر إلی ما ذكرناه فی بحث الوجدان «۱»، فإنّ الوجدان يمكن أن يُخدع، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ اخری أنّ الوجدان و بالتّكرار لفعل القبائح و الرّذائل، فإنّه سيأنس بها الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۶ ويتعوّد عليها، بل قد يفقد الحسّاسيّة بالكامل تجّاه هذه الامور، أو يتحرك فی إدراكه لها، من موقع التأييد للرذائل علی حساب إهتزاز الفضائل. و من جهةٍ ثالثةٍ، إنّ الوجدان أو العقل العملی، رغم أهميّته و قداسته، فإنّه كالعقل النّظری قابل للخطأ، ولا يمكن الإعتماد عليه وحده، بل يحتاج إلی أُسس و دعامات أقوی، يُطمأن إليها فی تشخيص الحُسن و القُبح، بحيث لا يمكن خُداعها و لا تخطئتها، ولا تتأثر بالتّكرار، و لا تتغيّر أو تتحول. وخلاصة الأمر: أنّ الوجدان الأخلاقی، أو العقل الفِطری والعقل العملی، أو أیّ تعبيرٍ آخر يُعبّر عنه، هو أساسٌ و دعامةٌ جيّدة، و لا بأس بها لنيل الفضائل الأخلاقيّة، ولكن وكما أشرنا آنفاً، تعوزه بعض الأمور، و لا يُكتفی به وحده.

۳- دعامة الشخصيّة

يتحلّی البعض بالقيم الأخلاقيّة، لأنّها دليلٌ و علامةٌ للشخصيّةِ أو الرجولةِ والمروءة، وكلّ إنسانٍ عند ما يری أنّ شخصيّته بين النّاس متوقفةٌ علی الصّدق والأمانة، فسيتحرك علی مستوی التّحلی بها و مُراعاتها، وكذلك عندما يری أنّ الناس يحترمون الشّجاع و الوفی و الرّحيم، فسيكون طالب الشخصية و الإحترام، أوّل المطبّقين لها علی نفسه، حتی يمدحهُ الناس. والعكس صحيح، فإنّه عندما يری أنّ الناس لا يحترمون الجبان، و لا البخيل، و لا الخائن، و لا ضعيف الإرادة، ولا قيمة لهم فی نظر المجتمع، فسوف يسعی لهجر هذه الرذائل، و تطهير نفسه منها. وعليه يَتحصَّل لدينا: دعامةٌ و أساسٌ آخر للمسائل الأخلاقيّة. ولكن و بالتّدقيق و التحقيق، نری أنّ هذا الأساس و الدّعامة، يعود إلی مسألة الوجدان، غاية الأمر، أنّ المطروح هنا هو وجدان المجتمع، لا الوجدان الفردی، يعنی أنّ ما يوافق الوجدان العام للمجتمع، فهو فضيلةٌ و علامةٌ للشخصيّة، و من الأخلاق الفاضلة و عكسه الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۶۷ يدخل فی الرذائل، و ما يُقرّه الرأی العام للمجتمع، يكون هو الدّافع للفضائل و الرّادع عن الرّذائل. ونحن لا ننكر أنّ الوجدان العمومی للمجتمع، يمكن أن يشخّص القِيَم من اللّاقيم، و يحثّ الأفراد للإهتمام بالمسائل الأخلاقيّة فی خطّ التّربية و التّكامل. ولكن ما ذكر من نواقص و إشكالات، حول الوجدان الفردی، هو نفسه يصدق علی وجدان المجتمع. فيمكن للمجتمع أن يُخطأ، وإذا ما وقع هذا الأساس للأخلاق، تحت طائلة الدعاية والإعلام القوی من قبل الحكومات، فبالإمكان أن ينقلب رأساً علی عقب، و تكون الفضائل رذائل فی منظومة القيم والمثل الأخلاقية، كما حدّثنا التّأريخ عن نماذج كثيرة من هذا القبيل، ففی عصر الجاهليّة مثلًا كان يُعتبر وَأْد البنات من المكرمات، عند شريحةٍ كبيرةٍ من المجتمع آنذاك، و يُعتبر فضيلةً أخلاقيةً، (وذلك للمفهوم السّائد فی ذلك الوقت وقت، من أنّه الطّريق للنّجاة من العار و الشّنار، و الحيلولة دون وقوع النّساء فی الأسر فی الحروب) «۱». ونری فی عصرنا الحاضر، و فی المجتمعات البشريّة المتقدّمة و المتطوّرة، أنّ المتموّلين ولأجل الوصول لأهدافهم غير المشروعة، وبالدعاية يخدعون الوجدان العمومی للمجتمع، ويقلبون القيم الأخلاقيّة الإيجابية، إلی مُضادّاتها فی دائرة السّلوك الأخلاقی. بالإضافة إلی أنّ الوجدان والضّمير فی الإنسان، هو من بَوارِق الرّحمة الإلهيّة، و نموذج لمحكمة العدل الإلهی العظيمة، عند الإنسان فی هذا العالم، ولكن ومع ذلك، فالضّمير ليس بمعصوم عن الخطأ، ويمكن أن ينحرف، وإذا لم يتّخذ الإنسان تدابير لازمة لإصلاحه وتزكيته، فلعلّه يبقی علی خطئه لسنين طويلة.

۴- الدّعامة الإلهيّة

اشارة

من المعلوم أنّ ما ذكر من الدّعامات والأسس، لا يخلو من واقعيّةٍ على مستوى دفع الإنسان نحو الفضائل الأخلاقيّة، ولكن وكما أشرنا إليه سابقاً أنّها لا تخلو ولا تسلم من الخطأ والإنحراف، مثل دعامة الإنتفاع والإستغلال التى تأخذ طريقها فى أىّ وقت وزمان، فتارةً تسير مع الأخلاق واخرى تُعارضها. والبعض الآخر من الدّعامات له قدرةٌ محدودةٌ فى تحريك الإنسان، و مشوبةٌ بالنّقص والقصور ولربّما أخطأت واشتبهت. و الدّافع الوحيد الخالى عن الخطأ و الإشتباه، والعارى من كلّ نقص فى دائرة المسائل الأخلاقيّة، هو الدّافع الإلهى الذى يكون مصدره اللَّه تعالى و الوحى، فى إطار التّعاليم الدينيّة. وهنا لا تعتبر الفضائل الأخلاقيّة وسيلةً للإنتفاع و الإستغلال، و لا هى وسيلةٌ للرفاه الإجتماعى، (وإن كانت الأخلاق قطعاً، وسيلةً للرّفاه والعمران والهدوء، وتؤمّن المنافع الماديّة أيضاً). فالأصالة هنا للدوافع الروحيّة و المعنويّة، أو بعبارةٍ اخرى أنّ الذّات الإلهيّة المنزّهة، و الّتى هى الكمال المطلق، و مُطلق الكمال، وجميع صفاته الجماليّة و الجلاليّة، تكون هى المحور الأصلى للمسألة، و كلّ إنسان يسعى فى المُضى قُدماً، للوصول إلى الكمال المطلق، و يتحرّك فى حياته المعنوية، من موقع تفعيل نور أسماء الصّفات الإلهيّة فى نفسه، ليشبهه ويتقرب إليه أكثر و أكثر يوماً، بعد يوم (وإن كانت ذاته المقدّسة منزهّةً عن الشبيه الحقيقى)، ويصل إلى الكمال المطلق، فلا حدّ للكمال هناك، و بذلك يعيش بكلّ وجوده، حالة الإستغراق من الحبّ للَّه تعالى، و الكمال المطلق، و تُنير وجوده و باطنه، أنوارُ و صفاتُ الذّات المقدّسة، بحيث يطلب الكمال والرّقى، فى الدّرجات العليا فى كلّ لحظةٍ، فلا يتقيّد بالمنافع الماديّة، ولا يطلب الأخلاق للشخصيّة والإحترام، ولا يكون هدفه الضّمير وحده، بل لديه هدفٌ أسمى وأعلى من كلّ تلك الامور. فلا يأخذ معلوماته من العقل والوجدان فقط، بل يستعين بالوَحى أيضاً، ليميّز فى ظلّه القيم الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۶۹ الحقيقيّة من الكاذبة، و ليمشى بخطى ثابتةٍ مع إيمانٍ و يقينٍ كاملين فى هذا الطريق، والقرآن الكريم، هو خير دليلٍ فى هذا المضمار، و يُصرّح القرآن الكريم، بأنّ الأعمال الأخلاقيّة هى وليدة الإيمان باللَّه واليوم الآخر، ودائماً ما يردف: (العمل الصالح) بالإيمان، وعرّف العمل الصالح، بالّثمرة لشجرة الإيمان. و مثّل الإيمان، بالشّجرة الطيّبة، و جذورها ثابتة فى روح و أعماق الإنسان، و فروعها و أوراقها وارفة، تؤتى بثمارها كلّ حين، و أشار إشارة جميلةً فقال اللَّه تعالى «أَلَم تَرَ كَيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُها ثَابِتٌ وَفَرعُها فِى السَّماءِ تُؤتِى اُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإذنِ رَبِّها» «۱». ومن البديهى، أنّ الشجرة التى تمدّ جذورها فى أعماق القلوب، و تتفرع أغصانها من جميع أعضاء الإنسان، و ترتفع فى سماء حياته، هى شجرةٌ وارفةٌ لا يؤثّر فيها جفاف الخريف، و لا تقلعها العواصف أبداً. «۲» وجاء أيضاً فى سورة «والعصر»، نفس هذا المعنى ولكن بتعبير آخر، فالقاعدةولكن الكلّية هو الخسران و التّضييع للإنسان، والمستثنون من ذلك هم المؤمنون، فى أوّل الأمر، ثم الّذين يعملون الصّالحات ويتواصون بالحقّ و الصّبر: «وَالعَصرِ إنّ الإنسانَ لَفِى خُسرٍ إلّاالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَّبرِ». وجاء نفسُ هذا المعنى و بتعبيرٍ جميلٍ آخر، فى الآية (۲۱) من سورة النور، فيقول الله الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۷۰ تعالى «وَلَولا فَضلُ اللَّهِ عَلَيكُم وَرَحمَتُهُ ما زَكّى مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكنّ اللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ ...». و عليه، فإنّ سمُوّ الأخلاق و العمل و التّزكية الكاملة لا تتمّ، إلّابالإيمان باللَّه ورحمته الواسعة. وجاء نفس هذا المعنى فى سورة (الأعلى فيقول الله تعالى «قَدْ أَفلَحَ مَن تَزَكّى وَذَكَرَ إسمَ رَبّهِ فَصَلّى «۱». فطبقاً لهذه الآيات، فإنّ التّزكية الأخلاقيّة و العمليّة، لها علاقةٌ وثيقةٌ بإسم اللَّه تعالى و الصّلاة والدّعاء، هذا إذا ما إستمدّت أسسها منه سُبحانه و تعالى وحينها ستكون عميقةً و دائمةً، وإذا ما إعتمدت على أسسٍ اخرى فستكون واهيةً و عديمة المحتوى فى الآية (۹۳) من سورة المائدة، جاء وصف جميل، للعلاقة الوثيقة بين التّقوى والأعمال الأخلاقيّة بالإيمان: فقال الله تعالى «لَيسَ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِى ما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأحسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ». فى هذه الآية الشّريفة، تقدّمت التّقوى مرّة على الإيمان والعمل الصّالح، و تأخرت اخرى و تقدمت مرّةً على الإحسان، لأنّ التّقوى الأخلاقيّة و العمليّة تتقدم على الإيمان فى مرحلةٍ ما، و هى التّحضير لقبول الحقّ والإحساس بالمسؤوليّة للبحث عنه. ثم إنّ الإنسان عندما يعرف الحقّ و يؤمن به، فستتكون فى نفسه مرحلةٌ أعلى و أقوى من التّقوى و تكون مصدراً لأنواع الخيرات. وبهذا التّرتيب، تتبيّن العلاقة الوثيقة بين الإيمان و التّقوى وخلاصة القول: إنّ أقوى وأفضل الدّعائم للأخلاق، هو الإيمان باللَّه، والإحساس

بالمسؤولیّة تّجاهه، ومثل هـذا الإیمان هو أبعد مدیً وأرحب افقاً من المسائل المادّیة، و لا یبدّل ولا یعوّض بشیء، فهو یرافق الإنسان فی کلّ مکان ولا ینفصل عنه أبـداً، ولا یوجـد شـیء أفضلُ منه. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷۱ ولـذلک فإنّنا نری أنّ أقوی مظاهر الأخلاق، کالإیثار و التّضـحیة تتجسّد فی حیاة أولیاء اللّه تعالی. و نری أیضاً، فی المجتمعات المادیّة التی توزِن کلّ شیء بمعیار النّفع، أنّ الأخلاق فیها ضعیفةٌ جدّاً، و فی الأغلب أنّ المعترف به رسمیّاً عند الجمیع، هو النّفع الشّخصی المادّی، فالصّدق والأمانة والوفاء وما شـابه ذلک، هی أخلاق حسـنةٌ و سـلوکیات جیـدةٌ، ما دامت تعود بالنّفع علی الفرد، و عنـد تعرّض النّفع المادی للخطر، فسـتفقد لونها وقیمتهـا!!. فالأـبوان العجوزان، و لعـدم نفعهمـا، فمصـیرهما أن یعیشا فی زاویـة النسـیان، و یتمّ نقلهما إلی مراکز و دور العجزة، لینتظرا أجلهما المحتوم. و بمجرّد أنّ یبلغ الأطفال مرحلة الرّشد والمراهقة، فإنّ مصـیرهم الانفصال عن اسـرهم، لا لکی یسـتقلّوا إقتصادیّاً، بل لکی یُنسوا إلی الأبد. و کذلک الأزواج، فهم شرکاء فی الحیاة مادام فی الحیاة الزوجیة نفعٌ ولذّة، و إلّافلا حاجة إلی العلاقة الزّوجیّة و لا ضـرورة للإلتزام بتبعاتها، ولذلک فإننا نری أنّ الطّلاق هناک کأیسر ما یکون، و شایع إلی درجةٍ خطیرةٍ، ففی المذاهب المادیّة التی لا تقوم علی أساسٍ إلهی فی دائرة الأخلاق، یکون الإستشـهاد لدیهم لنیل المقاصد السّامیة، هو الإنتحار بعینه، والکرم الذی یؤدی إلی تبـذیر الأموال، لیس هو إلّانوعٌ من الجنون، و العّفـة و الإسـتقامة علی طریق الفضـیلة، لیست هی إلّاضَـعفٌ فی النّفس، و الزُّهـد بالعالم المادی، لیس هو إلّاسذاجـةً و جهلًا بالحیاة. وما نراه الیوم من التنافس المحموم علی الماديات، و مراکز القـدرة فی هذه المجتمعات، و رؤساء تلک الـدول، هو أفضل و خیر نموذج یعبّر عمّا لدیهم من معاییر للأخلاق المادیّة. و الشّاهد علی ذلک، ما یصدر من الإنتهازیّة و التّعامـل المزدوج للقـوی الإسـتعماریّة تجـاه (حقوق الإنسـان)، فعنـدما تکون حقوق الإنسـان، سـبباً لتعرّض منـافعهم للخطر، فسوف یتجاهلونها ویجعلونها وراء ظهورهم، ویـذبحون القیم الإنسانیّة علی مذبـح المصالـح المادیّة. فأخطر المجرمین والمعتدین علی حقوق الإنسان، یصـبحون مسالمین ومصـلحین، وبالعکس الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷۲ فإنّ الشـخص الـذی یرید أن یدافع عن حقّه فی مقابلهم، یکون هو الشّیطان بعینه، ویجب أن یُقمع بأیّ وسیلةٍ کانت. فنراهم یدافعون عن الدیمقراطیّة و حکومة الشّعب، دفاعاً مُستمیتاً، وفی نفس الوقت نراهم و فی زاویـة أخری من العالم، یـدافعون عن أسوَأ و أظلم المسـتبدّین الدیکتاتوریّین لا لشـیءٍ، الّا لأن الأخلاق عندهم لیست هی: إلّاالنّفع فی بُعده المادی و الشّخصـی. و الإنسان المادی لا یمتلک صورةً واضـحةً عن الأخلاق فی دائرة التّعامل مع الآخرین، بل مفاهیم ضـبابیّةً و صورةً قاتمةً. و الملاحظة الاخری الّتی تجدر الإشارة إلیها، أنّ الماديّین لا یرون فی سـلوکهم الأخلاقی، غیر زمـانهم و مکـانهم الّـذی هم فیه الآـن، ولاـ أهمیّـة عنـدهم لمـا فَعـل المـاضون، و لاـ مـا سـیفعله اللّـاحقون، إلّـاأن یکون له علاقةٌ بحاضـرهم، و منطقهم یتمثّل به قول الشّاعر، حیث یقول: إن أنا مِتُّ فلا طلعت شـمس الضّـحی علی أحـدِ ولکن الموحّدین المعتقدین بالحیاة الآخرة، و محکمة العدل الإلهی فی یوم القیامة، یعتقدون أنّ معطیات الأخلاق وبرکاتها المعنویة، جاریة حتی بعد الممات، ولو إمتدّت لِالاف السّـنین، وسیثاب الإنسان علیها فی الاخری ولذلک لا یتعاملون مع الواقع الدنیوی، من موقع الزّمان الحاضر فقط، بل من موقع التّفکیر فی الغـد البعیـد والحیـاة الخالـدة. وقـد جاء فی الحـدیث المعروف عن الرسول الکریم صـلی الله علیه و آله، أنّه قال: «إذا مات المؤمن إنقطع عمله إلّامن ثلاث، صدقـةٍ جاریةٍ- أی الوقف- أو علمٍ یُنتفع به أو ولدٍ صالحٍ یدعو له» «۱». فالإیمان بالآخرة دافعٌ و حافزٌ آخر، للحثّ علی الأعمال، الأخلاقیـة المهمـة، مثل الصّدقـة الجاریة و الآثار العلمیّة المفیدة و تربیة الأولاد الصّالحین، و الحال أنّ لاـ مفهوم لهـذه الاـمور لـدی المـادیّین. و قـد قسّم المرحوم الشّـهید (مُطهّری)، فی کتاب «فلسـفة الأخلاق»، الأنانیّة إلی ثلاثـة أقسام: (للنّفس، وللعائلـة، و للقومیّـة)، وعـدّها کلّها من الأنانیّة، التی تقف فی الطّرف المقابل الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷۳ للأخلاق، و نقـل کلامـاً عن «کوسـتاف لوبون»، فی کتابه المعروف (حضارة الإسـلام و العرب)، ورأینا أن ننقله هنا إکمالًا للفائـدة. فقـد ذکر هـذا الکاتب الغربی، فی معرض حدیثه عن الشّـعوب الشرقیّة، و أنّهم لماذا وقفوا من الحضارة الغربیّة موقفاً سلبیّاً؟ فعللّ ذلک بالقول: (أولًا: لعدم القابلیّة لدیهم لإستقبال هذه الثّقافة، و ثانیاً: إنّ حیاتهم و معیشتهم تختلف عن حیاتنا و معیشتنا، فحیاتهم بسیطةٌ و ساذجةٌ، بخلاف مـا نحن علیه من التّعقیـد الحضاری فی واقع الحیاة، ثم یردف قائلًا: و لا یخفی مـدی الظّلم الـذی إرتکبته الشّـعوب الغربیّـة فی حقهم.

(وهو عامل مهم آخر). و بعدها أشار إلی الظّلم الذی إرتکبه الغربیّون، فی أمریکا والهند و الصّین، و خصوصاً کان یؤکد علی قضیّة الحرب المعروفة، ب: (حرب التّریاک)، التی شنّها الإنجلیز علی شعب الصین، لأجل السّیطرة علیهم، فنشروا إستعمال التّریاک بین الشعب، لأجل التّسلط علیهم، ولیمیتوا فیهم روح المقاومة، و یکسروا شوکتهم، ولکنّ الصّینیین توجهّوا للخدعة، و تحرّکوا للتّصدی للإنجلیز، الذین صوّبوا مدافعهم، وإنتصروا علیهم بقوّة السّلاح الفتّاک، و إنتشر بین الأهالی إستعمال التّریاک، بحیث جاءت الإحصائیات: (فی ذلک الزمان)، أنه فی کل سنةٍ یموت حوالی ال (۶۰۰) ألف نفر، جرّاء إستعمالهم للتّریاک. «۱» نعم فعندما لا تقوم الأخلاق علی قاعدةٍ متماسکةٍ، من الإیمان و القیم المعنویّة فی واقع الإنسان، فسوف تأخذ بالذّبول و التّراجع، لصالح المنافع الشّخصیّة و النّوازع الدنیویّة العاجلة.

ملاحظة:

ما ذکرناه آنفاً حول دعامة الأخلاق، من وجهة نظر الإیمان بالمبدأ والمعاد، لا یعنی إنکار الدّور الفعّال، ل: «العقل الفطری» فی تعمیق المسائل الأخلاقیّة، فالضّمیر و الوجدان فی الحقیقة، هو رسول اللّه فی أعماق البشر، و من جهةٍ اخری له الأثر الکبیر فی تحکیم المبانی الأخلاقیّة، بشرط أن یصاحبها عنصر الإیمان، وتتخلص من حجب الأنانیّة و هوی النّفس. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷۴ وأکّد القرآن الکریم، علی هذه المسألة مرّات عدیدة، ففی الآیة (۱۰۰) من سورة «یونس»، یقول الله تعالی «وَیَجعَلُ الرِّجسَ عَلَی الَّذِینَ لا یَعقِلُونَ». و فی الآیة (۲۲) من سورة «الأنفال»، نقرأ: «إنّ شرّ الدَّوابِ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُکْمُ الَّذِینَ لا یَعقِلُونَ». و یقول الله سبحانه، عن الّذین یستهزئون بالصّلاة: فی سورة (المائدة) الآیة (۵۸): «اتّخذوها هُزُواً وَلَعِباً ذَلِکَ بِأَنّهُم قَومٌ لا یَعقِلُونَ». وهکذا یتبیّن من خلال ما ذُکر آنفاً، خلاصة رؤیة القرآن المجید للمسائل الأخلاقیة.

الأخلاق والحریّة

اشارة

هناک أبحاثٌ کثیرةٌ، فی مسألة الأخلاق و الحریّة، و هل أنّ الأخلاق تُحدّد و تُقیّد حریّة الإنسان؟ وهل أنّ هذا التّقیید هو فی صالح الإنسان أم لا؟ فبإعتقادنا أنّ هذه الأبحاث، ناشئةٌ من التّفسیر الخاطیء لمعنی الحریّة، ومنها: ۱- یُقال: أنّ الأخلاق تقوم بتحدید حریّة الإنسان، وتعمل علی کبت القابلیّات فی المحتوی الدّاخلی للإنسان. ۲- و تارةً یقولون: إنّ الأخلاق تقمع الغرائز، و تمنع من تحقّق السّعادة الواقعیّة للفرد، ولو لم یکن فی الغرائز فائدةٌ، فلماذا خلقها اللّه تعالی . ۳- و تارةً اخری یقولون: إنّ البرامج الأخلاقیّة، تخالف فلسفة أصالة اللّذة، ونحن نعلم أنّ الهدف من الخلق، هو «اللّذة» التی یرید أن یصل إلیها الإنسان. ۴- واخری یقولون، و فی النّقطة المعاکسة لها: أساساً إنّ البشر لیس حُرّاً فی سلوکه الأخلاقی، بل هو مجبور وواقع تحت تأثیر عوامل کثیرة، ولذلک فلا تصل النوبة للوصایا الأخلاقیّة. ۵- وأخیراً یقولون: إنّ الأخلاق مبنیّة علی أساس إطاعة اللّه تعالی وهی لا تخلو من الخوف أو الطّمع، وکلّ هذه الامور تتقاطع مع الأخلاق! الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷۶ هذا التّناقض فی الأقوال، إن دلّ علی شی، فهو دلیلٌ علی عدم التّقییم الصّحیح لمفهوم الحرّیة، هذا من جهةٍ، و من جهةٍ اخری لم تُدرس الأخلاق الدینیّة، و خصوصاً الأخلاق الإسلامیّة، دراسةً کافیةً و وافیةً. ولذلک یجب أن ندرس فی بادی الأمر، مسألة الحریّة. و لماذا یطلب الإنسان الحریّة بکلّ وجوده؟، و لماذا یجب أن یکون الإنسان حرّاً؟، و ما هو دور الحریّة فی تربیة الجسم و الرّوح؟، و بکلمةٍ واحدةٍ: ما هی «فلسفة الحریّة»؟. إنّ الجواب علی کلّ هذه الأسئلة یتلخّص فی ما یلی: یوجد فی داخل الإنسان قابلیاتٌ و ملکاتٌ و قوی خفیّةٌ، لا تخرج من القوّة إلی الفعل إلّا بالحریّة، والإنسان یسعی للتّکامل، و یتحرک علی مستوی ترشید إستعداداته و قُدراته، فهو یطلب الحریّة لأجل ذلک. ولکن هل أن الحرّیة التی تساعد

علی تفعیل قدرات الإنسان، هی حریة بلا قید ولا شرط، أم أنّها الحریّة المتحرّکةِ فی إطارٍ من التّنظیرِ العقلی و الدّینی؟. و یُمکن تبیان هذا المطلب مع ذکر مثالین: إفترضوا أنّ هناک فلّاحاً، قرّر أن یزرع أنواع الورود والفواکه فی بستانه، و تحرّک لتحقیق هذا الغرض، علی مستوی حرث الأرض و غرس النّباتات وسقیها فی موعدها فی کلّ مرّةٍ، فَمن البدیهی أن تکون الشّجرة مغروسةً فی الفضاء الحرّ، لتأخذ قِسطها من النّور و الهواء و المطر، و ستمدّ جذورها فی الأرض بحرّیةٍ، و إذا لم تتوفرلها تلک العوامل، فلن تثمرَ ولن یحصلَ الفلّاح علی ثمن أتعابه، وبناءاً علی ذلک، فإنّ حریّة الجذور و الأوراق، ضروریّة لکی تعطی الثمر، ولکن من الممکن أن ینحرف غُصن من الأغصان فی تلک الشّجرة، فیقطعه الفلّاح بلا رحمةٍ و لا رأفةٍ، لأنّ هذا الغَصن یستهلک قوّة الشّجرة، فلا أحد له الحقّ فی الإعتراض علی الفلّاح، بسبب هذا العمل. و یمکن أن یُقَوِّم الفلّاح الشّجرة المائلة، أو الفرع المعوّج، بشدّه إلی خشبةٍ مستقیمة، فکذلک لا حقّ لأحدٍ أن یعترض علیه فی ذلک، و یقول له: لماذا قیّدت الشّجرة بهذا القید، ولم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷۷ تترکها حرّةً، لأنّه سیقول: إنّ الشّجرة یجب أن تکون حرّةً لکی تُثمر، لا أن معوّجة فتذهب بأتعابی سُدیً. وکذلک بالنسبة للإنسان، فلدیه ملکاتٌ و قابلیاتٌ مُتنوّعةٌ و مهمّةٌ، و إذا ما نُظِّرت تَنظیراً صحیحاً، فستصعد به إلی أعلی درجات الرّقی والکمال المادّی والمعنوی، فهو حرٌّ فی الإستفادة من قابلیاته فی الطّریق السّلیم، لا أن یُهدِر هذه القابلیّات فی الطرق المنحرفة. فالذّین فسرّوا الحریّة، بمعناها العام الشّامل بلا قید ولا شرط، ففی الحقیقة لم یفهموا معنی الحریّة، فالحریّة هی الإستفادة من الطّاقات فی الطّریق الصّحیح، الذی یوصله للأهداف العُلیا: (ماديةٌ کانت أم معنویةٌ). و مثالٌ آخر، حرّیة المرورِ و العبورِ فی الطّرق الواسعة و الضّیقة، فالغرض هو وصول الإنسان لمقصده، ولکن هذا لا یعنی أبداً، عدم الإلتزام بقوانین المرور، حیث یؤدی إلی الهرج و المرج، و الفَوضی فی حرکة المرور. فلا یوجد إنسانٌ عاقلٌ یقول: إنّ التّقید بقوانین المرور ورعایتها، مثل التّوقف عند الضّوء الأحمر، أو عدم المرور فی طریقٍ ما، أو السّیر علی الجانب الأیمن، وما شابهها من الامور، التی توجب تحدید حریّة السّائق، فالکلّ سوف یستهزیء بمثل هذا الکلام، حیث یقال له، إنّ الحرّیة یجب أن تکون؛ ضمن المقررات و القوانین التی تراعی من أجل سلامة الإنسان و أموال و ممتلکات الآخرین و لا تسبب فی الهرج و المرج، وقتل الأبریاء دون مُبرِّر، أو تفضی إلی عدم الوصول بسلامةٍ للمقصد والغایة. فکثیرٌ من هذه الحریّات هی کاذبةٌ، و نوعٌ من التّقیید الحقیقی. فالشّاب الذی یسیء الإستفادة من حریته، و یستعمل المخدّر المیت، فهو فی الواقع یکون قد أمضی حُکم أسرهَ و تَسلّط الغیر علیه، فالحریّة التی تُصاحب الإلتزام بالموازین الأخلاقیة، هی التی تُعطی للإنسان الحریّة الحقیقیّة و تجعله متمکّناً من نفسه و مسیطراً علی أهوائه و نوازعِهِ النّفسیة، و کم هو جمیل کلام أمیرالمؤمنین علیه السلام، حیث یقول: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۷۸ «إنّ تقوی اللّه مفتاحُ سَدادٍ، و ذخیرةُ مَعادٍ، وعتقٌ من کلّ مَلکةٍ، ونجاةٌ من کلّ هلکةٍ» «۱». و ممّا ذُکر آنفاً، تتجلی الحریّة الحقیقیّة من الکاذبة، ویتمّ منع إستغلال هذا المفهوم المقدّسُ فی طریق الإنحراف و الزّیغ، فلا یحقّ لأحدٍ أن یتذرّع، بکبتِ الأخلاق لطاقاتِ الإنسان، و یستشکِل علی القِیم الأخلاقیّة. وممّا تقدّم أیضاً، تتّضح الإجابة علی من یدّعی، قمع الأخلاق للغرائز، و أنّ اللّه تعالی خلق الغرائز فی الإنسان، لتحقیق الغرض منها، وأشباعها بأدوات الحریّة و التّحرر من قیود الأخلاق. فالغرائز فی الإنسان، مثلها کمثل قطراتُ المطر، تنزل من السّماء بِقدرٍ لتُحیی الأرض، و لولا فائدتها، لما أنزلها الباری تعالی ولکن هذا لا یعنی فسح المجال لتلک القطرات لِتَتجَمَّع، و تکوّن السّیول لإهلاک الحرث و النّسل، بل یجب أن تُقام السّدود فی طَریقها، و فتح منافذ صغیرة منها لتمد الحیاة البشریة بالماء، و تکون الفائدة فیها أعمّ و أشمل، فیما لو سیطر علیها الإنسان، و أخضعها لضوابط معیّنة، وکذلک الحال بالنّسبة لغرائز الإنسان، فإذا اطلق لها العِنان، فستبید کلّ شیءٍ أمامها، و تدّمر کلّ شیءٍ فی حرکةِ الحیاة الفردیّة و الإجتماعیة للإنسان. و یُستنتج مما ذُکر سابقاً، أنّ الأخلاق لا تقف سدّاً فی طریق الإنسان، و لا تمنعه من ترشید قابلیاته و ملکاته، و لا تقمع الغرائز فی واقعه، بل إنّ الأخلاق وسیلةٌ للوصول للکمال المنشود، فی حرکة الإنسان والحیاة. ومن خلال التّفسیر الصّحیح للحریة، الذی ذکرناه آنفاً تتّضح الإجابة علی أسئلة المخالفین للأخلاق.

الإعتقاد بالجَبر، و بالمسائل اللأخلاقیّة:

لا شک أنّه یوجد إرتباطٌ و علاقةٌ و ثیقةٌ، بین الإعتقاد بحریّة الإرادة للإنسان، و «المسائل الأخلاقیّة»، و کما أشرنا سابقاً، أنّ نفی حریّة الإنسان، هو نفیٌ و تعطیلٌ لجمیع المفاهیم الأخلاقیّة. وبناءاً علی هذا نجد، أنّ الأدیان الإلهیّة المتعهّدة بتربیة وتهذیب النفوس والأخلاق، من أقوی المدافعین عن حرّیة الإنسان!. وبناءاً علی هذا أیضاً، نجد فی القرآن الکریم آیاتٌ عدیدةٌ و کثیرةٌ تبلغ المئات، تثبّت الإختیار و حریّة الإرادة للإنسان، و تنفی الجَبر عنه، و قد ذُکرت فی مباحث الجَبر و الإختیار «۱». فالأمر و النّهی و التّکالیف الاخری و الدّعوة إلی الثّواب و العقاب، و الحساب و المحاکم و القوانین و العقوبات، کلها امور تؤکّد علی مسألة الإختیار، و حریّة الإرادة عند الإنسان. وإذا ما شاهدنا بعض الآیات تُوافق مذهب الجَبر، فهی ناشئةٌ من عدم الإنتباه و التّوجه الصحیح لتفسیر تلک الآیات، فتلک الآیات ناظرةٌ إلی نفی التّفویض، و لا تثبت الجبر، و الشّاهد علیها هو القرآن الکریم نفسه، و قد أشرنا إلیها سابقاً، ولیس هنا محلّ للبحث فیها. فالإعتقاد بالجَبر، و سلب حریّة الإنسان، یمکن أن یکون عاملًا مهمّاً، لکلّ تحلّل أخلاقی، فالُمجرم ولتبریر أفعاله المشینة یتذرّع بالجَبر، وأنّه لا یستطیع أن یُغیّر مصیره المحتوم علیه، و لذلک یتحرّک فی خطّ الإنحراف، و ینحدر فی مُنزلقات المعاصی أکثر، فالتّاریخ یُحدثنا، عن مجرمین خاضوا غمار الجریمة، استناداً إلی مُبرّرات مذهب الجَبر، وکانوا یعذرون أنفسهم، فی إرتکابهم لتلک الأعمال و الذّنوب، و یقولون: (إذا کنّا صالحین أو طالحین، فلیس لنا من الأمر شیء، فالُمبدع الأزلی هو الذی زرع فینا ذلک، و جعل مصیرنا أن نکون من أهل الشّقاء!، فلا المحسنین لهم الحق بالإفتخار بإحسانهم، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۰ ولا علی المسیئین ملامة!). وبناءاً علی ذلک، فقد تحرّک الأنبیاء علیهم السلام، قبل کلّ شیء لتوکید الإرادة الإنسانیّة، و خصوصاً نبیّ الإسلام صلی الله علیه و آله، و لأجل تحکیم الاسس الأخلاقیّة و تهذیب النّفوس. وعلی کلّ حال، فبحث الجَبر و الإختیار، و المسائل الاخری مثل القضاء والقدر، و الهدایة و الضّلالة، و السّعادة و الشّقاء، من وجهة نظر القرآن الکریم، هو بحثٌ مستقلٌ وسیعٌ، سنتطرق لتفسیره الموضوعی فی المستقبل إن شاء اللّه، و الهدف هنا هو الإشارة لهذه المسألة، و تأثیرها فی المسائل الأخلاقیة، و لیس الدخول فی تفاصیلها فعلًا. أمّا الذین یتحرکون من موقع اللّذة، و یعتبرونها من أهمّ القیم، فهؤلاء لا یعتبرون الأخلاق من المُثل النّبیلة و السّلوکیات الحسنة، لأنّها لا تُوافق اصولهم، وکما قال «آریس تیب»، الذی وُلد قبل المیلاد: الخیر هو اللّذة، ولا شرّ سوی الألم، والهدف النّهائی للإنسان فی الحیاة: هو التّمتع بلذائذ الدنیا، و لا یجب التّفکیر بنتائجها الصّالحة أو السیئة) «۱». هذا وقد غاب عن اولئک، أنّنا و علی فرض حصرنا اللذائذ فی الماديّات فقط، و ترکنا اللّذائذ المعنویّة الّتی هی أعلی و أسمی لذّةٍ للرّوح، فلا یمکن الوصول للذائذ المادیّة إلّابرعایة الأخلاق، وذلک لأنّ التّمتع والإلتذاذ بالشّیء، من دون قید أو شرطٍ، یعقبه ألم شدید علی مستوی النّفس و البدن، و لأجله یجب أن نصرف النّظرَ عن تلک اللذّة التی یعقبها ألم أقوی وأشد. وهذا الکلام وإن کان قد صدر، ممّن یُعتبرون فی عداد الفلاسفة، ولکنّه فی الحقیقة یشبه کلام المعتاد علی الأفیون، الّذی إذا نصحوه قالوا له: إنّ لذّتک هذه ستسبب لک المتاعب والآلام العظام، فیجیب: إنّ اللّذة الحاضرة هی الأصل، ولا یعلم ماذا سیکون فی الغد، ولکن الذی ینتظره فی الغد، لیس سوی المرض العصبی، و الإرهاق و القلق، و ما إلی ذلک الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۱ من إفرازات الإدمان علی تلک المواد المخدّرة، وسیعیش النّدم الشّدید فی تلک الحال، و یتأسف علی ما إقترفته یداه، ولکن أنّی للتأسّف أن یحلّ المشکلة، و قد اغلق علیه سبیل العودة، إلی الحریّة والکرامة کما هو الغالب. فالوصایا الأخلاقیة، للحثّ علی العفّة والأمانة و الصّدق والرجولة، کلّها من هذا القبیل، والمجتمع الذی تتفشی فیه الخطیئة والخیانة، کیف یعیش أفراده حالة اللّذّة المعنویّة و السّعادة، فی حرکة الحیاة والواقع الإجتماعی؟ فالناس الّذین ملأ البخل وجودهم، و یطلبون کلّ شیءٍ لنفعهم و لذّتهم الشّخصیة، لا تکون لدیهم حصانةٌ أمام المشکلات، و سیکونون عرضةً للتّمزق و التشرذم، لأدنی أزمةٍ علی مستوی الحیاة الدنیویّة، لأنّ الفرد فی ذلک المجتمع یکون وحیداً فریداً، و الصّمود أمام المشکلات، لمن یعیش الوحدة و الإنفراد، أمرٌ فی غایة الصّعوبة، ولکن إذا تفشّت روح التّعاون و السّخاء والرجولة فی المجتمع، فسینطلق الناس من موقع مساعدة بعضهم البعض، وعندما یقع أحد الناس فی مأزقٍ، فسیعینه الآخرون، فلا یشعر

الفرد بالوحدة هناک، بل سیجد فی نفسه عنصر المقاومة و الصّمود أمام المشکلات والأزمات. وهذا ما أشرنا إلیه سابقاً بالتّفصیل، و بالإعتماد علی الآیات القرآنیّة الکریمة، بأنّ الاصول الأخلاقیّة عند تطبیقها، لها بُعدان و فائدتان: معنویّة و ماديّة، و مع غضّ النّظر عن البُعد المعنوی، فالبُعد المادی فیها له شمولیّةٌ واسعةٌ، و یستحق معها التمسّک بکلّ الاصول الأخلاقیّة، کی نعمّر دنیانا ونجعل منها جنّةً ملیئةً باللّذة، ونتجنّب النّار المحرقة، المتولدة من الوقوع فی وَحِلّ المفاسد الأخلاقیّة. و الآن نبحث فی المذهب القائل: بأنّ الأخلاق الدینیّة علی مستوی الممارسة و التّطبیق، و الّتی تنشأ فی الحقیقة من طاعة اللّه تعالی خوفاً أو طمعاً. و هذه الامور تُعتبر مضادّةً للأخلاق؟ «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۲ ویمکن أن یُنتقد هذا الکلام من جهتین: ۱- التّعبیر بالخوف و الطّمع، تعبیرٌ غیر صحیح، و الصّحیح أن یُقال، بأنّ بعض أتباع الأدیان، و لأجل نَیل السّعادة الاخرویّة، و النّجاة من العقوبات الناشئة من العدل الإلهی، یتخلّقون بالأخلاق الحسنة، لکنّه لیس أمراً یخالف الأخلاق، لأنّه یُبدّل لذّة الحیاة الفانیة بلذّة الآخرة الباقیة، ویُفدی المصادر الصغیرة بالمواهب الکبیرة. ۲- هل یرتکب الشخص أمراً مخالفاً للأخلاق، لأنّه لا یکذب ولا یخون، بدافع من خشیته من فضیحة الکذب والخیانة؟، أو ذاک الذی یمتنع من الشّراب، و یتجنب المادة المخدّرة، لیحافظ علی صحته و سلامته، هل یکون عمله هذا منافیاً للقیم الأخلاقیة؟ و کذلک الشّخص الذی یُداری النّاس ویتواضع لهمُ و یعاملهم بأدبٍ و إحترام، لئلّا یفقدهم ولا یبقی وحیداً فریداً فی هذه الدنیا، فهل یرتکب بذلک عملًا مُخالفاً للأخلاق؟. والخلاصة: إنّ کلّ عملٍ أخلاقی، له آثار و منافع ماديّة فی حرکة الإنسان و الحیاة، و لا یمکن تسمیّة تلک الآثار بالطّمع، وکذلک الحال فی الإمتناع، عن بعض السّلوکیات المشینة و الأفعال القبیحة، لا یمکن أن یعبّر عنه، بالخوف والجُبن فی دائرة الصّفات الأخلاقیّة.

اصول المسائل الأخلاقیّة فی القرآن الکریم

اشارة

قبل الخَوض فی هذا البحث، یتحتم علینا إلقاء نظرة علی اصول المسائل الأخلاقیّة فی المذاهب الاخری ۱- جَمعٌ من الفلاسفة القدماء، الذین یُعتبرون من المؤسّسین لعلم الأخلاق، جعلوا للأخلاق أربعة اسس، أو بالأحری لخّصوا الفضائل الأخلاقیّة فی أربعة اصول، هی: ۱- الحکمة. ۲- العفّة. ۳- الشجاعة. ۴- العدالة. و أحیاناً یضمّون إلیها العبودیّة للّه‌تعالی، و یجعلونها خمسة اصول. و یعتبر المؤسّس لهذا المذهب هو «سقراط»، فکان یعتقد أنّ: (الأخلاق تعتمد علی معرفة الحسن والقبیح من الأفعال، والفضیلة بصورةٍ مطلقةٍ لیست هی إلّاالعلم والحکمة؛ أمّا العلم فی مورد الخوف أو الإقدام، یعنی العلم والإطّلاع علی الشّیء الذی یتوجب علی الإنسان الخوف منه، أو عدم الخوف من شیءٍ ما یعتبر من «الشّجاعة»، وإذا کان فی صدد المُنی النفسیة، فیدّعی ب: «العفّة»، وإذا کان العلم بالقواعد الحاکمة علی ملاقات الناس وروابطهم مع بعضهم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۴ البعض، فالمقصود منه هو «العدالة»، وإذا کان العلم فی دائرة وظائف الإنسان مع خالقه هو «التدین والعبودیة»، فهذه الفضائل الخمسة، یعنی: الحکمة، والشجاعة، والعفّة، والعدالة، والعبودیة، هی الاصول الاولی للأخلاق السُّقراطیّة) «۱». وکثیر من علماء الإسلام الذین کتبوا وبحثوا فی علم الأخلاق، قبلوا هذه الاصول الأربعة أو الخمسة، و دقّقوا فیها أکثر، وبنوا لها اصولًا أقوی وأفضل من سابقتها، وجعلوها أساساً لرؤاهم الأخلاقیّة فی کلّ المجالات. یقولون فی نظرتهم الجدیدة لهذه الاصول: إنّ نفس وروح الإنسان فیها ثلاثة قوی هی: ۱- قوّة «الإدراک» وتشخیص الحقائق. ۲- قوّة جلب المنفعة أو بتعبیر آخر «الشّهوة»، (بمعناها الوسیع، لا الجنسیّة فقط وتشمل کلّ طلبٍ و إرادة). ۳- القوّة الدّافعة أو بتعبیر آخر «الغضب». وبعدها إعتبروا الإعتدال فی کلّ قوّةٍ، هو إحدی الفضائل الأخلاقیّة، و أطلقوا علی الفضائل المنبعثة من هذه القوی ب: «الحکمة» و «العفّة» و «الشّجاعة»، بالترتیب. وأضافوا أیضاً: کلّما أصبحت قوّة الشّهوة و الغضب خاضعة لسلطة القوّة المدرکة، و تمییز الحقّ من الباطل، فسوف ینتج عندنا الأصل الرّابع وهو «العدالة». و بعبارةٍ اخری: إنّ تحقیق الإعتدال فی کلّ من القوی الثّلاثة، یعتبر فضیلةً، و

هذا الإعتدال یسمّی ب: «الحکمة» أو «العفّة» أو «الشّجاعة»، وترکیبها مع بعضها البعض، یعنی تبعیّة الشّهوة والغضب للقوّة المدرکة، یعتبر فضیلةً اخری تسمّی «العدالة»، وکثیراً ما نری أنّ الإنسان لدیه الشّجاعة و فی حدّ إعتدال قوّة الغضب، لکنّه لا یوجّهها التّوجیه الصّحیح، و لا یستعملها الإستعمال الصحیح، «کما لو إستعملها فی الحروب غیر الهادفة»، فهنا قد تکون لدیه شجاعة ولکنّها لا تعنی العدالة، أمّا لو إستعمل صفة (الشّجاعة) فی نطاق الأهداف السّامیة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۵ العقلائیّة، أی مزجها مع الحکمة، فسیحقّق عندها حالة «العدالة». وعلیه، فإنّ هذه الفئة من علماء الإسلام، جعلوا کلّ الفضائل و الصّفات الإنسانیّة البارزة، تحت أحد هذه الاصول، و بإعتقادهم أنّه لا توجد فضیلة، إلّاوتندرج تحت أحد هذه العناوین الأربعة، وبالعکس فإنّ الرذائل دائماً، تأخذ طریق الإفراط و التّفریط لهذه الفضائل الأربعة. ومن أراد التّفصیل والإطّلاع علی هذا المذهب الأخلاقی؛ فلیراجع کتاب: «إحیاء العلوم» و کتاب «المحجّة البیضاء» «۱».

نقد وتحلیل:

إنّ التّقسیم الرّباعی المذکور، لیس وکما یبدو أنّه شیء مُبتکر من قبل حکماء الإسلام، بل هو نتیجة تحلیلات علماء الإسلام لکلمات حکماء الیونان، و إسترفادهم من نظریاتهم وآرائهم بعد تنقیحها، رغم وجود إشارات لها فی مصادرنا الروائیّة، کما جاء فی الروایة المرسلة المنسوبة للإمام أمیر المؤمنین علیه السلام، حیث قال: «الفَضائِلُ الأربَعَة أَجناسٍ: أحَدُهُما: الحِکْمَةُ وَقِوامُها فِی الفِکرَةِ، و الثّانِی: العِفَّةُ وَقِوامُها فی الشَّهوَةِ، وَالثّالِثُ: القُوَّةُ وَقِوامُها فِی الغَضَبِ، وَالرّابِعُ: العَدلُ وَقِوامُهُ فی إعتِدالِ قُوی النَّفسِ» «۲». فکما ترون، أنّ هذا الحدیث لا یوافق بصورةٍ کاملةٍ، تلک التّقسیمات الأربعة التی ذکرها علماء الأخلاق، بل هو قریبٌ منها، وکما أشرنا سابقاً أنّ الحدیث مُرسلٌ و سندُه لا یخلو من إشکال. و علی کلّ حال فإنّ هذه الاطروحة، الّتی ذکرها علماء الأخلاق، أو حُکماء الإغریق الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۶ والیونان، ترد علیها هذه المآخذ: ۱- بعض الملکات الأخلاقیة، «والّتی هی جزءٌ من الفضائل الأخلاقیّة قطعاً»، نلاقی صُعوبةً فی إدخالها تحت أحد هذه الاصول الأربعة، فمثلًا (حُسن الظّن)، یُعتبر من الفضائل، و یقابله (سُوء الظن)، فإذا أردنا إدخاله تحت أحد هذه الاصول، فیجب أن ینضوی فی دائرة الحکمة، والحال أنّنا لا یمکننا أن نجعله من فروع الحکمة، لأنّ حُسن الظّن شیءٌ آخر غیر التّشخیص الصّحیح للواقعیات، و رُبّما ینفصل عنه بوضوح، بمعنی أنّ القرائن الظنّیّة تشیر إلی صدور الذّنب و الخطأ من شخصٍ ما، لکن و بحسن الظنّ یتجاوز عنها. و کذلک الصّبر علی النوائب، و الشکر علی النّعمة، فهو بلا شک یعتبر من الفضائل، لکنّنا لا نستطیع أن نجعله فی دائرة قوّة التّشخیص والإدراک، ولا فی مسألة جلب المنافع ولا دفع المضار، خُصوصاً إذا کان الشّخص الصّابر و الشّاکر، لا یرتجی منها نفعاً مستقبلیاً، و تمسّکه بها إنّما کان لقیمتها الذاتیّة، (أی: الصّبر و الشّکر). وقد یوجد غیر قلیل من أمثال هذه الفضائل، التی لا یمکن أن نجعلها وندرجها تحت أحد هذه العناوین. ۲- «الحکمة» تعتبر من اصول الفضائل الأخلاقیّة، و الإفراط و التّفریط فیها تُعتبر من الرّذائل الأخلاقیّة، والحال أنّ الحکمة ترجع إلی تشخیص الحقائق و الوقائع، و تعود الأخلاق للعواطف والغرائز والملکات النفسیّة، و لا تعود لإدراکات العقل، و علیه لا یُقال إنّ الُمتفتح الذّهن هو حسن الأخلاق، فالأخلاق یمکن أن تکون وسیلةً و أداةً للعقل، و لا تُعتبر قوّة العقل والإدراک من الأخلاق، أو بعبارةٍ اخری: أنّ العقل و قوّة الإدراک هی الموجّهة لعواطف وغرائز الإنسان، فی حرکة الحیاة و السّلوک، و تعطیها شکلها الأوفق، والأخلاق هی کیفیّةٌ تعرض علی الغرائز و المیول الإنسانیّة. ۳- الإصرارُ علی أنّ الفضائل الأخلاقیّة دائماً، هو الحدّ الأوسط بین الإفراط و التّفریط: لا یبدو سلیماً، و إن کان فی الأغلب هو کذلک، لأنّنا نجد موارد لا یتحقّق فیها الإفراط، فمثلًا القُوّة العقلیّة، کلّما کانت أقوی کانت أفضل، و لا یُتصوّر فیها إفراط، فلیس من الصحیح جعل الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۸۷ «الدّهاء والمکر»، هو الإفراط فی القوّة العقلیة، لأنّ «الدّهاء والمکر» لا ینشأ من الذّکاء والفهم، بل هو نوعٌ من الإنحراف و الإشتباه فی المسائل، للعجلة فی الحکم علی الامور و ما یُشابهها. فالرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، وصل إلی درجةٍ فی العقل و الفکر، بحیث اطلق علیه العَقلُ الکلّ، فهل هذا مخالفٌ للفضیلة؟! و صحیحٌ أنّ العقل و

الـذّكاء المُفرط، يسبّب آلامـاً ومصـاعب لاـ يلاقيهـا الغافلون، غير المطّلعين، ولكنّه مع ذلك يعتبر من الفضائل والكمالات. وكـذلك «العدالـة»، حسبوها من الفضائل الأخلاقيّة، و الإفراط و التّفريط فيها هو «الظّلم» و «الإنظِلام»، أى (قبول الظّلم)، و الحال أنّ قبول الظّلم والإنصياع له لاـ يمكن أن يُعتبر من التّفريط فى العدالـة أبـداً، بـل هو مقولـةٌ اخرى. وبنـاءاً على ذلـك، فمسألـة الإعتـدال فى صِـفات الفضـيلة، فى مقابل الإفراط و التّفريط للصّفات الرّذيلة، يمكن أن يكون مقبولًا فى أغلب الموارد، ولكن لا يمكن أن يُعتبر حُكماً عامّاً، و أصلًا أساسياً فى البحوث الأخلاقيّة. النتيجة: أنّ الاصول الأربعة التى أعدّها القدماء للأخلاق، هى فى الواقع إكمالٌ لما جاء به فلاسفةُ اليونـان القُـدماء، لكنّهـا لاـ يمكن أن تكون نموذجـاً ومقسـماً جامعـاً للصّـفات الأخلاقيّة، وإن كـانت تصـدق على كثيرٍ من المسـائل الأخلاقيّة.

العودة للُاصول الأخلاقيّة فى القرآن الكريم:

نعود لتحليل الاصول الأخلاقيّة التى نسـتوحيها من القرآن الكريم، فنحن نعلم أنّ القرآن الكريم لم يُنظّم ككتابٍ تقليدى، فى أبوابٍ و فصولٍ، كما هو المتعارف اليوم، بل هو مجموعةٌ من القاءات الوحى السّـماوى، نزل بالتّدريج على حسب الحاجة و الضّـرورة، ولكن و بالإسـتفادة من طريقة التّفسـير الموضوعى، يمكن وضعه فى مثل هذه القوالب. و من التّقسيمات الّتى يمكن إستيحاؤها و إستفادتها من مجموع الآيات القرآنية، هو تقسيم الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۸۸ اصول الأخلاق إلى أربعة أقسام: ۱- المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة بالخالق. ۲- المسائـل الأخلاقيّة المتعلّقـة بالخَلق. ۳- المسائـل الأخلاقيّة المتعلّقـة بالنّفس. ۴- المسائـل الأخلاقيّة المتعلّقـة بالكون و الطّبيعـة. فمسألـة شـكر المُنعم والخضوع أمـام البـارى تعـالى، و الرّضـا و التسّـليم لأـوامره، و ما شابهها، يُعتبر من المجموعـة الاولى. و التواضع، و الإيثار، و المحبّة، و حُسن الخلق، و المُواساة، تـدخل فى دائرة المجموعة الثّانية. تزكية النّفس وتطهير القلب من الأدران، و تفعيل عناصـر الخير، لمقاومـة الضّـغط و التّحديات التى يُواجهها الإنسان فى حركة الواقع والحياة، تدخل فى نطاق المجموعة الثّالثة. و أمّا عـدم الإسـراف والتّبـذير، و إتلاف المواهب الإلهيّة؛ فإنّه يُعتبر من القسم الرّابع. كلّ هـذه الاصول الأربعـة، لها جـذور واصول فى القرآن الكريم، وسنشـير إلى كلّ واحـدٍ منها فى المباحث الموضوعيّة الآتيـة. و بالطبع فإنّ هـذه الشّعب الأربعـة، تختلف عمّا جاء فى كتـاب «الأسـفار» للفيلسوف المعروف: «ملّا صـدرا الشّـيرازى»، و أتباع مـذهبه، فهؤلاء و طِبقاً لطريقـة العُرفاء، شـبّهوا الإنسان وحركته التكامليّة: ب: (المسافر)، و عبّروا عن مسائل بناءِ الذّات و صـياغة الشّخصية بالسّير و السّلوك، و جعلوا للإنسان أربعةَ أسفارٍ، هى مَطمع السّالكين و العُرفاء، و أولياء اللّه: ۱- السّـفر من الخلق إلى الحقّ. ۲- السّـفر بالحقّ فى الحقّ. ۳- السّـفر من الحقّ إلى الخلق بالحقّ. ۴- السـفر بـالحقّ فى الخلق. ومن المعلوم أنّ هـذه الأسـفار أو المراحـل الأربعـة لبناء الـذات، و السّـير و السّـلوك إلى اللّه تعالى، تتحرك بإتجاهٍ آخر غير ما نحن بصـددِه، و إن كانت تتشابه فى بعض أقسام الفروع الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۸۹ الأربعة، للأخلاق الآنفة الـذّكر. و توجـد فى القرآن الكريم آيـات، نعتقـد أنّها رَسـمت الاصول الكليّة للأخلاق، ومن هـذه الآيات، الآيات الوادرة فى (سورة لُقمان) و الّتى تبـدأ من هـذه الآيـة: «وَلَقَـدْ آتَينا لُقْمَانَ الحِكْمَـةَ أَنْ اشْـكُرْ للَّهِ» «۱». إنّ أوّل مـا يشـرع فيه الإنسـان فى مضـمارالعقائد و المعارف، هو شُـكر المُنعم، و أوّل خطوةٍ فى طريق معرفة اللّه تعالى، هى مسألة شـكر المُنعم، أو بعبارةٍ اخرى، كما صرّح علماء العقائد والكلام: إنّ الدّافع للحركةإلى اللّه تعالى هو شكر النّعمة، لأنّ الإنسان عندما يفتح عينه، يرى نفسه غارقاً فى بحر النّعم، فيدعوه الضّمير مُباشـرةً إلى معرفـة المُنعم، و هـذا هو بدايـة الطّريق لمعرفة اللّه تعالى. و بعدها تتطرّق الآية لمسألة التّوحيد وتقول: «لا تُشْـرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». وفى المرحلة الاخرى، يتناول القرآن الكريم مسألة المعاد، و هى الأساس الثّانى و المهم للمعارف الدّينية ويقول: «يـا بُنَيَّ إِنَّهـا إِنْ تَـكُ مِثْقـالَ حَبَّةٍ مِـنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَـخْرَةٍ أو فِى السَّمَـواتِ أو فِى الأَـرْضِ يَـأْتِ بِهـا اللَّهُ» «۲». ثم يتطرق للُاصول الأساسيّة للأخلاق والحكمـة العمليّة، ويشـير للُامور التاليّة: ۱- مسألـة إحترام الوالـدين وشـكرهم بعـد شـكر الخالق: «وَوَصَّينا الإِنْسانَ بِوَالِدَيهِ ... أَنِ اشْـكُرْ لِى وَلِوَالِدَيكَ» «۳». ۲- إعطاء الأهميّة للصـلاة، و علاقته باللّه والـدعاء والخضوع له: «أَقِمْ الصَّلاةَ» «۴». ۳- الأمر

بالمعروف و النّهی عن المنکر: «وَامُرْ بِالمَعرُوفِ وَإِنْهَ عَنِ المُنْکَرِ» «۵» ۴- الصّبر علی نوائب الدّهر: «واصبِرْ عَلَی ما أَصابَکَ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۰ ۵- حُسن الخُلق مع النّاس: «وَلا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ» «۱». ۶- التواضع و ترک الکِبر مع النّاس و الخلق: «وَلا تَمْشِ فِی الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ» «۲». ۷- الإعتدال فی المشی وفی کلّ شیء: «وإقْصِدْ فِی مَشْیِکَ واغْضُضْ مِنْ صَوتِکَ» «۳». وعلی هذا التّرتیب، نری أنّ القسم الأکبر من الفضائل الأخلاقیّة، جاءت فی الآیات القرآنیّة تحت عنوان: «حکمةٌ لقمان»، التی تشمل الشّکر والصبر و حُسن الخلق و التوّاضع و الإعتدال و الدّعوة للإحسان، و مقاومة النّوازع و الأهواء النّفسانیّة، کلّ ذلک فی ضِمن سبعِ آیاتٍ، من الآیة (۱۳ إلی ۱۹). وجاء فی الآیات الثلاث من سورة الأنعام، التی تبدأ بالآیة (۱۵۱) و تنتهی بالآیة (۱۵۳)، عشرة أوامر مهمّة، تناولت مبادیء مهمّة من الاصول الأخلاقیّة، و من جملتها: ترک الظّلم للأولاد، و رعایة الأیتام، و مُراعاة العدالة مع الجمیع، وترک العصبیّة للأقارب والأصدقاء والقبیلة، فی دائرة نقض اصول العدالة، وکذلک الإجتناب من القبائح و الرّذائل الظّاهریة و الباطنیّة، و إحترام حقوق الوالدین، و الإجتناب عن کلّ ما یُسبّب التّفرقة و إلأبتعاد عن کلّ شرک «۴».

اصول الأخلاق الإسلامیّة فی الرّوایات:

إستعرضت الأحادیث و الرّوایات الإسلامیّة، الاصول الأخلاقیّة الحسنة والسیئة، بطریقتها الخاصّة، لا کما جاء فی کتب حُکماء الیونان ومن جملتها: ۱- فی الحدیث المعروف الذی جاء فی کتاب: (اصول الکافی)، عن الإمام الصادق علیه السلام: أنّ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۱ أحد أصحاب الإمام علیه السلام و إسمه «سماعة بن مهران»، قال: کنت عند أبی عبداللّه علیه السلام وجماعة من موالیه، فجری ذکر العقل والجهل، فقال أبوعبداللّه علیه السلام: «إعرفوا العقل وجنده، و الجهل وجنده تهتدوا»، فقلت: جُعلت فِداک لا نعرف إلّاما عرّفتنا، فقال أبو عبداللّه علیه السلام: «إنّ اللّه عزّوجلّ، خلق العقل، و هو أوّل خلقٍ من الرّوحانیین عن یمین العرش، من نوره فقال له: أدبِر فأدبر؛ ثمّ قال له: أقبِل فأقبل؛ فقال اللّه تبارک وتعالی: خلقتک خَلقاً عظیماً وکرّمتک علی جمیع خلقی، قال: ثمّ خلق الجهل، من البحر الاجاج ظلمانیاً، فقال له: أدبر فأدبر؛ ثم قال له: أقبل فلم یُقبِل فقال له: إستکبرت، فلعنه. ثمّ جعل للعقل خمسة وسبعین جنداً، فلمّا رأی الجهل ما أکرم اللّه به العقل، و ما أعطاه أضمرَ له العداوة، فقال الجهل: یا ربّ هذا خلق مثلی، خلقته و کرّمته و قوّیته، و أنا ضِدّه ولا قوّة لی به، فأعطنی من الجند مثل ما أعطیته، فقال اللّه تعالی نعم، فإن عَصیت بعد ذلک أخرجتک وجندک من رحمتی. قال: قد رضیت. فأعطاه خمسة وسبعین جنداً. فکان ممّا أعطی العقل من الخمسة و السّبعین الجند: الخیر هو وزیر العقل، و جعل ضدّه الشرّ وهو وزیر الجهل؛ والإیمان وضدّه الکفر؛ والتصدیق وضدّه الجُحود؛ و الرّجاء وضدّه القُنوط؛ والعدل وضدّه الجور؛ و الرّضا وضدّه السخط؛ والشّکر وضدّه الکُفران؛ والطّمع وضدّه الیأس؛ والتوکّل وضدّه الحِرص؛ والرّأفة وضدّه القسوة؛ والرّحمة وضدّها الغضب؛ والعلم وضدّه الجهل؛ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۲ والفهم و الحمق؛ والعفّة و ضدّها التهتک؛ والزّهد و ضدّه الرّغبة؛ و الرّفق و ضدّه الخرق؛ والرّهبة وضدّها الجرأة؛ والتّواضع وضدّه الکِبر؛ والتؤدة وضدّها التّسرع؛ والحلم وضدّه السّفه؛ والصّمت وضدّه الهذر؛ والإستسلام وضدّه الإستکبار؛ والتّسلیم وضدّه الشّک؛ والصّبر وضدّه الجزَع؛ والصّفح وضدّه الإنتقام؛ والغنی وضدّه الفقر؛ والتّذکّر وضدّه السّهو؛ والحفظ وضدّه النسیان؛ والتعطّف وضدّه القطیعة؛ والقنوع وضدّه الحرص؛ والمؤاساة وضدّها المنع؛ والمودّة وضدّها العداوة؛ والوفاء وضدّه الغدر؛ والطّاعة وضدّها المعصیة؛ والخُضوع وضدّه التّطاول؛ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۳ والسّلامة وضدّها البلاء؛ والحبّ وضدّه البغض؛ والصّدق وضدّه الکذب؛ والحقّ وضدّه الباطل؛ والأمانة وضدّها الخیانة؛ والإخلاص وضدّه الشّوب؛ والشّهامة وضدّها البلادة؛ والفهم وضدّه الغباوة؛ والمعرفة وضدّها الإنکار؛ والمداراة وضدّها المکاشفة؛ وسلامة الغیب و ضدّه المماکرة؛ والکتمان وضدّه الإفشاء؛ والصلاة وضدّها الإضاعة؛ والصّوم وضدّه الإفطار؛ والجهاد وضدّه النُکول؛ والحجّ وضدّه نبذ المیثاق؛ و صَون الحدیث وضدّه النّمیمة؛ وبرّ الوالدین وضدّه العُقوق؛ والحقیقة وضدّها الرّیاء؛ والمعروف وضدّه المُنکر؛ والسّتر و ضدّه التّبرج؛ والتقیّة وضدّها الإذاعة؛ والإنصاف وضدّه الحمیّة؛ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۴ والتهیئة وضدّها البغی؛ والنّظافة

وضدّها القذر؛ والحیاء وضِدّه الجلع؛ والقصد وضدّه العدوان؛ والرّاحة وضدّها التّعب؛ والسّهولة وضدّها الصّعوبة؛ والبرکة وضدّها المحق؛ والعافیة وضدّها البلاء؛ والقوام وضدّه المکاثرة؛ والحکمة وضدّها الهواء؛ والوقار وضدّه الخفّة؛ والسّعادة وضدّها الشّقاوة؛ و التّوبة وضدّها الإصرار؛ والإستغفار و ضدّه الإغترار؛ والمحافظة وضدّها التّهاون؛ و الدّعاء و ضدّه الإستنکاف؛ والنّشاط و ضدّه الکسل؛ والفرح وضدّه الحُزن؛ والالفة وضدّها الفُرقة؛ والسخاء و ضدّه البخل؛ فلا تجتمع هذه الخصال کلّها من أجناد العقل، إلّافی نبیّ أو وصیّ نبی، أو مؤمن قد إمتحن اللّه قلبه للإیمان، وأمّا سائر ذلک من موالینا فإنّ أحدهم لا یخلو من أن یکون فیه بعض هذه الجنود حتّی یستکمل، وینفی من جنود الجهل. فعند ذلک یکون فی الدرجة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۵ العلیا مع الأنبیاء و الأوصیاء؛ و إنّما یُدرک ذلک بمعرفة العقل وجنوده، وبمجانبة الجهل وجنوده. وفّقنا اللّه وإیّاکم لطاعته ومرضاته» «۱». فالحدیث أعلاه، حدیث جامع لُاصول و فروع الأخلاق الإسلامیة، وبحثها بعض المؤلّفین والکتّاب فی کتبٍ مستقلةٍ. ۲- نقرأ فی الکلمات القصار للإمام علی علیه السلام، فی نهج البلاغة، عندما سُئل الإمام علیه السلام عن الإیمان، (یتبیّن من ذیل الحدیث، أنّ المقصود من الإیمان هو الإیمان العلمی والعملی، الذی یشمل الاصول الأخلاقیّة). أجاب الإمام علیه السلام: «الإیمانُ عَلَی أَربَعِ دَعائِمَ، عَلَی الصَّبرِ والیَقِینِ وَالعَدلِ وَالجِهادِ». ثم أضاف قائلًا: «والصَّبرُ مِنْها عَلَی أَربَعِ شُعَبٍ، عَلَی الشَّوقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهدِ وَالتَّرَقُبِ». (الإشتیاق للجنّة والمنح الإلهیّة، و الخوف من العقاب و النّار، دافعٌ للأعمال الصّالحة ورادع عن السیئات). و الزّهد بالدنیا وزبرجها یهوّن المصائب، و إنتظار الموت و نهایة الحیاة، تحثّ الإنسان لِفعل الأعمال الصّالحة. وبعدها یضیف علیه السلام: «والیَقِینُ مِنها عَلَی أَربَعِ شُعَبٍ، عَلی تَبصِرَةِ الفِطْنَةِ وَتَأَوُّلِ الحِکْمَةِ وَمَوعِظَةِ العِبرَةِ وَسُنَّةِ الأَوَّلِینَ». ثمّ أضاف علیه السلام: «وَالعَدْلُ مِنها عَلَی أَربَعِ شُعَبٍ، عَلَی غَائِصِ الفَهمِ، وَغَورِ العِلمِ، وَزُهْرَةِ الحُکْمِ، وَرَساخَةِ الحِلْمِ». وقال علیه السلام خِتاماً: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۶ «وَالجِهادُ مِنها عَلَی أَربَعِ شُعَبٍ، عَلَی الأَمرِ بِالمَعرُوفِ والنَّهی عَنِ المُنکَرِ، والصِّدقِ فِی المَواطِنِ، وَشَنآنِ الفَاسِقِینَ». وبعدها یبیّن شعب الکفر، و یشرحها واحداً تَلْو الآخر «۱». فکما تلاحظون أنّ الإمام علی علیه السلام، رسم الاصول الإسلامیة للإیمان والکفر، بدقّةٍ متناهیةٍ، و آثارها فی المحتوی الداخلی للإنسان و علی سلوکه الخارجی، و التی تشمل الأخلاق العملیّة، فذکر لکلّ فرعٍ، فرعاً آخر، وتحلیل هذه الجزئیات یتطلب کتابة مقالة اخری. ۳- نقرأ فی حدیثٍ آخر عن الإمام علی علیه السلام: «أَربَعٌ مَنْ اعطِیهُنَّ فَقَدْ اوتِیَ خَیرَ الدُّنیا والآخِرَةِ، صِدقُ حَدِیثٍ وَأَداءُ أَمانةٍ، وَعِفَّةُ بَطنٍ وَحسنُ خُلُقٍ» «۲». ۴-- وجاء فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، فی نفس هذا المعنی، بتلخیصٍ أکثر، حیث جاء إلیه أحد الأشخاص، و طلب منه أن یُعلّمه أمراً یکون فیه خیر الدنیا و الآخرة، و بشکلٍ موجز، فقال الإمام علیه السلام فی معرض جوابه: «لا تِکْذِب تَکِذْبَ» «۳». و الحقیقة هی کذلک، لأنّ جذور کلّ الفضائل تمتد إلی حدیث الصّدق، فالإنسان لا یکذب علی الناس ولا علی نفسه ولا علی اللّه تعالی، وعندما یقول فی صلاته: «إِیّاکَ نَعْبُدُ وَإِیّاکَ نَستَعِینُ»، ینبغی أن لا یکون فیها کاذباً أبداً، بل یبتعد عن کلّ ما هو شیطانی، و هوی النفس، وتکون حرکته فی دائرة خضوعه وتسلیمه للّهفقط، ولا یعتمد علی المال والجاه والقدرة والمقام، ویترک ما سوی اللّه تعالی و یکون إعتماده الأوّل و الأخیر علی لطف اللّه تعالی ومعونته، فإذا أصبح الإنسان کذلک، فسوف یعیش الحیاة المعنویّة فی جمیع فروع واصول الأخلاق. ۵- ونقرأ فی الرّوایات الإسلامیّة تعابیر مثل: «أفضل الأخلاق»، أو «أکرم الأخلاق»، أو «أحسن الأخلاق»، أو «أجمل الأخلاق»، وفی هذه إشارةٌ اخری لأقسامٍ مهمّةٍ من الاصول الأخلاقیّة، منها: سئل الباقر علیه السلام عن أفضل الأخلاق، فقال: «الصَّبرُ والسّماحَةُ» «۱». و فی حدیثٍ آخر عن الإمام علی علیه السلام، قال: «أَکْرَمُ الأَخلاقِ السَّخَاءُ وَأَعمُّها نَفعاً العَدْلُ» «۲». و فی حدیث آخر عن الإمام علی علیه السلام أیضاً، قال: «أَشْرَفُ الخِلائِقِ التَّواضُعُ والحِلمُ وَلِینُ الجانِبِ» «۳». و فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، حیث سئل: «أَیُّ الخِصالِ بِالمَرءِ أَجْمَلُ فَقالَ: وِقارٌ بلا مَهانَةٍ، وَ سَماحٌ بِلا طَلَبِ مُکافَاةٍ، وَتَشاغُلٌ بِغَیرِ مَتاعِ الدُّنیا» «۴». ۶- أیضاً فی حدیثٍ عن الإمام الصادق علیه السلام، بیّن فیه اصول الأخلاق السّیئة، وعبّر عنها باصول الکفر، فقال: «اصُولُ الکُفرِ ثَلاثَةٌ: الحِرصُ، والإستِکبارُ وَالحَسَدُ». وأردف قائلًا فی بیان وتوضیح الاصول الثلاثة: «فَأَمّا الحِرصُ فإنَّ آدَمَ حِینَ نُهِیَ عَنِ الشَّجَرَةِ حَمَلَهُ الحِرصِ أَنْ أَکَلَ مِنها، وَأَمّا الإستِکبارُ فَإبلِیسُ حِینَ امِرَ بِسُجُودِ لآدَمَ إستَکبَرَ، وَأَمّا الحَسَدُ فَإبنا آدَمَ

حَیثُ قَتَلَ أَحَدَهُما صاحِبَهُ» «۵» الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۹۸ و علی هذا الأساس فإنّ مصدر جمیع المصائب الکبری، التی حدثت فی عالم الإنسانیة، منذ صدر الخلیقة، هی هذه الصّفات الثّلاثة، فالحرص: طرد آدم من الجنّة، والإستکبار: طرد إبلیس عن ساحة القدس إلی الأبد، والحسد: هو أساس کلّ قتلٍ و جنایةٍ حدثت فی العالم ۷- و نختم کلامنا هذا بحدیثٍ عن الرّسول الکریم صلی الله علیه و آله قال، الإمام الصادق علیه السلام، أنّ الرسول صلی الله علیه و آله قال: «إنَّ أَوَّلَ مَنْ عُصِیَ اللَّهُ عزَّوجَلَّ بِهِ سِتٌّ: حُبُّ الدُّنیا، وَحُبُّ الرِّیاسَةِ، وَ حُبُّ الطَّعامِ، وَحُبُّ النَّومِ، وَحُبُّ الرّاحَةِ، وَحُبُّ النِّساءِ»». لقد تبیّن من مجموع ما ذکر آنفاً، اصول الفضائل و الرّذائل الأخلاقیّة، ولکن وکما یُستفاد من مجموع الرّوایات، أنّه لا یوجد عدد خاص و معیّن، لهذه القیم والمبادیء الأخلاقیة، لأنّ الأخلاق الحسنة والقبیحة، لها دوافع ومقاصد متعدّدة و متنوعة ومختلفة، أو بعبارة اخری: کما أنّ الصّفات الجسمیّة للإنسان، لا عدد ولا حصر لها، فکذلک الصّفات الروحانیّة، و الملکات الأخلاقیّة الصّالحة و الطّالحة، لا عدد ولا حصر لها.

إرتباط المسائل الأخلاقیّة مع بعضها

تنویه:

غالباً ما تکون الفضائل الأخلاقیّة، مترابطةٌ فی ما بینها برابطةٍ وثیقةٍ، کما هو الحال فی الرّذائل وعلاقتها الوثیقة مع بعضها، وعلی هذا یصعب التّفکیک والفصل بینها فی الغالب. و هذا التّرابط قد یکون بسبب الجُذور المشترکة بینها، وربّما یکون بسبب الّثمرات المترتبة علیها ونتائجها فی حرکة الإنسان والحیاة. و فی القسم الأول، وهو البحث فی الجذور المشترکة بین القیم فی المنظومة الأخلاقیة، لدینا أمثلةٌ واضحةٌ، ففی کثیر من الموارد، تکون الغیبة ولیدة الحسد، ویسعی الحسود دائما لفضح وتعریة محسوده، و الإستهانة بشخصیته من موقع التّهمة والإفتراء و التّکبر، و التّحرک علی مستوی تحقیر و تهمیش الآخرین، فکلّ هذه الرّذائل یمکن أن تکون من إفرازات الحسد أیضاً. و بالعکس، فمن کان یعیش علوّ الهمّة، و سمّو الطبع، فسوف لا یقف فی مقابل الشهوات الرخیصة والطمع فیها فحسب، بل تکون لدیه حصانةٌ ضدّ: الحسد و الکِبر والغرور والتملّق، أیضاً. و بالنسبة للنتائج و الثمرات، نری هذا الإرتباط بصورةٍ أوضح، فالکذب یمکن أن یکون مصدراً لأکاذیب اخری، و ربّما ولتوجیه أخطائه و ذنوبه، یرتکب الشخص أخطاءً اخری، و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰۰ یتحرک لُممارسة جرائم عدیدة فی عملیّة التّغطیة علی جُرمه الأول، وبالعکس، فإنّ العمل الأخلاقی مثل الأمانة، من شأنه أن یولّد المحبّة و الصّداقة والتعاون والإرتباط الوثیق بین أفراد المجتمع. ویوجد لدینا فی الرّوایات إشارات إلی هذا المعنی، فنقرأ فی حدیثٍ عن مولانا أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «إذا کَانَ فی الرَّجُلِ خَلَّةٌ رائِعةٌ فانتَظِر أَخَواتِها» «۱». و فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، أنّه قال: «إنَّ خِصالَ المَکارِمِ بَعضُها مُقَیَّدٌ بِبَعضِها». وأشار فی ذیل هذا الحدیث: «صِدْقُ الحَدِیثِ وَصِدْقُ البَأسِ وإعطاءُ السّائِلِ وَالمُکافَاتُ بِالصَّنائِعِ وأداءُ الأَمانَةِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَالتَّوَدُّدَ إلی الجارِ والصّاحِبِ وقِری الضَّیفِ وَرَأسُهُنَّ الحَیاءُ» «۲» وفی الواقع فإنّ الحیاء، و هو روح النّفور من الذّنب و القّبائح، یمکن أن یکون مصدراً لجمیع الأفعال الأخلاقیة المذکورة أعلاه، کما أنّ الصّدق یُقرّب الإنسان للأمانة، و یعمّق فیه روح التّصدی للقبائح، ویثیر فی أعماق وجدانه، عناصر الخیر و المحبّة مع الأقارب والأصدقاء والجیران. ونقرأ فی حدیثٍ ثالثٍ عن الإمام الباقر علیه السلام، أنّه قال: «إنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ للشِّرِّ أَقفَالًا وَجَعَلَ مَفاتِیحَ تِلکَ الأَقفَالِ الشَّراب، وَالکِذْبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرابِ» «۳». وفیه إشارةٌ إلی أنّ الکذب، یمکن أن یکون مصدراً لأنواع کثیرةٍ من الآثام و الذّنوب. و جاء ما یشبه هذا المعنی، فی حدیثٍ عن الإمام العسکری علیه السلام، فقال: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰۱ «جُعِلَتْ الخَبَائِثُ فی بَیتٍ وَجُعِلَ مِفتَاحُها الکِذْبُ» «۱». ونختم هذا الموضوع، بحدیثٍ عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، حیث جاء رجل إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فقال له: یارسول اللَّه إنّی إرتکبت فی السّر أربع ذنوبٍ، الزّنا و شرب الخمر و السّرقة والکذب، فأَیّتَهُنَّ شِئتَ تَرکتُها لک، (لم یکن یرید أن یقلع عنها أجمع، وإکراماً للرّسول؛ یرید أن یقلع عن واحدةٍ فقط؟!. فقال

له الرسول صلی الله علیه و آله: «دَعِ الکَذِبَ». فذهب الرجل، وکلما أراد أن یهمّ بالخطیئة، یتذکر عهده مع الرسول صلی الله علیه و آله، و یقول ربّما سألنی، و علیّ أن أکون صادقاً فی الجواب، فیجری علیّ الحدّ، و إن کذبت فقد نقضت العهد مع الرسول صلی الله علیه و آله، ممّا إضطّره أخیراً لترکها أجمع. فرجع ذلک الرجل للرسول صلی الله علیه و آله، و قال له: «قَدْ أَخَذتَ عَلیَّ السَّبِیلَ کُلَّهُ فَقَد تَرکتُهُنَّ أجمع» «۲». و نستنتج ممّا ذُکر آنفاً: أنّه فی کثیرٍ من الموارد، ولأجل تربیة و تهذیب النّفوس و الأخلاق، أو لإصلاح بعضها، یجب أن نبدأ من الجُذور، و کذلک الإستعانة بالمقارنات و الأخلاق الاخری المتعلقة بها.

من أین نبدأ؟

اشارة

تعرفنا علی کلّیات علم الأخلاق، و نتائجه وآثاره و مقاصده و فُروعه، والآن آن الأوان، وبما لدینا من المعلومات والمعارف الکلّیة، البدء فی طریق تهذیب النّفس، أو الإنتقال من المسائل الذهنیّة إلی میدان الممارسة و التّطبیق، ومن الکلّیات إلی الجزئیات. ویجب التّوقف هنا، لتهیئة لوازم سفرنا الروحانی، حتی لا نصاب فی سلوکنا لذلک الطّریقُ بالحیرة و الضّلالة وعدم التّنظیم و التّنظیر، و علیه فلابدّ من الإلتفات إلی امور: ۱- ثلاثة رُؤی فی کیفیّة التعامل مع المسائل الأخلاقیّة. ۲- هل یحتاج الإنسان فی کل مرحلة إلی استاذٍ و مرشدٍ؟ ۳- دور الواعظ الخارجی والواعظ الداخلی. ۴- الامور التی تُساعد الإنسان فی عملیة الوصول إلی هذا الهدف؛ مثل ذکر اللّه والعبادة والأدعیة، الزّیارات، النصائح المتکررة، التلقین. ۵- طهارة المحیط.

ثلاث نظریّات فی کیفیّة التعامل مع المسائل الأخلاقیّة:

النظریّة الأولی

رأیٌ یقول: إنّ تهذیب النفس، نوع من الجهاد و محاربة أعداء الداخل، الّذین یتحرّکون الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰۴ لإیقاع الإنسان فی مستنقع الرّذیلة، و شراک الخطیئة. هذا الرأی مقتبسٌ فی الأصل، من حدیث الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، المعروف، عندما خاطب الرسول صلی الله علیه و آله، قومٌ من المجاهدین، رجعوا لتوّهم من الغزو فقال: «مَرحَباً بِقَومٍ قَضَوا الجِهادَ الأَصغَرَ وَبَقیَ عَلَیهِم الجِهادُ الأَکبَرُ، فَقِیلَ یا رَسُولَ اللّهِ، ما الجِهادُ الأکبرُ، قالَ: جِهادُ النَّفسِ» «۱». وجاء فی البحار فی ذیل هذا الحدیث: ثُمّ قَالَ صلی الله علیه و آله: «أَفضَلُ الجِهادِ مَنْ جاهدَ نَفْسَهُ الَّتی بَینَ جَنْبَیهِ» «۲». هذا وقد فُسّرت بعض الآیات التی وردت فی دائرة الجهاد، بالجهاد الأکبر، إمّا لأنّها تخصّ الجهاد مع النفس، أو لمدلولها العام فی حرکة السیاق القرآنی، الذی یتناول القِسمین للجهاد. وجاء فی تفسیر القمی، فی ذیل الآیة (۶) من سورة العنکبوت: «وَمَنْ جاهَدَ فَإنّما یُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إنَّ اللّهَ لَغَنِیٌّ عَنِ العالَمِینَ»، قَالَ علیه السلام: «و من جاهد نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ وَاللَّذّاتِ وَ المَعاصِی» «۳». ویمکن أن نستوحی هذا المعنی من هذه الآیة، من حیث إنّ فائدة الجهاد تعود علی الإنسان نفسه، ویتّضح ویتجلّی أکثر فی الجهاد مع النفس، وخصوصاً أنّ الآیة التی جاءت قبلها، تکلّمت عن لقاء اللّه: «وَمَنْ کَانَ یَرجُوا لِقاءَ اللّهِ ...»، ونعلم أنّ لقاء اللّه، و الشهود و القرب منه، هو الهدف الأصلی للجهاد مع النفس. و کذلک جاء فی آخر آیةٍ من سورة العنکبوت: «وَالَّذِینَ جاهَدُوا فِینَا لَنَهْدِیَنَّهُم سُبُلَنا وَإنَّ اللّهَ لَمَعَ المُحسِنِینَ». وهذه الآیة أیضاً ناظرةٌ حسب الظاهر إلی الجهاد الأکبر، وذلک لقرینة: (فینا)، و جملة: «لَنَهْدِیَنَّهُم سُبُلَنا»، أو تتضمن مفهوماً عاماً یستوعب کلا النّحوین من الجهاد. وجاء أیضاً فی الآیة (۷۸) من سورة الحج: «و جاهِدُوا فِی اللّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَبَاکُم وَمَا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰۵ جَعَلَ عَلَیکُم فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ». فقد فسّر أغلب المفسّرین کلمة الجهاد بمعناها ومفهومها العام، الذی یشمل الجهاد الأصغر والأکبر، أو بخصوص معنی الجهاد الأکبر، وکما قال المرحوم العلّامة الطّبرسی فی کتابه مجمع البیان، أنّ أکثر المفسّرین ذهبوا إلی أنّ المقصود من حقّ

الجهاد، هو إخلاص النيّة والأعمال والطّاعات للّه‌تعالى «۱». وقد ذكر العلّامة المجلسى رحمه الله هذه الآية، فى زمرة الآيات النّاظرة للجهاد الأكبر «۲» كذلك. و جاء فى الحديث المعروف عن أبى ذرّ رحمه الله أنّه قال: قُلتُ يا رسُولَ اللَّهِ أَىُّ الجِهادِ أَفضَلُ؟ فَقالَ صلى الله عليه و آله: «أنْ يُجاهِدَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَهَواهُ» «۳». وكما ورد فى حديث: جنود العقل وجنود الجهل، هذا المعنى أيضاً، إذ يُشبّه حياة الإنسان بساحةِ حربٍ، العقلُ جنوده فى جهةٍ، و الجهلُ و هوى النّفس و جنودهما فى الجهة المقابلة، فهذان المعسكران، يعيشان دائماً فى حالة حربِ سِجالٍ، و من خلال هذا النّزاع، و معطيات حالات الصّراع فى أعماق النّفس، تتولد الكمالات المعنويّة للإنسان، وذلك عندما ينتصر العقل وجنوده، و النّصر الآنى، هو السّبب فى التّقدم النّسبى للكمالات الإنسانيّة.

النظريّة الثّانية: نظريّة الطّب الرّوحانى

فقد ذهبوا إلى أنّ الرّوح كجسم الإنسان، تُصاب بأنواع الأمراض، و لأجل الشّفاء يتوجب اللّجوء إلى أطبّاء النّفس و الرّوح، والإستعانة بأدويةِ الأخلاق الخاصّة، حتى تبقى الرّوح سالمةً و نشطةً و فعّالةً. و الجدير بالذكر، أنّ القرآن الكريم أشار إلى الأمراض الأخلاقية و الروحية، فى إثنى عشر موضعاً، و عبّر عَنها بالمرض «۴»، ومنها الآية (۱۰) من سورة البقرة، إعتبرت النِّفاق من الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۶ زمرة الأمراض الروحية، فقالت: «فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُم اللَّهُ مَرَضاً»؛ بسبب إصرارهم على النّفاق. وفى الآية (۳۲) من سورة الأحزاب، و صفت عبيد الشّهوة بمرضى القلوب، الذين يتحيّنون الفرص لإصطياد النّساء العفيفات، حيث خاطب البارى تعالى نساء النبى صلى الله عليه و آله، فقال: «فَلا تَخْضَعنَ بِالقَولِ فَيَطمَعَ الَّذِى فى قَلْبِهِ مَرَضٌ». وجاء فى الآيات الاخرى نفس هذا المعنى، أو أوسع منه، بحيث تناولت الآيات، جميع الإنحرافات الأخلاقيّة و العقائديّة. و فى معنى عميق آخر، عبّر القرآن الكريم، عن القلوب المليئة بنور المعرفة والأخلاق و التّقوى: بالقلوب السليمة. و جاء ذلك على لسان النّبى إبراهيم عليه السلام، حيث قال: «وَ لا تُخْزِنى يَومَ يُبعَثُونَ* يَومَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ* إلّامَنْ أَتىَ اللَّهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ» «۱». «السّليم» من مادة «السّلامة»، و تقع فى مقابل الفساد و الإنحراف والمرض، و «القلب السّليم» كما جاء فى الرّوايات عن المعصومين عليهم السلام، فى تفسير هذه الآية، أنّه القلب الذى خَلا من غير اللّه تعالى، (منزّه من كلّ مرضٍ أخلاقى وروحى). و قال القرآن الكريم فى مكانٍ آخر: إنّ إبراهيم عليه السلام عندما طلب من البارى تعالى: القلب السّليم، (كما أشارت الآيات الآنفة الذّكر)، تحقّق له ما يُريد، و شملته رحمة ولطف اللّه تعالى، وأصبح ذا قلبٍ سليم، فنقرأ فى الآيات (۸۳ و ۸۴) من سورة الصافات: «وإِنَّ مِنْ شَيعَتِهِ لَإبراهيم* إذْ جاء رَبَّهُ بِقَلبٍ سَلِيمٍ». نعم، فإنّ إبراهيم عليه السلام كان يتمنى أن يكون ذا قلبٍ سليم، و بالسّعى و الإيثار و محاربة الشرك، و هو النفس من موقع عبادة اللّه، إستطاع أن يصل بالنّهاية إلى ذلك المقام. و نجد فى الأحاديث الإسلامية، إشاراتٌ كثيرةٌ حول هذا الموضوع، ومنها: الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۷ ۱- يصف الإمام على عليه السلام، الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى نهج البلاغة، فيقول: «طَبِيبٌ دَوّارٌ بِطِبّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَراهِمَهُ وَأَحمَى مَواسِمَهُ يَضَعُ ذلِكَ حَيثُ الحاجة إلَيهِ مِنْ قُلُوبٍ عُمى و آذانٍ صُمٍّ وَأَلسِنَةٍ بُكْم، مُتَتَبّعٌ بِدوَائِهِ مَواضِعَ الغَفلَةِ وَمَواطِنَ الحَيرَةِ» «۱». ۲- ورد فى تفسير القلب السّليم، الذى ذُكر فى الايتين الشّريفتين أعلاه، رواياتٌ كثيرةٌ، فنقرأ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله، سئل: ما القَلبُ السّلِيم. فقال صلى الله عليه و آله: «دِينٌ بِلا شَكٍّ وَهُوىً، وَعَمَلٌ بِلا سُمْعَةٍ وَرِياءٍ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «لا عِلْمَ كَطَلَبِ السَّلامَةِ، ولاسَلامَةَ كَسَلامَةِ القَلبِ» «۳». وجاء فى حديثٍ آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبداً رَزَقَهُ قَلباً سَلِيماً وَخُلْقاً قَويمَاً» «۴». ۳- وقد ورد التعبير عن الأخلاق الرّذيلة، فى الروايات بأمراض القلب. فورد فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «إيّاكُم وَالمراءَ وَالخُصُومَةَ فإنّهما يُمرِضانِ القُلُوبَ عَلَى الإخوانِ، وَ يَنْبُتُ عَلَيهما النِّفاقَ» «۵». وجاء أيضاً عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ما مِنْ شَىءٍ أَفْسَدَ لِلقَلبِ مِنْ خَطِيئَتِهِ» «۶». ۴- ونقرأ عن الإمام على عليه السلام أيضاً: «أَلا وَ مِنَ البَلاءِ الفاقَةُ، وَأَشَدُّ مِنَ الفاقَةِ مَرَضُ البَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ البَدنِ مَرَضُ القَلبِ». «۷» الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۰۸ ۵- وجاء أيضاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فى معرض حديثه عن الحسد، و أنّه كان ولا يزال على طول التأريخ

مرضٌ نفسی عضال، فقال: «أَلا إِنَّهُ قَدْ دَبَّ إِلَیکُم داءُ الامَمِّ مِنْ قَبلِکُم وَهُوَ الحَسَدُ، لَیسَ بِحالِقِ الشَّعْرِ، لَکِنَّهُ حالِقُ الدِّینِ، ویُنجِی فِیهِ أَنْ یَکُفَّ الإِنسانُ یَدَهُ وَیَحْزُنَ لِسانَهُ وَلا یَکُونَ ذا غَمزٍ عَلَی أَخِیهِ المُؤمِنُ» «۱». ۶- و قد ورد فی التّعبیر عن الرذائل الأخلاقیّة، فی کثیرٍ من الرّوایات ب: «الدّاء» و مفهومها المرض، وجاء مثلًا فی الخطبة (۱۷۶) من نهج البلاغة، حیث یصف الإمام علیه السلام فیها القرآن الکریم: «فَاسْتَشفُوهُ مِنْ أَدوائِکُم ... فَإِنَّ فِیهِ شِفاءً مِنْ أَکْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الکُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالغیُّ والضَّلالُ». ونری أیضاً هذا التعبیر فی روایات کثیرة اخری. و خلاصة القول، إنّ الفضائل و الرّذائل، و طبقاً لهذه النظریة و الرؤیة، علامةٌ لسلامة و مرض الرّوح عند الإنسان، والأنبیاء علیهم السلام والأئمّة المعصومین علیهم السلام، کانوا معلمی أخلاق، و أطباء نفسیین، و تعالیمهم تجسّد فی مضمونها الدّواء النّافع و العلاج الشافی. و علی هذا، فکما هو الحال فی الطّب المادی، ولأجل الوصول إلی الشّفاء الکامل، یحتاج المریض إلی الدواء، و یحتاج إلی الحُمیة من بعض الأکلات، فکذلک فی الطّب النّفسی و الرّوحی الأخلاقی، یحتاج إلی الإمتناع عن أصدقاء السّوء، و المحیط الملّوث بالمفساد الأخلاقیّة، و کذلک الإمتناع عن کلّ ما یَساعد علی تفّشی الفساد، فی واقع الإنسان النفسی، و محتواه الداخلی. فالطّب المادی جعل العملیّة الجراحیّة کعلاجٍ لبعض الحالات، و کذلک جعل الطّب الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۰۹ الرّوحی الحدود و التّعزیرات و العُقوبات کوسیلةٍ، ودواءٍ رادعٍ، عن الأعمال المنافیَة للأخلاق، و هی بِمنزلة إجراء العملیّة الجراحیّة فی الطّب المادی. وکما نری فی الطّب المادی، أنّه جعل العلاج فی مرحلتین، مرحلة الوقایة: و هی المحافظة علی الصّحة البدنیّة، و الثّانیة: مرحلة العلاج للمریض، فکذلک فی الطّب الرّوحی و الأخلاقی، یمرّ بمرحلتین: مرحلة الإرشاد والتعلیم من قبل معلمی الأخلاق، للمحافظة علی نفوس الناس من التلّوث بالرذائل، و الثّانیة: مرحلة العلاج للمذنبین الملوّثین بالرّذائل. و ما جاء فی الخطبة (۱۰۸) من نهج البلاغة، فی وصف الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و معالجاته بالمراهم والکیّ للجروح، یبیّن مدی التّنوع فی الطّب الرّوحی، کما هو الحال فی الطّب المادی. ففی الطّب المادی (الجسمانی)، توجد مجموعة إرشاداتٍ و أوامر کلیّة لعلاج الأمراض، و قسمٌ من الأوامر التی تخص کلّ مرض بذاته، فکذلک الطّب الرّوحی، فالتّوبة و ذکر اللّه والعبادات الاخری، والمحاسبة والمراقبة للنفس، هی اصولٌ کلیّةٌ للعلاج، وکلّ مرضٍ أخلاقی، نجد الأوامر والإرشادات الخاصة به، مذکورةٌ فی الکتب الإسلامیّة و الأخلاقیّة.

النظریّة الثالثة: نظریّة السّیر و السّلوک

وقد شبّه الإنسان فی هذه النظریّة، بمسافر إنطلق من نقطةِ العدم، إلی لقاء اللّه تعالی، و یتحرک فی سلوکه بهدف لقاء اللّه، و القرب من الذّات المقدّسة اللّامتناهیة. ففی هذا السّفر، و کما هو الحال بالنسبة لأسفارنا المادیّة، یجب تحضیر المرکب و المتاع، و إزالة الموانع التی تقف فی الطّریق، و التّفکیر فی کیفیة التّصدی للّصوص وقطاع الطّریق و الأعداء، للمحافظة علی المال والأرواح، فهذا السّفر الرّوحانی و المعنوی، فیه منازل وطرق ملتویة وصعبة العبور، و مطبّاتٌ خطرةٌ، و لا یمکن العبور منه بسلامة، إلّابمعونة الدلیل المطّلع و العارف بالطّریق، و العُبور منها واحداً بعد واحدٍ حتّی الوصول إلی محطّ الرّحال ومنزل المقصود. و یصرّ البعض أنّ السّیر و السّلوک إلی اللّه تعالی، و معرفته و منازله، و زاده و أدلّائه، و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۰ الطّریق الموصل إلیه، هو علمٌ غیر علم الأخلاق، و منفصلٌ عنه، ولکن و بنظرةٍ أوسع، نری أنّ السیر و السّلوک الرّوحی، یلتقی فی نفس الطّریق التی تهدف إلیه التربیة الأخلاقیة، و تحصیل الفضائل فی خط التّکامل المعنوی، أو علی الأقل أنّ الأخلاق الإلهیّة هی أحد أبعاد السّیر و السّلوک الرّوحانی. وعلی أیّة حال، فإنّ الآیات و الروایات، أشارت إلی هذه النّظریة أیضاً، ومنها: الآیة (۱۵۶) من سورة البقرة، حیث تقول: «الَّذِینَ إِذا أَصابَتْهُم مُصِیبَةٌ قالُوا إِنّا لِلَّهِ وَإِنّا إِلَیهِ راجِعُونَ». فمن جهةٍ، یری الإنسان نفسه أنّه مُلکٌ للّه‌تعالی، و من جهةٍ اخری، یری نفسه أنّه مُسافر، و یتحرّک بإتّجاه اللّه تعالی شأنه. و نقرأ أیضاً فی سورة العَلق: «إِنَّ إِلی رَبِّکَ الرُّجعی «۱». وجاء فی سورة الإنشقاق: «یا أَیُّها الإنسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدحاً فَمُلاقِیهِ «۲». و جاء فی سورة الرّعد: «رَفَعَ السَّمواتِ بِغَیرِ عَمَدٍ تَرَونَها ... یُفَصِّلُ الآیاتِ لَعَلَّکُم بِلَقاءِ رَبِّکُم تُوقِنُونَ» «۳». ویوجد أکثر من (۲۰ آیة)، تحدثت عن أن لقاء اللّه تعالی، فی الواقع هو مقصود السّالکین إلی اللّه والعارفین

به، و یعنی اللّقاء المعنوی و الرّوحی مع المحبوب، و المقصود الذی لا مثیل له. و صحیحٌ أنّ هذه الآیات، و آیاتُ الرّجوع إلی اللّه تعالی، تستوعب جمیع هذه المعانی، ولکن هذا لا یمنع من أنّ سیر وسلوک المؤمن و الکافر، من ناحیة الفِطرة والخلقة، هو بإتّجاه الباری تعالی، فبعضٌ ینحرف عن طریق الفطرة، فیسقط فی وادٍ سحیقٍ، ولکن أولیاء اللّه و مع إختلافهم بالمراتب، یصلون إلی المقصود، مثل الحیامن التی تسیر جمیعاً فی عالم الرّحم لِتکوین الجَنین، فبعضها تموت فی المراحل الأولی بسبب بعض الآفات، و تتوقف عن الحرکة، وبعضها یستمر فی طریقه، لیصل أحدها إلی الهدف. و أفضل و أوضح من هذه التّعابیر، هو تعبیر القرآن الکریم، حیث یقول: «إِنَّ خَیرَ الزَّادِ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۱ التَّقوی ، (وعادةً کلمة: الزّاد، تقال للطعام الذی یحمله المسافر معه، ولکنّها فی الأصل موضوعةٌ لمعنی أشمل: بحیث تشمل کلَّ ذخیرةٍ). و علی هذا الأساس یقول: إنّ التّقوی هی خیرُ الزّاد، و هی إشارةٌ إلی سیر الإنسان فی طریق التّوحید الخالص، و علی کلّ حال فإنّ هذا السّفر الرّوحانی یحتاج إلی زادٍ، وزاده لابدّ وأن یکون معنویاً أیضاً. و نری مثل هذا التعبیر، واردٌ بکثرةٍ فی الرّوایات الإسلامیّة. و فی موارد متعدّدةٍ من نهج البلاغة، أتی ذکر التّزود للآخرة: ففی الخطبة (۱۵۷) یقول الإمام علیه السلام: «فَتَزَوَّدوا فِی أَیّامِ الفَناءِ لأَیّامِ البَقاءِ». وفی الخطبة (۱۳۲) نری تعبیراً أوضح، فیقول علیه السلام: «إنّ الدُّنیا لَمْ تُخْلَقْ لَکُم دارَ مُقام، بَل خُلِقَتْ لَکُم مَجازاً لِتَزَوَّدُوا مِنها الأَعمَالَ إِلَی دارِ القَرارِ». وجاء فی الخطبة (۱۳۳)، تعبیر ألطَف و أدَق، فقال علیه السلام: «وَالبَصِیرُ مِنها مُتَزَوِّدُ والأَعمی لَها مُتَزَوَّدُ». وهناک آیات فی القرآن الکریم، یمکن أن تحمل فی مضمونها إشاراتٌ لهذه النظریّة، و منها: «صِراطُ العَزِیزِ الحَمیدِ» «۱»، و «الصِّراطُ المُستَقِیمَ» «۲»، و «سَبِیلِ اللَّهِ»، موجودةٌ فی آیاتٍ کثیرةٍ من القرآن الکریم، و «لِیَصُدّوا عنْ سَبِیلِ اللَّهِ» «۳»، وأمثالها یمکن الإشارة بها إلی هذه النظریة.

تنوع الطّرق لأرباب السّیر و السّلوک

اشارة

من الجدیر بالذکر، أنّ أرباب السّیر و السّلوک، و العلماء الذین سلکوا هذا الطریق، وإتخذوا من القرآن الکریم و السّنة الشّریفة دلیلًا لهم، (لا الصّوفیین الذین تأثروا بالمذاهب غیر الإسلامیّة الأجنبیّة)، فکلّ واحد من اولئک الأفاضل إقْتَرح طریقةً تختص به، أو بتعبیرٍ أدق، إتّخذوا منازل و مراحل، سنأتی بها بصورةٍ ملخّصة، حتّی یکتمل البحث، و یکون أکثر فائدة:

۱- السّیر و السّلوک المنسوب: «للسید بحر العلوم»

اشارة

هناک کتاب منسوب للعلّامة الفقیه العالم: «السید بحر العلوم»، و رغم أنّ بعض أبحاثه لا یمکن القول بصدورها منه، إلّاأنّ بعض أقسامه و الحقّ یقال، فی غایة الأهمیّة، فقد ذکر السّید فی هذا الکتاب أربعة عوالم و منازل، مهمّة للسّیر و السّلوک إلی اللّه تعالی، و القرب منه، وهی: ۱- الإسلام. ۲- الإیمان. ۳- الهجرة. ۴- الجهاد. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۴ و کلّ واحد من هذه العوالم الأربعة، ذکر له ثلاث مراحل، فیصبح المجموع إثنی عشرةَ مرحلةً، و بعد تجاوز هذه المراحل الإثنی عشر، یصل السّالک إلی اللّه، و إلی عالم الخُلوص والفناء، والمراحل أو المنازل الإثنی عشر هی: المنزل الأول: الإسلام الأصغر، والقصد منه هو إظهار الشّهادتین و التّصدیق بهما فی الظّاهر، و أداء الوظائف الدینیّة. المنزل الثانی: الإیمان الأصغر، وهو عبارة عن التّصدیق القلبی والإعتقاد الباطنی بکل المعارف الإسلامیّة. المنزل الثالث: الإسلام الأکبر، و هو عبارةٌ عن التّسلیم فی مقابل کلّ حقائق الإسلام، و الأوامر و النّواهی الإلهیّة. المنزل الرابع: الإیمان الأکبر، و هو عبارةٌ عن روح ومعنی الإسلام الأکبر، و الّذی ینتقل من مرتبة الطاعة، إلی مرتبة الشّوق و الرّضا و الرّغبة. المنزل الخامس: الهجرة الصّغری، و هی الإنتقال من «دار الکفر»، إلی «دار الإسلام»، و هی شبیهةٌ بهجرة المسلمین، من مکّة

التی کانت مقرّ للکفار إلی المدینة. المنزل السّادس: الهجرة الکبری، و هی الهجرة والإبتعاد عن أهل الذنوب والعصیان، وعدم الجلوس مع الظّالمین والملّوثین. المنزل السابع: الجهاد الأکبر، و هو عبارةٌ عن محاربة جنود الشّیطان، بالإستمداد من جنود الرّحمان، و هی جنود العقل. المنزل الثامن: منزل الفتح و الظّفر علی جنود الشیطان، و التّحرر من سلطتهم، و الخروج من عالم الجهل و الطّبیعة. المنزل التاسع: الإسلام الأعظم، و هو عبارةٌ عن الغلبة علی جنود الشّهوة والآمال البعیدة، فتنتصر العوامل الموقظة الخارجیة، علی العوامل الإنحرافیّة الداخلیّة، و هنا یکون القلب، مرکزاً للأنوار الإلهیّة، و الإضافات الرّبانیّة. المنزل العاشر: الإیمان الأعظم، وهو الفناء فی اللَّه تعالی، ومرحلة الدّخول فی عالم: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۵ «فَادخُلِی فِی عِبادِی وادخُلِی جَنَّتِی»، وعندها تظهر حقیقة العبودیّة للَّه‌تعالی فی واقع النّفس. المنزل الحادی عشر: الهجرة العظمی، و هی هجرة الذّات و نسیانها، و السّفر إلی عالم الوجود المطلق، و التّوجه الکامل للذّات المقدّسة للباری تعالی، و هی الّتی تدخل فی جملة خطاب: «وادخُلِی جَنَّتِی». المنزل الثّانی عشر: الجهاد الأعظم، فبعد هجرة الذّات، یتوسل باللَّه تعالی أن یمحو کلّ آثار الأنا، و یضع القدم علی بساط التّوحید المطلق. فبعد أن تُطوی هذه العوالم الإثنا عشر، یدخل فی عالم الخُلوص، و یکون مصداقاً لقوله تعالی «بَل أَحیاءٌ عِندَ رَبِّهِم یُرزَقُونَ». «۱»

کیفیة السّیر و السّلوک فی هذه الطریقة:

فی رسالة السّیر و السّلوک المنسوبة للعلّامة بحر العُلوم، و بعد ذکره للعوالم والمنازل المذکورة آنفاً، یتطرق إلی کیفیة السّیر فی هذا الطریق الصعب، و الملیء بالمفاخر، و یذکر (۲۵) أمراً للوصول إلی المقاصد العلیا، ونذکرها بشکل مختصر: فالسّالک إلی اللَّه تعالی، و المرید للقرب منه، لأجل الوصول إلی هذه العوالم، وبعد إطّلاعه الکامل علی اصول الدین و فروعه، و أحکامه الإسلامیة من الطُرق المعتبرة، یشدُّ الرحال ویأخذ طریقه فی عملیة السّلوک، من خلال الإلتزام بالمراحل ال (۲۵)، لیصل إلی المقصود: أولًا: ترک الآداب و الرّسوم والعادات التی تقف عقبةً فی الطریق، وتغرقه فی بحر الآثام. ثانیاً: العزم القاطع للسّیر فی هذا الطّریق، فلا یخاف شیئاً، و لا یتردّد، ولیعتمد علی لُطف اللَّه تعالی. ثالثاً: الرّفق و مُداراة النّفس، فلا یحمّلها أکثر من طاقتها، کی لا تنفر ولا تنطفیء جذوتها، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۶ ولئلّا تنقطع عن المسیر. رابعاً: الوفاء، وهو الوفاء بالبقاء علی العهد فی التّوبة، و ترکه للذّنوب وَ عدم العودة إلیها، ولیکون وفیّاً مع استاذه أیضاً. خامساً: الثّبات و الدّوام، یعنی الدّوام علی ما إختاره من برامج لنفسه، حتی تُصبح عادةً عنده، و لیغلق طریق العودة علی نفسه. سادساً: المُراقبة، وهی عبارة عن الإنتباه لنفسه فی کل الامور و الأحوال، ولِئلا تصدر منه المخالفة. سابعاً: المحاسبة، کما جاء فی حدیث: «لَیسَ مِنّا مَنْ لَم یُحاسِبْ نَفسَهُ کُلَّ یَوم» «۱». ثامناً: المؤآخذة، حیث یوآخذ نفسه فی کلّ خطأ یصدر منه ویعاقبها. تاسعاً: المسارعة، یعنی یعمل بمقتضی أمر: «سَارِعُوا إِلی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُم» «۲»، الوارد فی القرآن الکریم، فیُسارع فی کلّ خیر، لئلّا یسبقه الشّیطان ویوسوس له فی ترکه. عاشراً: خُلوص الباطن، وهو تطهیر الباطن، بحیث لا یکون أدنی غش فی قلبه، والحب التام لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله صاحب الشّریعة، و الأوصیاء المعصومین علیهم السلام. الحادی عشر: الأدب، حفظ حُرمة الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و أوصیاءه المعصومین علیهم السلام، بحیث لا یلفظ بلفظ یدل علی عدم الرّضا منهم، و الإعتراض علیهم علیهم السلام، و حفظ حرمة الأکابر، ولبیان حاجته فی الدّعاء لا یستعمل ألفاظاً تدل علی الأمر والنّهی. الثانی عشر: النیّة، و تعنی إخلاص القصد فی هذا المسیر و الحرکة، و جمیع الأعمال للَّه تعالی. الثالث عشر: الصّمت، ویعنی الإکتفاء بالمقدار اللّازم من الکلام. الرابع عشر: الجوع و قلّة الأکل، و هو من الشّروط المهمّة لسلوک هذا الطریق، ولکن لیس للحدّ الذی یبعث علی الضّعف وعدم القدرة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۱۷ الخامس عشر: الخلوة، و هی عبارةٌ عن العزلة عن أهل العصیان، و طلّاب الدنیا و أصحاب العقول الناقصة، و التّوجه الخالص للَّه‌عند العبادة و الذّکر، و الإبتعاد عن الضّوضاء و عناصر التّشویش الذهنی. السادس عشر: السّهر، و خصوصاً فی الثّلث الأخیر من اللیل، الذی أکدّت علیه الآیات و الرّوایات. السابع عشر: الدّوام علی الطّهارة، وهو أن یکون علی وضوء دائماً، حیث ینوّر الباطن بأنوارٍ خاصّةٍ. الثامن عشر: التّضرع للَّه‌تعالی، والتحرک علی مستوی اظهار الخضوع

له، أكثر و أكثر. التاسع عشر: عدم إعطاء النفس ما تريد و إن كان مُباحاً، بالقدر الذى يستطيع. العشرون: كتمان السّر، وهو من أهم الشّروط، و هو ما يؤكد عليه أساتذة هذا الأمر، حتى لا يجرّ الإنسان للرياء و التّظاهر، وإذا ما حصلت له المكاشفة، يجب أن لا يخبر أحد لئلّا يُصاب بالعجب. الواحد والعشرون: يجب الإلتزام فى عمليّة السّلوك المعنوى باستاذ، سواء كان الأستاذ عامّاً للسّير و السّلوك أو خاصّاً، و هو رسول اللّه صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام. و يجب على السّالك الإنتباه إلى أنّ هذه المرحلة، هى مرحلةٌ دقيقةٌ جداً، حتى لا يختبر أحداً و لا يطّلع على صلاحيّته العلميّة و الدينية، ولا يعتمد على إرشاداته بصورة كليّة، لأنّه يوجد بعض الشياطين يتلبّسون بلباس الأساتذة، وذئاب تلبس ثوب الرّاعى، فتحرف السّالك عن الجادّة. ويقول المرحوم العلّامة الطباطبائى فى هذا المجال: إنّ الإطّلاع على العلوم والأسرار الغريبة، و ما وراء الطّبيعة وأسرار الإنسان، والمشى على الماء والنار والإخبار بالمغيّبات، كلّها لا تؤكد أنّ ذلك الإنسان قد وصل إلى مرحلة الكمال، لأنّ كلّ تلك الامور تحصل فى مرتبة المكاشفة الرّوحيّة، و الطّريق طويل حتّى الوصول إلى الكمال. الثانى والعشرون: «الأوراد»، و هى عبارةٌ عن الأذكار التى تفتح للسّالك الطّريق و المرور الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۱۸ من المطّبات الصّعبة، و تعينه فى المسير إلى اللّه تعالى. الثالث والعشرون: نفى الخواطر، وهو تسخير القلب، والحكومة عليه و التّمركز الفكرى، بحيث لا يمر من خاطره شىء، إلّابإختياره وإذنه، أو بتعبير آخر، لا يشغل تفكيره الأفكار المُشوّشة، و هو من الامور الصّعبة. الرابع والعشرون: التّفكر، والقصد منه أنّ السّالك يسعى من خلال التّفكير الصحيح، و العميق، فى إكتساب المعرفة الحقّة، ويحصر تفكيره فى عالم الصّفات، والأسماء الإلهيّة و تجلّياته و أفعاله. الخامس والعشرون: الذِكر، و المراد منه التّوجه القلبى للذّات المقدّسة للبارى تعالى، وليس الذّكر اللّسانى الذى يسمّى بالوِرد، أو بعبارةٍ اخرى، يكون كلّ نظره جمال الإله، ولا يرى شيئاً غيره. هذه هى خلاصة، ما نسب للعلّامة بحر العلوم فى دائرة السّير و السّلوك، و تبعه فى ذلك مع إختلاف يسيرٍ، العلّامة الطّباطبائى، و ذلك كما جاء فى رسالته «لبّ اللباب».

۲- طريقة المرحوم الملكى التّبريزى

وهو المرحوم «الحاج ميرزا جواد الآقا تبريزى»، وهو من الاساتذة المعروفين فى السّير و السّلوك إلى اللّه، و قد إنتهج فى رسالته (لقاء اللّه)، نهجاً يختلف عمّا جاء به فى الرّسالة المنسوبة للعلّامة بحر العلوم. فهو يُذكر فى البداية، أنّ لقاء اللّه هو الغاية القصوى، و الهدف الأعلى، للسّير و السّلوك، و يستشهد لذلك بآياتٍ متعدّدةٍ من القرآن الكريم، وكذلك بالروايات الكثيرة لُمدّعاه، و يصرّح بأنّ لقاء اللّه تعالى ليس هو المشاهدة العينية، لأنّ البارى تعالى منزّه عن الكيفيات التى توجب رؤيته بالبصر، و لا هو لقاء النّعيم و الثّواب فى يوم القيامة، بل هو نوع من «الشّهود»، واللّقاء القلبى والروحى والمشاهدة بالبصيرة. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۱۹ وبعدها يقترح برنامجاً للسّير فى هذا الطريق الطويل، و المحفوف بالمخاطر، و يتلخص فى عدّة امور: ۱- العزم والنيّة لسلوك هذا الطريق. ۲- التّوبة النّصوح من الأعمال السّالفة، و هى التّوبة التى تنفذ فى أعماق الوجدان و الوعى، فى واقع النفس، و تعمل على تغييره، و غسل آثار الذّنوب وأدران الخطايا من جسمه وروحه. ۳- حمل الزّاد للطريق، و ذكرَ له عدّة برامج: الف: صباحاً، المشارطة: (يشرط على نفسه أن لا يمضى إلّافى طريق الحق)، وفى النّهار المراقبة: (الإنتباه لئلّا يحيد عن الطريق)، ومساءاً المحاسبة: (لنفسه على ما فعله فى النّهار). ب- التّوجه للأوراد و الأذكار، و وظائف اليقظة والمنام. ج- التّوجه لصلاة اللّيل، و الخَلوة باللّه تعالى، و إحياء الليل وترويض النفس فى حالات النوم والأكل، بحيث لا يتجاوز عن الحدّ الضرورى. ۴- الإستفادة من سوط السّلوك، و هو عبارة عن مُؤاخذة النّفس و توبيخها، لتوجُّهها للدنيا و تقصيرها فى طلب الحق، و عدم وفائها، و إطاعة الشّيطان فى معصية اللّه تعالى، ويستغفر اللّه على كلّ ذلك ويعزم على السّعى فى طريق الإخلاص والإيمان و الصلاح. ۵- عند التّحول، وفى هذه المرحلة، و قبل كلّ شىء، يجب أن يفكّر فى الموت، ليميت حبّ الدنيا فى قلبه و يصلح الصّفات القبيحة عنده، و هو دواءٌ نافعٌ فى هذا المجال، (وبعدها يفكر فى عظمة اللّه وأسماءه و صفاته، ويذكر أولياء الحق، وليسعى بأن يُشابِههم فى صفاتهم). ۶- عند القرب من منزل المقصود، يشير إلى أنّ الإنسان

لدیه ثلاثة عوالم: ۱- عالم الحسّ والطّبیعة. ۲- عالم الخیال والمثال. ۳- عالم العقل والحقیقة. فعالم الحسّ و الطّبیعة کلّه ظلمات، وإذا لم یعبره فلن یستطیع الوصول لعالم المثال، و هو العالم الذی تکون فیه الحقائق لها صورٌ عاریةٌ عن المادّة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۰ وما دام یراوح فی عالم المثال، فلن یستطیع الوصول إلی عالم العقل، الذی هو عالم الحقیقة والأصل للنفس الإنسانیة، الذی لا ـ صورة ولا ـ مادة فیه، فإذا وصل لعالم العقل، و أدرک نفسه خالیةٌ عن المادة و الصّورة، فسیصل إلی معرفة الباری تعالی، و یکون مصداق لقوله: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَد عَرَفَ رَبَّهُ «۱»»

۳- طریقةٌ اخری

اشارة

فی رسالة «لقاء اللّه» للعالم والمحقق الکبیر، الآقا المصطفوی، أشار إلی برنامج آخر للسّیر و السّلوک، فی رسالته الجامعة و الغنیة، و المعتمدة علی الآیات والأخبار، حیث أشار أولًا إلی الآیات المتعلّقة بلقاء اللّه، وبعدها شرع فی تفسیر معنی اللّقاء؛ أنّ المراد منه اللّقاء المعنوی و الرّوحی، وأضاف أنّ الإنسان ولأجل وصوله للقاء اللّه تعالی فی هذا السیر المعنوی، علیه أن یکسر حدود المادة والمکان و الزّمان، و کذلک الحدود الذّاتیة لکلّ المُمکنات، و یفنی فی عالم اللّاهوت، و یکون المخاطب لقوله تعالی: «یا أَیَّتُها النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ ارجَعِی إِلی رَبِّکِ راضِیَةً مَرضِیَّةً فادخُلِی فِی عِبادِی و ادخُلی جَنَّتی» «۳». و أقترح خمسة مراحل للوصول إلی المقصود الأکبر: المرحلة الاولی: التّحرک علی مستوی تکمیل وتقویة الإعتقادات، و التّوجه الخاص لُاصول الدّین. المرحلة الثانیة: التّوبة من الذنوب، و التّحرک من هذا الموقع للإتیان بالأعمال الصّالحة وأداء الواجبات. المرحلة الثالثة: السّعی الجاد لتطهیر النّفس من الرذائل، و تحلیتها بالفضائل الأخلاقیة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۱ المرحلة الرابعة: محو الأنانیّة، و الفناء فی مُقابل عظمة الحق. و فی هذه المرحلة التی ینقطع الإنسان فیها عن التّعلقات المادیة، من الأهل والأموال والأولاد واللّذات، تکون الشّهوات المادیّة و الخیالیّة قد تغیّرت و تبدّلت، إلی تعلّقٍ و إرتباطٍ روحی ومعنوی، والذی یبقی هو التّعلق بالذّات و النّفس، و هذا التعلّقَ متجذّر و قویّ لدرجةٍ کبیرةٍ جدّاً، ولشدّة ظهوره: خفی، و تبقی ملاحظةٌ واحدةٌ و هی، أنّ هدف السّالک فی جمیع هذه المراحل هو الوصول إلی لقاء اللّه، وفی الواقع والباطن أنّ کلّ عمل یکون قد أدّاه هو له ولنفسه. وبعبارة اخری: کان یُرید الوصول إلی المقامات العلیا، و القُرب من اللّه تعالی، و الحصول علی الکمالات المعنویة و الروحیة، فکلّ ذلک کان بدافع النّفس و الذّات، و لیس لِلهدف الأصلی، و لذلک فهو عند وصوله لمثل هذا المقام یفرح غایة الفرح، ولکن إذا وصل غیره إلی هذا المقام، فسوف لن یکون فرحاً لهذا الحد، وهنا یجب أن تُحذف «الأنا» و تُنسی ویکون المحبوب للسّالک هو تجلّی اللّه سبحانه، لا من خلال حبّ الذّات، أو بعبارةٍ أوضح، یجب أن تُمحی «الأنا»، و هی الحِجاب الأکبر و المانعُ الأقوی، و آخر الحُجب للوصول إلی اللّه تعالی ولقائه. ولإزالة هذا المانع، توجد عدّة طرق: ۱- طریق التّوجه القلبی للّه تعالی، و التّوحید الذّاتی و الصّفاتی والأفعالی، و منه یفهم أنّ غیره لا شیء فی مُقابله. ۲- التّفکر و الإستدلال للوقوف بوجه «الأنانیة» وحجاب النفس، بمعنی أن یری أنّ اللّه تعالی غیر محدودٍ بحدٍّ، و هو الأزلی و الحقّ المطلق، والنفس هی الموجود المحدود فی کلّ شیء، و فی منتهی الضّعف و العجز و الفقر والحاجة إلی اللّه تعالی، ومن دون المدد الإلهی فإنّها لا تستطیع الصّمود و لا لِلحظةٍ واحدةٍ. ۳- المعالجة بالأضداد، بمعنی أنّه کلّما أحسّ بوجود «الأنا» فی وعیه، یعالج هذا الموقف بالتّوجه للّه و الصّالحین من عباده، لکی یعیش فی الحضور الدّائم مع الباری تعالی. المرحلة الخامسة: فی هذه المرحلة یصبح السّالک إنساناً ملکوتیاً، و یدخل فی عالم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۲ الجبروت!. و القصد من الدخول فی مرحلة الجبروت، هو أنّ الإنسان یصل إلی مرحلةٍ من الصّفاء و الإخلاص، یکون فیها مندّکاً فی ذاتِ اللّه تعالی، وله نفوذٌ و سلطةٌ علی الامور، فیتحرک فی أداء وظائفه الإلهیّة، و إرشاد الناس، و الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، من موقع المسؤولیة و الإنضباط فی خط الرّسالة، و یکون علی بصیرةٍ

کاملةٍ من أمره. أو الأحری، ینسی نفسه، ویکون علی علم بکلّ المسائل والوظائف والأحکام والآداب الشرعیة، و طرق السّیر و السّلوک، و یکون تشخیصه لِلأمراض والأدویة دقیق جدّاً، کالطّبیب الحاذق الذی یعرف الدّاء و الدّواء و یشخصه جیّداً «۱». و الجدیر بالذّکر أنّه قد استدلّ لکلّ هذه المطالب فی کتابه، بالآیات و الرّوایات الإسلامیّة، کشاهدٍ علی مُدّعاه.

خلاصة ما تقدم من مذاهب السّیر و السّلوک:

یُستفاد ممّا تقدّم من تعلیمات أرباب هذا الفن، و الطریق: (الذین مشوا فی نهج الإسلام الأصیل وطریق أهل البیت علیهم السلام لا المتصوفة)، اصولٌ مشترکةٌ فی عملیّةِ السّیرِ و السّلوک إلی اللّه و هی: ۱- أنّ الهدف الأصلی، هو لقاء اللّه وشهود ذاته المقدسة، بالبصیرة و الحُضور الروحی المعنوی عنده. ۲- للوصول لهذا الهدف، ینبغی التّحرک أولًا من موقع التوبة من جمیع الذنوب و الرذائل الأخلاقیة، و التّحلی بالفضائل. ۳- فی هذا الطریق یجب أن لا ینسی الآداب الأربعة: المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة، و المعاقبة، یعنی یُشترط فی الصّباح علی نفسه، أن لا یذنب ولا یخالف رضا الباری تعالی، و یراقب نفسه فی طول النّهار و فی اللّیل و عند النوم، یجلس للمحاسبة، و إذا ما صدرت منه مخالفةٌ یعاقب نفسه بترکه لأنواع اللّذائذ. ۴- التّصدی لهوی النفس من موقع المخالفة، لأنّ الهوی هو من أکبر السّدود فی هذا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۳ الطّریق، و مخالفته هی من أوجب الواجبات. ۵- التّوجه لأذکارٍ و أورادٍ وردت فی الشّرع المقدس، و أمثال: «لا حَولَ وَلا قُوَّةَ بِاللّه»، و ذکر «لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ سُبحانَکَ إِنّی کُنتُ مَن الظّالِمِینَ»، وذکر «یا اللّه» و «یا حَیُّ» «یا قَیُّوم» وهی الزاد فی هذا الطّریق و السبب للقوّة. ۶- التوجه القلبی لحقیقة التّوحید للذات و الصّفات و الأفعال للّه تعالی، و الغرق فی صفات کماله وجماله، وهی زاد آخر لهذا الطریق الوعر الملیء بالمطبّات و التّحدیات الصعبة. ۷- کسر أکبر الأصنام، و هو صنم الأنانیّة و الّذات الفردیّة، و هو من أهم الشّروط للوصول للمقصود. ۸- و قد إشترط البعض الإستعانة بالاستاذ، و السّیر فی هذا الطریق تحت إشرافه، فیکون کالطبیب الذی یعمل علی معالجته، والبعض لا یعتمدون علی الاستاذ، و حصل فی کثیر من الموارد، و للأسف الشدید، الوقوع فی حبائل الشیطان، و ذلک بسبب الإعتماد علی الاستاذ، حیث یعتبرونه کالملاک، فیذهب دینهم وإیمانهم وأخلاقهم إدراج الرّیاح!. و یری البعض الآخر، أنّ وظیفة الإرشاد والسیر علی هدی الأنبیاء والأولیاء، والأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، هی آخر المراحل، ولکن کثیراً منهم لم یذکروا شیئاً، وترکوا السّالک بحاله. والغرض من الإتیان بهذا البحث، فی المباحث الأخلاقیة، فی هذا الکتاب، هو: أولًا: سرد عصارة من التّفکرات التی لها علاقة بالمباحث الأخلاقیة، حتی یتنور القارىء ویتحرک فی طریق التّهذیب و إصلاح الذّات. ثانیاً: نحذّر طلاب الحقیقة، أنّ الحدّ بین الحقّ و الباطل ضئیل جدّاً، فکثیرٌ من الشّباب من ذوی القلوب النّقیة، کان هدفهم الوصول إلی الحقّ و العین الصّافیة، ولکنّهم إنجرفوا فی طریق الضّلالة، و ترکوا طریق العقل و الشّرع، ولذلک تاهوا فی وادی الحیرة، و غرقوا فی مستنقع الخطیئة، ولم یسلموا من مخالب الذّئاب الضّاریة، الذین یرتدون مسوح الزّهد و القداسة، فأضاعوا وفقدوا کلّ ما لدیهم.

هل یلزم وجود المُرشد فی کلّ مرحلةٍ؟

اشارة

یعتقد کثیر من أرباب السّیر و السّلوک، أنّ السّائرین فی طریق الکمال و الفضیلة، و التقوی و الأخلاق، والقرب إلی اللّه تعالی، یجب أن یکونوا تحت إشراف الاستاذ والمرشد، کما ذکر فی رسالة السّیر والسلوک للعلّامة بحر العلوم، و رسالة لبّ الألباب للمرحوم العلّامة الطّباطبائی، فی الفصل الحادی والعشرون من وظائف السّائر إلی اللّه، هو التّعلیم و التعلم تحت نظر وإشراف الاستاذ، سواء کان الاستاذ عالِم کالعلماء الذین مشوا فی هذا الطریق، أم الأساتذة الخصوصیین، و هم الأنبیاء الأئمة و المعصومین علیهم السلام. ولکن المطّلعین

من أهل الفن، يُحذّرون السّائرين على طريق التّقوى و التّهذيب، من عدم الإلتجاء بسهولة لأيٍّ كان، وإذا لم يطمئنّوا إطمئناناً كافياً، ولم يختبروا صلاحيتهم العلميّة والدينية، فلا يسلّموهم أنفسهم، ولا يكتفوا حتى بإخبارهم للمستقبليات، و لا أعمالهم غير الطبيعيّة، ولا حتى مرورهم على الماء والنار، لأنّ صدور هذه الأعمال ممكن من المرتاضين غير المهذّبين أيضاً. وقال البعض الآخر: إنّ الرّجوع لُلاستاذ لازم فی المراحل الأوليّة، وأمّا بعد السّير و عبور عدّة مراحل، فلا يحتاج إلى الاستاذ، و الرّجوع لُلاستاذ الخصوصی و هو الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، حتّى نهاية المراحل، يكون لازماً و ضرورياً. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۶ و قد إستدلوا على لزوم الرّجوع لُلاستاذ تارةً، بهذه الآية الشّريفة، التی تقول: «فَاسْئَلُوا أَهلَ الذِّكْرِ إن كُنتُم لاتَعلَمُونَ» «۱». فرغم أنّها تتناول التعليم لا التربية، ولكن الحقيقة أنّ التربية تعتمد على التّعليم فی كثير من الموارد، فلذلك يجب الرّجوع للمطلعين فی مثل هذه الموارد، وهذا المعنى يختلف إختلافاً واضحاً عن إختيار شخصٍ خاص ليكون ناظراً على أعمال وأخلاق الإنسان. ويستشهد القائلون بضرورةِ المرشد تارةً اخرى؛ بحكاية موسى مع الخضر عليهما السلام، فقد كان موسى عليه السلام بحاجةٍ للخضر، مع ما أنّه كان من الأنبياء وأولی العزم، وقطع قسماً من الطّريق بمساعدته عليه السلام. ولكن و بإلقاء نظرةٍ فاحصةٍ على قصّة موسى والخضر عليهما السلام، نرى أنّ موسى عليه السلام عندما تعلم من الخضر عليه السلام، إنّما كان بأمر من اللّه تعالى لأجل الاطّلاع على أسرار الحكمة الإلهيّة بالنسبة للحوادث التی تحدث فی هذا العالم، والاخرى أنّ علم موسى عليه السلام كان عملًا ظاهرياً، «ويتعلّق بدائرة التّكليف»، و علم الخضر عليه السلام علماً باطنياً، (خارج عن دائرة التكليف) «۲»، وهذا الأمر يختلف عن مسألة إختيار الاستاذ و المرشد، فی كل مراحل التّهذيب للنفس و السّير فی طريق التّقوى، وإن كان يشير ولو بالإجمال إلى أهميّة كسب الفضيلة، فی محضر الاستاذ فی خط التّكامل المعنوى. وقد يستشهد لذلك أيضاً بحكاية لقمان الحكيم و إبنه، فهو استاذ إلهی أخذ بيد إبنه و ساعده فی سلوك ذلك الطريق «۳». ونقل العلّامة المجلسی فی بحار الانوار، عن الإمام السجّاد عليه السلام أنّه قال: «هَلَكَ مَنْ لَيسَ لَهُ حَكِيمٌ يَرشُدُهُ» «۴». ولكن و من مجموع ما ذُكر، لا يمكن إستفادة لزوم المرشد فی دائرة السّلوك الأخلاقی و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۷ تهذيب النفس، بحيث إذا لم يكن تحرك الإنسان فی خطّ التّهذيب النّفسی و التّزكية الأخلاقية، تحت إشراف المرشد، فسوف يختل برنامج التربية و الأخلاق و التّقوى، و يتعطل السّير و السّلوك فی حركة الواقع النفسی والمعنوى لدى الفرد، لأنّ الكثير من الأشخاص إلتزموا بالرّوايات والآيات والأحاديث الإسلامية، و عملوا بها، و وصلوا إلى مقاماتٍ عاليةٍ و درجاتٍ كبيرةٍ دون الإستعانة بمرشدٍ أو معلّمٍ خاصٍ على مستوى التّربية الأخلاقيّة، و طبعاً لا يمكن إنكار فائدة الأساتذة و المرشدين و توجيهاتهم القيّمة، فهم عناصر جيّدة للوصول إلى المقصود من أقرب الطرّق، و معدّات فاعلةٌ لمواجهة المشاكل الأخلاقيّة لتحديات الواقع، و حلّها وفق مستجدّات الواقع و مستلزمات العقيدة. و جاء فی نهج البلاغة أيضاً: «أيُّها النّاسُ استَصبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصبَاحٍ، وَاعظٌ مُتَّعِظٌ» «۱». ولكن وللأسف نجد فی كثير من الموارد، أنّ النّتيجة كانت عكسيّة، فكثير من الأشخاص عرّفوا أنفسهم بأنّهم مرشدون للناس فی سلوك سبيل التّربية و التّهذيب، ولكن اتّضح بأنّهم قطّاع طُرق، وكمْ من الأشخاص الظّاهرين الطالبين للحقّ إنخدعوا بهم، و ساروا فی طريق التّصوف أو الإنحراف، و سقطوا فی منحدر الرّذيلة، و ارتكبوا مفاسد أخلاقية كبيرة؛ و عليه فنحن بدورنا نحذّر السّائرين على هذا الطّريق، إذا ما أرادوا الإستفادة من الحضور، عند استاذ و مرشدٍ فی المسائل الأخلاقيّة، فيجب أن يتوخّوا جانب الحذر و الإحتياط، و ليتأكدوا من حقيقة الأمر، و لا يغترّوا بالمظاهر الخادعة، بل ليتفحّصوا عن سوابقهم، وليشاوروا أصحاب الفنّ فی هذا المجال، كی يصلوا إلى غايتهم المنشودة.

دور الواعظ الداخلی (الباطنی):

تكلّمنا عن دور الواعظ الخارجی بصورةٍ كافيةٍ، والآن جاء دور الواعظ الداخلی؛ حيث يستفاد من بعض الأخبار والروايات الإسلامية أنّ الضّمير الحیّ هو الواعظ الداخلی والباطنی للإنسان، وله دور مهم فی السّير على طريقِ التّكامل الأخلاقی و التّقوى، وبالأحرى

الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۲۸ لا یمکن السّیر بدونه، فی مواجهة التحدیات الصّعبة و قوی الإنحراف. فقد جاء فی حدیثٍ عن الإمام علی بن الحسین علیهما السلام، أنّه قال: «یا إبنَ آدمَ إِنَّکَ لاتَزَالُ بِخَیرٍ ما کانَ لَکَ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِکَ، وَما کانَتِ الْمُحاسَبَةُ مِن هَمِّکَ» «۱». و نُقل أیضاً عنه علیه السلام، مشابهٌ لهذا المعنی، مع قلیلٍ من الإختلاف «۲». وجاء فی نهج البلاغة أیضاً، أنّ: «وَاعَلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ یُعَنْ عَلَی نَفْسِهِ حتّی یَکُونَ لَهُ مِنْها وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ، لَم یَکُن لَهُ مِنْ غَیرِها لا زَاجِرٌ وَلا واعِظٌ» «۳». ومن البدیهی أنّ الإنسان فی هذا الطّریق یحتاج إلی واعظٍ قبل کلّ شیء، لیکون معه فی کلّ حال،: ویعلم أسراره الداخلیة، ویکون رقیباً علیه ومعه دائماً، وأیّ عاملٍ أفضل من الواعظ الداخلی وهو الوجدان، یتولی القیام بهذا الدّور، و ینبّه الإنسان إلی منزلقات الطّریق، و تعقیدات المسیر، و یصدّه عن الإنحراف و السّقوط فی الهاویة. ونقرأ فی حدیثٍ عن الإمام علیّ علیه السلام: «إِجْعَلْ مِنْ نَفْسِکَ عَلی نَفْسِکَ رَقِیباً» «۴». وجاء فی حدیثٍ آخر عنه علیه السلام: «یَنبَغِی أَنْ یَکُونَ الرَّجُلُ مُهَیمِناً عَلی نَفْسِهِ مُراقِباً قَلْبَهُ، حافِظاً لِسانَهُ» «۵». ۱۱

العناصر اللّازمة لتربیة الفضائل الأخلاقیّة

اشارة

إضافةً لما ذکرنا من برنامج للصّعود بالإنسان فی أجواء التربیة الأخلاقیّة، یوجد هناک عناصر اخری، لها أثرها الکبیر فی منح الإنسان قوّة التّصدی، لحالات الضعف أمام الرّذائل الأخلاقیّة، وتقویة اصول الفضائل فی واقع الإنسان، و حرکته التّکاملیة فی الحیاة، و منها:

۱- طهارة وصفاء المحیط

اشارة

ممّا لا شک فیه أنّ المحیط الذی یعیش فیه الإنسان، یعکس أثره الکبیر علی سلوکیّات و روحیّات ذلک الإنسان، حیث یسترفد کثیراً من صفاته وأفعاله من المحیط الإجتماعی و الثّقافی، فالمحیط النّظیف و الطّاهر غالباً ما یفرز اناساً طاهرین، والعکس صحیح. و رغم أنّ الإنسان یمکن أن یعیش نظیفاً وطاهراً فی الوسط الملّوث، وبالعکس یمکنه أن یسیر فی طریق الرّذیلة والإثم فی المحیط الطّاهر، و بعبارةٍ اخری إنّ الظّروف الإجتماعیّة و الثّقافیة التی یعیش فیها الإنسان، لیست العلّة التّامة فی صلاح و إنحراف الإنسان، ولکنّها یمکن أن تُهیيء الأرضیة لذلک قطعاً، وهذا ممّا لا یقبل الإنکار. و قد یقول البعض، بأنّ الإنسان یخضع لإجبار المحیط و المجتمع، «فیبقی الإنسان کما هو الموجود فعلًا»، ولکننا ننکره جملة و تفصیلًا، من دون أن ننکر دور العوامل القویّة فی عملیّة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۰ إخضاع الفرد لمتطلبات الواقع و تحدیاته، فی أجواء التّفاعل الإجتماعی. بعد هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم، و نقرأ الآیات التی تؤیّد تأثیر المحیط فی شخصیّة الإنسان، بالدّلالة الإلتزامیّة، أو المطابقیّة للکلام، لنستوحی منها المفهوم القُرآنی فی هذا الإطار: ۱- «وَالْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِی خَبُثَ لَایَخْرُجُ إِلَّا نَکِداً کَذَلِکَ نُصَرِّفُ الْآیَاتِ لِقَوْمٍ یَشْکُرُونَ» «۱». ۲- «وَجَاوَزْنَا بِبَنِی إِسْرَائِیلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَی قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلَی أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا یَا مُوسَی اجْعَل لَنَا إِلَهاً کَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» «۲». ۳- «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَاتَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنْ الْکَافِرِینَ دَیَّاراً إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً کَفَّاراً» «۳». ۴- «یَا عِبَادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِی وَاسِعَةٌ فَإِیَّایَ فَاعْبُدُونِ» «۴». ۵- «إِنَّ الَّذِینَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِکَةُ ظَالِمِی أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِیمَ کُنتُمْ قَالُوا کُنَّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِیهَا فَأُوْلَئِکَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِیراً» «۵».

تفسیر و إستنتاج:

«الآیة الاولی» تحدّثت عن تأثیر المحیط فی أعمال وأفعال الإنسان، ببیانٍ لطیفٍ و جذّابٍ، و قد إختلف المفسّرون فی تفسیر هذه الآیة، و ذهب کلّ واحدٍ منهم إلی رأی ... فبعضهم قال: إنّ المراد منها، أنّ ماء الوحی الرّقراق کقطرات المطر، ینزل علی أرض الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۱ القلوب فترتوی منه القلوب الطاهرة، و تنبتُ ورود المعرفة وفواکه التّقوی و الطّاعة اللّذیذة، ولکن القلوب السّوداء والملوثة، لا- تتأثر به من موقع الإستفادة فی حرکة الحیاة، وعندما نری أنّ ردود الفعل، قبال دعوات الأنبیاء، و تعالیم الوحی لیست متساویة عند الجمیع، فهذا لا یدلّ علی وجود النقص والخلل فی فاعلیّة الفاعل، بل أنّ الإشکال إنّما هو فی قابلیّة القابل «۱». و الأمر الآخر أنّ الغرض من بیان هذا المثال، هو أن یکون طلب الفضائل والمحاسن من محلّها المناسب، لأنّ السّعی فی المحل غیر المناسب لیس هو إلّاإهدار و تضییع للطاقات «۲». الإحتمال الثالث، فی تفسیر هذه الآیة و یمکن الإستفادة منه هنا، هو أنّ فی هذا المثال شبّه الإنسان بالنبات، ولکن الأرض التی تنبت فیها النباتات إمّا حلوة أو سبخة، ممّا تنعکس تأثیراته علی النّبات أیضاً، و فی المحیط الملّوث، لا یمکن تربیة الإنسان فی إطار التعالیم الإلهیّة والقیم الأخلاقیّة، مهما کانت التعلیمات وأسالیب التربیة قویّةٌ و مؤثرةٌ، فکما أنّ قطرات المطر المُوجبة لبعث الحیاة للأرض، لا- یمکن أن تؤثر فی الأرض السّبخة، فکذلک الحال فی عناصر التربیة فی المحیط الملّوث، وبناءاً علیه، یجب علینا أن نهتم بإصلاح المحیط الإجتماعی، و الثّقافی، الذی نعیشه ونتفاعل معه دائماً، للتوصل إلی تهذیب النفوس، و تحکیم الأخلاق الصالحة، فی واقع الإنسان والحیاة. و بالطّبع لا یوجد تقاطع بین التفسیرات الثلاثة المتقدّمة، والمثال الآنف الذّکر، یمکن أن یکون ناظراً لهذه التفسیرات الثّلاثة علی السّواء. نعم، فإنّ المحیط الإجتماعی الملّوث بالرذیلة، هو عدوّ للفضائل الأخلاقیّة، والحال أنّ المحیط السّالم و الطّاهر، یهیء أحسن و أفضل الفرص، لغرض تهذیب النّفوس، فی معارج الکمال الرّوحی والمعنوی. و قد ورد فی الحدیث المعروف عن الرّسول الأعظم صلی الله علیه و آله مُخاطباً أصحابه: «إِیّاکُم وَخَضراءِ الدِّمَنِ»، قِیلَ یا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ خَضراءُ الدِّمَنِ قال صلی الله علیه و آله: «المَرأةُ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۲ الحَسناءِ فِی مَنْبَتِ السُّوءِ» «۱». هذا التّشبیه البلیغ، یمکن أن یکون إشارةً، لتأثیر المحیط الصّالح و السّیء فی شخصیة الإنسان، علی المستوی الإیجابی و السّلبی، أو هو إشارةٌ لمسألة الوراثة، و تأثیرها علی مُجمل الشّخصیة، أو إشارةٌ للإثنین معاً. وفی «الآیة الثانیة»: إشارةٌ لقوم بنی إسرائیل، الّذین بقوا لسنواتٍ طویلةٍ، تحت إشراف وتعلیمات النّبی موسی علیه السلام، فی عملیّة الهدایة الرّوحیة و المعنویّة، و فی مجال التوحید و سائر الاصول الدینیّة، ورأوا بامّ أعینهم المعجزات الإلهیّة، کإنفلاق البحرلهم، ونجاتهم من براثن فرعون وجنوده، ولکن وبمجرد أن صادفوا فی طریقهم للشام والأرض المقدسة، قوماً یعبدون الأصنام، تأثّروا بهم و بمحیطهم الملّوث، وقالوا: «یَا مُوسَی اجْعَل لَنَا إِلَهاً کَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ». فتعجّب موسی علیه السلام من هذا الإنقلاب، و غضب غضباً شدیداً، من قولهم هذا وقال لهم: «إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». وأخذ یبیّن لهم مفاسد عبادة الأصنام. والعجیب أنّ قوم بنی إسرائیل، و بعد التّوضیحات الصّریحة و المکرّرة لموسی علیه السلام، بقوا تحت تأثیر هذا المحیط المسموم السّلبی، بحیث إستطاع السّامری أن یتحرک من موقع إغوائهم، و تفعیل عناصر الإنحراف لدیهم فی غیبة موسی علیه السلام، و الّتی إستغرقت عدّة أیّام، حیث صنع لهم صنماً من ذهبٍ، و تبعه الغالبیّة من هؤلاء القوم، و تحوّلوا من أجواء التّوحید إلی أجواء الشّرک. فهذا الأمر یمثل علامةً واضحةً علی تأثیر المحیط السّلبی، فی صیاغة السّلوک الإنسانی، من موقع الانحراف والزیغ فی دائرة المسائل الأخلاقیة، بل و حتّی العقائدیّة أیضاً، ولا شک أنّ بنی إسرائیل وقبل مرورهم باولئک القوم، کانت لدیهم الأرضیّة المساعدة لعبادة الأصنام، وذلک إثر بقائهم مع الوثنیّین المصریّین لمدةٍ طویلةٍ، فعندما رأوا ذلک المنظر، عادوا فی دائرة الذّاکرة إلی ذلک الماضی الأسود، وعلی کل حال فإنّ کلّ هذه الامور، هی دلیل واضح علی تأثیر الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۳ المحیط الإجتماعی، فی أخلاق و عقائد الإنسان فی حرکة الواقع النّفسی. وفی «الآیة الثالثة»: نجد شاهداً آخر علی تأثیر المحیط علی أفکار وأفعال الإنسان، و هو ما نراه فی سلوک نوح علیه السلام، و دعاؤه علی قومه الکفّار بالفناء و المَحق. إنّ نوحاً علیه السلام لم ینطلق فی دعائه علیهم من موقع الذات والانفعال، بل من موقع العقل و البرهان، فقال الله تعالی فی القرآن الکریم، علی لِسان نوحٍ: «إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً کَفَّاراً». فهم فی الحال الحاضر کفّار ومنحرفون، و فی حالة إستمرارهم

فی التّکاثر و التّناسل فسوف یؤثّرون علی أولادهم فی عملیّة الإیحاء لهم بالکفر، و یربّوهم تربیةً منحرفةً. و من «الآیتین الرابعة والخامسة»، نستوحی لزوم الهجرة من المجتمع والمحیط المنحرف، حیث یخاطب الباری تعالی عباده فی الآیة الرابعة، یقول: «یَا عِبَادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِی وَاسِعَةٌ فَإِیَّایَ فَاعْبُدُونِ». وفی الآیة الخامسة، یحذّر المؤمنین من البقاء فی المجتمع الغارق فی الضّلالة، و یؤکّد لهم لزوم الهجرة، و أنّ عذرهم غیر مقبول فی حالة البقاء والتکاسل، فقال: «إِنَّ الَّذِینَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِکَةُ ظَالِمِی أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِیمَ کُنتُمْ قَالُوا کُنَّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِیهَا فَأُوْلَئِکَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِیراً». وفی الحقیقة إنّ مسألة الهجرة هی من الاصول الأساسیّة فی الإسلام، و قد شیّد الإسلام دعائمه علیها، حیث تتضمن عملیّة الهجرة، حکمٌ و غایاتٌ عدیدةٌ و أهمّها الهروب و الفرار من المحیط الملّوث، و النجاة من تأثیراته السیّئة علی واقع الإنسان و محتواه الداخلی. و لیست الهجرة مختصة بزمان صدر الإسلام، کما یعتقد البعض، بل هی جاریة فی کلّ عصرٍ و زمانٍ یتعرض فیها المسلمون لضغوط قوی الشرک و الفساد و الکفر، التی تشکّل عناصر ضغطٍ علی الرّوح المنفتحة علی اللّه والخیر، ولیفّروا بدینهم وأخلاقهم وعقائدهم من أجواء المحیط الملّوث، فجاء فی الحدیث عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «مَنْ فَرَّ بِدِینِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلی أَرْضٍ وَإِنْ کانَ شِبراً مِنَ الأَرضِ إِستَوجَبَ الجَنَّةَ وَکانَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۴ رَفِیقَ مُحَمَّدٍ صلی الله علیه و آله وَإِبراهِیمَ علیه السلام» «۱». فالتأکید علی مقدار الشّبر، إنّما یدلّ علی أهمیّة المسألة فی دائرة الإحتفاظ بالإیمان؛ فلو تسنّی للإنسان ذلک، و بأیّ مقدارٍ وأیّ زمانٍ و مکانٍ، فمعناه التوافق مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و إبراهیم علیه السلام فی خطّ الرّسالة و الدّین. و الخلاصة، أنّ المحیط والمجتمع الذی یعیش فیه الإنسان، کان ولا یزال عاملًا مهمّاً فی تکوین وصیاغة شخصیة الإنسان، و أخلاقه و مؤثّراً فیها، وإن کان الأمر لیس علی وجه الجَبر، وبناءاً علی ذلک فإنّ تطهیر أجواء المحیط الإجتماعی من أهم العوامل لتهذیب الأخلاق وتربیة الملکات الفاضلة فی المحتوی الداخلی للإنسان. و إذا لم یستطع أنّ یغیّر الإنسان من أجواء المحیط شیئاً، فیجب علیه أن یُهاجر و یترک ذلک المحیط الغارق فی الزّیغ و الضّلالة، و کما أنّ الإنسان، و عندما تتعرض حیاته المادیة للخطر، یتحرک من موقع الإبتعاد والهجرة من أرضه، فکذلک علیه أن یُهاجر منها، عندما تتعرض قِیمَهُ الأخلاقیّة و حیاته المعنویّة، التی هی أهم من حیاته المادیّة، للخطر ...، و لا ینبغی أن یتذرّع بأنواع الحجج و الأعذار، لیبقی فیها بحجّة أنّها أرضی و أرضَ آبائی ...، وغیر ذلک من الأعذار و التّبریرات الواهیة، و یستسلم لعناصر التّلوث و الإنحراف التی تؤثر علیه و علی أولاده، فی الدائرة السّلبیة و لا یهاجر منها؟ فیتوجب علی جمیع علماء الأخلاق، أن یتحرکوا فی عملیّة التربیة، لغرض إحیاء الفضائل الأخلاقیة، و تفعیل عناصر الخیر و الإیمان، من خلال إصلاح المحیط والمجتمع، و بدون ذلک، فإنّ السّعی الفردی و الآنی فی هذا الخط، سیکون أثره ضعیفاً فی حرکة التّربیة و التّهذیب.

۲- دور الأصدقاء والعِشرة

اشارة

و الموضوع الآخر، الذی أثبتت التجربة تأثیره العمیق علی السلوک الأخلاقی، و إتّفق علیه جمیع علماء الأخلاق والتربیة والتعلیم، هو عنصر الأصدقاء ودور المعاشرة معهم، ففی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۵ حال کون الصّدیق فاسداً و منحرفاً، فی دائرة السّلوک الأخلاقی، فسیؤثّر علی صدیقه السلیم، من موقع الانحراف کذلک، والعکس صحیح أیضاً، فالکثیر من المؤمنین، و الأقویاء الإرادة، إستطاعوا أن یؤثّروا علی زملائهم الفاسدین، علی مستوی الهدایة و الإصلاح، بحیث جعلوا منهم اناساً أتقیاء، و ملتزمین فی دائرة السّلوک الدّینی و الأخلاقی. ونعود للقرآن الکریم، و الآیات الّتی تتناول هذ الموضوع: ۱- «وَمَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ* وَإِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنْ السَّبِیلِ وَیَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ* حَتَّی إِذَا جَاءَنَا قَالَ یَا لَیْتَ بَیْنِی وَبَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ» «۱». ۲- «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّی کَانَ لِی قَرِینٌ* یَقُولُ أَئِنَّکَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِینَ* أَإِذَا مِتْنَا وَکُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِینُونَ* قَالَ

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مُطَّلِعُونَ* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ* قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِي* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» «۲». ۳- «وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا» «۳».

تفسیر و إستنتاج:

الآیات الاولی، التی وردت فی محلّ البحث، تحدّثت عن جلوس الشّیطان، مع الغافلین عن ذکر اللّه، من منطق الغُوایة، وتوضح تأثیر قرین السّوء، فی السّلوک الأخلاقی للإنسان ومستقبله، فتقول أولًا: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۶ و بعدها یُبیّن القرآن الکریم، دور قرین السّوء فی حرکة الإنسان و الحیاة، فإنّ الشّیاطین یوصدون طریق الهدایة و الحرکة إلی اللّه تعالی، أمام الإنسان، و یقفوا عقبةً فی طریق الوصول إلی الهدف المقدس، والأنکی من ذلک، أنّ هؤلاء المنخدعین یحسبون أنّهم مهتدون: «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ». وبعدها یتطرّق القرآن الکریم إلی النتیجة، فیقول: إنّ هذا الإنسان عندما یرد فی عرصات القیامة، و عند حضور الجمیع عند اللّه تبارک و تعالی، و کشف الأسرار والحقائق، یقول لقرینه الشّیطانی: «حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ». حیث نستوحی من هذه التعبیرات، بأنّ قرین السّوء، یمکن أن یحرف الإنسان من موقع الأغواء، عن طریق الباری تعالی، و یصدّه عن سبیل الهدایة و الصّلاح، فیهدم علیه دعائم الأخلاق، و یشوّه الواقع النّفسی و الفکری له، فینخدع هذا المسکین ویحسب أنّه علی هدیً، فإرجاعه عن غیّه، و العودة به إلی الصّراط المستقیم، سیکون ضرباً من المحال، ولن یستیقظ من أوهام الغفلة، إلّاوقد فات الأوان، و بعد غلق طریق العودة علیه. و کذلک یُستفاد من الآیة الشریفة، أنّ قرین السّوء یبقی دائماً مع الإنسان فی حیاته الاخرویّة الأبدیّة، و کم هو مؤلم، أن یری الشّخص المسبّب فی بؤسه و هلاکه، یعیش معه دوماً، ولن تنفع معه الیوم الأمانی و الآمال بالإنفصال عنه ومفارقته، فیقول: «وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» «۱». وفی مضمون الآیات الآنفة الذّکر، الآیة (۲۵) من سورة فصّلت، فتقول: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ». «الآیة الثانیة»: من هذه الآیات محل البحث، تتحدث عن الأشخاص الذین عاشوا مع الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۷ أصحاب السّوء، و کانوا یتحرکون معهم فی أجواء الضّلالة و الإنحراف، ولکن اللّطف الإلهی شملهم، و إستطاعوا بسعیهم وجدّهم فی التّحرک بعیداً عن وساوس الشّیطان، و أنقذوا أنفسهم من الوقوع فی براثنه، بعد أن کانوا قد وصلوا إلی حافّة الهاویة، فُهنا یتحدث القرآن الکریم عن تأثیر قرین السّوء فی تکوین عقائد الإنسان وأخلاقه، ولکن لیس بالشّکل الذی یکون فیه الإنسان مجبوراً و غیرُ قادرٍ علی إنقاذ نفسه من شراک الزیغ فقال: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ* يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ* أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ» «۱». و فی هذا الأثناء یذکر قرینه القدیم، و یشرع بالبحث عنه، فینظر من أعالی الجنّة، فإذا به یراه فی أعماق الجحیم: «فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ». فقال له: «قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ». فنری من هذه الآیات، أنّ قرین السّوء بإمکانه أن یؤدی بالإنسان إلی الجحیم، لولا الإیمان و التّقوی ولطف اللّه تعالی فی واقع الإنسان. و فی «الآیة الثالثة»: نری التأسف الشّدید و التأثّر العمیق، الذی یعیشه الظالمون فی یوم القیامة، بسبب إختیارهم ومصاحبتهم لأصدقاء السّوء، لأنّهم کانوا العامل الأساس فی محنتهم الفعلیة: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا». وبناءاً علی ذلک فإنّ الظّالم فی یوم القیامة، أول ما یتأسف علی ترکه الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و قطعه للعلاقة معه، وبعدها یتأسف علی توثیق العلاقة مع أصدقاء السّوء، و بعدها یصرّح، أنّ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۳۸ العامل الأصلی لضلاله، هو نفس هؤلاء الأصدقاء المنحرفین، و مرضی القلوب، و أن تأثیرهم علیه کان أشدّ من تأثیر النداءات الإلهیّة: (طبعاً عند المنحرفین فقط). و أمّا «الآیة

الأخيرة»: فقد تحدثت عن أصدقاء السوء، و عبّرت عنهم بجنود الشيطان و أنّهم من شياطين الإنس، والجدير بالذكر، أنّ التعبير عن تأسّف هذه الجماعة، ورد بجملة: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ...»، و هى أعلى مراحل التّأسف، ففى البداية، يعضّ الإنسان إصبعه بدافع الندم، و فى مرحلةٍ أقوى يعضّ باطن كفّه، و فى مرحلةٍ أشدّ يعضّ على يديه الإثنتين، وهو فى الحقيقة نوعٌ من الإنتقام من نفسه، و أنّه لماذا قصّر فى حقّ نفسه ورماها فى التهلكة؟ فما يُستفاد من الآيات الآنفة الذّكر، هو أنّ الأصدقاء و الأصحاب، لهم أثرهم الكبير فى سعادة أو شقاء الإنسان، ليس على مستوى التّأثير فى السّلوك الأخلاقى فحسب، بل وعلى مستوى العقائد أيضاً، فهنا يجب على المرشد أن يهتم فى عمليّة صيانة الأفراد من الزيغ و الإنحراف، و يرعاهم بتوجيهاته بعيداً عن أجواء التلوّث، و خصوصاً فى عصرنا الحاضر، الذى إنتشرت فيه وسائل الفساد، عن طريق رِفاق السّوء بصورةٍ مُخيفةٍ، و أصبحت سبباً من أسباب الإنحراف و السّير فى خطّ الباطل.

دور الأخلّاء فى الرّوايات الإسلاميّة:

وردت روايات وأحاديث مستفيضة فى هذا المضمار عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و الأئمّة الأطهار عليهم السلام، تعكس أهميّة هذه المسألة، ففى حديث الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «المَرءُ عَلى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ» «۱». وجاء هذا المعنى أيضاً فى حديثٍ آخر، نقل عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «وَلْا تَصحَبُوا أَهْلَ البِدَعِ وَلْا تُجالِسُوهُم فَتَصيرُوا عِنْدَ النّاسِ كَواحِدٍ مِنْهُم». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۳۹ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله: «المَرءُ عَلى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ» «۱». و نفس هذا المعنى ورد عن الإمام على عليه السلام أيضاً، وفيه تصوير عن حالة التّأثير المُتقابل، فى دائرة التّفاعل المشترك بين الأفراد فقال: «مُجالَسةُ الأخيارِ تَلحَقُ الأشرارِ بالأخيارِ وَمُجالِسةُ الأبرارِ لِلفُجّارِ تَلحَقُ الأبرارِ بِالفُجّارِ». وجاء فى ذيل هذا الحديث، عبارةٌ فى غاية الأهميّة، حيث يقول: «مَنْ إشتَبَهَ عَلَيكُم أَمرُهُ وَلَم تَعرِفُوا دِينَهُ فانظُرُوا إلى خُلَطائِهِ» «۲». وفى بعض الروايات، ورد هذا المعنى فى دائرة التّمثيل، فقال: «صُحبَةُ الأشرارِ تَكسِبُ الشَّرَّ كَالرِّيحِ إذا مَرَّتْ بِالنَّتِنِ حَمَلَتْ نَتِناً» «۳». و يُستفاد من هذه التّعبيرات: أنّه وكما أنّ المعاشرة و الصّحبة للأراذل، تهيىء الأرضية لحركة الإنسان نحو الانزلاق فى طريق الشر، فإنّ المعاشرة مع الأخيار تنير قلب الإنسان بضياء الهدى، و تحيى فيه عناصر الخير. ونقرأ هذا المعنى فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «عَمارَةُ القُلُوبِ فى مُعاشَرَةِ ذَوِى العُقُولِ»». و جاء فى حديثٍ آخر عنه عليه السلام، أنّه قال: «مُعاشَرَةُ ذَوِى الفَضائِلِ حَياةُ القُلُوبِ» «۵». فتأثير المُجالسة على قدرٍ من الأهميّة، بحيث قال فيه النّبى سليمان عليه السلام: «لا تَحْكُمُوا عَلى رَجُلٍ بِشىءٍ حَتّى تَنْظُرُوا إلى مَنْ يُصاحِبُ فَإنَّما يُعْرَفُ الرَّجُلُ بِأشكالِهِ وَأقرانِهِ؛ ويُنْسَبُ إلى أصحابِهِ وَأخدانِهِ» «۶». ونقرأ فى حديثٍ جاء عن لقمان الحكيم، فى نصائحه لإبنه، فقال له: الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۱۴۰ «يا بُنَىَّ صاحِبِ العُلَماءَ، وأقرِبْ مِنْهُم، وَجالِسهُم وَزُرهُم فِى بُيُوتِهِم، فَلَعَلَّكَ تَشْبَهُهُم فَتَكُونَ مَعَهُم» «۱». و على كلّ حال، فإنّ الرّوايات الشّريفة، مليئة بمثل هذه النصائح، فى دائرة الإهتمام بالرّفقة و أثر الصّديق فى أخلاق وسلوك الإنسان، ولو جُمعت فى إطارٍ واحدٍ لأمكن تأليف بحثٍ شاملٍ كاملٍ فى هذا المضمار. و نختم الكلام بحديث عن الإمام على عليه السلام، فى وصاياه لإبنه الحسن المُجتبى عليه السلام: «قارِنْ أَهْلَ الخَيرِ، تَكُن مِنْهُم، وبايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ مِنْهُم» «۲».

تأثير العِشرة فى التحليلات المنطقيّة:

يقولون: إنّ أحسن وأفضل دليلٍ لإمكان الشىء، هو وقوعه، و فى موضوع بحثنا، فإنّ رؤية نماذج عينيّة من مُعاشرة بعض الأفراد للأراذل، و كيف أنّها أصبحت مصدراً لأنواع المفاسد و الإنحرافات الخُلقيّة لهم، و بالعكس، فإنّ مُصاحبة الأخيار، ساهمت لدى البعض، على تطهير أنفسهم، من شوائب الرّذيلة و الزّيغ، و هذه الموارد هى خير دليلٍ على بحثنا هذا. فالتشبيه القديم القائل: إنّ

الأخلاق القبيحة، مثل الأمراض السّارِيَة، تنتشر بين الأصدقاء و الأقارب بسرعةٍ فائقةٍ، هو تشبيهٌ صحيحٌ، خصوصاً فی الموارد التی يكون فيها الشخص، حَدث السّن أو ضعيف الإعتقاد و الإيمان، و تكون نفسه مستعدّةً لقبول أخلاق الآخرين، فالمُعاشرة لمثل هؤلاء الأفراد، مع أصدقاء السّوء، تكون بمثابة سهمٍ مُهلكٍ و قاتلٍ فی دائرةِ الإيمان، و عناصر الخَير فی الشّخصية، و قد شاهدنا الكثير من الأفراد والأشخاص من الطيّبين، الذين تغيّروا بالكامل بسبب معاشرتهم لرفقاء السوء، و تحوّل مجرى حياتهم من أجواء الخير إلى أجواء الشّر، و هُناك إثباتاتٌ و أدلّةٌ مختلفةٌ من تقرير هذه الحالةُ فی واقع الإنسان من النّاحية النّفسية و الرّوحية: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۱ ۱- من جملة الامور الّتی توصل إليها علماء النّفس، هو وجود روح المُحاكاة فی الإنسان، يعنی أنّ الأفراد ينطلقون فی حركة الحياة، من موقع الشّعور أو اللّاشعور، بمُحاكاة أصدقائهم وأقاربهم، فالأشخاص الّذين يعيشون حالة الفرح و السرور، ينشدون الفرحة و الحُبور من حواليهم، والعكس صحيح. فالأفراد المُتشائمين، الذين يعيشون اليأس و سوء الظن، يؤثرون على أصحابهم، و يجعلونهم يعيشون حالة سوءِ الظّن، و هذا الأمر يبين لنا السّبب فی تأثير الأصدقاء بعضهم بالبعض الآخر بسرعةٍ. ۲- مَشاهدة القبائح و تكرارها، يُقلّل من قبحها فی نظر المشاهد، و بالتدريج تصبح أمراً عاديّاً، ونحن نعلم أنّ إحدى العوامل المؤثّرة فی ترك الذنوب و القبائح، هو الإحساس بقبحها فی الواقع النّفسی للإنسان. ۳- تأثير التّلقين فی الإنسان غير قابل للإنكار، و أصدقاء السّوء يؤثرون دائماً على رفقائهم فی دائرة الفكر و السّلوك من خلال عمليّة التلقين والايحاء، فيقلبون عناصر الشرّ فی إعتقادهم إلى عناصر الخير، ويغيّرون حسّ التّشخيص لديهم لعناصر الخير و الشرّ فی منظومة القيم، فتختلط عليهم الامور، فی خطّ المستقبل و كيفيّة التعامل مع الغير. ۴- المُعاشرة لرفاق السّوء، يشدّد سوء الظن فی الإنسان مع الجميع، وتفضی به هذه الحالة النّفسية السلبيّة إلى السّقوط فی وادی الذّنوب والفساد الأخلاقی، فنقرأ فی حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مُجالَسَةُ الأَشرارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بالأَخيارِ» «۱». وجاء فی حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّ معاشرة رفاق السّوء تميت القلب، فقال: «أَربَعٌ يُمِتنَ القَلبَ ... وَمُجالَسَةُ المَوتى فَقِيلَ لَهُ يا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا المَوتى ، قَالَ صلى الله عليه و آله: كُلُّ غَنِيٍّ مُسْرِفٍ» «۲». وهذا الموضوع، يعنی سريان الحُسن و القُبح الأخلاقی بين الأصدقاء، فی أجواء المُعاشرة إلى درجةٍ من الوضوح، ممّا حدى بالشّعراء إلى نظم الشعر فی هذا المضمار، من قبيل قولهم: عن المرء لا تسلْ وسلْ عن قرينه فكلّ قرينٍ بالمقارن يقتدی

۳- تأثير الاسرة والوراثة فی الأخلاق

اشارة

من المعلوم أنّ أوّل مدرسةٍ لتعليم القيم الأخلاقيّة، يدخلها الإنسان هی الاسرة، فكثيرٌ من اسس الأخلاق، تنمو فی واقع الإنسان هناك، فالمحيط السّليم أو الملّوث للُاسرة، له الأثر العميق فی صياغة السّلوك الأخلاقی، لأفراد الاسرة، إنّ على مستوى الأخلاق الحسنة أو السيئة، فالحجر الأساس للأخلاق فی واقع الإنسان يوضع هناك. و تتبيّن أهميّة الموضوع، عندما يتّضح أنّ الطفل فی حركته التكامليّة، و مسيرته فی خط التّربية: أولًا: يتقبّل ويتأثر بالمحيط بسرعةٍ كبيرةٍ. ثانياً: إنّ ما يتعلمه الطّفل فی صغره، سوف ينفذ إلى أعماق نفسه و روحه، و قد سمعنا الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام، يقول فيه: «العِلمُ فِی الصِّغَرِ كالنَّقشِ فِی الحَجَرِ» «۱». فالطفل يستلهم كثيراً من سجايا أبيه وامّه واخوته وأخواته، فالشّجاعة و السّخاء و الصّدق و الوفاء، و غيرها من الصّفات و السّجايا الأخلاقيّة الحميدة، يأخذها و يكسبها الطّفل من الكبار بسهولةٍ، و كذلك الحال فی الرّذائل، حيث يكسبها الطّفل من الكبار بسهولةٍ أيضاً. و بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الطّفل يكسب الصّفات من أبويه عن طريقٍ آخر، و هو الوراثة، فالكروموسومات لا تنقل الصفات الجسمانية فحسب، بل تنقل الصفات الأخلاقيّة أيضاً، ولكن من دون تدخل عنصر الإجبار، حيث تكون هذه الصّفات قابلةٌ للتغيير، ولا تسلب المسؤوليّة من الأولاد أيضاً. و بعبارةٍ اخرى، أنّ الأبوين يؤثران على الطّفل أخلاقياً من طريقين، طريق التّكوين، و الاخلاق فی القرآن،

ج۱، ص: ۱۴۳ طریق التّشریع، و المراد من التّکوین هو الصفات و السّجایا المزاجیّة و الأخلاقیّة المتوفرة فی الکروموسومات و الجینات، و الّتی تنتقل لا إرادیاً للطفل فی عملیّة الوراثة. و الطریق التشریعی یتمثل فی إرشاد الأبناء، من خلال أسالیب التّعلیم و التّربیة للصفات الأخلاقیّة، التی یکتسبها الطفل من الأبوین بوعی وشعور. و من المعلوم أنّ أیّاً من هذین الطّریقین، لا یکون علی مستوی الإجبار، بل کلّ منهما یُهیّیء الأرضیّة لنمو و رشد الأخلاق فی واقع الإنسان، ورأینا فی کثیرٍ من الحالات أفراداً صالحین و طاهرین، لأنّ بیئتهم کانت طاهرةً و سلیمةً، والعکس صحیح أیضاً. ولا شک من وجود إستثناءات فی الحالتین تبیّن أنّ تأثیر هذین العاملین، و هی: «التربیة والوراثة»، لا یکون تأثیراً علی مستوی جَبر، بل یخضع لأدوات التّغییر و عنصر الإختیار. و نعود بعد هذه الإشارة إلی أجواء القرآن الکریم، لنستوحی من آیاته الکریمة ما یرشدنا إلی الحقیقة: ۱- «إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً کَفَّاراً» «۱». ۲- «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَکَفَّلَهَا زَکَرِیَّا» «۲». ۳- «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَی آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِیمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَی الْعَالَمِینَ* ذُرِّیَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» «۳». ۴- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَکُمْ وَأَهْلِیکُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» «۴». ۵- «یَا أُخْتَ هَارُونَ مَا کَانَ أَبُوکِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا کَانَتْ أُمُّکِ بَغِیّاً» «۵»

تفسیر و استنتاج:

«الآیة الاولی»: تتحدث عن نوح ودعائه علی قومه بالهلاک، حیث إستدلّ علی ذلک الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۴ بقوله: «إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً کَفَّاراً». فهذا الکلام یدلّ علی أنّ الفجار و المنحرفین، لا یلدون إلّاالفجّار و المنحرفین، و لا یستحقون الحیاة الکریمة من موقع الرّحمة، بل یجب أن ینزل علیهم العذاب أینما وجدوا وحلّوا، و الحقیقة أنّ البیئة، و تربیة الاسرة وکذلک الوراثة، کلّها عوامل تؤثر فی الأخلاق و العقیدة، فی حرکة الحیاة والإنسان، والمهم فی الأمر أنّ نوحاً علیه السلام، قطع بکفر وفساد أولادهم اللّاحقین، لأنّ الفساد إنتشر فی المجتمع بصورةٍ کبیرةٍ جدّاً، فلا یمکن لأحدٍ أن یفلت منه بسهولةٍ، و طبعاً وجود مثل هذه العوامل، لا یعنی سلب الإرادة من الإنسان، وقد ذهب البعض إلی أنّ نوح علیه السلام، توجّه لهذه الملاحظة عن طریق الوحی الإلهی، عندما قال له الباری تعالی: «إِنَّهُ لَن یُؤمِنَ مِن قَومِکَ إِلّامَن آمن» «۱». و من الواضح، أنّ هذه الآیة لا تشمل الأجیال القادمة، لکنّه لا یُستبعد أنّه علیه السلام حکم علیهم بالإعتماد علی الامور الثلاثة السّابقة الذّکر، و هی: (البیئة، وتربیة الاسرة، و عامل الوراثة). و قد ورد فی بعض الرّوایات أنّ الکفّار من القوم، کانوا یأتون بصبیانهم المیزین عند نوح علیه السلام، و یقول الأب لإبنه؛ أترى هذا الشّیخ یا بُنی؟ إنّه شیخٌ کذّاب، فلا تقترب منه، هکذا أوصانی أبی، «وإفعل أنت ذلک مع إبنک أیضاً». و ظلّ الأمر علی هذا المنوال علی تعاقب الأجیال «۲». و فی «الآیة الثانیة»: یحدثنا القرآن الکریم عن السیّدة مریم علیها السلام، والتی تعتبر من أهم وأبرز الشخصیات النسائیة فی العالم، و قد ورد فی النّصوص الدینیّة، ما یبیّن أنّ مسألة التربیة والوراثة و البیئة، لها أهمیّة کبیرةٌ فی رسم وصیاغة شخصیّة الإنسان، فی خطّ الحقّ أو الباطل، و لأجل تربیة أفرادٍ صالحین، یجب علینا التّوجه لتلک الامور. و من جملتها، حالة الام فی زمان الحَمل، فتری أنّ امّ مریم کانت تستعیذ باللّه تعالی من الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۵ الشّیطان الرجیم، وکانت تتمنی دائماً أن یکون من خُدّام بیت اللّه، بل نذرت أن یکون ولیدها کذلک. فتقول الآیة الکریمة: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً». تشبیه الإنسان الظّاهر بالنبات الحَسن، هو فی الحقیقة إشارةٌ إلی أنّ الإنسان کالنبات، یجب ملاحظته ملاحظةً دقیقةً، فالنبات ولأجل أن ینبت نباتاً حسناً مثمراً، یجب فی بادیء الأمر الإستفادة من البذور الصّالحة، و الإعتناء به من قبل الفلّاح فی کل مراحل رشده، إلی أن یصبح شجرةً مثمرةً، فکذلک الطفل فی عَملیّة التربیة، حیث ینبغی التّعامل معه من منطلق الرّعایة و العنایة، و تربیته تربیةً صحیحةً، لأنّ عامل الوراثة یؤثر فی نفسه وروحه، و الاسرة التی یعیش فیها، و کذلک البیئة والمحیط الذی یَتعایش معه، کلّها تمثل عناصر ضاغطة فی واقعه النّفسانی و المزاجی. و الجدیر بالذّکر، أنّ اللّه سبحانه جاء بجملة: «وکَفّلَها زکَریا» فی ذیل الآیة، وهی الکفالة لمریم علیها السلام «۱»، و معلوم حال من یتربی علی ید نبیٍّ من أنبیاء اللّه تعالی، بل اللّه تعالی هوالذی إختاره لکفالتها

ورعایتها. فلا غرابة والحال هذه، أن تصل مریم علیها السلام لدرجاتٍ ساميةٍ، من الإیمان و التّقوی، و الأخلاق و التربیة، ففی ذیل هذه الآیة، یقول القرآن الکریم: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». نعم فإنّ التربیة الإلهیّة: تُثمر الأخلاق الإلهیّة، و الرزق من اللّه فی طریق التّکامل المعنوی للإنسان. وقد ورد فی «الآیة الثالثة»: مقدّمةٌ لقضیة مریم علیها السلام، و کفالة زکریّا علیه السلام لها، وفیها الکلام عن تأثیر العامل الوراثی، و عامل التربیة فی تکریس الطهارة و التقوی و الفضیلة، فی مضمون الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۶ الإنسان و محتواه الداخلی، فقال تعالی: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». فالذرّیة التی بعضها من بعضٍ، إشارة لعامل الوراثة أو التربیة الاسریّة، أو کلاهما وهو شاهد حیٌّ یؤید مُدّعانا من تأثیر عناصر الوراثة و التربیة، فی الشّخصیّة و معطیاتها فی خط التّقوی و الفضیلة. و أشارت الرّوایات التی نُقلت فی ذیل هذه الآیة، لذلک المعنی «۱» أیضاً، وعلی کل حال، فإنّ الآیات الآنفة الذّکر، تدلّ علی مدی تأثیر معطیات التربیة والبیئة و الوراثة، فی نفسیة الإنسان، و أثرها العمیق فی صیاغة قابلیّاته، و الإرتفاع به للتّصدی لمقام الرئاسة المعنویّة علی الخلق، ولا یمکن إنکار تلک المَعطیات، و لا یمکن أبداً مُقایسة هؤلاء الأطهار الذین عاشوا أجواءَ الفضیلة، بالّذین ورثوا الکفر و الفساد و النّفاق من آبائهم وأجدادهم. و فی «الآیة الرابعة»: خاطب الباری تعالی المؤمنین وقال لهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ». وقد تَلت هذه الآیة، الآیات الّتی جاءت فی بدایة سورة التّحریم، و التی حذّرت فیها نساء النّبی صلی الله علیه و آله من أعمالهنّ، وبعدها ذکر المطلب بصورة حکمٍ عامٍّ شمل کلّ المؤمنین. و من المعلوم أنّ المقصود من هذه النار، هی نار الآخرة، ولا یمکن الإتقاء من تلک النار، إلّا بالإهتمام بعملیّة التعلیم و التربیة السّلیمة فی واقع الاسرة، و التی بدورها توجب ترک المعاصی، و الإقبال علی الطّاعة و تقوی اللّه تعالی. و بناءً علی ذلک فإنّ هذه الآیة تعیّن و تبیّن وظیفة ربّ الاسرة، و دوره فی التّربیة والتعلیم، وکذلک تبیّن أهمیّة و تأثیر عنصر التربیة و التعلیم، فی ترشید الفضائل و الأخلاق الحمیدة، و السیّرة الحسنة. و یجب الإهتمام فی ترجمة هذا البرنامج، إلی عالم الممارسة و التطبیق، من أوّل لبنةٍ توضع فی بناء الاسرة، أی منذ إجراء عقد الزّواج و الرّباط المُقدس، و یجب الإهتمام بإسلوب التربیة، من أوّل لحظةٍ یولد فیها الطّفل، و یستمر البرنامج التّربوی فی کلّ المراحل التی تعقبها. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۷ فنقرأ فی حدیثٍ عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّه عندما نزلت هذه الآیة الشّریفة، سأله أحد أصحابه، عن کیفیّة الوقایة من النار، له و لعیاله، فقال له الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «تَأْمُرُهُم بِما أَمَرَ اللَّهُ وَتَنهاهُم عَمّا نَهاهُم اللَّهُ إنْ أَطاعُوکَ کُنْتَ قَدْ وَقَیتَهُم وَإنْ عَصَوکَ کُنْتَ قَدْ قَضَیتَ ما عَلَیکَ» «۱». و یجب أن یکون معلوماً، أنّ الأمر بالمعروف یعدّ من الوسائل الناجعة لوقایة الاسرة من الإنحراف و السّقوط فی هاویة الجحیم، ولأجل الوصول إلی هذا الهدف، علینا الإستعانة بکلّ الوسائل المتاحة لدینا، و کذلک الإستعانة بالجوانب العملیة والنفسیة و الکلامیة، ولا یُستبعد شمول الآیة لمسألة الوارثة، فمثلًا أکل لقمة الحلال عند إنعقاد النّطفة و ذکر اللّه، یُؤثر إیجابیاً فی تکوین النّطفة، و تنشئة الطّفل و حرکته فی المستقبل فی خطّ الإیمان. «الآیة الخامسة والأخیرة»: تشیر إلی قصّة مریم علیها السلام و ولادتها للمسیح علیه السلام، الذی وُلد من دون أب، و تعجّب قومها من ذلک الأمر الفظیع بنظرهم!، فقال الباری تعالی علی لسان قومها: «يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً». فهذا التعبیر، (و خصوصاً نقل القرآن الکریم من موقع الإمضاء و التأیید)، إن دل علی شیء فهو یدلّ علی معطیات عوامل الوراثة من الأب والام، وکذلک تربیة الاسرة وتأثیرها فی أخلاق الطفل، وکلّ الناس لمسوا هذه الأمر بالتجربة، فإذا شاهدوا أمراً مُخالفاً للمعهود، إستغربوا و تعجّبوا. و من مجموع ما تقدم، یمکننا أن نستوحی هذه الحقیقة، وهی أنّ الوراثة و التربیة، من العوامل المهمّة، فی رسم و غرس القیم الأخلاقیّة فی حرکة الواقع النفسی للإنسان، إن علی مستوی الأخلاق الحسنة أو السیئة.

الأخلاق والتربیة فی الأحایث الإسلامیّة:

لا شکّ أنّ المدرسة الأولی للإنسان، هی واقع الاسرة، فمنها یتعلم الإنسان الدّروس الاولی للفضیلة أو الرذیلة. وإذا ما تناولنا مفهوم التربیة بشکله العام: «التکوین والتشریع»، فإنّ أوّل مدرسةٍ یدخلها الإنسان، هی رحم الام وصلب الأب، و الّتی تؤتی معطیّاتها بصورةٍ غیر مباشرةٍ علی الطفل، و تهیيء الأرضیّة للفضیلة، أو الرّذیلة فی حرکته المستقبلیّة. و قد ورد فی الأحادیث الإسلامیّة، تعبیراتٌ لطیفةٌ و دقیقةٌ جدّاً فی هذا المجال، نشیر إلی قسم منها: ۱- قال علیٌّ علیه السلام: «حُسْنُ الأَخلاق بُرهانُ کَرَمِ الأَعراقِ» «۱». و بناءً علیه فإنّ الاسر الفاضلة، غالباً ما تقدّم للمجتمع أفراداً متمّیزین علی مستوی الأخلاق الحسنة، وبالعکس فإنّ الأفراد الطالحین، ینشؤون غالباً من عوائل فاسدة. ۲- ورد فی حدیث آخر عن الإمام علی علیه السلام أنّه قال: «عَلَیکُم فِی طَلَبِ الحَوائِجِ بأشراف النُّفُوسِ وَذَوی الاصُولِ الطَّیِّبَةِ، فإنَّها عِنْدَهُم أَقضی وَهِی لَدَیهِم أَزکَی «۲». ۳- و فی عهد الإمام علی علیه السلام لمالک الأشتر رحمه الله، ووصایاه له فی إختیار الضّباط للجیش الإسلامی، قال له: «ثُمَّ الصَقْ بِذَوی المُروُءاتِ والأَحسابِ وَأَهلِ البُیُوتاتِ الصَّالِحَةِ والسَّوابِقِ الحَسَنَةِ ثُمَّ أَهْلِ النَّجدَةِ وَالشَّجاعَةِ والسَّخاءِ وَالسَّماحَةِ فإنَّهُم جِماعُ مِنَ الکَرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ العُرفِ» «۳». ۴- وورد عن الإمام الصادق علیه السلام، حدیث یُبیّن تأثیر الآباء الفاسدین علی شخصیة الأطفال و سلوکهم الأخلاقی، فقال: «أَیّما إمرَأَةٍ أَطاعَتْ زَوجَها وَ هُوَ شارِبٌ لِلخَمْرِ، کَانَ لَها مِنَ الخَطایا بِعَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ وَکُلُّ مَولُودٍ یُولَدُ مِنْهُ فَهُوَ نَجِسٌ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۴۹ وقد ورد النّهی الأکید، فی روایاتٍ اخری کثیرةٍ عن تزویج الشّارب للخمر، و السّیء الأخلاق «۱». ۵- و قد ورد فی الحدیث النبوی المشهور، بالنّسبة إلی تأثیر تربیة الأب والام علی الأولاد، أنّه قال: «کُلُّ مَولُودٍ یُولَدُ عَلَی الفِطْرَةِ حتی یَکُونَ أَبواهُ هُمَا اللَّذانِ یُهوِّدانِهِ وَیُنَصِّرانِهِ» «۲». فالتربیة التی تعمل علی تغییر إیمان و عقیدة الطّفل، کیف لا تعمل علی تغییر سلوکه الأخلاقی فی الدّائرة الإجتماعیة؟ ۶- و هذا الأمر جعل مسألة التربیة الصّالحة، من أهم حقوق الطّفل علی الوالدین، فنقرأ فی الحدیث النبوی الشّریف: «حَقُّ الوَلَدِ عَلی الوَالِدِ أَنْ یُحْسِنَ إسمَهُ وَیُحْسِنَ أَدَبَهُ» «۳». فمن الواضح أنّ مدالیل الأسماء، لها أثرها الأکید علی نفسیّة و روحیّة الطّفل، فأسماء الشّخصیات الکبیرة من أهل التّقوی والفضیلة، تجذب الإنسان المُسمّی بأسمائهم إلیهم، و تدعوه للتّقرب إلیهم، و بالعکس، فإنّ أسماء الفسقة و الکفّار، تقرّب من یتسمی بأسمائهم منهم أیضاً «۴». ۷- و نقرأ فی النبوی الشریف أیضاً: «ما نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ أَفضَلَ مِنْ أَدبٍ حَسَنٍ» «۵». ۸- وقال الإمام السجّاد علیه السلام، بتعبیرٍ أوضح: «وَإِنَّکَ مَسؤولٌ عَمَّا وَلِّیتَهُ بِهِ مِنْ حَسَنِ الأَدبِ وَالدَّلالَةِ عَلَی رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ وَ المَعُونَةَ لَهُ عَلَی طَاعَتِهِ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۰ ۹- و قال الإمام علی علیه السلام، بأنّ أخلاق الأبوین، هی عبارةٌ عن میراث الأبناء منهما، فیقول علیه السلام: «خَیرُ ما وَرَّثَ الآباءُ الأَبناءَ الأَدَبَ» «۱». ۱۰- و نختم هذا البحث بحدیثٍ آخر عن الإمام علی علیه السلام، حیث بیّن الإمام علیه السلام، شخصیته للجهّال الذین یقیسونه بغیره، فقال: «وَقَدْ عَلِمْتُم مَوضِعی مِنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالقَرابَةِ القَرِیبَةِ وَالمَنزِلَةِ الخَصِیَّةِ، وَ ضَعَنِی فِی حِجْرِهِ وَ أَنا وَلِیدٌ یَضُمُّنِی إِلَی صَدرِهِ ... یَرفَعُ لِی کُلَّ یَومٍ عَلَماً مِنْ أَخلاقِهِ وَ یَأْمُرُنِی بِالإِقتِداءِ ..». و اللطیف فی الأمر، أنّ الإمام علیه السلام وفی أثناء حدیثه، بیّن قسماً من أخلاق الرّسول صلی الله علیه و آله، فقال: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلی الله علیه و آله مِن لَدُنْ أَن کانَ فَطِیماً أَعْظَمَ مَلَکٍ مَنْ مَلائِکَتِهِ یَسلُکُ بِهِ طَرِیقَ المَکارِمِ وَ مَحَاسِنَ أَخلاقِ العالَمِ لَیلَهُ و نَهارَهُ» «۲». و صحیح أنّ الصفات النفسیة و الأخلاقیّة، سواء کانت سیئة أم حسنة، فهی تنبع من باطن الإنسان وإرادته، ولکن لا یمکن إنکار معطیات البیئة وأجواء المحیط، فی تکوین وترشید الأخلاق الحسنة والسّیئة، و کذلک عنصر الوراثة من الوالدین والاسرة بصورة أعم، و توجد شواهد عینیّة کثیرة، و أدلة قطعیّة علی ذلک، ترفع الشّک و الترید فی المسألة. وبناءً علی ذلک، و لأجل بناء مجتمعٍ صالحٍ و أفرادٍ سالمین، علینا الإهتمام بتربیة الطّفل تربیةً سلیمةً، و الإنتباه لعوامل الوراثة و أخذها بنظر الإعتبار، فی واقع الحیاة الفردیّة و الإجتماعیّة.

۴- معطیّات العلم و المعرفة فی التربیة

اشارة

ومن العوامل الاخرى، فی عمليّة تهذيب الأخلاق وترشيدها، هو الصعود بالمستوى الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۱ العلمی والمعرفی للأفراد، فإنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان، كلّما إرتقى مستواه فی دائرة العلوم والمعارف الإلهيّة، أينعت سجاياه الإنسانيّة، و تفتحت فضائله الأخلاقيّة، و العكس صحيح، فإنّ الجهل وفقدان المعارف الإلهيّة، يؤثر تأثيراً شديداً على دعامات و اسس الفضيلة، و يهبط بالمستوى الأخلاقی للفرد، فی خطّ الإنحراف و الباطل. و فی بداية هذا الكتاب، فی مبحث علاقة العلم بالإخلاق، ذكرنا أبحاثاً مختصرةً عن الأواصر الحاكمة بين هذين العاملين، و أشرنا إلى أنّ بعض الفلاسفة و العلماء، بالغوا فی الأمر و إدعوا أنّ: «العلم يساوی الأخلاق». وبعبارة اخرى: أنّ العلم أو الحكمة و المعرفة، هی المنبع الرّئيسی للأخلاق، «كما نُقل عن سقراط الحكيم»، و أنّ الرّذائل الأخلاقيّة سببها الجهل. فمثلًا المتكبّر و الحاسد، إنّما إبتلى بهذين الرذيلتين، بسبب عدم علمه بواقع الحال، فلا توجد عنده صورةٌ واضحةٌ عن أضرارهما وتبعاتهما السلبيّة، على واقع الإنسان الدّاخلی، ويقولون أنّه لا يوجد إنسان يخطو خطوةً نحو القبائح عن و عیٍ و علمٍ بها. و بناءً على ذلك، إذا تمّ الصّعود بالمستوى العلمی لدى أفراد المجتمع، فإنّ ذلك بإمكانه، أن يكون عاملًا مساعداً، لتشييد صرح الهيكل الأخلاقی السّليم فی المجتمع. و بالطّبع فإنّ هذا الكلام فيه نوع من المُغالاة و المُبالغة، و يُنظر للمسألة من زوايةٍ خاصّةٍ، رغم أننا لا ننكر أنّ العلم يُعدّ من العوامل المهمّة لتهيئة الأرضيّة، و خَلقِ الأجواء الملائمة لِسيادة الأخلاق، بناءً على ذلك فإنّ الأفراد الاميّين و الجهلة، يكونون أقرب إلى منحدر الضّلالة والخطيئة، وأمّا العلماء الواعون، فيكونون على بصيرةٍ من أمرهم ويبتعدون عن الرّذيلة، من موقع الوضوح فی الرّؤية، ولا ننسى أنّ لكلّ قاعدةٍ شَواذ. و قد ورد فی القرآن الكريم هذا المعنى، فی بيان الهدف من البعثة: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۲ و بناءً على ذلك، فإنّ النّجاة من الضّلال المبين، و الطّهارة من الأخلاق الرّذيلة و الذنوب، تأتی بعد تلاوة الكتاب المجيد، و تعليم الكتاب والحكمة، و هو دليلٌ واضحٌ على وجود العلاقة و الإرتباط بين الإثنين. و قد أوردنا فی الجزء الأوّل من الدّورة الاولى من نفحات القرآن الكريم، شواهد حيّةً و كثيرةً من الآيات القرآنية، حول علاقة العِلم والمعرفة بالفضائل الأخلاقيّة، و كذلك علاقة الجهل بالرذائل الأخلاقيّة، ونشير هنا بشكل مختصرٌ إلى عشرة نماذج منها:

۱- الجهل مصدرٌ للفساد و الإنحراف

نقرأ فی الآية (۵۵) من سورة النّمل: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». فقرن هنا الجهل، بالإنحراف الجنسی والفساد الأخلاقی.

۲- الجهل سبب للإنفلات و التّحلل الجنسی

ورد فی الآية (۳۳) من سورة يوسف على لسان يوسف عليه السلام، فی أنّ الجهل قرينٌ للتحلل الجنسی، فقال تعالى: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَیَّ مِمّا يَدْعُونَنی إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّی كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ».

۳- الجهل أحد عوامل الحسد

ورد فی الآية (۸۹) من سورة يوسف عليه السلام، أنّه عندما جلس يوسف عليه السلام على عرش مصر، و تحدّث مع إخوانه الذين جاءوا من كنعان إلى مصر، لإستلام الحنطة منه، فقال: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ». أی أنّ جهلكم هو السبب فی وقوعكم فی أسر الحسد، الذی دفعكم إلى تعذيبه، و السّعی لقتله، و القائه فی البئر.

۴- الجهل مصدر التّعصب و العناد و اللؤم

فی الآیة (۲۶) من سورة الفتح، نری أنّ تعصّب مشرکی العرب فی الجاهلیة، کان بسبب جهلهم و ضلالهم: «إِذْ جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمْ الْحَمِیَّةَ حَمِیَّةَ الْجَاهِلِیَّةِ».

۵- علاقة الجهل بالذرائع

تاریخ الأنبیاء ملیءٌ بمظاهر التبریر، و خلق الذّرائع من قبل الأقوام السّالفة، فی مواجهة أنبیائهم، وقد أشار القرآن الکریم مراراً إلی هذه الظاهرة، و مرَّة اخری یشیر إلی علاقة الجهل بها، فنقرأ فی الآیة (۱۱۸) من سورة البقرة: «وَقَالَ الَّذِینَ لَایَعْلَمُونَ لَوْلَا یُکَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِینَا آیَةٌ کَذَلِکَ قَالَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ». فالتأکید هنا علی أنّ عدم العلم أو الجهل، هو الذی یتولی خلق الأرضیّة للتذرع، و تبیّن الآیة الکریمة، العلاقة الوثیقة بین هذا الإنحراف الأخلاقی مع الجهل، وکما أثبتته التجارب أیضاً.

۶- علاقة سوء الظنّ مع الجهل

ورد فی الآیة (۱۵۴) من سورة آل عمران، الکلام عن مُقاتلی احد: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً یَغْشَی طَائِفَةً مِنْکُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ یَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَیْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِیَّةِ». ولا شک فی أنّ سوء الظّن، هو من المفاسد الأخلاقیّة، و مصدر لکثیر من الرذائل الفردیة و الإجتماعیّة فی حرکة الواقع والحیاة، وهذه الآیة تبیّن علاقة الظّن بالجهل بصورةٍ واضحةٍ.

۷- الجهل مصدر لسوء الأدب

ورد فی الآیة (۴) من سورة الحجرات، إشارةً للّذین لا یحترمون مقام النبوة، و قال إنّهم قوم لا یعقلون: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۴ «إِنَّ الَّذِینَ یُنَادُونَکَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَکْثَرُهُمْ لَایَعْقِلُونَ». فقد کانوا یزاحمون الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، فی أوقات الرّاحة، و فی بیوت أزواجه، و یُنادونه بأعلی أصواتهم قائلین: یا مُحَمِّد! یا مُحَمَّد! اخرُجُ إلَینا. فکان الرّسول صلی الله علیه و آله ینزعج کثیراً من سوء أدبهم وقلّة حیائهم، ولکن حیاؤه یمنعه من البوح لهم، وبقی کذلک یتعامل معهم من موقع الحیاء، حتی نزلت الآیة، و نبّهتهم لضرورة التأدّب أمام الرسول صلی الله علیه و آله، و شرحت لهم کیف یتعاملون معه صلی الله علیه و آله، من موقع الأدب و الإحترام. و فی تعبیر: «أکثرهم لا یعقلون»، إشارة لطیفة للسّبب الکامن وراء سوء تعاملهم، و قلّة أدبهم وجسارتهم، وهو فی الغالب عبارةٌ عن هُبوط المستوی العلمی، و الوعی الثقافی لدی الأفراد.

۸- أصحاب النّار لا یفقهون

لا شک أنّ أصحاب النّار هم أصحاب الرذائل، و الملوّثین بألوان القبائح، وقد نوّه إلیهم القرآن الکریم، و عرّفهم بالجُهّال، و عدم التّفقه، و یتّضح منه العلاقة بین الجهل و إرتکاب القبائح، فنقرأ فی الآیة (۱۷۹) من سورة الأعراف: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَایَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْیُنٌ لَا یُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَایَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِکَ هُمْ الْغَافِلُونَ». فقد بیّنت هذه الآیة وآیات کثیرةٌ اخری، العلاقة الوطیدة بین الجهل، و بین أعمال السوء و إرتکاب الرذائل.

۹- الصبر من معطیات العلم

الآیة (۶۵) من سورة الأنفال، تنبّه المسلمین علی أنّ الصّبر الذی یقوم علی أساس الإیمان و المعرفة، بإمکانه أن یمنح المسلمین قوّة للوقوف بوجه الکفّار، الذین یفوقون المسلمین عدداً وعدّةً، تقول الآیة: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۵ «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِینَ عَلَی الْقِتَالِ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ وَإِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ مِائَةٌ یَغْلِبُوا أَلْفاً مِنْ الَّذِینَ کَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَایَفْقَهُونَ». نعم فإنّ جهل الکافرین، هو السبب فی عدم إستطاعتهم فی الصّمود بوجه المؤمنین، و فی مقابل ذلک فإنّ وعی المؤمنین هو السّبب فی صمودهم، بحیث یُعادل کلّ واحدٍ منهم عشرة أنفارٍ من جیش الکفّار.

۱۰- النّفاق والفرقة ینشآن من الجهل

أشار القرآن الکریم فی الآیة (۱۴) من سورة الحشر إلی یهود (بنی النضیر)، الذین عجزوا عن مُقاومة المسلمین، لأنّهم کانوا مُختلفین و مُتفرقین، رغم أنّ ظاهرهم یحکی الوحدة و الإتفاق، فقال: «لَا یُقَاتِلُونَکُمْ جَمِیعاً إِلَّا فِی قُرًی مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَیْنَهُمْ شَدِیدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِیعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّی ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَایَعْقِلُونَ». وبناءً علی ذلک فإنّ النّفاق والفرقة و التشتت، و غیرها من الرذایل الأخلاقیّة، الناشئة من جهلهم وعدم إطّلاعهم علی حقائق الامور.

النتیجة:

تبیّن ممّا جاء فی أجواء تلک العناوین العشرة السّابقة، التی وردت فی سیاق بعض الآیات القرآنیة، علاقة الفضیلة بالعلم من جهة وعلاقة الرذیلة بالجهل، من جهةٍ اخری، و قد ثبت لنا بالتجربة ومن خلال المشاهدة، أنّ أشخاصاً کانوا منحرفین بسبب جهلهم، وکانوا یرتکبون القبیح و یمارسون الرّذیلة فی السّابق، ولکنّهم إستقاموا بعد أن وقفوا علی خطئهم، و تنبّهوا إلی جهلهم، و أقلعوا عن فعل القبائح و الرذائل، أو قلّلوها إلی أدنی حدٍّ. و الدّلیل المنطقی لهذا الأمر واضح جدّاً، وذلک لأنّ حرکة الإنسان نحو التّحلی بالصّفات والکمالات الإلهیّة، یحتاج إلی دافعٍ و قصدٍ، وأفضل الدّوافع هو العلم بفوائد الأعمال الصّالحة ومضار القبائح، وکذلک الإطّلاع و التعرّف علی المبدأ و المعاد، و سلوکیات الأنبیاء والأولیاء الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۶ ومذاهبهم الأخلاقیة، فکلّ ذلک بإمکانه أن یکون عاملًا مساعداً، یسوق الإنسان للصّلاح و الفلاح، و الإبتعاد عن الفساد والباطل فی حرکة الحیاة والواقع. و بالطّبع المراد من العلم هنا، لیس هو الفنون والعلوم المادیّة، لأنّه یوجد الکثیر من العلماء فی دائرة العلوم الدنیویّة، ولکنّهم فاسدین ومفسدین ویتحرکون فی خط الباطل و الإنحراف، ولکن المقصود هو العلم والاطّلاع علی القیم الإنسانیة، و التعالیم والمعارف الإلهیّة العالیة، التی تصعد بالإنسان فی مدارج الکمال المعنوی و الأخلاقی، فی مسیرته المعنویة.

علاقة «العلم» و «الأخلاق» فی الأحادیث الإسلامیّة:

الأحادیث الإسلامیّة من جهتها، مشحونة بالعبارات الحکیمة الّتی تبیّن العلاقة الوثیقة بین العلم والمعرفة من جهةٍ، وبین الفضائل الأخلاقیّة من جهةٍ اخری، وکذلک علاقة الجهل بالرّذائل أیضاً. وهنا نستعرض بعضاً منها: ۱- بیّن الإمام علی علیه السلام علاقة المعرفة بالزهد، الذی یُعدّ من أهمّ الفضائل الأخلاقیّة، فقال: «ثَمَرَةُ المَعرِفَةِ العُزُوفُ عِنْ الدُّنیا» «۱». ۲- وَ وَرد فی حدیثٍ آخر عنه علیه السلام، قال: «یَسیرُ المَعرِفَةِ یُوجِبُ الزُّهدَ فِی الدُّنیا»». و المعرفة هنا یمکن أن تکون إشارةً لمعرفة الباری تعالی، فکلّ شیء فی مقابل ذاته المقدّسة لا قیمة له، فما قیمة القَطرة بالنسبة للبحر، و نفس هذا المعنی یمثّل أحد أسباب الزهد فی الدنیا وزبرجها، أو هو إشارةٌ لعدم ثبات الحیاة فی الدّنیا، و فناء الأقوام السّابقة، و هذا المعنی أیضاً یحثّ الإنسان علی التّحرک فی سلوکه و أفکاره، من موقع الزّهد، و یوجّهه نحو الآخرة و النّعیم المقیم، أو هو إشارةٌ لجمیع ما ذُکر آنفاً. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۷ ۳- وَ وَرد عنه علیه

السلام فی حدیث آخر، بیان علاقة الغِنی الذّاتی، و ترک الحرص علی الامور الدنیویة، بالعلم والمعرفة، فقال: «مَنْ سَکَنَ قلْبَهُ العِلْمُ بِاللَّهِ سُبحانَهُ سَکَنَهُ الغِنی عَنْ الخَلْقِ» «۱». و من الواضح أنّ الذی یعیش المعرفة، بالصّفات الجمالیّة و الجلالیّة للبارئ تعالی، و یری أنّ العالم کلّه، هو إنعکاسةٌ أو و مضةٌ، من شمس ذاته الأزلیّة الغنیّة بالذات، فیتوکل علیه فقط، و یری نفسه غنیّاً عن الناس أجمعین، فی إطار هذا التوکّل والإعتماد المطلق علی اللّه تعالی. ۴- و جاء فی حدیث عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، حول معرفة اللّه وعلاقتها بحفظ اللّسان من الکلام البذیء، و البطن من الحرام، فقال صلی الله علیه و آله: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَظَمَتَهُ مَنَعَ فاهُ مِنْ الکَلامِ وَبَطْنَهُ مِنَ الحَرامِ» «۲». ۵- وَرَد عن الإمام الصّادق علیه السلام، علاقة المعرفة بالخوف منه تبارک و تعالی، الذی هو بدوره مصدر لکلّ أنواع الفضائل، فقال: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ خافَ اللَّهَ وَمَنْ خافَ اللَّهَ سَخَتَ نَفْسَهُ عَنِ الدُّنیا» «۳». ۶- بالنّسبة للعفو وقبول العذر من الناس، قال أمیر المؤمنین علیه السلام: «أَعْرَفُ النَّاسِ بِاللَّهِ أَعْذَرَهُم لِلنّاسِ و إِنْ لَمْ یَجِدْ لَهُم عُذراً» «۴». (و من البدیهی أنّ هذا الحدیث ناظرٌ إلی المسائل الشخصیّة، لا المسائل الإجتماعیّة). ۷- حول معرفة اللّه و ترک التکبّر، قال علیه السلام: «وَ إِنَّهُ لا یَنبَغِی لَمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أنْ یَتَعَظَّمُ» «۵». ۸- حول العلم والعمل، قال علیه السلام: «لَن یُزَّکی العَمَلُ حتّی یُقارِنَهُ العِلْمُ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۸ ومن المعلوم أنّ طهارة العمل لا تنفکّ عن طهارة الأخلاق. ۹- و نقرأ فی حدیثٍ آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، حول هذا الموضوع: «بِالعِلمِ یُطاعُ اللَّهُ وَیُعبَدُ وَبالعِلمِ یُعْرَفُ اللَّهُ وَیُوَحَّدُ وَبِهِ تُوصَلُ الأَرحامُ وَیُعْرَفُ الحَلالُ وَ الحَرامُ وَ العِلمُ إمامُ العَمَلِ». «۱» ففی هذا الحدیث، إعتبر کثیراً من السّلوکیات الأخلاقیّة الإیجابیّة، هی ثمرةٌ من ثمار العلم و المعرفة. ۱۰- ورد نفس هذا المعنی بصراحةٍ أقوی عن أمیرالمؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «ثَمَرَةُ العَقلِ مُداراةُ النَّاسِ» «۲». و فی مقابل الأحادیث التی تتحدث عن العلم و المعرفة، و علاقتها بالفضائل الأخلاقیّة توجد أحادیث شریفة اخری، وردت فی المصادر الإسلامیّة حول علاقة الجهل بالرذائل، و هی تأکید آخر لموضوع بحثنا هذا ومنها: ۱- فی حدیثٍ عن علی علیه السلام قال: «الجَهلُ أَصلُ کُلِّ شرٍّ» «۳». ۲- و ورد أیضاً عنه علیه السلام: «الحِرصُ وَالشَّرَهُ والبُخلُ نَتیجَةُ الجَهلِ» «۴». لأنّ الحریص أو الطّماع، غالباً ما یتحرک فی طلب امورٍ زائدةٍ عن إحتیاجه، و فی الحقیقة فإنّ ولعه بالمال و الثّروة و المواهب المادیّة، ولعٌ غیر منطقی و غیر عقلائی، وهکذا حال البخیل أیضاً فیُبخله یحرص، و یحافظ علی أشیاء لن یستفید منها فی حیاته، بل یترکها لغیره بعد موته. ۳- و نقل عنه علیه السلام فی تعبیرٍ جمیلٍ: «الجَاهِلُ صَیخْرَةٌ لایَنْفَجِرُ مائُها! وَشَجَرَةٌ لایَخْضَرُّ عُودُها! وَأَرْضٌ لایَظهَرُ عُشْبُها!» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۵۹ ۴- وَ وَرد عنه علیه السلام أیضاً، فی إشارةٍ إلی أنّ الجاهل یعیش دائماً فی حالة إفراطٍ أو تفریطٍ، فقال: «لا تَری الجَاهِلَ إلّامُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً» «۱». فطبقاً للرأی المعروف عن علماء الأخلاق، أنّ الفضائل الأخلاقیّة هی الحد الأوسط بین الإفراط و التفریط، الذی ینتهی إلی السّقوط فی الرذائل، ویُستفاد من الحدیث أعلاه، أنّ العلاقة بین الجهل من جهة و الرذائل الأخلاقیّة، من جهةٍ اخری، هی علاقةٌ و طیدةٌ جدّاً. ۵- یقول کثیر من علماء الأخلاق، أنّ الخُطوة الاولی لإصلاح الأخلاق، و تهذیب النّفس، هی المحافظة علی اللّسان و الإهتمام بإصلاحه، وقد ورد فی الأحادیث الإسلامیّة، تأکید علی علاقة الجهل ببذاءة اللّسان، فنقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الهادی علیه السلام: «الجَاهِلُ أَسِیرُ لِسانِهِ» «۲». و خُلاصة القول، أنّ الرّوایات الإسلامیّة الکثیرة أکدت علی علاقة العلم بالأخلاق الحسنة، و الجهل بالأخلاق السیّئة، و کلّها تؤید هذه الحقیقة، و هی أنّ إحدی الطّرق المؤثرة لتهذیب النّفوس، هو الصّعود بالمستوی العلمی و المعرفی لِلأفراد، و معرفة المبدأ و المعاد، والعلم بمعطیات الفضائل و الرذائل الأخلاقیة، فی واقع الإنسان والمجتمع. هذا الصعود بالمستوی العلمی للأفراد علی نحوین: النحو الأول: زیادة المعرفة بسلبیات السّلوک المنحرف، و الإطّلاع علی أضرار الرذائل الأخلاقیة بالنسبة للفرد والمجتمع، فمثلًا عندما یُحیط الإنسان علماً، بأضرار المواد المخدّرة أو المشروبات الکحولیة، وأنّ أضرارها لا یمکن اصلاحها علی المستوی القریب، فذلک العلم سیهیّیء الأرضیّة فی روح الإنسان، للإقلاع عن تلک السلوکیات المضرّة، و بناءً علیه فکما أنّه یجب تعریف النّاس بمضرّات المخدرات، و المشروبات الکحولیة، وعلینا تعریف النّاس بطرق مُحاربة الرّذائل و إحصاء عُیوبها، و أسالیب تنمیة الفضائل، و إستجلاء محاسنها، ورغم أنّ ذلک لا یُمثّل العلّة التّامة لإحداث حالة التغییر، و التّحول فی الإنسان، ولکّنه بلا شک یمهّد الاخلاق فی القرآن،

ج ۱، ص: ۱۶۰ ویهیّیء الأرضیّهٔ المساعدهٔ لـذلک. القسم الثانی: الصّعود بالمستوی العلمی بصورهٍ عامّهٍ، فعندما یطّلع الإنسان علی المعارف الإلهیّهٔ، ومنها المبدأ و المعاد، و أقوال الأنبیاء و الأولیاء، و ما شابه ذلک، فإنّ الإنسان سیجد فی نفسه میلًا نحو الفضائل، و رغبهً فی الإبتعاد عن الرّذائل. و بعبارهٍ اخری: إنّ تدنّی المستوی العلمی بالامور العقائدیهٔ، کفیل بخلق محیطٍمناسب لنمو الرذائل، والعکس صحیحٌ فإنّ زیادهٔ المعرفهٔ تبعث فی روح الإنسان الرّغبهٔ و الشّوق نحو ممارسهٔ الفضیلهٔ.

۵- دور الثّقافهٔ الإجتماعیّهٔ فی تربیهٔ الفضائل والرذائل:

اشارهٔ

الثّقافهٔ عبارهٔ عن مجموعهٍ من الامور، التی تبنی فکر وروح الإنسان، و تمنحه الدّافع الأصلی للتحرک نحو المسائل المختلفهٔ. وعلی مستوی المِصداق، تمثّل الثّقافهٔ مجموعهً من العقائد، و التاریخ و الأدب و الفن، و الآداب و الرّسوم لمجتمع ما. و قد تکلمنا فی السّابق عن بعض معطیات البیئهٔ و المحیط و المعرفهٔ، و دورها فی إیجاد الفضائل و الرّذائل، و نتطرّق الآن لباقی أقسام الثّقافهٔ الإجتماعیّهٔ، و دورها فی تحکیم و تقویهٔ عناصر الخیر، ودعامات الفضائل فی واقع النّفس، أو تعمیق عناصر الرّذیلهٔ فیها. وأحد هذه الامور، العادات و التقالید و السّنن لقوم من الأقوام، فإذا إستوحت مقوّماتها من الفضائل، فستکون مؤثّرهٔ فی خلق الأجواء المناسبهٔ لتربیهٔ و تهذیب النّفوس، وأمّا لو إسترفدت قوتها وحیاتها من الرّذائل الأخلاقیّهٔ، فستکون البیئهٔ مهیّئهٔ لتقبل أنواع القبائح أیضاً. وَ وَرد فی القرآن الکریم إشاراتٌ واضحهٌ فی هذا المجال، تبیّن کیفیّهٔ إنحراف الأقوام السّابقهٔ، بسبب الثّقافهٔ المنحرفهٔ والتقالید والأعراف المنحطهٔ لدیهم، و الّتی أدّت بهم إلی السّقوط فی الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۱۶۱ منزلقات الخطیئهٔ، و الإنحدار فی هاویهٔ الرذائل الأخلاقیهٔ، ومنها: ۱- «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۱». ۲- «وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» «۲». ۳- «إِذْ قَالَ لِابِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَها عَابِدِينَ» «۳». ۴- «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ» «۴». ۵- «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» «۵». ۶- «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» «۶». ۷- «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيماهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» «۷».

تفسیر و إستنتاج:

ما نستوحیه من الآیات الکریمهٔ محلّ البحث، هو أنّ ثقافهٔ الأقوام والامم السّالفهٔ، لها دورٌ الاخلاق فی القرآن، ج ۱، ص: ۱۶۲ فاعل فی تربیهٔ و نمو الصفات الأخلاقیّهٔ، أیّاً کانت، فإذا کانت الثّقافهٔ السّائدهٔ بمستوی مرموق، فمن شأنها أن تفرز لنا أفراداً ذوی صفاتٍ حمیدهٍ و أخلاقٍ عالیهٍ، والعکس صحیح، والآیات الکریمهٔ السّابقهٔ الذّکر، تُشیر إلی المعنیین أعلاه. ففی «الآیهٔ الاولی»: نقرأ قول الأقوام السّالفهٔ، الّذین یعیشون الإنحراف، و یمارسون الخطیئهٔ من موقع الوضوح فی الرؤیهٔ، فإذا سُئلوا عن الدّافع لمثل هذه التصرفات الشائنهٔ، و السلوکیات المنحرفهٔ، قالوا بلغهٔ التّبریر: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ...». ولم یکتفوا بذلک بل تعدّوا الحدود، و قالوا: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا». بناءً علی ذلک، فإنّهم إتخذوا سُنّهٔ الّذین مَضوا من قبلهم دلیلًا علی حسن أعمالهم، ولم یخجلوا من أفعالهم القبیحهٔ، علی مستوی النّدم و الإحساس بالمسؤولیّهٔ، بل کانوا یعطوها الصّبغهٔ الشرعیّهٔ أیضاً. «الآیهٔ الثّانیهٔ»: طرحت نفس المعنی ولکن بشکل آخر، فعندما کان الأنبیاء یدعون أقوامهم إلی الشریعهٔ الإلهیّهٔ النّازلهٔ من عند اللّه تعالی، کانوا یتحرّکون فی المقابل من موقع العناد و

التکبّر، و یقولون بِغرور: (سنتّبع سنّة آبائنا). ولم یکن سبب ذلک، إلّالأنّهم وجدوا آبائهم یؤمنون بها و یتّبعونها، و بذلک لبست ثیاب القداسة و إعتبروها دیناً فی حرکة الحیاة والواقع، فهی عندهم أفضل من آیات القرآن الکریم، و شرائع الباری تعالی: «وَإِذَا قِیلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَیْنَا عَلَیْهِ آبَاءَنَا»، وعلیه، فلماذا فضّلوا العمل بسنّة الجهلاء، علی إتّباع آیات الوحی الإلهی؟. و یضیف القرآن الکریم قائلًا: «أَوَلَوْ کَانَ آبَاؤُهُمْ لَایَعْقِلُونَ شَیْئاً وَلَا یَهْتَدُونَ». وَوَرد فی «الآیة الثّالثة»: الکلام عن السّنن وعادات الأقوام أیضاً، و دور الثّقافة الخاطئة فی صیاغة الأعمال المتقاطعة مع الأخلاق، ففی بیان یشابه الآیات الماضیة، نقرأ قصّة إبراهیم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۳ وعبدة الأصنام فی بابل، فعندما کان یلومهم إبراهیم علیه السلام لعبادتهم الأصنام التی لا تضرّ و لا تنفع، کانوا یقولون بصراحة: وجدنا آباءنا لها عاکفین: «إِذْ قَالَ لِأَبِیهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِیلُ الَّتِی أَنتُمْ لَهَا عَاکِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِینَ». فأجابهم إبراهیم علیه السلام بأشدّ الکلام و أغلظه، بقوله: «وَقَالَ لَقَدْ کُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُکُمْ فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ». ولکن وللأسف الشدید، إنتقل هذا الضّلال المبین إلی الأجیال، جیلًا بعد جیل، فأصبح جزءاً من ثقافتهم، و أکسبه توالی الزّمن علیه مسوح القداسة، فلم یمح قبحه فحسب، بل أصبح من إفتخاراتهم علی المستوی الحضاری و الدّینی. «الآیة الرابعة»: توحی لنا نفس المعنی، ولکن بشکلٍ آخر، ففی معرض جوابهم علی السّؤال القائل: لماذا تعبدون هذه الأصنام رغم أنّکم تعیشون سلامة العقل؟، تقول الآیة علی لسانهم: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدنا آبَاءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَی آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ». فلیس أنّهم لم یعتبروا هذه الحماقة، ضلالةً فحسب، بل إعتبروها هدایةً و فلاحاً، و رثوه عن آبائهم الماضین، وذکرت «الآیة التی بعدها» أنّ هذا هو طریق ومنطق کلّ المترفین علی طول التاریخ، وقالت: «وَکَذَلِکَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ فی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَی آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ». و من البدیهی أنّ ذلک التقلید الأعمی، الذی کان یظهر جمیلًا فی ظلّ تلک القبائح، له أسبابٌ کثیرةٌ و أهمّها تبدّل ذلک القُبح إلی سُنّةٍ و ثقافةٍ بمرور الزّمن. و ورد نفس هذا المعنی فی الآیة (۱۰۳ و ۱۰۴) من سورة المائدة، فقد إبتدع عرب الجاهلیّة بدَعاً ما أنزل اللّه بها من سلطان، فکانوا یحلّون الطعام الحرام ویحرّمون الطعام الحلال، وکانوا یتمسکون بالخرافات و العادات السیئة، و لا یقلعون عنها أبداً، و یقولون: «حَسْبُنا ما وَجَدنا عَلَیهِ آبائَنا». و یتبیّن ممّا تقدم من الآیات الکریمة، تأثیر العادات الخاطئة و السّنن البائدة، فی قلب الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۴ الامور رأساً علی عقب، بحیث یضحی الخطأ صواباً فی الواقع الأخلاقی والفکری لدی النّاس. و فی «الآیة الخامسة»: یوجد موضوع جدید بالنّسبة لِدَور العادات و السّنن فی تحول القیم الأخلاقیّة، و هو: أنّ قوم لوط الذین سوّدوا وجه التّأریخ بأفعالهم الشّنیعة، (و لِلأسف الشّدید، نری فی عصرنا الحاضر، أنّ الحضارة الغربیّة أقرّت تلک الأفعال علی مستوی القانون أیضاً)، فعندما دعاهم لوط علیه السلام، والقلّة من أصحابه، إلی التّحلی بالتّقوی و الطّهارة فی ممارساتهم وأفعالهم، تقول الآیة أنّهم إغتاظوا من ذلک بشدّةٍ: «وَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ یَتَطَهَّرُونَ». فالبیئة الملوّثة، و السّنن الخاطئة و الثّقافة المنحطّة أثّرت فیهم تأثیراً سلبیاً، ممّا حدی بهم إلی إعتبار الطّهارة و التّقوی جنایةً، و الرّذیلة والقبائح من عناصر العزّة و الإفتخار، و من الطّبیعی، فإنّ الرذائل تنتشر بسرعةٍ فی مثل هذه البیئة، التی تعیش أجواء الإنحطاط و الخطیئة، و تندرس فیها الفضائل کذلک. «الآیة السادسة»: تقصّ علینا قصّة وأدِ البنات الُمریعة فی العصر الجاهلی، ولم یکن سبب ذلک سوی تحکیم الخُرافات و السّنن الخاطئة فی واقع الفکر والسلوک لدی الأفراد، فقد کانت ولادة البنت فی الجاهلیّة عاراً علی المرء، و إذا ما بُشّر أحدهم بالانثی یظلّ وجهه مسوداً من فرط الألم، و الخجل، علی حدّ تعبیر القرآن الکریم «۱»: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَی ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ کَظِیمٌ* یَتَوَارَی مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَیُمْسِکُهُ عَلَی هُونٍ أَمْ یَدُسُّهُ فِی التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا یَحْکُمُونَ». و لا شکّ أنّ القتل من أقبح الجرائم، و خصوصاً إذا کان القتیل طفلًا ولیداً جدیداً، ولکن الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۵ السّنن الخاطئة والتقالید الزائفة، التی کانوا علیها مَحقت القُبح من هذه الجریمة النّکراء، و جعلت منها فضیلةً. و بالنّسبة لوأد البنات الفضیع، جاء فی بعض التّفاسیر: أنّ البعض من هؤلاء الجاهلین، کانوا یستخدمون اسلوب الدّفن للبنات، و بعض یغرقونهن، والبعض الآخر کانوا یفضّلون رمیهنّ من أعلی الجبل، وقسم آخر کانوا یذبحون بناتهم «۱»، وأمّا بالنسبة لظهور هذا الأمر عند العرب، و تأریخه والدافع الأصلی له، فقد وردت أبحاثٌ مفصّلة

لا یسع المقام لذکرها الآن «۲». والکلام فی کیفیّة تمهید الطریق للرذائل الأخلاقیّة، من خلال تلک السّنن الخاطئة، و العادات الزّائفة، وکیف تحلّ الرذائل مکان الفضائل، هو دلیلٌ و شاهدٌ آخر علی أنّ الثّقافة تُعتبر من الدّواعی المهمّة لتفعیل عناصر الفضیلة، أو تقویة قوی الإنحراف و الرذیلة، فی واقع الإنسان، و بالتّالی فإنّ أوّل ما یتوجب علی المصلحین، فی حرکتهم الإصلاحیة، هو إصلاح ثقافة المجتمع والسیر بها فی خط العقل و الدّین. و نری فی عصرنا الحاضر ثقافات زائفة، لا تتحرک بعیداً عمّا کان فی عهد الجاهلیّة، حیث أضحت مصدراً لأنواع الرذائل الأخلاقیّة فی حرکة الحیاة الإجتماعیة، و قد إنعقد فی السّنوات الأخیرة مؤتمراً عالمیاً فی بکین عاصمة الصین، و شارک فیه أغلب دول العالم، ونادی فیه المشارکون بالعمل لتثبیت ثلاثة اصول، و أصرّوا علیها من موقع إحترام حقّ الإنسان وهی: ۱- حریّة العلاقات الجنسیّة للمرأة. ۲- الجنسیّة المثلیّة. ۳- حرّیة إسقاط الجنین. و قد واجهت هذه الامور معارضةً شدیدةً من قبل بعض الدول الإسلامیة، و منها الجمهوریة الإسلامیة. و من الطبیعی، عندما یُدافع نواب الدّول المتحضّرة عن مثل هذه الامور الشنیعة، تحت الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۶ ذریعة الدفاع عن حقوق المرأة، فأیّة ثقافةٍ سوف تظهر للوجود؟، و أیّة رذائل ستنتشر فی المجتمع؟، الرذائل التی لا تضرّ بالمسائل الأخلاقیّة للناس فحسب، بل و ستؤثر أیضاً علی حیاتهم الإجتماعیّة و الإقتصادیّة، من موقع إهتزاز المبادیء الإنسانیّة فی منظومة القیم. «الآیة السابعة»: تستعرض علاقة الفضائل بثقافة المحیط والبیئة، فما وردنا من أحادیث عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، تبیّن مدی الرّقی الأخلاقی الذی حصل فی المجتمع المظلم آنذاک، نتیجة النّهضة الفکریّة و الأخلاقیّة التی جاء بها الإسلام إلی ذلک المجتمع، فیقول القرآن الکریم: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَمَاءُ بَیْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِیَماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ». و عبارة: «فالذین معه»، لا تحصر هذه المعیّة فی زمانٍ خاصٍّ، و مکانٍ معیّنٍ، بل تمتد إلی المعیّة فی القیم الأخلاقیّة، و الأفکار الأنسانیّة، فکلّ من یقبل تلک الثّقافة الإلهیّة المحمدیّة یکون من مصادیق الآیة.

علاقة الآداب و السّنن بالأخلاق فی الرّوایات الإسلامیّة:

أعطی الإسلام أهمیةً کبیرةً لهذه المسألة، ألا و هی، سنّ السنن الصّالحة، و الإبتعاد عن السنن السّیئة، و للمسألة إنعکاساتٌ و أصداءٌ کبیرةٌ فی الأحادیث الإسلامیة، و یستفاد من مجموع تلک الأحادیث، أنّ الهدف هو سنّ العادات الصّالحة، کی تتهیّأ الأرضیة اللّازمة للتحلّی بالأخلاق الحمیدة، و إزالة الرذائل الأخلاقیة من واقع النفس و السّلوک، ومنها: ۱- ما ورد عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «خَمْسٌ لا أَدَعُهُنَّ حَتّی المَماتِ الأَکْلُ عَلَی الحضِیض مَعَ العَبِید ...، وحَلْبُ العَنزِ بِیَدی وَلَبْسُ الصُّوفِ وَالتَّسلِیمُ عَلَی الصِّبیانِ، لَتَکُونَ سُنَّةً مِنْ بَعدِی» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۷ و الهدف من کلّ ذلک، هو إیجاد روح التّواضع عند الناس من خلال الإقتداء بالرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، فی حرکة السّلوک الإجتماعی. ۲- و جاء فی حدیثٍ آخر عنه صلی الله علیه و آله. أنّه قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عُمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ کانَ لَهُ أَجْرَهُ وَمِثلَ اجُورِهِمْ مِنْ غَیرِ أَنْ یَنْقُصَ مِنْ اجُورِهِمْ شَیئاً، ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سَیِّئَةً فَعُمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ کانَ عَلَیهِ وِزْرَهُ ومِثلَ أَوزارِهِم مِنْ غَیرِ أَنْ یَنْقُصَ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَیئاً» «۱». و ورد فی بحارالأنوار نفس هذا المضمون. و نقل هذا الحدیث بتعابیر مختلفةٍ عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و الإمام الباقر و الإمام الصّادق علیهما السلام، و هو یُبیّن أهمیة التّمهید للأعمال الأخلاقیّة، و أنّ التّابع و المتبوع هما شریکان فی الثواب و العقاب، و الهدایة و الضّلال. ۳- ولذلک أکّد الإمام علی علیه السلام، علی مالک الأشتر هذا المفهوم أیضاً، لحفظ السنن الصالحة، والوقوف فی وجه من یرید أن یکسر حرمتها، فیقول: «لا تَنْقُضْ سُنَّةً صالِحَةً عَمِلَ بِها صُدُورُ هذِهِ الامَّةِ و إجتَمَعَتْ بِها الالفَةُ وَصَلُحَتْ عَلَیها الرَّعِیَّةُ، ولا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشیءٍ مِنْ ماضِی تِلکَ السُّنَنِ فَیَکُونُ الأَجرُ لِمَنْ سَنَّها وَالوِزرُ عَلَیکَ بِما نَقَضْتَ مِنْها» «۲». و بما أنّ السّنن الحسنة تساعد علی تعمیق عناصر الخیر، و نشر الفضائل الأخلاقیّة فی واقع المجتمع، فهی تدخل فی مصادیق الإعانة علی الخیر و نشر السّنن الحمیدة، و أمّا إحیاء السّنن القبیحة والرذائل الأخلاقیة، فتدخل فی مصادیق الإعانة علی الإثم والعدوان، و نعلم أنّ فاعل الخیر و الدّال علیه شریکان فی الأجر، وکذلک

فاعل الشّر و الدّال علیه شریکان فی العقاب أیضاً، من دون أن یقل من ثواب العاملین، أو عقابهم شیء. و السّنة الحسنة بدرجةٍ من الأهمیة، بحیث قال الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، فی الروایة المعروفة فی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۸ حقّ جدّه الکریم: «کَانَتْ لِعَبدِ المُطَّلِبِ خَمساً مِنَ السُّنَنِ أَجراها اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِی الإِسلام: حِرَّمَ نَساءَ الآباءِ عَلَی الأبناءِ، وَ سَنَّ الدِّیَةَ فِی القَتْلَ مأَةٍ مِنَ الإبلَ، وَ کَانَ یَطُوفُ بِالبَیتِ سَبعَةَ أَشواطٍ، وَ وَجَدَ کَنزاً فَأَخْرَجَ مِنْهُ الخُمسَ، وَسَمّی زَمزَمَ حِینَ حَفَرَها سِقایَةَ الحاجِّ». ویستخلص من مجموع ما تقدم أنّ الآداب و السّنن و العادات، لها معطیاتٌ مهمّةٌ، علی مستوی إیجاد الفضائل أو تکریس الرّذائل علی حدّ سواء، ولذلک أکّد علیها الإسلام تأکیداً شدیداً و جعل الثّواب لمن یسنّ السّنن الصالحة، والعقاب لمن یسنّ السّنن الرّذیلة، و إعتبرها من الذنوب الکبیرة.

۶- علاقة العمل بالأخلاق

اشارة

صحیح أنّ أعمال الإنسان تتبع أخلاقه الظاهریّة و الباطنیّة، بحیث یمکن القول أنّ الإنسان یتأثر فی سلوکه العملی، بأخلاقه الباطنیة الکامنة فی عالم اللّاشعور، ولکن من جهةٍ اخری، یمکن لأعمال الشّخص أن تؤثر فی أخلاقه، من خلال صیاغة المضمون للصّفات الأخلاقیّة فی واقع الإنسان ومحتواه الباطنی، ومعناه أنّ عملیّة الممارسة المستمرة، لعملٍ ما حسناً کان أو قبیحاً، سیؤثر فی نفسیّة الإنسان، و یحوّل ذلک العمل إلی حالةٍ باطنیّةٍ، و بالإستمرار یصبح من ملکات الإنسان الأخلاقیّة الحسنة، أو القبیحة، و بناءً علیه فإنّ من الطرق المؤثرة لتهذیب النّفوس، هو تهذیب الأعمال فی حرکة الواقع الخارجی، فمن مارس الأعمال القبیحة، فسوف تتحول علی أثر التّکرار إلی ملکةٍ سیّئةٍ فی أعماق روحه، و تکون السّبب فی ظهور الرّذائل الأخلاقیّة فی دائرة السّلوک والممارسة. وبناءً علی ذلک نری التأکید فی الرّوایات علی أنّ یستغفر الناس بسرعةٍ عند الخطأ، ویغسلوا تلک الآثار بماء التوبة، کی لا تخلّف آثارها السّلبیة علی القلب، وتتحول إلی ملکاتٍ أخلاقیّةٍ قبیحةٍ. و بعکسها نجد التأکید علی تکرار الأعمال الصّالحة، بشکلٍ مستمرٍ کی تصبح عادةً عند الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۶۹ الإنسان، فی واقعه النفسی والروحی. بعد هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم، و نستعرض الآیات الشّریفة التی تشیر إلی هذا المعنی: ۱- «کَلَّا بَلْ رَانَ عَلَی قُلُوبِهِمْ مَا کَانُوا یَکْسِبُونَ» «۱». ۲- «کَذَلِکَ زُیِّنَ لِلْمُسْرِفِینَ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ» «۲». ۳- «أَفَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً» «۳». ۴- «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا یَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» «۴». ۵- «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمَالًا* الَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَهُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً» «۵». ۶- «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَی اللَّهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ فَأُوْلَئِکَ یَتُوبُ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَکَانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً» .۷- «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَکِّیهِمْ بِهَا» «۷».

تفسیر و إستِنتاجٌ:

فی «الآیة الاولی»: نجد إشارةً إلی معطیات الذّنوب السّلبیة علی قلب روح الإنسان، فهی تسلب الصّفاء و النّورانیة منه، وتحلُّ الظّلمة مکانه، فیقول اللّه تعالی فی القرآن الکریم: «کَلَّا بَلْ رَانَ عَلَی قُلُوبِهِمْ مَا کَانُوا یَکْسِبُونَ». فجملة: «مَا کَانُوا یَکْسِبُونَ»، جاءت بصیغة الفعل المضارع، الذی یدلّ علی الإستمرار، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۰ بمعنی أنّ الأعمال القبیحة، بإمکانها أن توجد تغییرات وتحولات کبیرة، فی قلب الإنسان وروحه، فهی کالصّدأ الذی یحجب نورانیّة وصفاء المرآة ویکدّرها. فالرّذیلة تُقسّی القلب وتسلبه الحَیاء، فی مقابل الذّنب، فیغلب علیه الشّقاء و الظّلمة، أمّا «الرّین» علی وزن «عین»، فهو الصّدأ یعلو علی الأشیاء الثمینة، نتیجةً لرطوبة الجوّ، فیکوّن طبقةً حمراء تُغطّی ذلک الشّیء، وهو علامة علی فساد ذلک الفِلز. فإختیار هذا التعبیر هو إختیار مُناسب جدّاً، حیث

أکـدت علیه الرّوایات الإسـلامیة، مراراً و تکراراً، و بحثنا الآتی سیکون حول هـذا الموضوع. و فی «الآیـة الثانیـة»: تعدّت مرحلة الزّین وأشـارت إلی مرحلـة «التّزیین»، وبنـاءاً علیه فالتکرار لعملٍ ما، یبعث علی تزیینه فی عین الإنسان و نظره، و تتوافق معه النفس الإنسانیـة، لدرجـةٍ یعتبره الإنسـان من المواهب و الإفتخـارات التی یتمیز بهـا علی الآـخرین، فیقول اللّه تعـالی: «کَذَلِکَ زُیِّنَ لِلْمُسْـرِفِینَ مَـا کَانُوا یَعْمَلُونَ». فجملـة: «مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ»، و کذلک «المسـرفین»، هی دلیلٌ واضحٌ علی تکرارِ الذّنب من قبلهم، فالتّکرار لها، لا یمحو قُبحها فقـط، بـل و بالتّدریـج سـتتحول الخطیئـة إلی فضـیلةٍ فی نظرهم، و هـذا یعنی فی الحقیقـة المسـخ لشخصـیّة الإنسـان، و هو من النتائج المشؤومـة لتکرار الـذّنوب. وهنـاک خلافٌ حول الفاعـل، الـذی یزیّن لهؤلاء الأـفراد أعمالهم القبیحـة ... فقـد ورد فی بعض الآیات الکریمة، إنتساب ذلک الفعل إلی البارئ تعالی، و إعتبره کعقابٍ لهم، لأنّهم أصرّوا علی الذّنوب، فالتّزیین هو إستدراج لهم، ولیذوقوا وبـال أعمالهم فقال الله تعالی «إِنَّ الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَیَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ» «۱». و فی الآیة (۴۳) من سورة الأنعام، نسب ذلک الفعل للشّـیطان الرّجیم، فیقول عن الکفّـار الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۱ المعانـدین، الذین لا یحبون النّاصـحین: «وَلَکِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطَانُ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ». و مرةً اخری نسب ذلک الفعل للأصنام، فیقول اللّه تعالی «وَکَذَلِکَ زَیَّنَ لِکَثِیرٍ مِنَ الْمُشْرِکِینَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَکَاؤُهُمْ) «۱». و اخری (وکمـا ورد فی الآیـة التی هی مورد بحثنـا الآـن)، ورد بصورة الفعل المبنی للمجهول: «أَفَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَـناً». و بنظرةٍ فاحصـةٍ نری، أنّ هذه التّعابیر لا تتقاطع فیما بینها، بل أحدها یکمّل الآخر، فمرةً تکون الزّینة عاملًا علی تکرار العمل، فالتّکرار یُقلّل من قبح العمل، و یصل إلی مرحلةٍ لا یحسّ معها بالذّنب، و بالإسـتمرار یحسُن فی نظر صاحبه، فیُقیّده و لا یسـتطیع التّحرر من ذلک الفـخ، الـذی نُصب له، و هی حقیقـةٌ یمکن للإنسان أن یلمسـها، بالتّتبع و النّظر لحال المجرمین. و فی موارد اخری، فإنّ الوساوس الشّـیطانیة الخارجیّة، و الوساوس الباطنیّة النفسیّة، تزیّن للإنسان سوء عمله، و یصل الأمر به إلی إرتکاب الکبائر، بحجـة أنّه یؤدّی واجبه الـدّینی فیغتاب شـخصاً ما، بـدون ذنبٍ و هو یتصور أنّه علی حقٍّ، ولکن الحسـد فی الواقع هو الـذی یدفعه الی ذلک، و التأریخ ملیءٌ بمثل هذه الجنایات الفظیعة، فوساوس النّفس و الشّیطان لا تعمل علی التّستر علی قبح العمل فقط، بل تجعله من إفتخاراته. و ربّمـا یعـاقب البـاری تعالی، أشـخاصاً لعنادهم، و عـدم قبولهم النّصـحیة، و لا یکون العقاب إلّا بتزیین سوء عمل الإنسان، لتشـتدّ عقوبته ویفتضـح أکثر فأکثر. و یجب التّنویه، إلی أنّه و طبقاً للتّوحید الأفعالی، فإنّ کلّ عملٍ و أثرٍ موجودٍ فی هذا العالم، یمکن أن یُنسب إلی اللّه تعـالی، لأنّ ذاته المقدّسـة هی علّـةُ العلل، و لا یعنی هـذا الأمر أنّ الأفراد قـد اجبروا علی أفعالهم، فالحمـد للّهالـذی جعل القوّة والقدرة علی الفعل ومَنحها لِعباده، واللعنة علی الذین یسـتعملون تلک القوّة فی دائرة الشـر والذّنوب. و ربّما تقتضـی طبیعة الأشـیاء، التّزیین والزخرفة، فنقرأ فی الآیه (۱۴) من سـورة آل عمران: الاخلاـق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۲ «زُیِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِینَ وَ الْقَنَاطِیرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ...». وإحـدی العوامل لتزیین الأعمال القبیحـة فی نظر الشّـخص، التّکرار لها، فهو یُؤثر فی نفس و روح الإنسان، و یغیّر أخلاقه، و العکس صـحیحٌ، فإنّ تکرار الأعمال الحسنة یصبح ملکةً بالتدریج عند الإنسان، و یبـدّله إلی أخلاقٍ فاضـلةٍ، و لـذلک و لأجل تهـذیب النّفوس و نمو الفضائل الأخلاقیّة، نوصـی السّالکین فی هـذا الطّریق، بالإسـتعانة بتکرار الأعمـال الصّالحـة، وأن یحـذروا من تکرار الأعمـال السـیئة، فالأـوّل هو المعین الناصـح للإنسان، و الثانی عـدوّ غـدّار. و «الآیة الثاالثـة»: تتحـدث عن تزیین سوء أعمـال الإنسـان أیضاً، فیقول تعالی: «أَفَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَـناً». فکما جاء فی تفسـیر الآیة السّابقـة: فإنّ من العوامل لتزیین سوء الأعمال هو التّکرار، و التّطبیع علیها، و التّدریـج یؤدّی إلی أن یفقد الإنسان، الإحساس بِقُبحها، و سوف یولع بها ویفتخر أیضاً. و اللّطیف أنّ القرآن الکریم، عنـدما یسأل ذلک السّؤال، لا یـذکر النّقطـة المقابلة لها، بصورةٍ مباشـرةٍ، و یفسـح المجـال للسّـامع، أن یتصور النّقطـة المقابلـة بنفسه، ویتفهمها أکثر، فهو یریـد أن یقول: هل أنّ هـذا الفرد، یتساوی مع من یمیّز الحق من الباطـل فی حرکـة الحیاة؟، أو هل أنّ هؤلاء الأفراد، یشـبهون الأفراد من ذوی القلوب الطّاهرة، الـذین یعیشون حالـة الإهتمام بمحاسـبة أنفسهم، والبعد عن القبائح ...؟. و یجب الإنتباه، الی أنّ اللّه تعالی یقول، فی ذیل الآیة مخاطباً رسوله الکریم: «فَإِنَّ اللَّهَ یُضِلُّ مَنْ یَشَاءُ وَیَهْدِی مَنْ یَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِمَا یَصْـنَعُونَ». و هو فی الحقیقة عقابٌ لِلّذین یفعلون القبائح،

فیجب أن تکون عاقبتهم کذلک. وقد جاء فی تفسیر، «فی ظلال القرآن»: أنّ الباری تعالی إذا أراد أن یهدی الإنسان للخیر، «بسبب نیّته و عمله»، فیجد فی قلبه الحساسیّة و التّوجه الخاص لسوء الأعمال، فهو دائماً علی حذرٍ من الشّیطان و الخطأ و الزّیغ ولا یأمن الإختبار، و ینتظر المَدد الإلهی دائماً، وهنا یکون الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۳ الفصل بین طریق الهدایة والفلاح، وبین خطّ الضّلال و الهلاک «۱». و قد ورد، أنّ أحد أصحاب الإمام الکاظم علیه السلام، (او أحد أصحاب الإمام الرضا علیه السلام)، قال: سألت الإمام علیه السلام ما هو العجب الذی یبطل عمل الإنسان؟ فقال علیه السلام: «العُجبُ دَرَجاتٌ مِنْها أَنْ یُزَیَّنَ لِلعَبْدِ سُوءُ عَمَلِهِ فَیَراهُ حَسَناً فَیُعْجِبُهُ وَیَحْسَبُ أَنَّهُ یُحْسِنُ صُنعاً» «۲». و «الآیة الرابعة»: تتحدث عن مَلِکَة سَبأ، و عاقبتها والأخبار التی جاء بها الهدهد لسلیمان علیه السلام، من تلک الأرض واولئک القوم: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا یَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطَانُ أَعْمَالَهُمْ». فالشّمس مع نورها الوهّاج، و عظمتها و فائدتها؛ لکنّ طلوعها و غروبها، و إنحجابها بالغیوم، تبیّن أنّها هی بدورها أیضاً تابعة لقوانین الکون، و لا إرادة لها أبداً، و لا تستحق التقدیر. ولکنّ الآباء علّمت الأبناء، و التربیة الخاطئة و السُنّة الضّالة، و تکرار العمل، حَدَت بالنّاس لتصوّر القبیح فی صورةٍ حسنةٍ، و فی بعض البلدان، یعبدون البقر، و یؤدّون الطّقوس أمامها، و هو مدعاةٌ للسّخریّة و الضَّحِک، ولکنهم یفتخرون بذلک. و من العوامل المهمّة لذلک، هو التّکرار لذلک العمل الذی عوّد الإنسان علی القبیح و جعله حسناً. و قد یُنسب هذا الفعل للشّیطان، ولکن فی الحقیقة، الشّیطان له وسائل متعدّدة للغوایة، و منها التّکرار للقبیح و التعوّد علیه. «الآیة الخامسة»: لها نفس المحتوی الوارد فی الآیات السابقة، ولکن بتعبیراتٍ جدیدةٍ، حیث قال تعالی، مخاطباً رسوله الکریم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمَالًا* الَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَهُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۴ فالکلام عن المتضرّر الأوّل فی المعرکة، و هو الذی یصرف عمره وفکره وطاقته فی الطّریق الغلط، و هو یحسب أنّه یُحسن صُنعاً، و هو فرحٌ و مسرورٌ و یفتخر بذلک. فلماذا یُبتلی الإنسان بهذه المصائب؟، لیس ذلک إلّالأنّه تعوّد علی القبائح، و إتّباع هوی النّفس، و الأنانیة و العجب، فتجعل الحُجب علی قلبه وعقله، فلا یری الحقیقة واضحةً صائبةً کما هی. و النتیجة لهذا الأمر، جاءت فی الآیة التی بعدها فقال تعالی «اولَئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ رَبِّهِم وَلِقائِهِ وَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ». و فسرت الروایات الإسلامیّة، هذه الآیة بتفسیرٍ و تعبیراتٍ متعددةٍ، وکلٌّ منها هو فی الحقیقة مصداقٌ للآیة، فبعضها فسّرت الآیة بالمنکرین لولایة أمیرالمؤمنین علیه السلام، و بعضها فسّرت الآیة بالرّهبان المسیحیین، فهم الذین یترکون الدنیا بالکامل و لذائذها، وهم فی الحقیقة مخطئون، و یتحرّکون فی دائرة الفکر والعمل فی الطّریق المنحرف. و البعض الآخر من الروایات، ذکرت فی تفسیرها أنّهم أهل البدع من المسلمین؛ واخری فسّروها، بخوارج النّهروان، وقال آخرون: أنّها نزلت فی أهل البدع من الیهود و النّصاری، فکلّ هؤلاء الأشخاص علی خطأ و أعمالهم ملیئةٌ بالإجرام و الظّلم، ولکنهم کانوا یحسبون أنّهم علی صواب. و تجدر الإشارة إلی أنّ، جملة: «حبطت أعمالهم»، التی جاءت فی ذیل الآیة، هی من مادة «حبط،» و من معانیها المعروفة هو البعیر أو حیوان آخر، یأکل العلف بشراهةٍ، حتی العلف السّام والضار بحیث یؤدی إلی إنتفاخ بطنه، و قد یؤدّی به فی بعض الأحیان للموت، فالبعض یتصور أنّ ذلک هو دلیل علی قوته و قدرته، ولکنّ الحقیقة هی غیر ذلک، بل هو المرض بعینه، أو مقدمةٌ لموته، ولکن الجهّال یعتبرونها من القوّة و القدرة. و قسمٌ من النّاس یبتلون بمثل هذه العاقبة، فیکون کلّ سعیهم و قوتهم لهلاک أنفسهم، و هم یتصورون أنّهم سلکوا طریق السّعادة و الرفاه. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۵ «الآیة السادسة»: تتناول مسألة قبول التّوبة من قبل اللّه تعالی، لمن تتوفر فیهم بعض الشّرائط: ۱- الّذین یعملون السّوء بجهالةٍ و لا یعرفون عواقب الذّنوب علی نحو الحقیقة. ۲- الّذین تابوا بسرعةٍ من أعمالهم القبیحة، فاولئک الّذین تشملهم الرّحمة الإلهیّة، و یقبل اللّه تعالی توبتهم، فقال: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَی اللَّهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ فَأُوْلَئِکَ یَتُوبُ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَکَانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً». والمراد من کلمة «الجهالة»، التی وردت فی الآیه، لیس هو الجهل المطلق الذی یوجب العذر؛ لأنّ العمل فی حالات الجهل المطلق، لا یعتبر من الذنب، بل هو الجهل النّسبی الذی لا یعلم معه عواقب ومعطیات الذّنوب فی حرکة الواقع والحیاة. و أمّا جملة: «یتوبون من قریب»، فقال البعض أنّها قبل الموت، ولکن إطلاق کلمة «قریب»، علی فترة ما قبل الموت، التی ربّما تستغرق (۵۰) سنة أو أکثر، لا

تکون مناسبة لهذا النوع من التّفسیر، و إستدل مؤیّدوا هذه النظریّة، بروایاتٍ لا تشیر إلی هذا التفسیر، ولکنّها بیانٌ مستقلٌ و منفصلٌ عنه. و قال البعض الآخر، إنّها الزّمان القریب لإرتکاب الذّنب، حتی تمسح التوبة الآثار السّیئة للذنب فی روح و نفس الإنسان، و فی غیر هذه الصّورة، فستبقی الآثار فی القلب، وهو ما یناسب کلمة القریب عُرفاً و لغةً. «الآیة السابعة»: تناولت مسألة الزکاة ومعطیاتها، فجاء الأمر للرّسول الکریم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً». و یتحدث القرآن الکریم عن الزّکاة، و بیان معطیاتها الأخلاقیّة و المعنویّة، فی خطّ التربیة، ویقول: «تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَکِّیهِمْ بِهَا». نعم، فإنّ دفع الزکاة یحدّ من الرّکون إلی الدنیا وزخارفها، ویقمع البخل فی واقع النفس الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۶ البشریّة، و یحث الإنسان علی مراعاة حقوق الآخرین، و یغرس فیه حبّ السّخاء و الإنسانیّة. و علاوةً علی ذلک، فإن دفع الزّکاة یقف بوجه المفاسد النّاشئة عن الفقر والحرمان، و بأداء تلک الفریضة الإلهیّة، نکون قد شارکنا فی إزالتها نهائیاً، من واقع المجتمع، لذلک فإنّ الزّکاة تسهم فی رفع الرّذیلة والفقر فی حرکة الإنسان والحیاة، و تُحلّی الإنسان بالفضائل الأخلاقیّة، و هذا الأخیر هو موضوع بحثنا، و هو دور العمل الصّالح و الطّالح، فی تحریک عناصر الخیر و الشّر، و الفضائل و الرذائل الأخلاقیة، فی واقع الإنسان و المجتمع. و جاء نفس هذا التعبیر بشکلٍ آخر فی آیة الحجاب فیقول تعال «إذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَاسأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ ذَلِکُمْ أَطْهَرُ لَقُلُوبِکُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» «۱». فهذه الآیة الشّریفة، تبیّن بوضوح أنّ التعفف فی العمل یبعث علی طهارة ونظافة القلب، وبالعکس فإنّ الجرأة علی إرتکاب المنکر و عدم الحیاء، یلوّث روح و قلب الإنسان، و یعمّق فی نفسه المیل إلی الرذائل الأخلاقیّة.

النّتیجة:

کان الهدف من شرح الآیات الآنفة الذّکر، هو معرفة تأثیر الأعمال فی الأخلاق، وبلورتها لروح الإنسان، فلأجل بناء الذّات وتهذیب النّفس، یتوجب مراقبة أعمالنا من موقع الحذر و الإنضباط و المسؤولیّة، لأنّ تکرار الذّنب والإثم یذهب بقبحه من جهة، ومن جهة اخری یمنح الإنسان التعوّد علیه، وبالتدریج یصبح ذلک العمل ملکةً لدیه، ولا یزعجه فقط، بل ویتحول إلی عنصر فخرٍ من إفتخاراته.

کیفیّة تأثیر «العمل»، فی «الأخلاق» فی الرّوایات الإسلامیّة:

تعکس الأحادیث الإسلامیة بوضوح، ما تقدّم من علاقة العمل بالأخلاق فی الآیات الکریمة، ذلک المطلب بوضوح، و من تلک الأحادیث: ۱- نقرأ فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّه قال: «ما مِنْ عَبْدٍ إلّاوَفِی قَلْبِهِ نُکْتَةٌ بَیضاءُ فَإذَا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ فی النُّکْتَةِ نِکْتَةٌ سَوداءُ فَإنْ تابَ ذَهَبَ ذَلِکَ السَّوادُ، وإنْ تَمادَی فِی الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِکَ السَّوادُ حتَّی یُغَطِّی البَیاضَ، فَإذَا غَطّی البَیاضَ لَمْ یَرْجِعْ صاحِبُهُ إلَی خَیرٍ أَبَداً، وَهُوَ قَولُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: «بَلْ رانَ عَلَی قُلُوبِهِمْ مَا کَانُوا یَکْسِبُونَ» «۱». فهذه الروایة، تُبیّن بوضوح، أنّ تراکم الذّنوب یُفضی إلی ظهور الرذائل فی سلوکیات الإنسان، و یدفعه بإتجاه الإبتعاد عن الفضائل، ممّا یورّث النّفس الإنسانیّة الغرق فی الظّلام الکامل، و عندها لا یجد الإنسان فرصةً للرجوع إلی طریق الخیر، والإنفتاح علی اللّه والإیمان. ۲- الوصیّة المعروفة عن أمیر المؤمنین علیه السلام لابنه الحسن علیه السلام، حیث قال له: «إنَّ الخَیرَ عادَةٌ» «۲». و ورد نفس هذا المضمون، فی کنز العمّال، فی حدیثٍ عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «الخَیرُ عادَةٌ والشَّرُ لَجاجَةٌ» «۳». و أیضاً نقل نفس هذا الحدیث، و بشکل آخر، عن الإمام السجّاد علیه السلام، أنّه قال: «أُحِبُّ لِمَنْ عَوَّدَ مِنْکُمْ نَفْسَهُ عادَةً مِنَ الخَیرِ أنْ یَدُومَ عَلَیها» «۴». فیستفاد من هذه الروایات، أنّ تکرار العمل، سواء کان صالحاً أم طالحاً، یسبّب فی وجود حالة الخیر أو الشر عند الإنسان، فإذا کان خیراً فسیشکل مبادیء الخیر فی نفسه، و إن کان شرّاً فکذلک، و بکلمةٍ واحدةٍ هو التأثیر المتقابل للأعمال، و الأخلاق فی حرکة الحیاة، و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۸ الواقع النّفسی للإنسان. ۳- ورد فی حدیثٍ آخر، عن علی علیه السلام فی وصیّته المعروفة، للإمام الحسن علیه السلام: «وَعَوِّدْ

نَفْسَکَ التَّصَبُّرَ عَلَی المَکْرُوهِ، وَنِعْمَ الخُلُقُ التَّصَبُّرُ فی الحَقِّ» «۱» ویتبیّن هنا أیضاً، أنّ «العادة» هی ولیدة، التکرار، للعمل مع الصّبر علی صعوبات الحیاة، من موقع الحقّ و المسؤولیّة. ۴- ورد فی الرّوایات، التّعجیل بالتّوبة و عدم التّسویف، لئلّا تبقی آثار الذّنوب فاعلةً فی القلب، ممّا یؤدّی إلی تحولها إلی ملکةٍ أخلاقیّةٍ راسخةٍ فی النفس، فنقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الجواد علیه السلام، أنّه قال: «تَأْخِیرُ التَّوبَةِ إغتِرارٌ، وَطُولُ التَّسْوِیفِ حَیرَةٌ ... وَالإصرارِ عَلَی الذَّنبِ آمْنٌ لِمَکْرِ اللَّهِ» «۲». و جاء فی النّبوی الشّریف حدیث آخر، لطیف عن التّوبة و تأثیرها الإیجابی، فی تلاشی الذّنوب من واقع النّفس، فقال: «مَنْ تابَ تَابَ اللَّهُ عَلَیهِ وَأُمِرَتْ جَوَارِحَهُ أَنْ تَسْتُرَ عَلَیهِ، وَبِقاعُ الأَرْضِ أَنْ تَکْتُمَ عَلَیهِ وَأُنْسِیَتِ الحَفَظَةُ ما کانَتْ تَکْتُبُ عَلَیهِ» «۳». فهذا الحدیث یبیّن أنّ التوبة، تغسل الذّنوب و تعید الصّفاء و القداسة الأخلاقیّة للإنسان. و جاء هذا المعنی بصورة أوضح، فی الحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «التَّوبَةُ تُطَهِّرُ القُلُوبَ وَتَغْسِلُ الذُّنُوبَ» «۴». فهذا الحدیث یبیّن أنّ الذنب یترک آثاره فی القلب، فی عملیّة تطبیع نفسی لعناصر المزاج، ولکن التّوبة تزیل هذه الآثار، و لا تفسح المجال لتشکّل تلک الأخلاق السلبیة، فی المحتوی الداخلی للفرد. و ورد فی التعبیر عن التّوبة بأنّها «طهور»، فی روایاتٍ عدیدةٍ، و هو یحکی عن علاقة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۷۹ الذّنب بظهور الحالات الباطنیّة القبیحة «۱». و ورد فی المناجاة: الخمسة عشر، المعروفة للإمام السجاد علیه السلام، فی القسم الأول منها، و هی مناجاة التّائبین: «وَ أَماتَ قَلْبِی عَظِیمَ جِنایَتِی فَأَحْیِهِ بِتَوبَةٍ مِنْکَ یا أَمَلِی وَبُغْیَتِی» «۲». نعم! فإنّ الذّنب یکدّر القلب ویلوث النفس الإنسانیة، وبتکرار الذنب فإنّ القلب یذبل و یموت، ولکنّ التوبة بإمکانها، أن تعید النّشاط و الحیاة للقلوب، لتعیش جو الإیمان و الطُّهر. و بناءً علیه، فإنّه یتوجب علی السائرین إلی اللَّه تعالی، تحکیم دعائم الفضائل الأخلاقیّة، فی وجدانهم وسلوکیاتهم، و لینتبهوا لمعطیّات و تبعات أعمالهم الإیجابیّة و السّلبیة، فکلّ واحدٍ من تلک الأعمال سیؤثر فی القلب، فإنّ کان خیراً فخَیر، و إن کان شَرّاً فشرّ.

۷- علاقة «الأخلاق» و «التّغذیة»

اشارة

ربّما سیتعجب البعض من هذا العنوان، و ما هی علاقة الأخلاق والروحیّات والملکات النّفسیة بالغذاء، فالأولی للرّوح و الثّانیة للجسم، ولکن بالنّظر للعلاقة الوثیقة، بین الجسم والروح فی حرکة الحیاة و الواقع، فلن یبقی مجالًا للتعجب، فکثیراً ما تسبّب الأزمات الرّوحیة فی الإصابة بأمراضٍ جسدیّةٍ، تضعف جسم الإنسان و تشل عناصر القوّة فیه، فیبیض الشّعر، و تظلم العین، وتخور القوی عند الإنسان والعکس صحیح أیضاً، فإنّ الفرح و حالات الرّاحة التی یمرّ بها الإنسان، تنمی جسمه و تقوّی فکره، و قدیماً توجّه العلماء لتأثیر الغذاء علی روحیّة الإنسان وسلوکه المعنوی، و تغلغَلت هذه المسألة فی ثقافات الناس، علی مستوی الموروث الفکری والوعی الاجتماعی، فمثلًا شِرب الدّم یبعث علی قساوة القلب، والعقیدة السّائدة هی أنّ العقل السّلیم فی الجسم السّلیم. ولدینا آیاتٌ و روایات تشیر إلی هذا المعنی، و منها الآیة (۴۱) من سورة المائدة، فقد الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۰ أشارت إلی فئةٍ من الیهود الذین مارسوا أنواعاً کثیرةً من الجرائم بحقّ الإسلام و المسلمین من قبیل التّجسس و تحریف الحقائق الواردة فی الکتب السّماویّة، فقال الباری تعالی: «أُولَئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدْ اللَّهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ». و یعقّب مباشرةً قائلًا: «سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ أَکَّالُونَ لِلسُّحْتِ». و هذا التعبیر یبیّن أنّ عدم طهارة قلوبهم، إنّما کان نتیجة لأعمالهم، الّتی منها تکذیب الرّسول والآیات الإلهیّة، وأکلهم للحرام بصورةٍ دائمةٍ، ومن البعید فی خطّ البلاغة و الفصاحة، أن یأتی بأوصاف لا علاقة لها بجملة: «لَمْ یُرِدْ اللَّهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ». و منها یعلم أنّ أکل السّحت یسوّد القلب و یُمیته، و یکون سبباً لنفوذ عناصر الرّذیلة، و الزیغ، و الإبتعاد عن الخیر والفضائل. وفی الآیة (۹۱) من سورة المائدة، ورد الحدیث عن شرب الخمر ولعب القمار، فقال عزّ من قائل: «إِنَّمَا یُرِیدُ الشَّیْطَانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِی الْخَمْرِ وَالْمَیْسِرِ». و لا شک فإنّ العداوة و البغضاء، هی من الحالات الباطنیّة، التی ترتبط برابطةٍ وثیقةٍ مع شرب الخمر ولعب القمار، کما ورد فی الآیة الشریفة، وهو

دلیل علی أنّ أکل السّحت و الشّراب الحرام یساعد علی بروز الرذائل الأخلاقیة، و تکریس حالات العداء والخصومة بین الأفراد، فی خط الشیطان. ونقرأ فی الآیة (۵۱) من سورة المؤمنون، قوله تعالی: «یَا أَیُّهَا الرُّسُلُ کُلُوا مِنْ الطَّیِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً». ویعتقد بعض المفسّرین أنّ تقارن ذکر هذین الأمرین: وهما «أکل الطّیبات و العمل الصالح»، هو خیر دلیلٍ علی وثاقة العلاقة بینهما، و هی إشارةٌ إلی أنّ إختلاف و تنوّع الأکلات و الأطعمة، له معطیات أخلاقیة مختلفة و متنوّعة أیضاً، فأکل الطیّبات، یطیّب الرّوح و یصلح العمل، وبالعکس فإنّ الأکل الحرام یُظلم الرّوح، و یخبّث العمل «۱». و قد إستدلّ فی تفسیر «روح البیان»، وبعد إشارته لعلاقة العمل الصّالح بأکل الطیّبات، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۱ بالأشعار التالیة: و أشار فی تفسیر: «الإثنی عشری»، فی ذیل هذه الآیة، إلی علاقة نورانیّة القلب و صفائه، و الأعمال الصّالحة بأکل الحلال «۱».

علاقة التّغذیة بالأخلاق فی الرّوایات الإسلامیّة:

هذه العلاقة لم ترد فی الآیات القرآنیة بصورةٍ واضحة، ولا یوجد لها سوی إشاراتٌ خفیفةٌ، ولکن هذا الأمر: «علاقة التّغذیة بالأخلاق»، له صدی واسع فی الرّوایات، و نورد منها: ۱- نقرأ فی الرّوایات الواردة، أنّ من شروط إستجابة الدّعاء هو الإمتناع عن أکل الحرام، حیث جاء شخص إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله، و قال له: اِحِبُّ أنْ یُستَجاب دُعائِی، فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «طَهِّرْ مَأکَلَکَ وَلا تَدْخُلْ بَطْنَکَ الحَرامَ» «۲». و جاء فی حدیثٍ آخر عنه صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «مَنْ أَحَبَّ أنْ یُستَجابَ دُعاءهُ فَلْیُطَیِّبْ مَطْعَمَهُ وَمَکْسَبَهُ» «۳». و نقرأ فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، أنّه قال: «أَنَّ اللّهَ لا یَسْتَجِیبُ دُعاءً بِظَهْرِ قَلبٍ قاسٍ» «۴». و یستنتج من ذلک، أنّ الأکل الحرام یُقسّی القلب، و لأجله لا یستجاب دعاء آکلی الحرام، و تتوضح العلاقة الوثیقة بین خبث الباطن و أکل الحرام، فی ما ورد عن الإمام الحسین علیه السلام، فی حدیثه المعروف فی یوم عاشوراء، ذلک الحدیث الملیء بالمعانی البلیغة، أمام اولئک القوم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۲ المعاندین للحقّ من أهل الکوفة، فعندما آیس من تحولهم إلی دائرة الحقّ و الإیمان، و إستیقن أنّهم لن یستجیبوا له فی خط الرسالة قال لهم: إنّکم لا تسمعون إلی الحق لأنّه قد: «مُلِئَتْ بُطُونُکُم مِنَ الحَرامِ فَطبَعَ اللّهُ عَلَی قُلُوبِکُم» «۱». ۲- و یبیّن حدیث آخر، علاقة الأکل الحرام بعدم قبول الصّلاة و الصّیام و العبادة، و منها ما ورد عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «مَنْ أَکَلَ لُقْمَةَ حَرامٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صلاةُ أَربَعِینَ لَیلَةً، وَلَمْ تُستَجَبْ لَهُ دَعوَةُ أَربَعِینَ صَباحاً، وَکُلُّ لَحْمٍ یُنْبِتُهُ الحَرامُ فَالنَّارُ أَولَی بِهِ، وَإِنَّ اللُّقْمَةَ الواحِدَةَ تُنْبِتُ اللَّحْمَ» «۲». و من الطبیعی فإنّ قبول الصّلاة له شروطٌ عدیدةٌ، و منها: حضور القلب وطهارته من الدّرن و الغفلة، والحرام یسلب منه تلک الطّهارة و الصّفاء، و یخرجه من أجواء النّور و الإیمان. ۳- نقل عن الرسول الأکرام صلی الله علیه و آله، و الأئمّة علیهم السلام، أنّ: «مَنْ تَرَکَ اللَّحْمَ أَربَعِینَ صَباحاً ساءَ خُلُقُهُ» «۳». و هذا الحدیث یبیّن نصیحة طِبیّةً مهمّةً، و هی أنّ الإنسان إذا ترک أکل اللّحم، لمدّة طویلة، فسیورثه سوء الخلق و الإنقباض فی النّفس، فی دائرة التّفاعل مع الآخرین، و ورد فی مقابله العکس أیضاً، وهو ذمّ الإفراط فی تناول اللّحم والإکثار منه، فإنّ من شأنه أن یورثه نفس الأعراض والأمراض الخُلقیة. ۴- و قد ورد فی کتاب: «الأطعمة والأشربة»، روایات ذکرت العلاقة بین الأطعمة والأخلاق الحسنة والسیئة ومنها: ما ورد عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «عَلَیکُم بِالزَّیتِ فإنّهُ یَکْشِفُ المُرَّةَ ... وَیُحْسِّنُ الخُلُقَ» «۴». ۵- فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «مَنْ سَرَّهُ أنْ یَقِلَّ غَیْظَهُ فَلْیَأْکُلْ لَحمَ الدُّراجِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۳ وهذا الحدیث یبیّن بصورة جیدة علاقة الغذاء بالغضب والصّبر. ۶- فی روایةٍ مفصّلة وردت فی تفسیر العیاشی، نقلها عن الإمام الصّادق علیه السلام، حیث سئل عن علّة تحریم الدم، فقال علیه السلام: «وَأَمَّا الدَّمُ فَإنَّهُ یُورِثُ الکَلَبَ وَقَسْوَةَ القَلبِ وَقِلَّةَ الرَّأفَةِ وَالرَّحمَةِ لا یُؤمِنُ أنْ یَقْتُلَ وَلَدَهُ وَ والِدَهُ». و فی القسم الآخر من نفس الروایة، قال علیه السلام: «وَ أَمَّا الخَمْرُ فإنَّه حَرَّمَها لِفِعْلِها وَفَسادِها وَ قَالَ إنَّ مُدْمِنَ الخَمْرِ کَعابِدِ الوَثَنِ، وَ یُورِثُ إرتِعاشاً وَیُذْهِبَ بِنُورِهِ وَیَهْدِمَ مُرُوَّتَهُ» «۱». ۷- ونقل فی الکافی روایات متعددة، عن العنب وعلاقته بإزالة الغم، ومنها ما روی عن الإمام الصادق علیه السلام، أنّه قال: «شَکی نَبِیٌّ مِنَ الأنبیاءِإلی اللّهِ عَزَّوَجَلَّ الغَمَّ فَأَمَرَهُ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ بِأَکْلِ العِنَبِ» «۲».

فنلاحظ تأکیداً أشدّ علی علاقة التغذیة بالمسائل الأخلاقیة، التی تعکس الحالة النفسیة للفرد. ۸- الأحادیث التی وردت فی أکل الرمان کثیرة، و أنّها تنوّر القلب وتدفع وساوس الشیطان، فجاء عن الإمام الصّادق علیه السلام: «مَنْ أَکَلَ رُمّانَةً عَلَی الرِّیقِ أَنارَتْ قَلْبَهُ أَربَعِینَ یَوماً» «۳» . ۹- وَردت روایات متعددة فی باب «الأکل»، نری فیها العلاقة المطّردة بین التغذیة و المسائل الأخلاقیّة، فی دائرةالصّفات و الحالات النفسیة، و منها الحدیث الوارد عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، فی وصیته لجعفر بن أبی طالب رضی الله عنه، فقال له: «یا جَعْفَرُ کُلِ السَّفَرجَلَ فَإِنَّهُ یُقَوی القَلْبَ وَیُشْجِعُ الجَبَانَ» «۴». ۱۰- و نقل عن الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله، حدیث یروی علاقة فضول الطعام بقساوة القلب، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۴ فنقل عنه صلی الله علیه و آله فی کتاب «أعلام الدّین»: «إِیَّاکُم وَفُضُولَ المَطْعَمِ فَإِنَّهُ یَسِمُ القَلْبَ بِالقَسوَةِ وَیُبْطِیء بِالجَوارِحِ عَنِ الطّاعَةِ وَیَصُمُّ الهِمَمَ عَنْ سِماعِ المَوعِظَةِ». «فضول الطعام»: یمکن أن تکون إشارةً لإدخال الطعام علی الطعام، و الأکل الزّائد عن الحاجة، أو أنّها تدل علی تناول الطّعام المتبقی من الوجبات السّابقة، أی بقایا الطعام الفاسد، و علی أیّة حال، فإنّ الحدیث یدل علی علاقة التّغذیة بالمسائل الأخلاقیة، التی تُؤطّر سلوک الإنسان فی حرکة الحیاة. وورد هذا المعنی أیضاً فی بحار الأنوار الذی نقل الحدیث عن رواة أهل السنة، و نقلوه أیضاً عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله «۱». ویستفاد من هذا الحدیث ثلاثة امور: ۱- إنّ الأکل الزائد یُقسّی القلب. ۲- ویقعد الإنسان عن العبادة فی دائرة الکسل والإسترخاء. ۳- یُصمّ آذانه فی مقابل الوعظ، فلا تؤثر فیه النّصیحة والموعظة فی خطّ التربیة، و هذا الأمر ملموس فعلًا، فإنّ الإنسان یثقل عند الأکل الکثیر، و لا یکاد أن یؤدّی عبادته من موقع الشّوق و الرّغبة، و لا یبقی لدیه نشاط فی خطّ العِبادة، و بالعکس فی حالة ما إذا تناول طَعاماً خفیفاً، فسیکون دائماً علی نشاطٍ فی حرکة الإیمان، و یؤدّی عباداته و وظائفه فی وقتها المعین لها. و کذلک بالنّسبة للصّیام، فهو یرقّق القلب ویهیء الإنسان لقبول المواعظ، و بالعکس عندما یکون الإنسان ملیء البطن، فإنّه لا یکاد یفکر فی شیءٍ من عوالم الغیب، و لا یعیش فی أجواء المَلکوت. ۱۱- و قد بیّنت الأحادیث الشریفة أیضاً، علاقة العسل بصفاء القلب، فنقل عن أمیر الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۵ المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «العَسَلُ شِفَاءٌ مِنْ کُلِّ داءٍ وَلا داءَ فِیهِ یُقِلُّ البَلْغَمَ وَیُجَلِّی القَلْبَ»».

النّتیجة:

تبیّن ممّا ذکر آنفاً، العلاقة الوثیقة بین الغذاء و الروحیّات و الأخلاق، و نحن لا ندّعی أبداً أنّ الأکل والغذاء هو العلّة التّامة لبلورة الأخلاق، ولکنّه یمثل عاملًا مُساعداً فی ذلک، بحلاله و حَرامه، و أنواعه. و یقول علماء العصر الحاضر، أنّ السّلوکیات الأخلاقیة عند الإنسان، تنطلق من خلال ترشّح بعض الهرمونات من الغدد الموجودة فی جسم الإنسان، و الغُدد بدورها، تتأثر مباشرةً بما یأکله الإنسان، وعلی هذا الأساس، فإنّ لحومَ، الحیوانات تحمل نفس الصّفات النفسیّة الموجودة فی الحیوان، فالضّواری تفعّل فِعْلَ عناصر التّوحش فی الإنسان، و الخنزیر یذهب بالغیرة عند الإنسان، و هکذا فإنّ لحم أیّ حیوان، یخلف بصماته علی روح آکله مباشرةً، و ینقل إلیه صفاته. هذا من الناحیة المادیّة الطبیعیّة، وأمّا من الناحیّة المعنویّة، فإنّ أکل الحرام یُظلم الروح و القلب، و یُضعف الفضائل الأخلاقیّة کما تقدم. و أخیراً نختم هذا البحث، بنقل قصّةٍ تاریخیةٍ نقلها المسعودی فی مروجه، فقال: نقل عن الفضل بن الرّبیع أنّ «شریک بن عبداللّه»، دخل یوماً علی «المهدی»، الخلیفة العبّاسی فی وقتها فقال له المهدی العباسی: «أی شریک»، أعرض علیک ثلاثة امور، علیک أن تختار إحداها، فقال ما هی؟، فقال له: إمّا أن تقبل منصب القضاء، أو أن تعلّم إبنی، أو تأکل معنا علی مائدتنا، ففکّر شریک قلیلًا، وقال إنّ الأخیرة أسهلها، فحجزه المهدی، وقال لطبّاخه، حضّر له أنواعاً من أطباق أمخاخ الحیوانات، المخلوطة بالسّکر و العسل. فعندما أکلَ شریک من ذلک الطعام اللّذیذ، «و طبعاً الحرام»، قال الطبّاخ للمهدی، إنّ هذا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۶ الشّیخ لن یُفلح أبداً بعد هذا الطّعام، فقال الرّبیع: وفعلًا قد صدقت نبوءة الطبّاخ، فإنّ شریک بعدها قبل منصب القضاء، و علّم أبناء المهدی أیضاً «۱».

الصفات و الأعمال الأخلاقيّة:

من المعلوم أنّ كلّ فعلٍ يفعله الإنسان له أصلٌ و أساس فی باطنه و محتواه الدّاخلی، أو بعبارةٍ اخری، إنّ الأعمال هی مرآة باطن الإنسان، فإحداهما بمنزلة الجذر، و الاخری بمنزلة السّاق و الأوراق و الثّمر. و بناءً عليه: فإنّ الأعمال الأخلاقيّة، لا تنفك عن الصّفات الأخلاقيّة، فمثلًا النّفاق، له جذوره فی روح الإنسان، و يحكی عن إزدواجيّة ذلك الشّخص، و عدم توحيده فی دائرة الإيمان، فهذه الصّفة الباطنيّة تحثّ الإنسان على سلوك طريق النّفاق و الرّياء مع الغير. الحسد أيضاً من الصّفات الباطنيّة السلبيّة، حيث يتمنى معه الشّخص الحاسد، زوال النّعم التی أعطاها البارئ تعالى لغيره، و تتجلى هذه الصّفة الذّميمة فی أعماله و أفعاله، التی يريد بها التّصدی لسعادةِ ذلك المحَسود من موقع العداوة والخصومة. الكِبر و الغُرور، هی صفاتٌ باطنيّة كذلك، نشأت من جهل الإنسان لقدره و مقامه، و هی ناشئةٌ من عدم تحمل الإنسان لثقل المواهب الإلهيّة، التی يُعطيها البارئ له، و يتبيّن هذا الأمر من تصرفاته، و عدم إعتنائه بالغير، و بذاءة لسانه وتحقيره للآخرين. و رُبّما، ولأجل ذلك لم يفرق علماء الأخلاق بين هذين الإثنين فی كتبهم الأخلاقيّة، فمرّةً يعرّجون على الصّفات الداخليّة للإنسان، واخری يتطرّقون للأعمال الخارجيّة، التی تستمد مقوّماتها من عالم الصّفات الباطنيّة، فيطلق على الأول: «الصّفات الأخلاقيّة»، و على الثانی: «الأعمال الأخلاقيّة». و طبعاً الأعمال الأخلاقيّة، هی موضوع المباحث الفقهيّة لدى الفُقهاء، ولكن و مع ذلك، فإنّ علماء الأخلاق قد تناولوها بالبحث فی دائرة السّلوك الأخلاقی للفرد، ومن الطّبيعی فإنّ نظرة عالِم الأخلاق، تختلف عن نظرة الفقيه، فالفقيه يبحث المسألة فی إطار الأحكام الخمسة: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۸۷ (الحُرمة، الوُجوب، و الإستحباب، و الكراهة، و الإباحة)، و لربّما تطرّق للثواب و العقاب، للأعمال فی نطاق الحياة الآخرة، ولكن عالِم الأخلاق ينظر إليها من منظار كمال الرّوح و النّفس، أو إنحطاطها وتسافلها فی خطّ الإنحراف، وبهذا يتبيّن الفرق بين الصّفات و الأفعال الأخلاقية، ويتمّ من خلالها تمييز نظر الفقيه عن نظر عالِم الأخلاق. ۱۲

الخُطى العمليّة فی طريق التّهذيب الأخلاقی

اشارة

نتطرّق فی هذا الفصل للعوامل الّتی تساعد على تربية، و نمو «الفضائل الأخلاقيّة»، و تقرّب الإنسان من اللّه تعالى خطوةً خطوة، و هذا البحث، غاية الأهميّة فی علم الأخلاق، و يتناول اموراً عديدة:

الخطوة الاولى: التّوبة

اشارة

يقول كثير من علماء الأخلاق، إنّ الخطوة الاولى لتهذيب الأخلاق و السّير إلى اللّه، هی «التّوبة»، التّوبة التی تمحو الذّنوب من القلب وتبيّض صفحته وتجعله يتحرك فی دائرة النور، و تنقله من دائرة الظّلمة، و تخفف ثقل الذّنوب من خزينه النّفسانی، و رصيده الباطنی، و تمهّد الطّريق للسّير و السّلوك إلى اللّه تعالى، فی خط الإيمان و تهذيب النّفس. يقول المرحوم: «الفيض الكاشانی»، فی بداية الجزء السابع من كتابه: «المحجّة البيضاء»، الذی هو فی الواقع، بداية الأبحاث الأخلاقيّة: (فإنّ التّوبة من الذنوب، و الرّجوع إلى ستار العُيوب و علّام الغيوب، مبدأ طريق السّالكين، و رأس مال الفائزين، و أوّل إقدام المريدين، و مفتاح إستقامة المائلين و مطلع الإصطفاء و الاجتباء للمقرّبين!). الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۰ و بعدها يشير إلى حقيقةٍ مهمّةٍ، و هی أنّ أغلب بنی آدم يتورطون غالباً

بالمعاصی، و یشیر إلی معصیة آدم: (التی هی فی الواقع، من ترک الأولی)، و توبته منها، ویقول: «وما أجدر بالأولاد الإقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمی و إجترم، فهی شنشنةٌ یعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه، فما ظَلم، ولکنّ الأب إذا جبر بعد کسر، و عمّر بعد أن هدم، فلیکن النزوع إلیه فی کلا طرفی، النّفی و الإثبات و الوجود والعدم، ولقد قلع آدم سنّ النّدم، و تندّم علی ما سبق منه و تقدّم، فمن إتّخذه قدوةً فی الذنب دون التّوبة فقد زلّت به القدم، بل التجرد لمحض الخیر دأب الملائکة المقرّبین، والتجرُّد للشرّ دون التّلافی، سجیّة الشّیاطین، و الرّجوع إلی الخیر بعد الوقوع فی الشرّ ضرورة الآدمیین، فالمتجرّد للخیر ملک مقرّب، عند الملک الدّیان، والمتجرّد للشرّ شیطان، والمتلافی للشرّ بالرجوع إلی الخیر بالحقیقة إنسان. والمصرّ علی الطّغیان، مسجّل علی نفسه بنسب الشّیطان، فأمّا تصحیح النّسب بالتجرّد لمحض الخیر إلی الملائکة، فخارج عن حیّز الإمکان، فإنّ الشرّ معجون مع الخیر، فی طینة آدم، عجناً محکماً لا یخلّصه إلّا إلی إحدی النارین: نار الندم أو نار جهنم» «۱». أو بعبارة اخری: أنّ الإنسان غالباً ما یُخطیء، و خصوصاً فی بدایة سیره إلی اللّه تعالی، فإذا ما وجد أنّ أبواب العودة موصدةٌ فی وجهه، فسیورثه الیأس الکامل، و یبقی یُرواح فی مکانه، ولذلک فإنّ التّوبة تعتبر من الاصول المهمّة فی الإسلام، فهی تدعو کلَّ المذنبین إلی العمل لإصلاح أنفسهم، و الدّخول فی دائرة الرّحمة الإلهیّة، و السّعی لجبران ما مضی. و قد بیّن الإمام السّجاد علیه السلام، فی مناجاته: «مناجاة التائبین» أفضل وأحلی صورة لها، فقال: «إلهی أَنْتَ الّذِی فَتَحْتَ لِعبادِکَ باباً إِلی عَفْوِکَ سَمَّیْتَهُ التَّوبَةَ فَقُلْتَ تُوبُوا إِلَی اللَّهِ تَوبَةً نَصُوحاً، فَما عُذْرُ مِنْ أَغْفَلَ دُخُولَ البابِ بَعْدَ فَتْحِهِ» «۲». و الجدیر بالذکر أنّ الباری تعالی یحبّ التّائبین، لأنّ التّوبة تعتبر الخطوة الاولی لکی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۱ یعیش الإنسان فی أجواء السّعادة و الحیاة الکریمة. وقد ورد عن الإمام الباقر علیه السلام: «إِنّ اللَّهَ تَعالی أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ راحِلَتَهُ وَ زادَهُ، فِی لَیلَةٍ ظَلْماءَ فَوَجَدها» «۱». فهذا الحدیث مزج بکنایات خاصة وعبارات جذابة، لیبیّن أنّ التّوبة فی الواقع، الزّاد و الرّاحلة لعبور الإنسان من وادی الظّلمات، لیصل إلی معدن النّور و الرّحمة، و یعیش حالات الکرامة فی الصفات الإنسانیّة. و علی أیّة حال، فإنّ ما یطرح فی مبحث التّوبة امورٌ عدیدةٌ، أهمّها هی: ۱- حقیقة التّوبة. ۲- وجوب التّوبة. ۳- عمومیة التّوبة. ۴- أرکان التّوبة. ۵- قبول التّوبة، هل عقلی أو نقلی؟ ۶- تقسیم التّوبة وتجزئتها. ۷- دوام التّوبة. ۸- مراتب التّوبة. ۹- معطیات و برکات التّوبة.

۱- حقیقة التّوبة

«التوبة» فی الأصل، هی الرجوع عن الذّنب «هذا إذا ما نسبت للمذنبین»، ولکن الآیات القرآنیة و الرّوایات نسبتها إلی الباری تعالی، وعلیه فیصبح معناها: الرجوع إلی الرّحمة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۲ الإلهیّة، تلک الرحمة التی سُلبت من الإنسان إثر إرتکابه للمعصیة و الذّنب، فبعد عودته لموقع العبودیة و العبادة، تمتد إلیه الرّحمة الإلهیّة من جدید، و بناءاً علی ذلک فإنّ أحد أسماء الباری تعالی، هو (التواب). و «التّوبة» فی الحقیقة: هی مشترک لفظی أو معنوی بین اللّه وعباده، (ولکن إذا ما نُسبت للعبد، تتعدی بکلمة «إلی»، وإذا ما نُسبت للباری تعالی، فهی تتعدی بکلمة «علی») «۱». و ورد فی «المحجّة البیضاء»، عن حقیقة التّوبة فقال: «إعلم أنّ التّوبة عبارةٌ عن معنی ینتظم و یلتئم، من ثلاثة امورٍ مرتّبةٍ: علم وحال و فعل، فالعلم أوّل والحال ثان و الفعل ثالث، أمّا العلم فهو معرفة عِظم ضرر الذنوب، و کونها حجاباً بین العبد و بین کلّ محبوب، فإذا عرفت ذلک معرفةً محقّقةً بیقینٍ غالب علی قلبه، ثار من هذه المعرفة، تألّمٌ للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم، فإن کان فواته بفعله تأسّف علی الفعل المفوّت، فیسمّی تألّمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم علی القلب و إستولی؛ إنبعث من هذا الألم فی القلب، حالةً اخریً تسمّی إرادةً و قصداً إلی فعلٍ له تعلّق بالحال و بالماضی و الإستقبال. فثمر نور هذا الإیمان مهما أشرق علی القلب، نار الندم فیتألّم به القلب، حیث یبصر بإشراق نور الإیمان أن صار محجوباً عن محبوبه» «۲». و هو الشّیء الذی یدعوه البعض: بالثّورة الروحیّة و النفسیّة، و یعتبرون التّوبة نوعاً من الإنقلاب الرّوحی، فی باطن الإنسان علی کلّ شیء، وتحثّه هذه الحالة علی إتخاذ موقف جدید، حیال أعماله وبرامجه الآتیة، من موقع الوضوح فی الرّؤیة لعناصر الخیر و الشرّ.

۲- وجوب التّوبة

إتّفق علماء الإسلام على وجوب التّوبة، و كذلك فإنّ القرآن قد صرّح بها فی الآیة (۸) الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۳ من سورة التّحریم: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَی اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَی رَبُّکُمْ أَنْ یُکَفِّرَ عَنْکُمْ سَیِّئَاتِکُمْ وَیُدْخِلَکُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». إنّ كلّ الأنبیاء عندما یتقلّدون أعباء الرّسالة، فأوّل شیء یدعون إلیه هو التّوبة، لأنّه بدون التّوبة و تنقیة القلب، لا یوجد مكان للتّوحید والفضائل فی أجواء النّفس و واقع الإنسان. فالنّبی هود علیه السلام، أوّل ما دعی قومه: إلی التّوبة و الإستغفار، فقال تعالی «وَیَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» «۱» و كذلك النّبی صالح علیه السلام، جعل التّوبة أساساً لعمله و دعوته، فقال تعالی «فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» «۲». ثم النّبیّ شعیب علیه السلام، الذی تحرك فی دعوته من هذا المنطلق، فقال تعالی «وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی رَحِیمٌ وَدُودٌ» «۳». و دعمت الروایات ذلك الأمر، و أكّدت علی وجوب التّوبة الفوریّة، ومنها: ۱- وصیة الإمام علی علیه السلام لإبنه الإمام الحسن علیه السلام: «وَإِنْ قَارَفْتَ سَیِّئَةً فَعَجِّلْ مَحوَها بِالتَّوبَةِ» «۴». طبعاً حاشا للإمام أن یقترف الذّنوب، ولكن قصد الإمام علی علیه السلام هنا، تنبیه الآخرین إلی هذا المعنی. ۲- قال الرّسول الأكرم صلی الله علیه و آله، لإبن مسعود: «یابنَ مَسْعُودَ لا تُقَدِّمِ الذَّنْبَ وَلا تُؤَخِرِ التَّوبَةَ، وَلَكِنْ قَدِّمِ التَّوبَةَ وَأَخِّرِ الذَّنْبَ» «۵». ۳- وفی حدیثٍ آخر، قال الإمام علی علیه السلام: «مُسَوِّفُ نَفْسِهِ بِالتَّوبَةِ مِنْ هُجُومِ الأَجَلِ عَلَی أَعْظَمِ الخَطَرِ». «۶» الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۴ ۴- وقال الإمام الرضا علیه السلام نقلًا عن الرسول الأكرم صلی الله علیه و آله: «لَیسَ شَیءٌ أَحَبُّ إِلَی اللَّهِ مِنْ مُؤمِنٍ تائِبٍ أو مُؤمِنَةٍ تائِبَةٍ» «۱». و یمكن أن یكون هذا الحدیث دلیلًا علی وجوب التّوبة، لأنّها أحبّ الأشیاء إلی اللّه تعالی فی دائرة السّلوك البشری. مضافاً إلی ذلك، هناك دلیلٌ عقلی علی وجوب التّوبة، وهو أنّ العقل یحكم، بوجوب دفع الضّرر المحتمل أو المتیقن، و تحضیر وسائل للنجاة من العذاب الإلهی، و بما أنّ التّوبة هی أفضل وسیلةٍ للنجاة من العذاب، فلذلك یحكم العقل السلیم بوجوبها، فالعاصین أنّی لهم الخلاص، من العذاب الدّنیوی والاخروی، و لمّا یتوبوا بعد؟! نعم، فإنّ التّوبة واجبةٌ، بدلیل القرآن و الرّوایات و العقل، إضافةً إلی قبول المسلمین لها أجمع، وبناءً علیه فإنّ الأدلّة الأربعة تحكم بوجوب التّوبة، و وجوبها فوری، و قد تطرق علم الاصول لهذا الأمر، علی أساس أنّ الأوامر كلّها ظاهرةٌ فی الوجوب ما لم یثبت العكس.

۳- عمومیّة التوبة

لا تختص التّوبة بذنبٍ من الذنوب، أو شخص من الأشخاص، ولا تتحدّد بزمانٍ و لا مكانٍ و لا عمرٍ محدد. و علیه فإنّ التّوبة تشمل جمیع الذّنوب و تستوعب كلّ فردٍ فی أی مكانٍ أو زمانٍ كان، وإذا ما إحتوت علی كلّ الشّروط، فستُقبل من قبل البارئ تعالی، والإستثناء الوحید الذی لا تُقبل فیه التّوبة، والذی أشار إلی القرآن الكریم، هو: التّوبة عند حضور الموت، أو نزول العذاب الإلهی، (كما تاب فرعون فی آخر لَحَظات عمره)، فعندها لن تُقبل توبته، لأنّ التّوبة عندها لیست توبةً حقیقیّةً، و لا هی صادرةٌ من الشّخص من موقع الإختیار، فیقول البارئ تعالی: «وَلَیْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئَاتِ حَتَّی إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّی تُبْتُ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۵ الْآنَ وَلَا الَّذِینَ یَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِکَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِیماً» «۱». و نقرأ فی قصّة فرعون: عندما إنفلق البحر لموسی علیه السلام، و تبعه فرعون وجنوده، واغرق فرعون، فقال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِیلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِینَ» «۲». ولكنّه سمع الجواب مباشرةً، فقال تعالی: «أَلْآنَ وَقَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِینَ» «۳». وأمّا بالنسبة للأمم السّابقة، فقال تعالی: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِینَ». فأجابهم القرآن الكریم: «فَلَمْ یَكُ یَنْفَعُهُمْ إِیمَانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فی عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِکَ الْكَافِرُونَ» «۴» و كذلك بالنّسبة للحدود الإلهیّة، عندما یقع المجرم فی أیدی العدالة، فلن

تقبل توبته، لأنّه لم يتب واقعاً بل خوفاً من العقاب لا غير. فالتّوبة التی لا تقبل من البارى تعالى، هی التّوبة التی تخرج من شكلها الإختيارى فی مسيرة الإنسان. وقال البعض: توجد ثلاثة موارد اخرى لا تقبل فيها التوبة: الأول: «الشّرك»، حيث يقول القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» «۵». ولكن هذا الأمر يبتعد عن الصّواب و الصّحة، بل أنّ الآية لم تتكلم عن التّوبة، ولكنّها تحدثت عن العفو عن المشرك من دون توبةٍ، وإلّا فانّ كلّ الأشخاص قبل الإسلام، تابوا من الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۶ شركهم وقبلت توبتهم، و كذلك كلّ من يدخل فی الإسلام فی عصرنا الحاضر، فتوبته مقبولةٌ عند جميع علماء المسلمين، ولكن إذا مات المُشرك و هو على شِركه، فلن يتوب اللّه تعالى عليه، أمّا فی حالة أن يموت على التّوحيد، ولكنّه قد إرتكب ذنوباً فی سالف حياته، فمن الممكن أن يعفو عنه اللّه تعالى، وهذا ما نستوحيه من مفهوم الآية الكريمة. وخلاصة القول، أنّ المشركين لن يشملهم العفو الإلهی المنفتح على الخلق، بل هو للمؤمنين الموحّدين، و التّوبة تغفر كلّ الذنوب حتى الشّرك. ثانياً و ثالثاً: يجب أن تكون التّوبة مُباشرةً بعد الذنب، و لا تؤخّر إلى وقتٍ بعيدٍ، و كذلك يجب أن يكون إرتكاب الذنب عن جهالةٍ لا عن عنادٍ، و نقرأ فی الآية (۱۷) من سورة النساء: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً». والجدير بالملاحظة، أنّ كثيراً من المفسّرين، حملوا هذه الآية على التّوبة الكاملة، لأنّه من الطّبيعی، عندما يُذنب الإنسان من موقع العناد و الغىّ، ثم يتوجّه لحقيقة الحال، و يندم على أفعاله السّابقة، فإنّ البارى تعالى يتوب عليه، و قد حدّثنا التأريخ عن نماذج كثيرةً و أفراداً كانوا فی صفوف المُعاندين و الأعداء، ثم رجعوا عن غيّهم و تابوا، و عادوا إلى حضيرة الإيمان و الصّلاح. و من المعلوم حتماً، لو أنّ الإنسان أمضى عمره بالذّنوب و العصيان، ولكن تاب بعدها توبةً نصوحاً، و تحول من دائرة المعصية والإثم، إلى دائرة الطّاعة و الإيمان، فإنّ اللّه تعالى سيقبل توبته لا محالة. و نقرأ فی الحديث المشهور عن النبی الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّه قال: «مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِسَنَةٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَقَالَ: ألا وَسَنَةٌ كَثِيرَ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِشَهْرٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَقَالَ: شَهْرٌ كَثِيرٌ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِجُمْعَةٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، قَالَ: وَجُمْعَةٌ كَثيرٌ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ مَوتِهِ بِساعَةٍ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَ ساعَةٌ كَثِيرٌ، مَنْ تابَ إِلى اللَّهِ قَبْلَ أنْ يُغَرغِرَ بِالمَوتِ تابَ اللَّهُ عَلَيهِ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۷ و طبعاً القصد منه، التّوبة بجميع شرائطها، فمثلًا إذا كان فی عنقه حقوق الناس فعليه أن يوصی بها لمن هو بعده، ثم يتوب بعدها. و توجد آياتٌ كثيرةٌ، تدلّ على شمولية التوبة لجميع الذّنوب، و منها: ۱- نقرأ فی الآية (۵۳) من سورة الزمر: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». ۲- نقرأ فی الآية (۳۹) من سورة المائدة: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ۳- نقرأ فی الآية (۵۴) من سورة الأنعام: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ففی هذه الآية نرى، أنّ سوء العمل مطلقٌ و يشمل كلّ الذّنوب، و مع ذلك فلا تُحجب عنه التّوبة و طريق العودة. ۴- نقرأ فی الآية (۱۳۵) من سورة آل عمران: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». و هنا الظّلم أيضاً يشمل جميع الذنوب، لأنّ الظلم مرّة يقع على الغير و اخرى على النفس، ووعدت هذه الآية، جميع المذنبين بالتّوبة عن جميع ذنوبهم و آثامهم، فی أطار الذّكر و الإستغفار. ۵- نقرأ فی الآية (۳۱) من سورة النّور، حيث خاطبت جميع المؤمنين: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». فكلمة «جميعاً» تدعو جميع المذنبين للتوبة، و لولا شموليّة و عموميّة التّوبة، لما صحّت هذه الدّعوة القرآنية. و الجدير بالملاحظة، أنّ الآيات المذكورة آنفاً، مرّةً تؤكّد على الإسراف، و اخرى على الظّلم، و مرّةً على سوء العمل، والوعد الإلهی بالمغفرة لجميع هذه العناوين، فی حال إنضوائها الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۸ تحت عنوان التّوبة، عن كل سوءٍ و ظلم و إسرافٍ يقترفه الإنسان ويتوب منه، فإنّ اللّه تعالى سيتوب عليه. و وردت رواياتٌ كثيرةٌ فی هذا المجال، فی مصادر الفريقين، السّنة و الشّيعة، وأنّ باب التّوبة مفتوح حتى اللّحظات الأخيرة من العُمر، ما لم يرى الإنسان الموت بعينه. و يمكن الرجوع إلى الرّوايات فی كتبٍ، مثل: بحار الأنوار «۱»، واصول الكافی «۲»، و الدرّ المنثور «۳»، و كنز العمّال «۴»، وتفسير الفخر الرازى «۵»، و تفسير القُرطبی «۶»، و تفسير روح البيان

«۷»، و تفسیر روح المعانی «۸». وکتب اخری، ویمکن القول أنّ هذا الحدیث هو من الأحادیث المتواترة.

۴- أرکان التّوبة

کما نعلم، أنّ حقیقة التّوبة هو الرّجوع إلی ساحة الباری تعالی، و الإقلاع عن العِصیان، فی ما لو کان ناشئاً من النّدم علی ما سبق من الأعمال السّیئة، و لازم النّدم هو العلم بأنّ الذنب یحیل بین المذنب والمحبوب الحقیقی، ویترتب علیه العزم و التّصمیم علی عَدم العودة، و علی التّحرک لجبران ما فات، و محو آثار الذنوب السّابقة من باطن وجوده وخارجه، و یتحرّک کذلک فی دائرة إعادة الحقوق الباقیة فی ذمّته، وأکّد القرآن الکریم، فی کثیر من الآیات علی هذا المعنی، و جعل التّوبة مقارنةً للإصلاح: ۱- الآیة (۱۶۰) من سورة البقرة، و بعد الإشارة إلی ذنب کتمان الآیات الإلهیّة و العقاب الذی یترتب علی ذلک قالت: «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَیَّنُوا فَأُوْلَئِکَ أَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِیمُ». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۱۹۹ ۲- الآیة (۸۹) من سورة آل عمران، و بعد إشارتها لمسألة الإرتداد و عقابها، یقول تعالی: «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِکَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» ۳- الآیة (۱۴۶) من سورة النساء، وبعد إشارتها للمنافقین، و عاقبة أمرهم السّیئة، تذکر: «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلَّهِ». ۴- و فی الآیة (۵) من سورة النّور، و بعد ذکرها للعقوبة الشّدیدة المترتّبة علی القَذف، فی الدنیا و الآخرة، ذکرت: «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِکَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ». ۵- وبالتالی نری عنصر التّوبة، بمثابة قانون کلّی یستوعب فی نطاقه جمیع الذّنوب، فقال تعالی فی الآیة (۱۱۹) من سورة النحل: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِکَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ». ۶- ورد شبیه لهذا المعنی، فی الآیة (۸۲) من سورة طه: «وَإِنِّی لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَی». و أشارت الآیة الکریمة هنا، بالإضافة إلی رُکنی التّوبة الأساسیّین، و هما: العودة إلی اللّه، والعمل الصالح، و جُبران الماضی، ذکرت مسألة الإیمان والهدایة. و الحقیقة أنّ الذنوب تقلل نور الإیمان فی قلب الإنسان، و تحرفه عن الطّریق، و علیه فإنّه بالتّوبة یجدّد إیمانه و هدایته، فی نطاق إصلاح الباطن. ۷- و ورد فی سورة الأنعام، الآیة (۴۵)، معنی مشابه أیضاً: «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْکُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ». و ممّا ذکر من الآیات الآنفة، تتضح لنا مسألة التّوبة بصورةٍ کاملةٍ، فالتّوبة الحقیقیّةُ لیست بلفظ الإستغفار وحده، و النّدم علی ما مضی، و الإقلاع عنه فی المستقبل، بل تتعدّی إلی دائرة الإنفتاح علی العمل، لإصلاح کلّ التّقصیرات و المفاسد الّتی صدرت منه فی السّالف، و محو آثارها من نفسه و ورحه و من المجتمع، لتحصیل الطّهارة الکاملة فی واقع الإنسان والحیاة، وطبعاً بالقدر الممکن. فهذه هی التّوبة الحقیقیّة، ولیس الإستغفار وحده!. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۰ و الجدیر بالذّکر أنّ کلمة «الإصلاح»، ورد ذکرها دائماً بعد ذکر التّوبة، کالآیات الآنفة الذّکر، و معناها واسعٌ یشمل کلّ ما فات، من قصورٍ و تقصیرٍ یُبعد الإنسان عن خطّ الإیمان، ومنها: ۱- التّائب یجب أن یُؤدّی جمیع الحقوق لُمستحقیها، فإنّ کانوا أحیاء فَبِها، و إلّافلورثتهم. ۲- إذا کان قد تعامل مع الآخرین، من موقع الإهانة و الغیبة، و غیرها من الامور السلبیة فی دائرة السلوک، فیجب علیه طلب الحلیة منهَ ورَدّ إعتباره مادام الآخر یعیش فی هذه الدنیا، وإن کان قد وافاه الأجل، فعلیه أن یتحرّک علی مستوی إرسال الثّواب لروحه، کی ترضی ۳- أن یَقْضی ما فاته من العبادات: کالصّلاة و الصّیام و دفع الکفارات. ۴- نعلم أنّ ممارسة الخطیئة والوقوع فی منحدر الذنوب، یُظلم الرّوح و یسوّد القلب، فعلی التّائب السّعی لتنویر قلبه بالطّاعة و العّبادة، لتنفتح روحه علی اللّه تعالی، فی أجواء الإیمان. و أفضل و أکمل تفسیر ورد لمعنی الإستغفار، هو ما ورد عن أمیر المؤمنین علیه السلام، فی کلماته القصار فی نهج البلاغة: قال علیه السلام لقائلٍ قال بحضرته: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»- وکان الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام یعرف سوابقه و أعماله- «ثَکَلَتْکَ اُمُّکَ أَتَدری مَا الاسْتِغْفارُ؟ الإسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ العِلِّیینَ، وَهَوَ إسمٌ وَاقِعٌ عَلَی سِتَّةِ مَعانٍ». أَوَّلُها النَّدمُ عَلی مَا مَضی والثَّانِی العَزْمُ عَلَی تَرْکِ العَودِ إلَیهِ أَبَداً. والثَّالِثُ أنْ تُؤَدِّی إلَی المَخْلُوقِینَ حُقُوقَهُم حَتَّی تَلقَی اللَّهَ أَمْلَسَ لَیسَ عَلَیکَ تَبِعَةٌ. الرّابِعُ أنْ تَعْمِدَ إلَی کُلِّ فَرِیضَةٍ عَلَیکَ ضَیَّعْتَها فَتُؤَدِّیَ حَقَّها. الخَامِسَ أنْ تَعْمِدَ إلَی اللَّحْمِ الَّذِی نَبَتَ عَلی السُّحْتِ فَتُذِیبَهُ بِالأحزَانِ حَتَّی تُلْصِقَ الجِلْدَ بِالعَظمِ، وَیَنْشَأَ بَینَهُما لَحْمٌ جَدِیدٌ.

و السَّادِسَ أن تُذِيقَ الجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ المَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۱ ونقل نفس هذا المعنی فی و روایةٍ اخری، عن کمیل بن زیاد عن أمیر المؤمنین علیه السلام، فقال: یا أَمِيرَ المؤمنین العَبْدُ يُصِيبُ الذَّنْبَ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ فَما حِدُّ الإستِغْفارِ؟ فقال الإمام علیه السلام: «یا ابْنَ زِيادٍ التَّوبَةُ». قلت: بَسْ. قال علیه السلام: «لا». قلت: فَكَيفَ؟ قال علیه السلام: «إنَّ العَبْدَ إذا أَصابَ ذَنْباً يَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِالتَّحْرِيكِ». قلت: وَما التَّحْرِيكُ؟. قال علیه السلام: «الشَّفَتَانِ وَاللِّسانِ يُرِيدُ أَنْ يَتْبَعَ ذَلِكَ بِالحَقِيقَةِ». قلت: وَ ما الحَقِيقَةُ؟. قال علیه السلام: «تَصْدِيق فِی القَلْبِ وَإِضْمارُ أَنْ لا يَعُودَ إلَى الذَّنْبِ الَّذِی اسْتَغْفَرَ مِنْهُ». فقلت: «فإذا فَعَلَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ المُسْتَغْفِرِينَ». قال علیه السلام: «لا». فقال کمیل رحمه الله، قلت: فَكَيفَ ذاكَ. فقال الإمام علیه السلام: «لِأَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ إلَى الأَصْلِ بَعْدُ». فقال کمیل رحمه الله: فَأَصْلِ الإسْتِغْفارِ ما هُوَ؟. فقال الإمام علیه السلام: «الرُّجُوعُ إلَى التَّوبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذی إسْتَغْفَرْتَ مِنْهُ وَهِیَ أَوَّلُ دَرَجَةِ العابِدِينَ». ثم قال الإمام علیه السلام: «وَ تَرکُ الذَّنْبِ والإستِغفارِ اسمٌ وَاقِعٌ لِمعانٍ سِتّ». ثم ذکر نفس المراحل السّتة، المذکورة فی قصار الکلمات لنهج البلاغة، مع قلیلٍ من الاختلاف «۱». و یمکن أن یقال: إنّ التّوبة إذا کانت کما ذکرها أمیر المؤمنین علیه السلام، فلن یوجد تائب حقیقی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۲ أبداً. ولکن یجب التّنبّهُ إلی أنّ بعض الشروط السّتة، هی فی الحقیقة من کمال التّوبة، کما فی الشّرط الخامس و السّادس، أمّا الشّروط الأربعة الاخری، فهی من الشّروط الواجبة و اللّازمة، أو کما یقول بعض المحقّقین: إنّ القسم الأول، و الثّانی من أرکان التّوبة، و الثّالث و الرابع هما من الشروط اللّازمة، و الخامس و السّادس من شروط الکمال «۱». وجاء فی حدیثٍ آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «أمّا عَلامَةُ التَّائِبِ فَأَرْبَعَةٌ: النَّصِيحةُ للَّهِ فِی عَمَلِهِ وَتَرکُ الباطِلِ وَلُزُومِ الحَقِّ وَالحِرصُ عَلَى الخَيْرِ» «۲». ویجب الإنتباه، أنّ الذّنب إذا تسبّب فی إضلال الآخرین، مثل الدّعایة المضلّة، و البدعة فی الدّین، سواء کان عن طریق البیان، أو عن طریق الکتابة، فیجب علیه إرشاد الضّالین بالقدر الّذی یستطیع، وإلّا فلن تُقبل توبته. و منه یتّضح صعوبة سلوک طریق التوبة، بالنّسبة إلی المحرّفین للآیات الإلهیّة، و المُبتَدِعین فی دین اللّه تعالی، و الذین یتحرّکون علی مستوی إضلال الناس، و سوقهم إلی الإنحراف. فلیس من الصحیح، أن یُضلّ شخصٌ عدداً غفیراً من النّاس، فی الملأ العام، أو بکتاباته ومقالاته، ثمّ یجلس فی زاویة البیت، و یستغفر اللّه تعالی لیعفو عنه، فمثل هذه التّوبة، لن تُقبلَ أبداً. و کذلک الذی یهتک حرمة أحد الأشخاص أمام الملأ، ثم یستحلّ منه علی إنفراد، أو یتوب فی خَلوته، فلن تُقبل مثل هذه التّوبة، ما لم یرد إعتبار ذلک الشخص، أمام الملأ العام. و بناءً علی هذا، فإنّنا نقرأ فی الرّوایات عن أشخاصٍ هَتکوا حُرمة الغیر، و اجری علیهم الحَد، فإنّ توبتهم لن تقبل، إلّاإذا رجعوا عن غیّهم وکلامهم. و قد ورد فی حدیث مُعتبر، عن الإمام الصادق علیه السلام، قال الرّاوی: سألت أبا عبداللّه علیه السلام عن المحدود إذا تاب، أتقبل شهادته؟، فقال: «إذا تابَ وَتَوبَتُهُ أَنْ يَرْجَعَ مِمّا قالَ وَيُكَذِّبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الإمامِ وَ عِنْدَ المُسْلِمِينَ، فإذا فَعَلَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۳ فَإنَّ عَلَى الإمامِ أَنْ يَقْبَلَ شَهادَتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ»». وَ وَرد فی حدیثٍ آخر: «أَوصی اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إلی نَبِیٍّ مِنَ الأنبیاءِ، قُلْ لِفُلانَ وَعِزَّتِی لَو دَعَوتَنِی حَتّی تَنْقَطِعَ أَوصالُكَ، ما اسْتَجَبْتُ لَكَ، حَتّی تَرَدَ مَنْ ماتَ إلی ما دَعَوتَهُ إلِيهِ فَيَرْجَعَ عَنْهُ» «۲». فهذا الحدیث یبیّن أهمیّة مسألة الإصلاح، و السّعی لجبران الخلل من موقع التّوبة، و إلی أیّ حدٍّ یمتد فی آفاق الممارسة العملیّة، و بدون ذلک ستکون التّوبة صوریّة أو مقطعیّة. و آخر ما یمکن أن یقال فی هذا المجال، أنّ من یقنع من الإستغفار بالإسم، مُقابل کثرة الذّنوب و المعاصی، ولا یسعی فی تحصیل أرکانه و شروطه، فکأنّه قد إستهزأ بنفسه، و بالتّوبة و بالإستغفار. و فی ذلک یقول الإمام الباقر علیه السلام: «التّائِبُ مِنَ الذَّنبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لِهُ، وَالمُقِيمُ عَلَى الذَّنْبِ وَهُوَ مُسْتَغْفِرٌ مِنْهُ كالمُستَهزِیء» «۳».

۵- قبول التوبة: هل هو عقلی أم نقلی؟

إتّفق علماء الأخلاق أنّ التّوبة الجامعة للشّرائط، مقبولة عند اللّه تعالی، و یدل علی ذلک الآیات و الرّوایات، ولکن یوجد نقاش حول قبول التّوبة، هل هو عَقلی أم عقلائی، أم نَقلی؟. و یعتقد جماعة، أنّ سقوط العقاب الإلهی، هو تفضل من الباری تعالی، فبعد تحقق

التّوبـة من العبـد، يمكن للبـارى تعـالى أن يتوب على عبـده ويغفر له، أو لا ـ يغفر له، كمـا هو المُتعـارف بين النّـاس، عنـدما يقوم أحد الأشـخاص بظلم الغَير، فِللمظلوم أن يغفر له، أو لا يعفو عنه. و ترى جماعـةٌ اخرى، أنّ العقاب يسـقط حتماً بعد التّوبة، وعدم قبول عُذر المجرم، من اللّه الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۴ تعالى، بعيـدٌ و قبيحٌ، و لا يصدر منه تعالى. و هنا يمكن قبول رأى ثالث، وهو أنّ قبول التّوبـة أمر عقلاـئى، يعنى أنّ العقـل وإن لم يوجب قبول التّوبـة و العُـذر، ولكنّ بنـاءَ العُقلاء فى العالم كلّه، مبنىٌّ على قبول عـذر الخاطىء، و إقالة عثرته، إذا ما عاد عن غَيّه، و أصلح أعماله السّيئة، و جَبر ما كسره، و أرضى خصمائه بطرقٍ مختِلفَةٍ، فهذا الموقف هو بنـاء العقلاـء فى العـالم أجمع، فلو أصـرّ شـخص على نفى هـذا المبـدأ العقلائى، ولم يقبله فى سـلوكه إتجّاه المُعتـذر، فسيعتبر حقوداً وخارجـاً عن موازين الإنسانيـة والأخلاـق. و لا شك أنّ اللّه تعالى، و هو القادر و الغنى عن العالمين، أَوْلى وأجـدر من عباده بالعفو و المغفرة، و قبول عـذر التائب، و عـدم إنزال العقاب عليه. و يمكن القول بأكثر من ذلك، و هو وجوب قبول التّوبـة، لـدى العقل الـذى يعتمد على قاعدة: «قُبح نَقض الغَرض». و توضيـح ذلك: نحن نعلم أنّ البارى تعالى، غنىٌّ عن عباده وطاعة العالمين، وإن كلّفنا بشـىءٍ فهو لطفٌ منه، للسير فى خطّ التّكامل و التّربية، فالصّلاة و الصّيام تُربّى النّفس و تُقرّب الإنسان من اللّه تعالى، وكذلك سائر الواجبات، فلهـا قِسـطٌ فى عمليّـة التّكامـل الإنسانى. فنقرأ عن الحـج: «لِيَشْـهَدُوا مَنافِعَ لَهُم» «۱». و نقرأ فى الآيـات الاـخرى، أنّ الصّـ لاة تنهى عن الفحشاء والمنكر «۲»، و الصّوم سبب للتّقوى «۳»، و الزّكاة لتطهير الأفراد والمجتمع من الرذائل الأخلاقيّـة و الإنحرافات «۴». و إعتبرت الرّوايات الإيمان، سـبباً للطهارة من الشّـرك، و الصّلاة لِدرء الكِبَر عن الإنسان، و الحجّ سبباً لوحدة المسلمين، و الجهاد لِعزّة المسلمين .... «۵» و عليه فإنّ كلّ التّكاليف الإلهيّة، هى من أسـباب سعادة الإنسان، و تكامله فى خط الإيمان الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۵ و الحقّ و التّكامل، هذا هو الهدف الأصـلى للإنسان، فى دائرة الوصول لمرتبة القرب الإلهى، و العبودية الحقّة، قال البارى تعالى: «وَ ما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّالِيَعْبُـدُونِ» «۱». و لاـ شـك فـإنّ وجوب التّوبـة، و قبولها من قبل البارى تعالى، يشـكّل إحـدى حلقات التّكامل المعنوى للإنسـان، لأـنّ الإنسـان من طبيعته الخطأ، فإذا أوصـد البـاب دونه، فلن يتكامل أبـداً. و إذا ما احيط الإنسان علماً بالتّوبـة، و أنّ البارى فتح الباب أمامه بشـرط إصـلاح ما مضـى، فمثل هذا الإنسان يكون أقرب للسّعادة و التّكامل، ويبتعد عن الإنحراف و الخطأ فى مسـيرة الحياة. و النّتيجـة: أنّ عـدم قبول التّوبة يؤدى إلى نقض الغرض، لأنّ الهدف من التّكاليف و الطّاعة، هو تربية و تكامل الإنسان، وعدم قبولها لا ينسـجم مع هذا الغرض، ومن البعيد عقلًا على الحكيم، أن ينقض غرضه. و على كلّ حال، فإنّ التّوبة و قبولها لها علاقةٌ وثيقـةٌ بالتّكامل الإنسانى، و بـدونها سـينتفى الـدّافع و القصـد للتّكامل، و سـيكون الإنسان فى غايـة اليأس من النّجاة، مما يشـجعه على الّتمادى فى إرتكاب المعاصى و مُمارسة الجريمة، و لذلك فإنّ كلّ المربّين، سواء كانوا إلهيين أم ماديّين، يؤكّدون على مسألة التّوبة، و يجعلون الطّريق مفتوحـاً دائمـاً أمام الخاطئين، كَى يُحرّكوا فيهم روح الأنابـة، و دافع الإصـلاح والحركـة نحو الكمال المُطلق. و عليه فإنّ التوبة بشرائطها، لم تحكم بها الآيات و الرّوايات فقط، بل هى ثابتة بحكم العقل و سيرة العُقلاء، و هذا أمرٌ لا يمكن تجاهله البتّة.

۶- التّبعيض فى التّوبة

هل يمكن للإنسان أن يقيم على بعض الذّنوب، و يتوبَ عن البعض الآخر؟؛ فمثلًا إذا كان يشربُ الخَمر و يغتابُ الناس، فهل يصحّ منه الإقلاع عن الخمر فقط، بينما يسـتمر فى خط الغِيبة؟ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۰۶ يقول البعض: إنّ التّوبة يجب أن تكون شاملةً لكلّ الذّنوب، لأنّ المسألة تعود إلى عِصـيان البارى تعالى، وَهَتك حُرمته، فالنّادم يجب أن يترك كلّ الذّنوب، لا أنّ يُصِرّ عليها. لكن هـذا الكلام مُجانب للصواب، حيث يمكن القول بصـحّة التّجزئة فى عمليّة التّوبة، (و صـرّح بها بعض العلماء، مثل المرحوم النّراقى فى «معراج السـعادة»، و قد نقلها عن أبيه رحمه الله)، لأنّه ربّما يكون الإنسان، على إطّلاعٍ كاملٍ على آثار بعض الذّنوب وَ عَواقبها السّـيئة، أو هو عند اللّه أشدّ وأقبح، ولأجل ذلك فإنّه يتركه على مستوى الممارسة و يتوب منه، أمّا بالنّسبة للذنوب التى هى أقلّ قُبحاً، أو أقل عِقاباً، أو لأنّ علمه بها و إطلاعه على ما يترتب عليها من المفاسد، ليس كافياً بالدّرجة التى تردعه عنه، فإنّه يسـتمر فى ممارستها. فأكثر

التائبین هم کذلک، فغالباً ما یقلعون عن بعض الذّنوب، و یبقون علی البَعض، ولم یردنا شیءٌ من قبل الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أو الأئمّة الأطهار علیهم السلام، أو علماء الإسلام، ینفی قبول مثل هذه التوبة، ویؤکّد علی التوبة الکاملة الشاملة لکلّ الذنوب التی یرتکبها الإنسان. و نری فی الآیات الشّریفة، إشارات واضحة علی معنی التّجزئة فی التّوبة، و صحّة القول بالتّفکیک، فمثلًا بالنّسبة للمُرابین، یقول تعالی «وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَکُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِکُمْ» «۱». و بالنّسبة للمرتدین بعد الإیمان، یقول تعالی «أُوْلَئِکَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَیْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِکَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِینَ ... إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِکَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» «۲». و بالنّسبة للمحاربین والمتسبّبین فی ضَلال الناس و المجتمع، فبعد ذکر ما یستحقون من العِقاب الشّدید، یقول تعالی «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» «۳». و أمّا بالنّسبة للأعمال المنافیة للعفّة، فیقول تعالی «فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ کَانَ تَوَّاباً رَحِیماً» «۴». و فی مکان آخر أشار إلی الذّنوب، مثل: الشّرک، و قتل النفس، و الزنا، و عقوباتها، فقال: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۷ «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُوْلَئِکَ یُبَدِّلُ اللَّهُ سَیِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ» «۱». ورغم أنّ بعض الآیات، تناولت بعض العقوبات الدنیویّة، و العفو عنها بالتّوبة، لکنّ الحقیقة أنّه لا یوجد فرق من هذا اللحاظ، فإذا ما غفرت فی الدنیا فستغفر فی الآخرة قطعاً. و الخُلاصة: أنّه لا یوجد مانعٌ من التّفکیک و التّفریق، بین الذّنوب من جهاتها المَختلفة، مثل: (الفرق فی میزان المعلومات، الدّوافع، و قُبح الذّنوب)، ولکنّ التّوبة الکاملة الشّاملة، هی التّوبة التی تستوعب جمیع الذنوب، بدون التّفریق بینها فی خطّ العودة إلی اللّه تعالی.

۷- دوام التّوبة

التّوبة یجب أن تکون مستمرةً و دائمةً، هذا من جهةٍ، فعندما یُخطیء الإنسان إثر وساوسه النّفسیة «النّفس الأمّارة»، علیه أن یُقدِم علی التّوبة لتدخل فی مرحلة: «النّفس اللّوامة»، و بعدها تصل إلی مرحلة: «النّفس المطمئنة»، لتقلع جذور الوَساوس من أساسها. و من جهةٍ اخری: و بعد توبته من الذنب، علیه أن یُراقب نفسه بإستمرار، و لیحذر من نقض العهد مع البارئ تعالی، فی المستقبل أو بعبارة اخری: إذا وجد فی نفسه بقایا لِلمیل إلی الذّنب، و الرّغبة فی الإثم، علیه أن یُجاهد نفسه، و یتحرک فی مجال تهذیبها من هذه الشّوائب، لیکونَ فی صفّ التّائبین و المُجاهدین. بعضَ علماء الأخلاق، تطرّقوا لبحوثٍ لا طائل لها، و هوَ هلْ: مقام التائب و مجاهدته و ممارسته لعناصر الذّنوب فی الخارج أفضل، أم التّائب الذی یقلع جذور الذّنب من قلبه «۲»؟ ولیس من المُهم الأفضلیّة، بل المُهم هو العمل علی تکریس حالة الإنضباط، فی جو المسؤولیّة و عدم العودة لممارسة الذّنب، و لرعایة هذا الأمر یتوجب اتّباع امور، منها: ۱- الابتعاد عن أجواء الذّنب، و عدم مُجالسة أهل المعاصی، لأنّ التّائب یکون فی البدایة ضعیف القلب جداً، کالمریض فی بدایةُ شفائه من مرضه، فأدنی شیء، بإمکانه أن یثیر فی نفسه الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۸ مشاعر الخطیئة، بالمستوی الذی یشلّ فیه إرادة الصّمود، و یحوله إلی کیانٍ مهزوزٍ، أمام حالات المرض، و یُشدّده علیه، و کالمُعتاد علی الأفیون، التّارک له للتَوِّ أیضاً، یتأثر بالأجواء الملوّثة بسرعةٍ. ۲- علیه هجر أصدقاء السّوء، و تجدید النّظر فی علاقته معهم، و الفرار منهم کالفرار من الوحوش الضّاریة. ۳- فی حالات وقوعه فی دائرة وسوسة الشّیطان، یشتغل بذکر اللّه تعالی: «أَلَا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» «۱». ۴- لِیفکر دائماً بالذّنب الّذی تاب منه، و إفرازاته، و یجعلها نصب عینه، لِئلا یغفل و ینسی مضرّاته، وإلّا ستهجم علیه الوَساوسُ و الدّوافعُ لإیقاعه فی هُوّةِ الخطیئة مرّةً اخری. ۵- لِیتّعظ بقصص الماضین و السّابقین و من وقعوا فی المَهالک، جرّاء معاصیهم، و حتّی الأنبیاء المعصومین، و لترکهم الأوْلی أحیاناً، مثلًا، یُفکّر فی قصّة آدم علیه السلام، و السّبب الّذی أدّی إلی خسرانه، ذلک المُقام السّامی و طَرده من الجنّة، أو حکایة یونس النّبی علیه السلام، الذی حُبس فی بَطن الحوت، و یَعقوب الّذی ابتلی بفراق ولده. فکلّ ذلک یؤثر إیجابیاً، فی تفعیل عناصر الإرادة و الصّمود، فی خطّ الإیمان و الإنفتاح علی اللّه تعالی. ۶- التّفکیر بالعقوبات التی وضعها البارئ للعاصین، ولیجعل هذه الحقیقة أمام عینه دائماً، وهی أنّ معاودته لإرتکاب الذّنوب، یمکن أن یؤدی به إلی إستحقاق عقوبةٍ أشدّ وأقوی. و فی المقابل، لیفکر برحمة اللّه تعالی و لُطفه، و هو اللّطیف الخبیر الغفور، فرحمته بإنتظار التّوابین العائدین إلی خطّ الإستقامة و الإیمان، و لیُحدّث نفسه بعدم تضییع هذا

المقام، الذی وصل إلیه بعد تعبٍ و عناءٍ، فی واقع العمل و المُثابرة. ۷- لیشغل وقته بالبرامج الصّحیحة السّلیمة، و التمّتع بغیر المُحرّم، و لا یدع فراغاً فی أوقاته، یفضی به أن یعیش التّخبط فی الوَساوس الشّیطانیة مرّةً اخری. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۰۹ و قد سُئل أحد العُلماء، عن قوله صلی الله علیه و آله: «التّائِبُ حَبِیبُ اللَّهِ»، فقال: إنّما یکون التّائب حبیباً إذا کان فیه جمیع ما ذکره فی قوله تعالی: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاکِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنْ الْمُنکَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِینَ» «۱».

۸- مراتب التّوبة

ذکر علماء الأخلاق، درجات و مراتب مختلفة للتّوبة و التّائبین. و یمکن تقسیم التّائبین من جهةٍ، إلی أربعة أقسام: القسم الأوّل: اولئک التّائِبون الذین لا یقلعون عن الذنوب، ولا یتأسفون علی ما فعلوا، حیث وقفوا عند مرحلة النّفس الأمّارة، وعاقبتهم غیر معلومةٍ أصلًا، فَمِن المُمکن أن یعیش حالةَ التّوبة فی آخر أیّام حیاته، و تکون عاقبته الحُسنی، ولکنّ الطامّة الکبری، عندما یتفق موتهم مع معاودتهم للذنب، وهناک ستکون عاقبتهم السّوآی، و فیها الخُسران الأبدی. القسم الثانی: التّائبون بحق الّذین یستمرون فی طریق الحقّ و الطّاعة، و یتحرّکون فی خطّ الإستقامة، ولکن الشّهوات تغلبهم أحیاناً، فیکسرون طوق التّوبة، و یرتکبون بعض الذّنوب، من موقع الشّعور بالضّعف أمامها، ولکنّهم لا یقعون فی هذا الخطأ، من موقع التّمرد و الجُحود و العِناد، علی وعی الموقف، بل من موقع الغفلة و الإندفاع العفوی فی حالات الضّعف، الّتی تفرزها حالات الصّراع مع النّفس الأمّارة، و لهذا یحدثون أنفسهم بالتّوبة من قریب، هؤلاء الأشخاص وصلوا إلی مرحلة النّفس اللّوامة، و الأمل بنجاتهم أقوی. القسم الثّالث: التوّابون الذین یجتنبون کَبائِر الإثم، و یتمسّکون باصول الطّاعات، ولکنهم قد یقعون فی حبائل المعصیة، لا عن قصدٍ و عمدٍ، ولذلک یتوبون مباشرةً عن الذّنب، فیلومون أنفسهم و یعزمون علی التّوبة والعودة إلی خطّ الإستقامة بإستمرار، و یعیشون حالة الإبتعاد عن الذّنب دائماً. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۰ النّفس اللّوامة لهذه المجموعة، مهیمنةٌ علیهم، و یعیشون علی مقربةٍ من النّفس المُطمئنّة، و الأمل بنجاتهم أکبر. القسم الرابع: التّوابون بعزمٍ و قوةٍ إرادة، فی طریق الطّاعة للّه‌تعالی، فلا تهزّهم العَواصف التی تفرضها حالات الصّراع مع الخَطیئة، و لا یخرجون من أجواء التّقوی، صحیح أنّهم لیسوا بمعصومین، و لَرُبّما فکّروا بالمعصیة، ولکنّهم محصّنین مُبعدین عنها، فَقِوی الإیمان و العقل عندهم، سَلبت هوی النّفس فاعلیّته فی واقعهم الباطنی، و کبّلته بالسّلاسل الغلاظ، فی خطّ التّزکیة و الجهاد الأکبر، فلا سبیل للشّیطان و الأهواء علیهم. فاولئک هم أصحاب: «النّفوس المطمئنّة»، الذین نعتتهم الآیات (۲۷ الی ۳۰) من سورة الفَجر، و خُوطِبوا بأبلغ خِطابٍ، فقال عز من قائل: «یا أَیَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ آرجِعِی إِلَی رَبِّکِ راضِیَةً مَرْضِیَّةً». فدخلت بإفتخارٍ فی أجواء النّور و القُرب الإلهی: «فَآدْخُلِی فِی عِبادِی و آدْخُلی جَنَّتِی». و من جهةٍ اخری، فإنّ لِلتوبةِ مراحل علی مستوی المصادیق أیضاً: المرحلة الاولی: التّوبة من الکفر إلی الإیمان. المرحلة الثّانیة: التّوبة من الإیمان الموروث التّقلیدی، و التّحرک نحو الإیمان الحقیقی المُستحکم. المرحلة الثّالثة: التّوبة من الذّنوب الکبیرة الخَطرة. المرحلة الرّابعة: التّوبة من الذّنوب الصّغیرة. المرحلة الخامسة: التّوبة من التّفکیر بالذّنب، و الخواطر المشوبة بالمعصیة، و إن لم یرتکب المُخالفة فی دائرة الفعل و المُمارسة. فکلّ فرقةٍ من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبیاء من إضطراب السّر، (فی کلّ لحظةٍ لم یتوجهوا فیها إلی اللّه تعالی بالباطن والسّر). و توبةُ الأصفیاء من کلّ تنفّس بغیر ذکر اللّه «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۱ و توبةُ الأولیاء من تلوین الخطرات. و الخَواص من الإشتغال بغیر اللّه. و توبة العوام من الذّنوب. و کلّ واحدٍ منهم، یشتمل علی نوعٍ من المعرفة و العلم، فی أصل توبته، و مُنتهی أمره «۱».

۹- معطیات و برکات التّوبة

إذا كانت التّوبة توبةً حقيقيةً و واقعيةً و نابعةً من الأعماق، فلابدّ من أن تقع مورد القَبول من قبل اللّه تعالى، العَفوّ الغَفور، و ستنشر خيرها بركاتها على صاحبها فی حركة الحياة، و تُغطّی على ما صدر منه من معاصی، أدّت به إلى السّقوط فی منحدر الضّلال و الزّيغ. مثل هذا الإنسان، يعيش أجواء الحَذر الدّائم من مجالس السّوء و العصيان، و من كلِّ عوامل الذّنب و الوساوس، و التّداعيات الاخرى، الّتی توقعه فی و حلّ المعصية مرّةً اخرى. و يعيش حالة الخجل و النّدم، و يدأب بإستمرار لتحصيل رضا اللّه تعالى، و جبران ما فاته من الطّاعات. هذه هی العلاقات الفارقة لهم، عن المتظاهرين والمرائين. قال قسم من المفسّرين، فی معرض تفسيرهم للآية الشّريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً» «۲». قالوا: إنّ المراد من التّوبة النّصوح، هی تلك التّوبة التی تفعّل فی الإنسان عناصر الخير من موقع النّصيحة، و تتجلى فی روح التّائب على مستوى حثها له، للقضاء على جذور العصيان فی باطنه، قضاءً تامّاً بلا رجعةٍ بعدها. و فسّرها قسم آخر، بالتّوبة الخالصة، و قال آخرون إنّ: «النّصوح» من مادّة «النّصاحة»، و هی بمعنى الخِياطة و التّرقيع، لما حدث من تمزيق، وبما أنّ الذّنوب: الإيمان والدّين فتقوم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۲ التّوبة بتوصيلها ببعض، و تعيد التّائب إلى حضيرة الأولياء، كما تجمع الخياطة بين قطع الثّوب «۱». إنّ بركات و فوائد التّوبة جمّةٌ لا تُحصى، و قد أشارت إليها الرّوايات والآيات العديدة، و منها: ۱- تمحو و تُفنی الذّنوب، كما ورد فی ذيل الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً»، ورد «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» «۲». ۲- تمنح التّوائب بركات الأرض و السّماء، كما ورد فی الآيات (۱۰ و ۱۱ و ۱۲) من سورة نوح عليه السلام: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً». ۳- تبدل التّوبة السّيئات حسنات، كما ورد فی سورة الفرقان الآية (۷۰): «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ». ۴- يتعامل اللّه مع هذا الإنسان، من موقع السّتر على الذّنوب، و ينسى الملائكة الكاتبين ذنبه، و يأمر أعضاء بدنه بالستر عليه يوم القيامة، و كتمان أمره، فقد ورد فی الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا تابَ العَبْدُ تَوبَةً نَصُوحاً أَحَبَّهُ اللَّهُ وَسَتَرَ عَلَيهِ فِی الدُّنيا وَالآخِرَةِ»، فَقُلْتُ: وَكَيفَ يَستُرُ؟ قَالَ: «يُنْسِی مَلَكَيهِ ما كَتَبا عَلَيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَ يُوحِی إِلَى جَوَارِحِهِ: اكْتُمِی عَلَيهِ ذُنُوبَهُ، وَيُوحِی إِلى بِقاعِ الأَرْضِ: اكْتُمِی ما يَعْمَلُ عَلَيكَ مِنَ الذُّنُوبِ، فَيَلْقَى اللَّهَ حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيسَ عَلَيهِ شَیءٌ يَشْهَدُ عَلَيهِ بِشَیءٍ مِنَ الذُّنُوبِ» «۳». ۵- التّائب الحقيقی، يُحبّه اللّه تعالى، لدرجةٍ أن ورد فی الحديث: «إنّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَعطَى التّائِبِينَ ثَلاثَ خِصالٍ، لَو أَعطى خِصْلَةً مِنْها جَمِيعَ أَهْلِ السَّمواتِ والأَرضَ لَنَجَوا بِها». و بعدها يشير إلى الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۳ و قال: «مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ لَمْ يُعَذِّبْهُ». ثمّ يُعرّج على الآية: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَیْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ* رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» «۱»» «۲». إلى هنا نصل إلى خاتمة بحثنا، فی الخطوة الاولى لتهذيب الأخلاق، و هی التّوبة، و توجد مطالب اخرى فی هذا المجال، يمكن الإستفادة منها فی بحوثٍ مُستقلةٍ. نعم، فإنّه ما لم ينجلِ عن القلب و الروح صدأ الذُنوب، و يتحرك الإنسان لتطهير النّفس من مخلفات المعصية بماء التّوبة، فلن يشرق القلب بنور ربّه، ولن يتمكن هذا الإنسان من السّير على خطّ الإيمان، و السّلوك إلى اللّه تعالى والفوز بجواره، ولن يذوقَ طعم التجلّيات العرفانيّة، فی حركة الحياة المعنويّة. هذا هو أوّل محطٍّ للرحال، وأهمّها، ولا يمكن تخطّيه إلّابعزمٍ صادقٍ و إرادةٍ راسخةٍ، يدعمها لطفٌ إلهی و توفيقٌ ربّانی، ولا يُلقّيها إلّاذو حظٍّ عظيمٍ.

الخطوة الثّانية: المشارطة

تكلمنا سابقاً بصورةٍ مقتضبةٍ، عن بعض برامج وخُطى السّير و السّلوك، المشتركة بين كبار العلماء و السّائرين على ذلك الدّرب، و يصل البحث بنا عن التّوبة، إلى واقع التفصيل لتلك المباحث، مدعوم بالآيات و الرّوايات الشّريفة: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۱۴

الخطوة التالية التى ذكرها علماء الأخلاق، فى خطّ الإلتزام الدّينى بعد التّوبة: «المشارطة»: والقصد منها هو الإشتراط على النّفس وتذكيرها وتنبيهها، وأفضل الأوقات لها هو بعد صلاة الفَجر، و التنوّر بأنوار هذه العبادة الإلهيّة، الكبيرة العظيمة عند اللَّه تعالى، فيذكّر نفسه و يوصيها بأن تَتحرك فى طريق الخَير و الصّلاح، فإذا ما إنقضى العُمر فلن يفيد النّدم، و لا يمكن الإستدراك، وليجعل نصب عينيه هذه الآية الشّريفة: «وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ» «۱»، فإذا ما ضاع العُمر، فلن ينفع شيءٌ بعده: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» «۲». وعليه أنّ يُحدِّث نَفسه، و يقول لها: تصوّرى أنّ العُمر قد إنقضى، و زالت الحُجب و تجلّت الحقائق المُرّة، و برزت مَعالم العَذاب، و هَولِ المطّلع، و مُنكَر وَ نكير، فحينئذٍ تشعرين بِحالة النَّدم على ما عَمِلْتِ، و تقولين: «رَبِّ ارْجِعُونِى* لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ» «۳». و على فرض إنّك لم تسمعى جواب: «كلّا»، و أعادوكِ الى الدنيا فهل ستتعظين و تُكَفّرين عمّا قصرتِ فى جَنب اللَّه؟؟ ثمّ يوصى نفسه بجوارحه السّبعة: العَين و الاذن و اللّسان و اليّد و الرّجل و البطن و الفَرج، فهذه الجوارح مُنصاعَةٌ لكِ اليوم و فى خدمتك، فلا تقحميها فى المعاصى، فإنّ لجهنَّم سبعة أبوابٍ، لكلِّ باب جماعةٌ خاصةٌ من النّاس، يدخلون جهنّم منها، فعليك بالسيّطرة الدّقيقة على الجوارح لئّلا تنحرف عن الطّريق القويم، و الهدف المرسوم لها، و بذلك توصَد أبواب جهنم دونها، و تفتح أبواب الجنان لها؟. و يُوصى النّفس بالمُراقبة لِجوارحه، للإستعانة بها فى طريق الطّاعة لا المعصية، فهى نِعَمٌ كبيرةٌ مُحاسب عليها الإنسان غداً. و نَجد فى أدعية الإمام السجاد عليه السلام، تأكيداً لمسألة المُشارطَة فى حركة الإنسان المنفتح على اللَّه. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۵ ففى الدّعاء، رقم (۳۱) المعروف بدعاء التّوبة، يقول الإمام عليه السلام «وَلَكَ يا رَبِّ شَرطِى أَلّا أَعُودَ فى مَكْرُوهِكَ، وَضَمانى أنْ لا أَرجَعَ فى مَذْمُومَكَ وَعَهْدِى أنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعاصِيك». و كذلك الحال فى الآيات القرآنية، فإنّ أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، كانوا من خلال إرتباطهم مع اللَّه تعالى، بنحوٍ من العهدِ و الميثاقِ، يُطبّقون نوعاً من المُشارطة على أنفسهم، فى خط الرّسالة و المسؤولية، ففى الآية (۲۳) من سورة الأحزاب، نقرأ: «مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» ... «۱». و كان البعض الآخر، ينقضون العهد مع البارى تعالى، بعد توكيدها، فورد فى سورة الأحزاب، الآية (۱۵): «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَايُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا». وَ وَرَد فى حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَتَعاهَدْ النَّقْصَ مِنْ نَفْسِهِ غَلَبَ عَلَيهِ الهَوى وَمَنْ كانَ فى نَقْصٍ فَالمَوتُ خَيرٌ لَهُ» «۲». «فالمُشارطة» إذن: هى من الخُطى المهمّة لِتهذيب الأخلاق، ولولاها لتراكمت سُحب الغفلة و الغُرور، على قلب وروح الإنسان، و لَحادَت به عن الطرّيق القويم، و الجادّة المستقيمة.

الخطوة الثّالثة: المراقبة

«المُراقبة» من مادة: «الرَقَبَة»، و بما أنّ الإنسان يحنى رقبته عند مراقبة الأشياء و الأوضاع، فاطلِقَت على كلّ أمر يُحتاج فيه إلى المواظبة و التّحقيق. و هذا المُصطلح عند علماء الأخلاق، يُطلق على «مراقبة النّفس»، و هى مرحلةٌ تاليةٌ لمرحلة المُشارطة، يعنى أنّه يتوجّب على الإنسان، و بعد مُعاهدته و مُشارطته لنفسه بالطّاعة الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۶ للأوامر الإلهيّة، و الإجتناب عن الذّنوب، عليه المُراقبة و المُواظبة على طهارته المعنوية، لأنّه فى أدنى غفلةٍ، فإنّ النّفس ستَنقُض كلّ العُهود و المواثيق، و تَسلُك به فى خطّ المعصية مرّةً اخرى. و طبعاً يجب أن لا ننسى أنّ الإنسان و قبل مراقبته لِنفسه، فإنّ الملائكة تراقب أعماله، فيقول القرآن الكريم: «وإنّ عَلَيكُم لَحافِظِينَ» «۱». فالحافظون هنا هم الذين يتولون عملية المراقبة لأعمال الإنسان، و ذلك بقرينة الآيات التى ترِدُ بعدها، فتقول: «يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ»» .وفى الآية (۱۸) من سورة (ق) يقول تعالى «ما يَلْفِظُ مِنْ قَولٍ إلَّا لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». و فوق هذا و ذاك، فإنّ اللَّه تعالى مِن ورائهم محيط بكلّ شىء، و فى الآية (۱) من سورة النساء، نقرأ: «إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيكُم رَقِيباً». و كذلك فى سورة الأحزاب، الآية (۵۲): «وَكانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ رَقِيباً». و فى الآية (۱۴) من سورة العلق: «أَلَم يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرى . و الآية (۲۱) من سورة سَبأ: «وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَىءٍ حَفِيظٌ». ولكن المحلّقين فى أجواء التّقوى و تهذيب النّفس، يراقبون أفعالهم و سلوكياتهم، قبل مراقبة اللَّه تعالى لهم، و

يعيشون الوَجَلَ و الخَوف من أعمالهم و فعالهم، و فى مُراقبةٍ دائمةٍ، لِئَلّا يصدر منهم ما يسلب تلك النّعمة، و الحالة العرفانيّة التى يعيشونها مع اللَّه تعالى شأنه. أو بعبارةٍ اخرى: الرّقيب الباطنى يعيش معهم وعلى يقظةٍ دائماً، بالإضافة إلى الرّقابة الخارجيّة، و خوف اللَّه تعالى. و فى الحقيقة، فإنّ الإنسان فى هذه الدنيا، حاله حالَ الذى يمتلك جوهرةً ثمينةً، يريد أن يقايضها بمتاع له ولعيالِه، و من حَوالَيهِ السرّاق و قطاعُ الطّريق، و يخاف عليها من السّرقة أو البيع بِثَمنٍ بَخْسٍ، و إن غفل عنها لِلَحظةٍ فسيُضَيّعها، و تذهب نفسه عليها حَسراتٍ. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۷ و السّائر فى خطّ التّوبة و المراقبة، يعيش الحالة هذه أيضاً، فإنّ الشّياطين من الجِنّ و الإنس مُترصّدون لِغوايته، هذا بالإضافة إلى النّفس الأمّارة، و هوى النّفس، فإذا لم يُراقب نفسه و أعماله، فلا يأمن معها، مِنْ أن تسرق جوهرة الإيمان و التّقوى، و ينتقل من هذه الدنيا، خالى الوفاض وصفَر اليدين، و فى الآيات و الرّوايات إشاراتٌ كثيرةٌ، و تلميحاتٌ متنوعةٌ حول هذه المرحلة، ومنها: ۱- الآية (۱۴) من سورة العَلَق: «أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى . فهى إشارةٌ إلى مراقبة اللَّه تعالى لَه، وعليه مُراقبة أعماله أيضاً. وَوَجَّه فى آيَةٍ اخرى الخطاب لِلمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون» «۱». فَجُملة: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ...»، تبيّن لنا فى الحقيقة مفهوم المراقبة للنفس، على مستوى السّلوك و العمل. وَ وَرَد نفس المعنى، ولكن بشكلٍ مُقتضبٍ، فى سورة عَبَس، الآية (۲۴): «فَلْيَنْظُرْ آلْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»، (من الحلال والحرام) «۲». ۲- ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فى تفسير الإحسان فى الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ»، فقال: «الإحسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَم تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ» «۳». و من الطّبيعى فإنّ المُعايشة مع هذه الحقيقة، و هى أنّ البّارى تعالى معنا أينما كُنّا، و الرّقيب علينا، من شأنه أن يخلق فينا روح الرّقابة، و نكون معها دائبين على الإنسجام، مع خطّ الرّسالة من موقع الإلتزام. ۳- ورد حديثٌ عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُهَيمِناً عَلى الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۱۸ نَفْسِهِ مُراقِباً قَلْبَهُ، حافِظاً لِسانَهُ» «۱». ۴- جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ رعى قَلْبَهُ عَنِ الغَفلَةِ وَنَفْسَهُ عَنِ الشَّهْوَةِ وَعَقْلَهُ عَنِ الجَهْلِ، فَقَدْ دَخَلَ فى دِيوانِ المتَنَبِّهِينَ ثُمَّ مَنْ رعى عَمَلَهُ عَنِ الهوى وَدِيْنَهُ عَنِ البِدعَةِ وَ مالَهُ عَنِ الحَرام؛ فَهُوَ مِنْ جُملَةِ الصَّالِحِينَ» «۲». ۵- ما ورد فى الحديث القُدسى: «بُؤساً لِلقانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِى وَيا بُؤساً لَمَنْ عصانى وَلَمْ يُراقِبْنى» «۳». ۶- جاء فى إحدى خطب أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «فَرَحِمَ اللَّهُ إمرءاً رَاقَبَ رَبَّهُ وَتَنكَّبَ ذَنْبَهُ، وَكابَرَ هَواهُ، وَكَذَّبَ مُناهُ» «۴». ۷- وقد ورد فى نهج البلاغة أيضاً: «فإتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِى لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرَ قَلْبَهُ ... وَرَاقَبَ فِى يَومِهِ غَدَهُ» «۵». نعم فإنّ «الرقابة» على النفس أو المُراقبة للَّه‌تعالى، أو ليوم القيامة، كلّها تعكس حقيقةً واحدةً، ألا- و هى النّظارة و الرّقابة الفاحصة الدّقيقة الشّديدة للإنسان على أعماله، فى كلّ حالٍ و زمانٍ و مكانٍ. و خلاصة القول: إنّ السّائر إلى اللَّه تعالى، و بعد «المشارطة» مع نفسه وربّه، وبعد تهذيب النفس وتربيتها على طاعة اللَّه و عبوديّته، عليه المراقبة والمداومة على العهد الذى قطعه على نفسه فى خطّ التوبة، كالدّائن الذى يطلب من مدينه وفاء ديونه، فأىّ غفلة عن مخاطر المسير، ستعود عليه بالضّرر الفاحش، و تؤخره عن الرّكب كثيراً.

الخطوة الرّابعة: المحاسبة

اشارة

رابع خطوة ذكرها العلماء والسالكون فى هذا المجال، هى: «المحاسبة» للنفس، فى كلّ يوم أو كلّ شهر أو كلّ سنة، فَلْينظر الإنسان ماذا قدّم من أعمالٍ حسنةٍ، أو إرتكب من أعمالٍ قبيحةٍ، و يُفكر فى ما بَدَر منه، من طاعةٍ أو عصيانٍ لِلَّه‌تعالى، أو لهوى النّفس. فيحاسب نفسه حساباً عسيراً، كالتّاجر الذى يحسب فوائده و عوائده من تجارته التى إتّجر بها، و هل عادت عليه بالنّفع أم الضرر؟. فكذلك السّائر إلى اللَّه تعالى فى خطّ الإيمان و التوبة، عليه أن يُحاسب نفسه بأدقّ ممّا يفعله التاجر مع أمواله وتجارته. و المُحاسبة للدين أو للدنيا، لا تخلو من فائدتين: إذا بيّنت الفاتورة، الرّبح الوفير، فَهو دليلٌ على صحّةِ العمل و الدّوام عليه، وإذا ما بيّنت العكس،

فهو الدّليل على الخطأ و الخطر، فربّما تلاعب أحد موظّفيه، أو خانه بالإختلاس وما شابهها من الامور، فعليه الإسراع فی التثبت و التّفحص والإصلاح. و تخبرنا الآيات الكريمة، عن وجود النّظم و الحسابات الدقيقة فی عالم الوجود، وتدعو الإنسان للتّفكر فيها جيّداً، ومنها: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فی الْمِيزَانِ» «۱». ونقرأ فی آيةٍ اخرى: «وَكُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» «۲». وكذلك: «وَإِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» «۳». و من جهةٍ اخرى، نجد أنّ القرآن الكريم، قد أخبر فی آياتٍ متعددةٍ، عن وجود حسابٍ دقيقٍ فی يوم القيامة، كما ذكر على لسان لُقمان الحكيم لإبنه: «يَا بُنَیَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فی صَخْرَةٍ أَوْ فی السَّمَوَاتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» «۴». وكذلك: «وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِی أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۰ ومسألة الحساب هذه مهمّةٌ، لدرجة أنّ أحد أسماء يوم القيامة، هو: «يوم الحِساب»: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» «۱». و يكون الإنسان هو الحَسيب على نفسه: «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» «۲». و بالنّظر لهذه الامور و الظّروف، فإنّ كلّ شیءٍ فی الدنيا والآخرة يكون بِحساب، فكيف يمكن لإنسان أن يغفل عن مُحاسبة نفسه، ومن وراءه يومٌ ثقيلٌ، و كلّ شیءٍ بميزانٍ و مقدارٍ: و من يعمل مثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شراً يَره) فكلّ ما ذكر آنفاً، يحمل إلينا رسالةً و دعوة، لإثارة عناصر الإنتباه وعدم الغفلة عن الحساب و المحاسبة، فأنت إذا أردت أن تكون مُخفّاً فی يوم الحساب، عليك الإسراع بمحاسبة نفسك هنا فی الدنيا، قبل أن تحاسب فی الاخرى، و يقال فيها: ولاتَ حينَ مناصٍ. أمّا الروايات، فقد أشبعت الأمر بحثاً، و منها: ۱- ما ورد عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فی حديثه المعروف: «حاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبلَ أَنْ تُحاسَبُوا، وَ زِنوها قَبْلَ أَنْ تُوزَنوا وَتَجَهَّزُوا للعَرضِ الأَكْبَرِ» «۳». ۲- و عنه صلى الله عليه و آله مخاطباً أبا ذر رحمه الله: «يا أَباذَر حاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُ فَإِنَّهُ أَهونُ لِحِسابِكَ غَداً وَزِنْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُ» «۴». ۳- وَ وَرد عن علی عليه السلام أنّه قال: «ما أَحَقُّ للإنسانِ أَنْ تَكُونَ لَهُ ساعَةٌ لا يَشْغُلُهُ شاغِلٌ يُحاسِبُ فِيها نَفْسَهُ، فَيَنظُرِ فِيما إكْتَسَبَ لَها وَ عَلَيها فی لَيلِها وَ نَهارِها» «۵». فهذا الحديث يبيّن لنا بوضوح، مسألة المحاسبة فی ساعات الفراغ، وهی من الامور الجديرة بالإنسان الكامل، الذی يعيش همّ المسؤوليّة، فی دائرة حركته المنفتحة على اللّه تعالى. ۴- ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، بنفس المعنى ولكن بشكلٍ آخر، فيقول عليه السلام: «حَقٌّ عَلى الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۱ كُلِّ مُسْلِمٍ يَعْرِفُنا، أَنْ يُعْرِضَ عَمَلَهُ فی كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ عَلى نَفْسِهِ، فَيَكُونَ مُحاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأى حَسَنَةً استَزادَ مِنْها وَ إِنْ رأى سَيِّئَةً إِسْتَغْفَرَ مِنْها لِئلّا يُخْزى يَومَ القِيامَةِ» «۱». ۵- ما نُقل عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «يا هُشامُ لَيسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ فِی كُلِّ يَومٍ، فإنْ عَمِلَ حَسَنَةً استَزَادَ مِنْها وَ إِنْ عَمِلَ سَيِّئَةً إِسْتَغْفَرَ اللَّهُ مِنْها وَ تابَ» «۲». فالروايات جمّةٌ فی هذا المجال ومن أراد الإكثار، عليه مراجعة مستدرك الوسائل: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس «۳». هذه الرّوايات كلّها تبيّن أهميّة المسألة فی الإسلام، و أنّ مَنْ لم يحاسب نفسه فهو ليس من أتباع الأئمّة عليهم السلام، الحقيقيين!. و كما أشارت الرّوايات إلى فلسفة وحكمة هذا الأمر، فهو يزيد من الحسنات، و يمنع الإنسان من السّقوط فی وادی الهلاك والقبائح، و يُساعده فی إنقاذه من بحر الغفلة و الضّياع، و هَلّا ساوينا الامور الماديّة بالمعنويّة الروحيّة، ففی الماديّات يُحسب حساب كلّ شیءٍ، ولكلٍّ دفتره الخاص به، دفترٌ: يومی، و سنوی، و شهری، و للمخزن ... وو. ولسنا مُستعدّين من وضع ولو ورقةٍ واحدةٍ نحاسب فيها أنفسنا، على ما فعلت فی دائرة الطّاعة و المعصية، للّهِ تعالى!!. هذا مع وجود فرق كبير بين الأمرين، و لا يُقاس أحدهما بالآخر، أو كما يقال شَتّان ما بين الثَّرى و الثُّريّا، فنقرأ حديثاً عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، يقول: «لا يَكُونَ العَبدُ مُؤمناً حتّى يُحاسِبَ نَفْسَهُ أَشد مِنْ مُحاسَبَةِ الشّريكِ شَرِيكَهُ، وَالسَّيِّدِ عَبْدَهُ» «۴». فهذا الموضوع مهم لِلغاية، إلى درجةٍ أنّ العلماء كتبوا فيه كتباً عديدةً، و منهم السيد إبن طاووس الحلی رحمه الله المتوفی فی سنة «۶۶۴ للهجرة» فی كتابه محاسبة النّفس، و كتاب محاسبة النّفس فی إصلاح عمل اليوم و الإعتذار من الأمس، للمرحوم الحاج ميرزا على الحائری الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۲ المرعشی، (المتوفی فی سنة ۱۳۴۴ للهجرة)، و محاسبة النّفس للسيّد على المرعشی، المتوفی فی سنة (۱۰۸۰ للهجرة «۱»). ويجدر هنا الإشارة إلى عدّة ملاحظات:

۱- کیفیّة محاسبة النّفس و إستنطاقها

و أفضل طریقٍ لذلک، ما ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام، نقلًا عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، فقال: «أَکْیَسَ الکَیِسِّینَ مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ ...» فَقالَوا: یا أَمیرِ المُؤمِنِینَ وَکَیفَ یُحاسَبُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ؟. قال: إذا أَصْبَحَ ثُمَّ أَمسی رَجَعَ إلی نَفْسِهِ وَ قَالَ: یا نَفسُ إنَّ هذا یَومٌ مضی عَلَیکِ لا یَعُودُ إلَیکِ أَبَداً، وَ اللَّهُ سائِلُکِ عَنْهُ فَیما أَفْنَیتَهُ، فَما الَّذی عَمِلْتَ فِیهِ؟ أَذَکَرْتَ اللَّهَ أَمْ حَمِدْتَه؟ أَقَضَیتِ حَقَّ أَخٍ مُؤمِنٍ؟ أَنْفَّسْتَ عَنْهُ کُربَتَهُ؟ أَحَفِظتِیهِ بِظَهرِ الغَیبِ فِی أَهْلِهِ وَوَلَدِه؟ أَحَفِظتِیهِ بَعْدَ المَوتِ فِی مُخلِّفِیه؟ أَکَفَفتِ عَنْهُ غَیبَةَ أَخٍ مُؤمِنْ بِفَضْلِ جاهَکِ؟ أَأَعَنْتَ مُسلِماً؟ ما الَّذی صَنَعْتِ فِیهِ؟ فَیَذکُرَ ما کانَ مِنْهُ، فإنْ ذَکَرَ أَنَّهُ جَری مِنهُ خَیرَ حَمَدَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ وَکَبَّرَهُ عَلی تَوفِیقِهِ، وإنْ ذَکَرَ مَعْصِیةً أَو تَقْصِیراً اسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ وَعَزَمَ عَلی تَرْکِ مَعاوَدَتَهُ وَمحا ذَلِکَ عَنْ نَفْسِهِ بِتَجْدِیدِ الصَّلاةِ عَلَی مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّیِّبِینَ وَعَرَضَ بَیعَةَ أَمیرِ المُؤمِنِینَ عَلِی نَفْسِهِ وَقَبُولِها، وإعادَهُ لَعَنَ شانِئِیهِ وَأَعدَائِهِ، وَدَافِعِیه عَنْ حُقُوقِهِ، فَإذا فَعَلَ ذَلِکَ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: لَستُ اناقِشُکَ فِی شیءٍ مِنْ الذُّنُوبِ مَعَ مُوالاتِکَ أَولِیائِی وَمُعادَاتِکَ أَعدَائِی» «۲». نعم فإنّها أفضل طریقةٍ لمحاسبة النّفس، و إلجامها عن الّتمادی فی خطّ العصیان و الّتمرد.

۲- ما هی معطیات محاسبة النّفس؟

الإجابة علی هذا السؤال، ظهرت جلیةً فی طیّات بُحوثنا السّابقة، و الحَریّ بنا هنا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۳ الإستعانة بالأحادیث التی وردت عنهم علیهم السلام، منها: ما ورد عن الإمام علی علیه السلام: «مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ وَقَفَ عَلَی عُیوبِهِ، وَ أَحاطَ بِذُنُوبِهِ، و استَقالَ الذُّنُوبَ وَأَصْلَحَ العُیوبَ» «۱». و أیضاً عنه علیه السلام: «مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ سَعِدَ» «۲». و عنه علیه السلام: «ثَمَرَةُ الُمحاسِبَةِ صلاحُ النَّفْسِ» «۳». و یقول بعض العلماء فی هذا الفن، إنّ المحاسبة یجب أن تکون شبیهة، بالمحاسبة بین الشّریکین، فإذا ما وجد النّفع إستمر معه وبارک فی خُطاه، وإلّا فسیکون ضامناً للخسارة فی الحاضر والمستقبل. و أهمّ رأسمالٍ عند الإنسان: هو عمره، فإذا ما قضاه بالخیر والمنفعة، فهو الفائز، ولکنه سوف یعیش الخسارة فی إرتکابه لِلذنوب، فموسم هذه التّجارة هی أیّامه، و شریکه فی المعاملة هو النّفس الأمّارة. فأوّل ما یطالبها بالفرائض، فإذا ما أدّتها فلیشکر الباری تعالی، ولیبارک خُطاه، و إذا ما ضیّعت فریضة ما، فلیطالبها بقضائها وإذا کان فیها نقص، فلیجبرها بالنّوافل، وعند المعصیة یطالبها بالتّکفیر عنها، کما یفعل التاجر مع شریکه، فی أتفه الامور و المبالغ التی لا قیمة لها، کی لا یُغبن فی المعاملة، وخصوصاً أنّ الإنسان، یواجه عدوّاً لدوداً مخادعاً، و هو النفس الأمّارة، و لیحاسب نفسه کما تحاسبه الملائکة، فی تداعیات أفکاره، وخواطر نفسه فی قیامه و فی قُعوده، ولماذا تکلّم، ولماذا سکن؟، وهکذا فی کلّ ساعةٍ و کلِّ یوم، و علی کلّ فعلٍ و عملٍ، وإذا ما تهاون فی الأمر، فسوف تتراکم علی قلبه و روحه الذّنوب و العیوب، و الأنکی من ذلک أنّ الإنسان ینسی ما یفعله بسهولةٍ، ولکنّ الکرام الکاتبین، لا یغفلون ولا یفترون فی عملهم، فقال الباری تعالی: «أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۴ ومسک الختام، نورد حدیثاً یبیّن کیفیّة الحساب فی یوم القیامة، عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «لا تَزُولُ قَدَما عَبْدٍ یَومَ القِیامَةِ، حَتّی یُسْئَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِی ما أَفناهُ وَعَنْ شَبابِهِ فَی ما أَبلاهُ، وَ عَنْ مالِهِ مِنْ أَینَ کَسَبَهُ وَ فی ما أَنْفَقَهُ وَعَنْ حُبِّنا أَهْلَ البَیتِ» «۱».

الخطوة الخامسة: المعاتبة والمعاقبة

بعد «المحاسبة»، یأتی دور المُعاتبة و المُعاقبة للنّفس علی أخطائها وأغلاطها، فالحساب بدون إظهار ردّ الفعل، لا فائدة فیه ولا ثمرة، ونتیجته ستکون عکسیةً، بل تحمل النّفس علی الجرأة والجسارة و العناد، فی حرکة الحیاة والواقع، فکما یحاسب الرّئیس موظفیه عن تقصیرهم، و یعاقبهم بنوعٍ ما، وکلٌّ حسب حجم تقصیره، فکذلک یفعل السّائرون فی طریق الباری، فإذا ما جَمَحَت بهم أنفسهم یوماً،

فسوف یعاقبونها لجرأتها علی سیّدها ومولاها. و أکّد القرآن الکریم علی هذه المسألة، فأقسَم بالنّفس اللّوامة، لأهمیتها: «لا اُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوامَةِ» «۲»، «۳». و نحن نعلم أنّ النّفس اللوامة، هی الضّمیر الحی الذی یردع صاحبه عن إرتکاب المعاصی، و هو نوع من العِقاب للنفس. و من الواضح أنّ العقاب للنفس له درجاتٌ و مراتبٌ، و أوّل ما یبدأ من حالة الملامة، ثمّ یشدّد العقاب، وذلک بحرمان النّفس من بعض اللذائذ الدنیویة لفترة من الزّمن. و أشار القرآن الکریم، لنموذجٍ رائعٍ حول هذا الموضوع، و ذلک بالنّسبة للثلاثة الذین الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۵ تخلّفوا فی غزوة تَبوک، و أمر الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، الناس بمقاطعتهم فی کلّ شیءٍ، فضاقت علیهم الأرض بما رحبت، فعاقبوا أنفسهم علی فعلتهم، و إنشغلوا بالتّوبة، و إنعزلوا عن الناس بالکامل، وبعد مدّة تاب اللّه تعالی علیهم، ونزلت الآیة الکریمة: «وَعَلَی الثَّلَاثَةِ الَّذِینَ خُلِّفُوا حَتَّی إِذَا ضَاقَتْ عَلَیْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَیْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَامَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَیْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَیْهِمْ لِیَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ» «۱». فجملة: «وضاقت علیهم أنفسهم»، ربّما تکون إشارةً إلی مسألة: «معاقبة النّفس»، بالعزلة التی إختاروها لأنفسهم، فقبلها الباری تعالی منهم، وَ ورد فی شأن النّزول للآیة (۱۰۲) من سورة التوبة: «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللَّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ». فهی تشیر إلی قصة: «أبو لُبابة الأنصاری»، و هو أحد أصحاب النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، ولکنّه تهاوَن عن نَصرة رسول اللّه صلی الله علیه و آله، فی غزوة تَبوک، و بعدها ندم أشدّ الندم، فأراد أن یُکفّر عن فِعلته، فذهب إلی مسجد النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، وربط نفسه إلی أحد أعمدته، وأقسم أنّ لا یطلق نفسه إلّابموافقة اللّه و رسوله، أو یتوب اللّه تعالی علیه، فبقی علی هذه الصورة حتی تاب اللّه تعالی علیه، ونزلت الآیة، وصرّحت بقبول اللّه تعالی لِتوبته. و من الواضح، أنّ أبا لُبابة کان قد تحرک من موقع مُحاسبة النفس، و مُعاقبتها علی فِعلتها، و هو دلیلٌ علی أنّ السّیر و السّلوک إلی اللّه تعالی، کان موجوداً علی عهد الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله. وأمّا جملة: «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَیِّئاً»، فهی أیضاً ربّما تکون إشارةً لذلک المعنی أیضاً، و أتحفتنا الرّوایات أیضاً، وأرشدتنا إلی موضوع بحثنا، ومنها: ۱- ما ورد عن علی علیه السلام، أنّ قال فی أوصاف المتّقین، فی نهج البلاغة: «إِن اسْتَصْعَبَتْ عَلَیهِ نَفْسُهُ فی ما تَکْرَهُ لَمْ یُعْطِها سُؤلَها فِی ما تُحِبُّ» «۲». و المقصود منه، أن یمنع نفسه فی حالة جموحها، من النوم و الرّاحة و الأکل و الشّرب، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۶ لتتأدّب و لتنصاع إلیه. ۲- ما ورد فی غُرر الحِکَم، عن ذلک الإمام علیه السلام الهمام، أنّه قال: «إذا صَعُبَتْ عَلَیکَ نَفْسُکَ فاصْعَبْ لَها تَذِلُّ لَک». ۳- و عنه علیه السلام: «مَنْ ذَمَّ نَفْسَهُ أَصلَحَها، وَمَنْ مَدحَ نَفْسَهُ ذَبَحها» «۱» ۴- و عنه علیه السلام، قال: «دَواءُ النَّفْسِ الصَّومُ عَنِ الهوی وَالحَمِیةُ عَنْ لَذّاتِ الدُّنیا» «۲». و یحدّثنا التأریخ عن نماذجٍ کثیرةٍ من أصحاب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، و العلماء الکبار، و المؤمنین المُخلصین، الذین إذا مسّهم إغواء الشّیطان، و إرتکبوا بعض الذنوب، کانوا یسارعون فی وضع أنفسهم تحت طائلة العقاب، لئلّا یتکرّر هذا العمل منهم مرّةً اخری فی المستقبل، و منها: ۱- ورد أنّ أحد أصحاب النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، و إسمه «ثَعلبة» «۳»، کان من الأنصار، و کان یُؤاخی «سعید بن عبدالرحمن»، و هو من المهاجرین، و صاحَبَ سعیدٌ الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی إحدی غزواته، و خَلّف ثعلبة فی المدینة، مُعتمداً علیه فی حلّ مشاکل بیته و عائلته، و ما یحتاجونه من باقی الامور المعیشیّة، و فی یوم ما، إحتاجت امرأة «سعید» إلی شیءٍ، فوقفت خلف الباب، تتحدّث مع ثعلبة فی ذلک الأمر، فوسوس له الشّیطان فی ممارسة الإثم، فکشف عن حجابها، فرآها جمیلةً جدّاً، فأراد أن یضمّها إلی صدره، ولکنّها نهرته قائلة له: ما تفعل یا ثعلبة، أمِنَ الحقِّ أن یکون أخوک فی الجِهاد، و أنت تُرید بأهلِهِ السّوء؟! إنتبه ثعلبةُ من نومه وغفلته، وأیقظه هذا النّداء من غیّه، فَصاحَ وفرّ علی وجهه فی البیداء باکیاً، وهو یقول: «إلَهِی أَنْتَ المَعرُوف بِالغُفرانِ وأَنا المَوصُوفُ بِالعِصیانِ» «۴». فبقی فی الصحراء مدّةً طویلةً مُعاقباً نفسه، مَضیّقاً علیها لِما صدر منه، و فی قصّةٍ طویلةٍ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۷ تحکی أنّه عاد بعدها إلی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، وتاب علی یده، فنزلت الآیة أدناه لتوکید قبول توبته، وهی الآیة (۱۳۵) من سورة آل عمران: «وَالَّذِینَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَکَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ یُصِرُّوا عَلَی مَا فَعَلُوا وَهُمْ یَعْلَمُونَ». ۲- نقل عن حالات الفقیه الکبیر، المرحوم آیة اللّه، البروجردی قدس سره، عندما کان یجلس للدرس مع طلابه، فربّما

یَدَر منه أثناء النّقاش، أن یرفع صوته بالتّوبیخ لأحد طلّابه، ولم یکن ذلک منه إلّامن باب المحبّة، و علاقة الأب مع إبنه، فکان ینـدم مباشرةً و یعتذر، و ینذر للصوم فی غَدِه لیُکفّر عن فعله، رغم أنّه لم یصدر منه ما یخالف الشّرع. ۳- نقلُ أحد کِبار عُلماء الأخلاق، عن أحد الوعّاظ، أنّه عندما کان یصعد علی المِنبَر للوعظ و الخطابة، و قبل الشّروع کان یُسلّم علی الحسین علیه السلام، و لا یبدأ بکلامه حتی یسمع الجواب منه علیه السلام، هذه الحالة المعنویة، لم تحصل لدیه إلّابعد حادثةٍ حدثت له مع أحد الوعّاظ، حیث قَرّر فی یوم من الأیّام مع نفسه، یکسر مجلس ذلک الواعظ المعروف، بإیراده کلاماً أبلغ وأحلی من کلام ذلک الشّیخ، فتنبّه لِخَطئه، و أخذ علی نفسه بعدم إرتقاء المنبر لمدّة (۴۰) یوماً، عِقاباً لنفسه علی فعلتها تلک، فالقی فی قلبه ذلک النّور و تلک الحالة الإلهیّة. «۱» و زبدة الکلام، أنّه وللحصول علی النتائج و المعطیات، المرجوّة من المراقبة و المحاسبة، أن یتحرک الشّخص فی عملیة التّزکیة، من موقع معاقبة النفس عند زلّلِها و جُموحها عن الطریق، وإلّا فلا یمکن تَوخّی النّتائج المطلوبة فی نطاق التّهذیب و التّزکیة، و هذا لا یعنی أننا نُمضی أعمال و فعال بعض الصّوفیین المنحرفین، کما أورد بعضها الغزالی فی کتابه: «إحیاء العلوم»، فما یفعلوه من أعمال خَشنةٍ مُتهوِّرة، و سلوکیاتٍ شاذةٍ، فی دائرة معاقبة النفس و جُبران تقصیرها، لا- تَمُتّ إلی الدّین بصلةٍ، و قصدنا من المعاقبة، هی أعمالٌ مشروعةٌ فی دائرة المفاهیم الإسلامیّة، کالصّوم، و مخالفة الهوی، و حرمان النفس من بعض لذّاتها المادیة، التی لا تخدش فی سماحة الدین ورأفته، بل هی من اسسه. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۸ و کما یقول المرحوم النّراقی، فی «معراج السّعادة»: إذا صدرت من الشّخص مخالفةٌ؛ ما فعلیه تأدیب نفسه و ترویضها، بالعبادات الثّقیلة مثلًا، أو بإنفاق الأموال التی یحبّها ویجمعها، أو یقوم یتجویع نفسه عند أکله لِلُقمة الحرام، أو یؤدب نفسه بالسّکوت، ویمدح الشّخص الذی یغتابه، أو یجبرها بذکر اللّه تعالی، وإذا إستهان أو استصغر أحداً من الناس لفقره، فلیکرمه بالمال الکثیر، و کذلک الحال فی بقیّة المعاصی، و الموبقات التی صدرت منه، ولکلٍّ بِحَسَبِه» «۱».

الخطوة السّادسة: «النیّة» و «إخلاص النیّة»

اشارة

تناول العلماء فی بدایة مباحثهم الأخلاقیة، مسألة «النیّة» و «إخلاص النیّة»، و فرّقوا بینهما وقالوا: إنّ «النیّة» شیءٌ، و «إخلاصُ النیّة» شیءٌ آخر، لکنّهم لم یذکروا فروقاً واضحةً و مشخّصَةً، فأدخلوا إخلاص النیّة فی مبحث النیّة، بحیث یصعب التّمییز بینهما. و لأجل التّفریق و التّمییز بینهما، یمکن القول: إنّ المقصود من «النیّة»: هو العَزمُ و الإرادةُ الرّاسختین لفعلٍ ما، بقطع النّظر عن الدّافع الإلهی، أو المادی الذی یقف خلفها. بالطّبع إذا أراد الإنسان أن یری ثمرة عمله، فی دائرة الواقع وحرکة الحیاة، فعلیه أن یدخل إلی ساحة العمل و السّلوک، بإرادةٍ قویّةٍ، و عزم راسخ، لا تُزلزِلهُ التّحدیات، و لا تهزّه الصّعاب، سواءً فی نطاق تحصیل العلم، أو فی الزّراعة و التجارة و السّیاسة. و الخُلاصة: إنّ کلّ عملٍ إیجابی، نرید أن نصل به إلی النتائج المرجوّة، علینا فی البدایة، أن نتقدم نحو میدان العمل و الممارسة، بقلبٍ ثابتٍ و إرادةٍ بعیدةٍ عن التّردد، و بالطبع فإنّ هذا الأمر لا یتمّ إلّابالتنظیر له، فی مرحلةٍ سابقةٍ، و دراسةِ کلّ جوانبه و الامور المحیطة به، من عوائد و نتائج إیجابیّة أو سلبیّة، و العقبات التی یمکن أن تقف بوجهه، و بعدها المُضی قُدُماً بخطی ثابتةٍ نحو الهدف، فی خطّ العمل و التّطبیق. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۲۹ و لأجل السّیر فی طریق تهذیب الأخلاق و السلوک إلی اللّه تعالی، نحتاج إلی نیّة جادّةٍ، و إرادةٍ حاسمةٍ، لأنّ ضعف الإرادة، یمثّل أکبر عائقٍ أمام تحقیق ما یطمح إلیه الإنسان، فی دائرة التّکامل الأخلاقی، فأیّ مانع یقف بوجهه، سُرعان ما یُولّی دُبُرَه و یعود أدراجَه، فالضّعف فی عنصر الإرادة، بإمکانه أن یتَسرّب إلی سائر القوی الباطنیّة، و بالعکس، فإنّ القویُّ الإرادة، سیقوم بتوظیف قِواه، و ملکاته الداخلیّة، و یدفعها بقوةٍ نحو الهدف المنشود. و هذا هو الأمر، الذی عبّر عنه القرآن الکریم ب: «العزم»، و قد سُمّی الأنبیاء العظام، لعزمهم القوی، و إرادتهم الحدیدیّة، ب الأنبیاء أولو العزم) «۱»

فخاطب القرآن الكريم، الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قائلًا: «فَإذا عَزَمْتَ فَتَوَكّل عَلَى اللّهِ» «۲». و بالنسبة لآدم عليه السلام، قال: «وَلَقَدْ عَهِدنا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» «۳»، حيث تناول من الشّجرة الممنوعة، ولم تكن لديه إرادةٌ قويةٌ فى خطّ الطّاعة. أمّا فى دائرة الرّوايات الشّريفة، فنرى أنّها توّجهت إلى عنصر العزم، و أكّدت عليه من موقع الأهميّة. ومنها: ما نقل عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، فى أدعية رجب، نقرأ: «وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَفضَلَ زَادِ الرَّاحِلِ إِلَيكَ عَزْمُ إرادَةٍ يَخْتارُكَ بِها وَ قَدْ ناجاكَ بِعَزمِ الإرادَةِ قَلبى» «۴». و فى حديث آخر عن الصّادق عليه السلام، قال: «إنّما قَدَّرَ اللَّهُ عَوْنَ العِبادِ عَلى قَدْرِ نَيّاتِهِم، فَمَن صَحَّتْ نِيَّتُهُ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ، وَ مَنْ قَصُرَتْ نِيَّتُهُ قَصُرَ عَنْهُ العَوْنَ بِقَدْرِ الَّذِى قَصَّرَهُ» «۵». و فى حديثٍ آخر، عنه عليه السلام: «ما ضَعُفَ بَدَنٌ عَمّا قَوِيتْ عَلَيهِ النِّيَّةُ» «۶». فهذا الحديث، يبيّن لنا فاعليّة الإرادة، و دورها فى الصّعود بالقوى الجسمانيّة، إلى أبعد الحدود والمراتب فى حركة الإنسان. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۰ و من المعانى الاخرى «لِلنيّة»، هو إختلاف الدّوافع، بالنّسبة لِلأعمال الّتى تكون على هيئةٍ واحدةٍ فى الظّاهر، فالذّهاب للجهاد، يمكن أن يكون الباعث له هو كسب الغنائم، أو الإستعلاء على النّاس، أو يكون دافِعُهُ نصرة الحقّ، و دفع الظّلم، و إطفاء نار الفِتن، و أمثال ذلك. فالذّهاب لِلحرب، واحدٌ فى الشّكل و الظّاهر، ولكن شتّان بين النّوايا السّليمة، و بين النّوايا المغرضة. و لأجل ذلك، أتت الأوامر بإصلاح النيّة، و تنقيتها من الشّوائب، قبل السّلوك فى أىّ طريق، و ما السّالك فى خطّ اللّه، و الكمال المعنوى بِمُستثنى عن ذلك، فهل أنّ هدفه من سلوك سبيل التهذيب والرياضة، هو التّكامل المعنوى، و الوصال الحقيقى، أم أنّه يريد كسب عنصر القوّة فى عالم النفس، و التّسلط على ما وراء الطّبيعة، ليشار إليه بالبَنان؟!. و ما وردنا من حديثٍ: «إنّما الأَعمالُ بالنِّيّاتِ»، هو إشارةٌ لهذا المعنى، وَ وَرد الحديث فى موسوعة: بحار الأنوار، عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فقال: «إنّما الأَعمالُ بالنِّيّاتِ و إنَّما لِكُلِّ امرءٍ ما نَوى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَ مَنْ كانَتْ هِجرَتُهُ إلى دُنيا يُصيبُها أو إمرَأةٍ يَتَزَوَّجها فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إِلَيهِ» «۱». و كذلك الحديث الوارد عن عليٍ عليه السلام، حيث يقول: «عَلى قَدْرِ النِّيَّةِ تَكُونُ مِنَ اللَّه عَطِيَّةٌ» «۲». فهو إشارةٌ إلى نفس المعنى الآنف الذكر. و يُستفاد مما تقدم، أنّه ولأجل الوصول إلى المقاصد والأهداف المنشودة، فى أىّ أمرٍ و عملٍ، و خصوصاً المصيريّة منها، علينا أن نتحرّك فى دائرة العمل، بإرادةٍ قويّةٍ و عزم راسخٍ، فى مُواجهة التحدّيات الصّعبة، لتحقيق الأهداف المرسومة، و بدون ذلك، سيحل فينا عنصر اليأس والحيرة و الضّياع. وكذلك هو حال السّائر فى طريق تهذيب النّفس، و إصلاح الخَلل فى واقعه الداخلى، عليه البِدء بإرادةٍ حديديّةٍ، و يدعمها بالتوكّل على البارى تعالى، فى عمليّة السّلوك المعنوى، ويمكن الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۱ أن يتساءل المرءُ عن كيفيّةِ تَحصيل هذه الإرادة القويّة، فى واقعه الدّاخلى و النّفسى. و الجواب واضح جِدّاً، فَنفس الهدفِ المنشودِ، هو الحافز الأصلى الذى يدفع الإنسان نَحوه، فكُلّما كان الهدف سامِياً، كان السّير إليه أقوى وأشد، والخُطى نَحوه أثبت. فإذا أذعن الإنسان لهدف الحقيقة، و هىَ: أنّ وجوده، و الهدف من خلقته، ليس هو إلّا تهذيب الأخلاق و القربُ من اللّه تعالى، و بِغَفلته أو تَغافُله عنها، سيقع فى مستنقع الرّذائل، و ينحدر فى وادى الظّلمات، فإذا صدّق تلك الحقيقة، و تعمّق فيها، أكثر و أكثر، فسوف يسير على بصيرةٍ من أمره، ثابتَ الخُطى، هادىءَ البال، مرتاحَ الضّمير، رابطَ الجّأش، بل وأكثر من ذلك، سيفدى روحه فى هذا السّبيل، و يكون مِصداقاً ل: «عَجّلْتُ إليك رَبِّ لِتَرضى . و يمكن القول فى جملة واحدة، أنّ الإرادة القويّة منشؤها المعرفة الكاملة، من موقع الوضوح فى الرّؤية و سمّو الهدف، فى وعى الإنسان.

الإخلاص:

المراد من «الإخلاص»، هو: إخلاص النيّة، و أن يكون الهدف، فى دائرة الفكر و السّلوك: هو اللّه تعالى فقط. و قد يكون هناك أشخاص من ذوى الإرادة القويّة، تمنحهم القوّة للوصول إلى أهدافهم، إلّا أنّ الدّافع الحقيقى لهم، هو: النّفع المادى و المصلحة الذّاتية، ولكنّ أولياء اللّه و السّالكين فى خطّ الحقّ و الإيمان، يتمتعون بإخلاص النيّة للّه تعالى، إلى جانب الإرادة القويّة. و نرى فى القرآن الكريم و الرّوايات الإسلاميّة، أن عنصر: «الإخلاص»، إلى درجةٍ من الأهميّة، بحيث يُعدّ العامل الأساس فى حركة الإنسان و

الحياة، للفوز فى الدنيا و الآخرة، و كلّ عملٍ فى الإسلام، لا يقبل إلّاإذا توفّر عنصر الإخلاص للّه‌تعالى، هذا من جهةٍ: و من جهةٍ اخرى: نرى أنّ الإخلاص يعدّ من أصعب الامور، ولا يصل إلى الدّرجة العليا من الإخلاص إلّاالمقرّبون، رغم أنّ حالة الإخلاص محمودةٍ فى أىّ مرحلةٍ و مرتبةٍ. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۲ و لنرجع الآن لِلقرآن الكريم، لنستوحى من آياته مسألة الإخلاص. فبعض الآيات تتحدث عن المخلِصين، و البعض الآخر عن المخلَصين من موقع الثناء، و التّمجيد بهم، و منها: ۱- فى الآية (۵) من سورة البيّنة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ». حيث تتبيّن أهميّة هذا الموضوع، بالنّظر إلى أنّ الدّين له مفهومٌ واسعٌ يستوعب فى إطاره، كلّ العقائد و الأعمال الباطنيّة و الخارجيّة، فالضّمير فى: وما امروا، يعود على جميع أتباع المذاهب الإلهيّة والأديان السماوية، و الإخلاص و الصلاة و الزكاة، تمثّل: عناصر مشتركة بين الجميع، فهذا التّعبير فى الآية، يبيّن حقيقةً واحدةً ألا و هى أنّ جميع الأوامر الإلهيّة مستقاةٌ من حقيقة التّوحيد و الإخلاص، فى خطّ الطّاعة و العبوديّة. ۲- وفى آية اخرى، نجد أنّ القرآن الكريم يوجّه خطابه إلى جميع المسلمين، و يقول: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» «۱». ۳- و فى مكان آخر، يخاطب الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و يقول: «قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ» «۲». ويُستشف من هذه الآيات و آياتٍ اخرى، أنّ الإخلاص هو أساس الدّين و دعامته، التى يرتكز عليها فى عمليّة تثبيت الإنسان، فى خطّ الإيمان و الإنفتاح على اللّه تعالى. و سنتعرّض لِشرح معنى المخلِصين و المخلَصين، و الفرق بينهما فى ما بعد، ولكن توجد هنا عباراتٌ على درجةٍ من الأهميّة، على مستوى المفاهيم القرآنية: ۱- الآية: (۳۹ و ۴۰) من سورة الحِجر، تتحدثان عن الشيطان، بعد ما طرد من رحمة اللّه سبحانه إلى الأبد، فقال بعنادٍ: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». فتبيّن هذه الآية، حالة المخلَصين من عباده، و أنّها إلى درجةٍ من القوّة و الإستحكام، حتى الشّيطان قد يأس منهم. ۲- الآية: (۳۹ و ۴۰) من سورة الصافات، تتحدثان عن وعد اللّه تعالى لعباده المخلَصين، الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۳ بثوابٍ لا يعلمه إلّاالبارى تعالى، فيقول: «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ». ۳- الآية: (۱۲۷ و ۱۲۸) من سورة الصافات، أيضاً صعدت بمقام المخلَصين، إلى درجةٍ أنّهم معفوّون من الحساب والحضور فى المحكمة الإلهيّة، ويدخلون الجنّة مباشرة. ۴- الآية: (۱۵۹ و ۱۶۰) من نفس السورة، وصفت المخلَصين، بأنّهم الوحيدون الذين يصحّ منهم وصف الذات المقدسة، ممّا يدلّ على عمق معرفتهم الحقيقة بحقيقة الالوهيّة: «سُبْحانَ اللَّهِ عَمّا يَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ». فوصفهم للّه، لا إشكال فيه. ۵- الآية: (۲۴) من سورة يوسف، تحدّثت عن الحصانة الإلهيّة للنبى يوسف عليه السلام، فى مقابل وساوس إمرأة العزيز الشّيطانيّة، فقال: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». أمّا ما الفرق بين المخلِصين والمخلَصين؟، هنا نجد تفسيراتٌ كثيرةٌ، و يمكن القول أنّ أفضل هذه التّفاسير، هو الذى يقول: أنّ «المخلِص» هو الذى يتحرك فى طريق الإخلاص للّه‌تعالى، بعيداً عن كلّ الشّوائب و الأدران و المقاصد غير الإلهيّة، فى دائرة الفكر والنيّة، و يتحرك بعيداً عن الرّذائل و القبائح، فى دائرة الفعل والمُمارسة، أمّا «المخلَصين»، فهو الذى تحضره العناية الربانيّة، و المدد الإلهى، لرفع آخر شائبة من قلبه، و يشمله لطف الربّ لتخليصه من كلّ ما لا يحب و يرضى. وتوضيح ذلك: إنّ الشّوائب التى تصيب قلب الإنسان ووجوده على نوعين: نوعٌ يكون الإنسان منها على بصيرةٍ، و يسعى لإزالتها من واقع وجوده، بإخلاص النيّة والعقيدة والعمل، ويُوفّق فى مسعاه. أمّا النّوع الآخر، فهو خفى لا يحسّ به الإنسان فى مسارب النّفس و الرّوح، كما ورد فى الحديث النبوى الشريف: «إِنَّ الشِّرْكَ أَخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّملِ عَلى صَخْرَةٍ سَوداءٍ فى لَيْلَةٍ ظَلْماءٍ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۳۴ فهنا لا يمكن العبور من هذه المطبّات، إلّابتوفيقٍ من البارى تعالى، و تسديدٍ إلهى يشمل حال السّائرين إليه، و بدونه ستبقى الشّوائب عالقة فى القلب و النّفس، و كأنّ البارى تعالى يريد أن يُتحف هؤلاء المخلِصين، الذين لم يتخلّصوا تماماً من عَلَق الشّوائب، و وصلوا بالقرب من النّهاية، بأن يبدل شوائبهم باليقين، بلطفه و عنايته، و يجعلهم فى عداد المخلَصين. فعند وصول الإنسان إلى هذه المرحلة، يكون فى مأمَنٍ من الأهواء، و من الوساوس الشّيطانية، بما يمثّل من تحدّيات صعبة فى طريق التّكامل، و بالتّالى ينقطع طمع الشّيطان فيه، ويظهر عجزه عن إغوائه بصورةٍ رسميّةٍ. و هنا يستقر المخلَصين فى النّعيم الخالد، و يرتعون بالمواهب الإلهيّة، و يكون

ثناؤهم و توصيفهم، للذات المقدّسة بالصّفات الجماليّة و الجلاليّة الإلهيّة، قد صبغت بصبغة التّوحيد الخالص، وبما أنّهم صفّوا حساباتهم فی هذه الدنيا، فستكون عاقبتهم أنّهم سيدخلون الجنّة بغير حساب. و يصف الإمام علی عليه السلام فی بعض خطبه، التی وردت فی نهج البلاغة، اولئك المخلصين، فيقول: «قَدْ أَخْلَصَ للَّهِ فَاسْتَخْلَصَ» «۱». و قال الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله: «فَعِنْدَ ذَلِكَ إِسْتَخْلَصَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِنُبُوَّتِهِ وَ رِسالَتِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ المُشَرِّفَةِ الطَّيِّبَةِ ... مُحَمَّداً اخْتَصَّهُ لِلنُبُوَّةِ وَاصطَفاهُ بِالرِّسالَةِ» «۲». و فی حديثٍ آخر عن أحد المعصومين عليهم السلام أنّه قال: «وَجَدْتُ ابنَ آدَمَ بَينَ الشَّيطانِ فَإنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمائَهُ، خَلَّصَهُ وَ آسْتَخْلَصَهُ وَإلّا خَلّی بَينَهُ وَبَينَ عَدُوِّهِ» «۳». و الخلاصة، إنّ الإخلاص فی النيّة و الفكر و العمل، هو من أهمّ الخُطی فی عمليّة التّهذيب و التّربية و السّير إلی اللّه تعالی.

الإخلاص فی الرّوايات الإسلاميّة:

و أتحفتنا الروايات بزخم كبير من المفاهيم، التی تدور حول محور الإخلاص، و نشير إلی بعضٍ منها: ۱- ما جاءنا عن الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله، أنّه قال: «ثَلاثٌ لايَغُلُّ عَلَيهِنَّ، قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، إخلاصُ العَمَلِ للَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَ النَّصيحَةِ لِأئِمَّةِ المُسْلِمينَ، و اللُّزُومَ لِجَماعَتِهِم» «۱». ۲- ما ورد عنه صلی الله عليه و آله، فی حديثٍ آخر: «الإخلاصُ سِرٌّ مِنْ أَسرارِی اسْتَودِعَهُ قَلْبَ مَنْ أَحَبَبْتُهُ مِنْ عِبادِی» «۲». ۳- قال الإمام علی عليه السلام: «الإخلاصُ أَشرَفُ نِهايَةٍ» «۳». ۴- فی حديث آخر عنه عليه السلام، قال: «الإخلاصُ أَعلَی الإيمانِ» «۴». ۵- وعنه عليه السلام: «فِی إخلاصِ الأَعمالِ تَنافَسَ اولُوا النُّهی وَالألبابِ» «۵». ۶- ما ورد فی أهميّة الاخلاص بحيث أنّ الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله، قسّم المؤمنين وِفق درجات إخلاصهم، فقال: «بِالإخلاصِ تَتَفاضَلُ مَراتِبُ المُؤمِنينَ» «۶». ۷- و فی بيان أنّ آخر مرحلةٍ من مراحل اليّقين، هو الإخلاص، قال الإمام علی عليه السلام: «غايَةُ اليَقينِ الإخلاصُ» «۷». ۸- ما ورد من معطيات الاخلاص علی مستوی العمل، لدرجة أنّ قليلًا منه يكفی للنّجاة، قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله: «أَخْلِصَ قَلْبَكَ يَكْفيكَ القَليلَ مِنَ العَمَلِ» «۸». ۹- وقال علی عليه السلام: «الإخلاصُ عِبادَةُ المُقَرَّبينَ» «۹». ۱۰- و نختم هذه الأحاديث، بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال عليه السلام: «طُوبی لِمَنْ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۳۶ أَخْلَصَ للَّهِ العِبادَةَ وَالدُّعاءِ، وَلَمْ يَشْغَلْ قَلْبُهُ بِما تَری عَيناهُ، وَلَمْ يَنْسَ ذِكْرَ اللَّهِ بِما تَسْمَعُ اذُناهُ وَلَمْ يَحْزَنْ صَدْرُهُ بِما اعطِی غَيْرَهُ»».

حقيقة الإخلاص:

يقول المرحوم الفيض الكاشانی، فی المحجّة البيضاء حول هذا الموضوع: «إعلم أنّ كلّ شیء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه، و خلص عنه سمّی خالصاً وسُمّی الفعل المصفّی، المخلص إخلاصاً، قال اللّه تعالی: «وَإِنَّ لَكُمْ فی الأَنعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِما فِی بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ» «۲»، فإنّما خلوص اللّبن، أن لا يكون فيه شوب من الدم و الفرث، و من كلّ ما يمكن أن يتمزج به والاخلاص، يضادّه الإشراك، فمن لا يكون مخلصاً فهو مشرك، إلّاأنّ للشّرك درجاتٍ، و الإخلاص فی التوحيد يضادّه الشرك فی الإلهيّة، و الشّرك منه خفی ومنه جلّی وكذلك الإخلاص» «۳». و كذلك ما ورد من تعبيرات لطيفةٍ فی الرّوايات، تبيّن الإخلاص الحقيقی والمخلصين الحقيقيين، منها: ۱- الحديث الوارد عن الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله، أنّه قال: «إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقيقَةً، وَما بَلَغَ عَبْدٌ حَقيقَةَ الإخلاصِ، حَتّی لا يُحِبَّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَی شَیءٍ مِنْ عَمَلٍ للَّهِ» «۴». ۲- نقل عنه صلی الله عليه و آله: «أَمّا عَلامَةُ المُخْلِصِ فَأَربَعَةٌ، يُسْلِمُ قَلْبُهُ وَتُسلِمُ جَوارِحُهُ، وَبَذَلَ خَيْرَهُ وَكَفَّ شَرَّهُ» «۵». ۳- فی حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: «لا يَكُونُ العَبْدُ عابِداً للَّهِ حَقَّ عِبادَتِهِ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۳۷ حَتّی يَنْقَطِعَ عَنِ الخَلْقِ كُلُّهُ إِلَيهِ، فَحِينَئِذٍ يَقُولُ هذا خالِصٌ لِی فَيَتَقَبَّلَهُ بِكَرَمِهِ» «۱». ۴- و أخيراً يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَی عَبْدٍ أَجَلَّ مِنْ أَنْ لا يَكُونَ فِی قَلْبِهِ مَعَ

اللَّهِ غَيْرُهُ» «۲». الآن بعدما عرفنا أهميّة الإخلاص، ودوره العميق فی سلوک طريق الحّق و القرب من اللّه، و السّير فی حرکة الإنسان فی خط الإيمان والتوحيد، يبقی هنا سؤال يفرض علينا نفسه، وهو کيف يمکننا تحصيل الأخلاص؟ لا شک أنّ الإخلاص فی النيّة، هو وليد الإيمان واليقين العميق بالمعارف الإلهيّة، و کلّما کان الإنسان متيقناً علی مستوی التّوحيد الأفعالی، وأنّ کلّ شیء فی عالم الوجود يبدأ من اللّه تعالی ويعود إليه، وهو المؤثر الأول وعلّة العلل وأنّ الاسباب و العِلل الجليّة والخفيّة خاضعة لأمره وتدبيره، فحينئذٍ يکون سلوک هذا الإنسان مُنسجماً مع هذه العقيدة، بالمستوی الذی يکون فيه عمله فی غاية الخُلوص، لأنّه لا يری مُؤثّراً فی الوجود غير اللّه، يثير فی نفسه الدّوافع المضادّة للإخلاص، و الحرکة فی غير طريق التّوحيد. و عکست الرّوايات هذه الحقيقة، فقال الإمام علی عليه السلام: «الإخلاصُ ثَمَرَةُ اليَقِينِ» «۳». و عنه عليه السلام: «ثَمَرَةُ العِلْمِ إخلاصُ العَملِ» «۴». وأخيراً تناول الإمام علی عليه السلام المسألة بشیءٍ من التفصيل، فقال: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَ کَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصدِيقُ بِهِ، وَکَمالُ التَّصدِيقِ بِهِ، تَوحِيدُهُ، وَکَمالُ تَوحِيدِهِ الإخلاصُ لَهُ» «۵».

موانع الإخلاص:

أشار علماء الأخلاق الأفاضل إلی هذه المسألة إشارات دقيقة وواضحة، فقال البَعض، إنّ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۳۸ موانع الإخلاص وآفاته علی نحوين: جليّةٌ، و خفيّةٌ. فبعضها خطر جداً، و البعض الآخر أضعف، و الشّيطان و النّفس الأمّارة، يسعيان لتکدير صفاء القلب، و تلويثه بالرّياء، بالمستوی الذی يحوّل الإنسان إلی کيان مهزوزٍ، أمام حالات الخطر، و يشلّ فيه إرادة المُواجهة. فَبعضٌ من مراحل الرّياء واضحةٌ للعيان، بحيث يمکن لکلّ فرد التّوجه إليها، مثلما يأمر الشّيطان المصلی بالتوءدة بصلاته، کی يراه الناس ويقولوا هذا إنسانٌ مؤمنٌ، فلا يتحرّکون من موقع الغِيبة له و الوَقيعة فيه. فهذه من حيل الشّيطان الجليّة. و يمکن أن تکون وساوس الشيطان بصورةٍ أخفی حيث تتلبّس بلباس الطّاعة، فمثلًا، يلقی فی نفسک: أنّک إنسانٌ معروفٌ، و النّاس تشير إليک بالبَنان، و يجب أن تکون طاعتک وعبادتک علی أتمّ الصّيحة، لکی يقتدی بک الناس فی أعمالهم، وستکون شريکاً معهم فی ثوابهم، فَهنا ستستسلم لأحابيل الرّياء من دون أن تشعر. أو تکون الخُدع والحيل أشدّ وأقوی وأخفی فمثلًا يقول للمصلّی إنّ العبادة فی السرّ يجب أن تکون مثلها فی العلانية، والذی تکون عبادته فی السّر، أدنی مستوی من العلانية، يعتبر من المرائين، و بهذه الصّورة يدفعه ليحسن صلاته وينمّق عبادته فی الخفاء، ليکون کذلک فی صلاته أمام الناس، و هذا نوعٌ من الرّياء الخَفی، و يمکن أن يغفل عنه الکثيرون، وکذلک المراحل الأخفی والأشد «۱». نعم فإنّ آفات الإخلاص کثيرةٌ، و لا يستطيع أیّ إنسانٍ العبور منها، إلّابتوفيق ربّانی، و لطفٍ إلهی. و نجد هذا المعنی کذلک فی الرّوايات الإسلاميّة، حيث أتحفتنا بما يلزم، للتنبيه علی آفات الإخلاص ومنها: الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۳۹ ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام، حيث قال: «کَيفَ يَستَطِيعُ الإخلاصُ مَنْ يَغْلِبُهُ الهوی «۱». و فی الواقع فإنّ ما ذُکر فی الحديثٍ، آنفاً، هو أهم وأقوی آفات الإخلاص، نعم فإنّ هوی النفس، يکدّر عين الإخلاص و يُظلِمُها. و عنه عليه السلام، قال: «قَلِّلِ الآمالَ تَخْلُصُ لَکَ الأعمالُ» «۲». و الجدير بالذّکر، أنّ الوساوس يمکن أن تأتی بشکلٍ آخر، فتقول للمُصلی لا- تذهب لِصلاة الجماعة، لأنّ نيّتک يمکن أن تتلّوث بالرّياء أمام الناس، وعليک بإقامة الصّلاة فی بيتک، لکی تعيش أجواء الإخلاص فی خطّ العبادة و الصلاة، و تتخلص من براثن الرّياء!!. أو يدعوه لترک المستحبات لنفس السّبب، ليحرمه من ثوابها. ولعل هذا هو السّبب فی دعوة القرآن الکريم، للإنفاق بالسرّ و العَلانية: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «۳». و نختم بحثنا بملاحظةٍ مُهمّةٍ، ألا و هیَ، أنّ الإخلاص فی السرّ، ليس بتلک الدرجة من الصّعوبة والأهميّة، بل المهم هو أن يعيش الإنسان، حالة الإخلاص فی العلانية، و أمام مرأی و مسمعٍ من الناس.

معطيات الإخلاص:

بما أنّ حالة الإخلاص، تُمثّل أغلى جوهرةٍ تُحفظ فی خزانة الرّوح، و ما یترتّب علی هذه الحالة من معطیات إیجابیةٍ مهمّةٍ، فقد أوردت الرّوایات تلک المسألة، بصورةٍ بلیغةٍ جمیلةٍ، و منها: «ما أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ عَزَّوَعَلَّ أَربَعِینَ صَباحاً إلّاجَرَتْ یَنابِیعُ الحِکْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَی لِسانِهِ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۰ و فی حدیثٍ آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «عِنْدَ تَحقّقُ الإخلاصُ تَسْتَنِیرُ البَصائِرُ» «۱». وَ وَرد عنه علیه السلام أیضاً: «فِی إخلاصِ النّیّاتِ نَجاحُ الامورِ» «۲». و یتّضح من ملاحظة هذا الحدیث، أنّالنیّة کلّما أخلصت، کان الإهتمام بِباطن الأعمال أقوی، أو بتعبیرٍ أدق: إنّ الجَودة و الدّقة علی مستوی السّلوک و العمل، ستکون فی ذَروتها، ونجاح العمل سیکون مضموناً، و العَکس صحیحٌ، فإذا کان الهدف یترکز علی معالم الظاهر فقط، دون أن یولّی أهمیّةً للمحتوی، فسیکون مصیر العمل إلی الفَشل و الخَیبة. و لذلک قال أمیر المؤمنین علیه السلام: «لَو خَلُصَتِ النِّیّاتُ لَزَکَّتِ الأَعمالُ» «۳».

الرّیاء:

النقطة المقابلة للإخلاص هی: «الرّیاء»، و قد ورد ذمّه بکثرةٍ فی الآیات و الروایات الشریفة، التی نهرت النّاس من هذا العمل المُشین، و إعتبرته من أوضح مصادیق الشّرک الخفی، و علّة بطلان الأعمال، و علامة من علامات النّفاق. و نجد فیها أنّ الرّیاء یهدم الفضائل، و یزرع بذور الرّذائل فی روح الإنسان، وُ یشغله عن الهدف الأساسی الحقیقی، فی خطّ الرّسالة و الإستقامة. و هو أداةٌ قویةٌ مؤثرةٌ بید الشّیطان الرّجیم، لإضلال و صرف النّاس عن الطّریق الصّحیح، و تحویلهم من دائرة الإیمان، إلی دائرة الکفر و الإنحراف. و نعود هنا للآیات القرآنیة الکریمة، التی ترینا وجه المرائی القبیح، و النّتائج السلبیّة المترتّبة علی الرّیاء: ۱- «یَا أَیُّها الَّذِینَ آمَنُوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَی کَالَّذِی یُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۱ النَّاسِ وَلَا یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَیْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَکَهُ صَلْداً لَایَقْدِرُونَ عَلَی شَیْءٍ مِمَّا کَسَبُوا وَاللَّهُ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ» «۱». ۲- «فَمَنْ کَانَ یَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا یُشْرِکْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» «۲». ۳- «إِنَّ الْمُنَافِقِینَ یُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَی الصَّلَاةِ قَامُوا کُسَالَی یُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا یَذْکُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِیلًا» «۳». ۴- «وَالَّذِینَ یُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ یَکُنْ الشَّیْطَانُ لَهُ قَرِیناً فَسَاءَ قَرِیناً» «۴». ۵- «وَلَا تَکُونُوا کَالَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَیَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ» «۵». ۶- «فَوَیْلٌ لِلْمُصَلِّینَ* الَّذِینَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِینَ هُمْ یُرَاءُونَ* وَیَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» «۶».

تفسیر و إستنتاج:

«الآیة الاولی»: تبیّن أن المنّ بالصدقات و إیذاء الآخرین، یدخل فی عداد الرّیاء و یمحق أعمال الخیر، وتبیّن أنّ المرائی لا یعیش الإیمان باللّه ولا بالیوم الآخر، «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَی ...»، وبعدها یشبّه هؤلاء الناس بمثل الذی یُنفق أمواله من موقع الرّیاء: «کَالَّذِی یُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْآخِرِ ...». وجاء فی ذیل الآیة: تشبیهٌ جمیلٌ جدّاً لأعمالهم العقیمة، التی لا تثمر فی نطاق المعنویّات و ترتب الثّواب، فأعمالهم کالصّخر الذی یعلوه التراب، فیَشتَبه الفلاح فی أمره، فیبذر فیه البذور بأمل الخصب و الزّرع، فیأتی المطر ویزیل کلّ شیءٍ، فقال: «فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَیْهِ تُرَابٌ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۲ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَکَهُ صَلْداً». و من المؤکد أنّ مثل هذا العمل و الزرع، لن یثمر أو یورق، فکذلک سبحانه و تعالی، لا یهدی من ینطلق فی تعامله مع اللّه تعالی من موقع الرّیاء والکفر، «لَایَقْدِرُونَ عَلَی شَیْءٍ مِمَّا کَسَبُوا وَاللَّهُ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ». فعرّفت الآیة مثل هؤلاء الأفراد بالمرائین الذین لا یؤمنون باللّه ولا بالیوم الآخر، و مرّة اخری عرّفتهم بالکافرین، الذین تتحرک أعمالهم کالسّراب المخادع، الذی لا قیمة له، لأنّهم بذروا أعمالهم فی أرض الرّیاء السّبخة التی لا تصلح للزراعة، و یوجد إحتمال آخر فی تفسیر الآیة، و هو أنّ المرائی نفسه بمثابة قطعة الصّخر، التی لا یثبت علیها التراب، ولا یفید معه أیّ بذرٍ من بذور الخیر و الصّلاح. نعم! فأرواحهم مریضةٌ و

أعمالهم عقیمة، لا تقوم علی أساس من الخیر، و نیّاتهم مشوبة بدرن الرّیاء و الشّرک الخَفی. و اللّطیف: أنّ الآیة التی تلتها فی سورة البقرة، شبّهت أعمال المخلصین، بجُنینةٍ لا بذور فیها إلّا بذور الصّلاح، فأصابها وابلٌ فنبتت نَباتاً حسناً، فأثمرت ثمراً مضاعفاً و مُبارکاً فیها. «الآیة الثانیة»: خاطبت الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و أمرته بإیصال التّوحید الخالص للنّاس، إنسجاماً مع خطّ الرّسالة، و بإعتبار أَنَّ التّوحیدَ أصلٌ أساسی فی الإسلام: «قُلْ إِنّما أَنا بَشَرٌ مِثلُکُمْ یُوحی إِلَیَّ إِنّما إِلَهُکُم إِلهٌ واحِدٌ». و بذلک یستوحی المؤمن من جو الآیة الکریمة، أنّ الأعمال یجب أن تکون خالصةً و منزّهةً من أدران الشّرک: «فَمَنْ کَانَ یَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا یُشْرِکْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً». و علیه فإنّ الشّرک فی العبادة، یهدم أساس التّوحید، و الإعتقاد بالمعاد فی حرکة الإنسان و الحیاة، أو بتعبیرٍ أدق: فإنّ جواز السّفر إلی الجنّة الخالدة، یتمثل بِخُلوص العمل فی دائرة السّلوک و النّیة. و جاء فی شأن نزول الآیة: قال إبن عباس: أنّها نزلت فی جُندب بن زهیر العامری، قال: یا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۳ رسول اللَّه إنّی أعمل العمل للَّه‌تعالی، واریدبه وجه اللَّه تعالی، إلّاأنّه إذا إطّلع علیه أحد من الناس سرّنی؛ فقال النّبی صلی الله علیه و آله: «إِنَّ اللَّهَ طَیِّبٌ وَلا یَقْبَلُ إِلّا الطَّیِّبَ وَلا یَقْبَلُ ما شُورِکَ فِیهِ» «۱». وجاء فی شأن نزول الآیة أیضاً، قال طاووس: قال رجل: یا رسول للَّه! إنی احبّ الجهاد فی سبیل اللَّه تعالی واحبّ أن یری مکانی، فنزلت الآیة. «۲» وَ وَرد مثل هذا المضمون بالنّسبة للإنفاق وصِلة الرّحم «۳»، وتبیّن أنّ الآیة الآنفة: نزلت بعد الأسئلة المختلفة، فی الأعمال المشوبة بغیر الأهداف الإلهیّة، و قد إعتبرت المُرائی علی حدّ من یعیش حالة الشّرک باللَّه و الشّخص الذی لا إیمان له بالآخرة. و نقرأ فی حدیثٍ آخر، عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «مَنْ صَلّی یُرائی فَقَدْ أَشرَکَ، وَ مَنْ صامَ یُرائِی فَقَدْ أَشرَکَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ یُرائی فَقَدْ أَشرَکَ، ثُمَّ قَرَأ: فَمَنْ کانَ یَرجُوا لِقاءَ رَبِّهِ ...» «۴». «الآیة الثّالثة»: بیّنت أنّ الرّیاء هو من فعل المنافقین: «إِنَّ الْمُنَافِقِینَ یُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَی الصَّلَاةِ قَامُوا کُسَالَی یُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا یَذْکُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِیلًا». والجدیر بالذکر أنّ النّفاق عبارةٌ عن إزدواجیة الظّاهر والباطن، وکذلک الرّیاء فهو إزدواجیة الظاهر والباطن، حیث یتحرک المرائی فی أعماله لجلب الأنظار، فمن الطّبیعی أن یکون الرّیاء من برامج المنافقین. «الآیة الرابعة»: إعتبرت الأعمال التی ینطلق بها الإنسان من موقع الرّیاء، مساویةٌ لعدم الإیمان باللَّه تعالی والیوم الأخر: «وَالَّذِینَ یُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلَا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ یَکُنْ الشَّیْطَانُ لَهُ قَرِیناً فَسَاءَ قَرِیناً». و علیه فإنّ المرائین هم أصحاب الشیطان، الذین یفتقدون الإیمان الحقیقی بالمبدأ و المعاد. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۴ «الآیة الخامسة»: تنهی المسلمین من التشبّه بأعمال المشرکین الکفّار، الذین لا یفعلون شیئاً إلّاللریاء و التّفاخر فقط: «وَلَا تَکُونُوا کَالَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَیَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ». فطبقاً للقرائن و الشواهد الموجودة، وتصدیق المفسّرین، فإنّ هذه تشیر إلی خروج المشرکین من قریش فی یوم بَدر، بحلیّهم وزینتهم وقد جلبوا معهم آلات الطّرب و اللّعب و اللّهو و التبیذ، وهم یقصدون جلب أنظار أصحابهم من المشرکین الوثنیین. و جاء فی بعض التّفاسیر، أنّ منطقة بدر، کانت تعتبر من المراکز التّجاریة لعرب الجاهلیّة فی وقتها، و أنّ أبا جهل جاء بوسائل الطرب و الجواری، لغرض مُراءاة النّاس، وفَقْأ العیون کما یقول المثل الشّائع. و علی کلّ حال، فإنّ القرآن الکریم قد نهی المؤمنین من أمثال هذه الأعمال الشائنة، و دعاهم إلی ترویض النّفس بالإخلاص و التّقوی، للتغلب علی تلک الحالات النفّسیة الخطرة، و أن لا ینسوا مصیر المُرائین و أتباع الشّیطان فی معرکة بدر. «و الآیة الأخیرة»: من الآیات مورد البحث، نجدها تذّم الرّیاء ولکن بصورة اخری فتقول: «فَوَیْلٌ لِلْمُصَلِّینَ* الَّذِینَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِینَ هُمْ یُرَاءُونَ* وَیَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ». فقد جاءت کلمة «الویل»، فی (۲۷) مورداً من القرآن، و إختصّت فی الأغلب بالذّنوب الکبیرة الخطرة جدّاً، وهنا تحکی عن شدّة قُبح ذلک العمل فی واقع الإنسان و روحه. إنّ ما ورد فی الآیات الآنفة الذکر، یوضح إلی درجةٍ کبیرةٍ، قُبحَ هذه الخطیئة، و أخطارها و آثارها السلبیّة علی سعادة الإنسان فی حرکة الحیاة، و من الواضح فإنّ الرّیاء یقف حَجرَ عثرةٍ فی طریق تهذیب النّفس، و طهارة القلب و الرّوح للإنسان المؤمن.

الرّیاء فی الرّوایات الإسلامیّة:

تطرقت الرّوایات لهـذا الأمر بقوّةٍ و أهمیّـة بالغةٍ، و عرّفت الرّیاء بأنّه من أخطر الذّنوب، و منها: ۱- ما وَرد عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّه قـال: «أَخْوَفَ مـا أَخافُ عَلَیکُمْ الرّیاء و الشَّهوةُ الخَفِیّةُ» «۱». ویمکن أن یکون المراد من الشّـهوة الخفیّة، هو المقاصـد الخفیّة للریاء. ۲- و أیضـاً ما نقل عنه صـلی الله علیه و آله: «أَدنی الرِّیاءِ شِـرکٌ» «۲». ۳- وأیضـاً عنه صـلی الله علیه و آله: «لا یَقْبَلُ اللَّهُ عَملًا فِیهِ مِقدارُ ذَرَّةٍ مِنْ ریاءٍ» «۳». ۴- و عنه صـلی الله علیه و آله: «إِنَّ المُرائِی یُنادی یَومَ القِیامَةِ یا فاجِرُ یا غادِرُ یا مُرائی ضَلَّ عَمَلُکَ وَ حَبَطَ أَجْرُکَ إِذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَکَ مِمَّن کُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ» «۴». ۵- و قال أحد أصـحاب الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، رأیت رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فی یوم مـا باکیـاً، فقلت: ما یُبکیک یا رسول اللَّه؟ فقال: «إِنّی تَخَوَّفْتَ عَلی أُمَّتِی الشَّرکَ، أَمّا إِنَّهُمْ لا یَعْبُـدُونَ صَنَماً وَلا شَمْساً وَ لاقَمَراً وَلا حَجرَاً، وَلَکِنَّهُم یُراؤُونَ بِأَعْمالِهِم»». ۶- و فی حدیث آخر عنه صلی الله علیه و آله قال: «إِنَّ المَلَکَ لَیَصْعَدُ بِعَمَلِ العَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ فَإِذا صَعَدَ بِحَسَناتِهِ یَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِجْعَلُوها فِی سِجِّینٍ إِنَّهُ لَیسَ إِیَّایَ أَرادَ بِها» «۶». ۷- و أیضاً عنه صـلی الله علیه و آله: «یَقُولُ اللَّهُ سُبْحانَهُ إِنِّی أَغْنَی الشُّرَکـاءِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا ثُمَّ أَشْرَکَ فِیهِ غَیری فَأَنَا مِنْهُ بَرِیءٌ وَهُوَ لِلَّذِی أَشـرَکَ بِهِ دُونِی» «۷». هـذه الأحادیث السّـبعة عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله، بیّنت أنّ إثم الرّیاء بدرجـةٍ من الشـدّة، بحیث لا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۶ یضاهیه شـیءٌ من الذّنوب و الخطایا، و ما ذلک إلّاللنتائج السّـیئة للرّیاء فی نفس وروح الإنسان، وکذلک علی مستوی الفرد والمجتمع. أمّا ما ورد عن الأئمّـة علیهم السـلام: ۸- ما ورد عن الإمام الصادق علیه السـلام، ینقل عن جـدّه علیه السـلام: «سَـیأَتِی عَلَی النَّاسِ زَمانٌ تَخْبَثُ فِیهِ سَـرائِرهُمْ وَتَحْسُنُ فِیهِ عَلانِیَّتِهِم، طَمَعاً فی الـدُّنیا لا یُریدُونَ بِهِ ما عِنْدَ رَبِّهِم یَکُونَ دِینُهُمْ رِیاءً، لایُخالِطُهُم خَوْفٌ، یَعُمُّهُمُ اللَّهُ بِعِقابٍ فَیَدْعُونَهُ دُعاءَ الغَرِیقِ فلا یَسْتَجِیبُ لَهُمْ» «۱». ۹- و فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، أنّه قال: «کُلُّ رِیاءٍ شِرْکٌ، إِنَّهُ مَنْ عَمِـلَ لِلنَّاسِ کانَ ثَوابُهُ لِلنّاسِ، وَ مَنْ عَمِلَ لِلَّهِ کانَ ثَوابُهُ عَلَی اللَّهِ» «۲». ۱۰- و فی حدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام، قـال: «المُرائِی ظاهِرُهُ جَمِیلٌ وَ باطِنُهُ عَلِیلٌ» «۳». و قـال أیضاً: «ما أَقْبَحَ بِالإِنسانِ باطِناً عَلِیلًا وَ ظاهِراً جَمِیلًا» «۴». و مـا ورد عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، و عن الأئمّة الهداة، فی هذا المجال کثیر.

فلسفة تحریم الرّیاء:

قـد یتعجّب البعض الذین یعیشون السّذاجة الفکریّة، عند نظرهم و للوهلة الاولی، للروایات التی تتعرض لمسألة الرّیاء، و نتائج المرعبة، و یتصورون أنّ عمـل الإنسـان إذا کـان سـلیماً ومنتجـاً فی واقعه الخـارجی، فأیّـاً کانت النیّـة و الـدّافع، فلن یؤثر ذلک فی تغییر العمل، فالـذی یبنی مُستَشـفاً! أو مسـجداً أو یعبّـد الطّرق و الجسور .. و غیرهـا من الامور التی تصبّ فی الصّالـح العام للناس، فعمله صـحیحٌ و حسنٌ مهمـا کـانت نیّته، فلْنـدَعِ النّاس یفعلوا الخیر، وما لنا والنیّـة!! الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۷ ولکن الخطأ الفادح یکمن هنا لأنّـه: أولًا: إنّ کـلّ عمـلٍ و فعلٍ یترتب علیه نوعان من ردود الفعل، أحـدهما ما ینعکس أثره فی نفس الإنسان، والآخر ما یترتب علی الفعل فی الخارج، فالمُرائی یحطّم نفسه من الدّاخل و یُبعدها عن التّوحید و الدّین الحنیف، و یوقعها فی وادی الشّرک، و یعتبر عزّته و إحترامه رهنٌ بیـدَ النّاس، و ینسـی قُـدَرة الباری تعالی فی دائرة التّصـرف فی عالم الوجود، و بهـذا یکون الرّیاء نوعاً من الشّـرک باللَّه تعـالی، و یُفضـی إلی نتائـج وخیمـة علی مسـتوی الأخلاق و القِیَم الإنسانیـة. و ثانیاً: بالنّسبة للعمل الخارجی، الـذی یقصـد به الرّیاء و السّـمعة، فالمجتمع هو الخاسـر الأوّل فی هـذا المضـمار، لأنّ المرائی یسـعی لتحسـین عمله، علی مسـتوی الظّاهر فحسب دون الإهتمام بالباطن، ممّا یُفضـی إلی تحویل العمل، إلی إنحراف و إفسادٍ علی المسـتوی الإجتماعی. و بعبارةٍ اخری: إنّ المجتمع الـذی یتّخـذ من الرّیاءِ مرکباً، فی ممارسات الأفراد، سیکون کلّ شیءٍ فیه بلا مُحتوی، ک: (الثقافة، الإقتصاد، السیاسة، الصحة والنظام والقوی الدفاعیة) و کلّها ستهتم بالظّاهر فقط، ولا یکون الهدف منها نیل السّعادة الحقیقیّة للأفراد، بل سیرکضون وراء کلّ شیءٍ برّاقٍ و جمیلِ الظاهر، و أمّا باطنه، فاللَّه العالم. و هـذا النّوع من الإتجاه، یورد صـدمات و ضـربات و مضـرّات فی حرکـة الواقع الإجتماعی، لا تخفی علی ذهن الفطن الکیّس.

علامات المُرائی:

قد یصاب بعض الأشخاص، لدی مطالعتهم لتلک الأحادیث التی تُشدّد علی المرائی بالوسَوسة النّاشئة من الإبهام فی تشخیص موضوع الرّیاء، و رغم أنّ التَحذیر بالإنسان التّشدید فی مسألة الرّیاء، لأنّ نفوذه خفیٌّ جدّاً، وکم حَدَث للإنسان، أن یعمل عملًا ویبقی لفترةٍ طویلةٍ غیر ملتفتٍ لأصابته بالرّیاء، کالقصّة المعروفة عن أحد المؤمنین السّابقین، حیث نقل عنه، أنّه قضی صلوات جماعته کلّها، التی صلّاها فی سنوات من عمره الطویل، ولمّا سألوه عن السّبب قال: إنّی کنت دائماً اصلّی الجماعة فی الصّف الأول، وفی یوم من الأیّام تأخّرت الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۸ بعض الشّیء، فلم أجد مکاناً فی الصّف المقدّم، فإضطررت للوقوف خلف الجمیع، فشعرت فی نفسی بالأذی من ذلک، و تنبّهت لهذه المسألة، فأعدت جمیع الصّلوات لأنّها کانت ریاء؟! بالطّبع، الإفراط و التّفریط فی هذه المسألة، مَثَلُه کَمَثَلِ بقیّةِ المسائل، غیر محمودٍ، و خطأٌ محضٌ، و المفروض التَّنبّه للریاء من خلال تتبع مقدماته و علاماته، و لا نَدع مجالًا للوساوس فی إطار إکتشاف هذه الحالة السّلبیة، فی دائرة السّلوک الخارجی، و الواقع النّفسی، و لعلماء الأخلاق الأفاضل أبحاثٌ لطیفةٌ فی هذا المضمار، و منهم العلّامة المرحوم الفَیض الکاشانی؛، فقد طرح سؤالًا فی کتابه: «المحجّة البیضاء»، و قال: فبأیّ علامةٍ یُعرف العالم و الواعِظ، أنّه صادق مخلصٌ فی وعظه، غیر مریدٍ رثاء النّاس؟. قال فی جواب هذا السؤال: «فاعلم أنّ لذلک علاماتٍ، إحداها أنّه لو ظهر من هو أحسن منه و عظاً و أغزرُ منه علماً، و النّاس له أشدّ قبولًا، فرح به ولم یحسده، نعم لا بأسَ بالغِبطة، و هی: أن یتمنّی لنفسه مثل عمله، والاخری أنّ الأکابِر إذا حَضروا مجلسه لم یتغیّر کلامه، بل یبقی کما کان علیه، فینظر إلی الخلق بعینٍ واحدةٍ، و الاخری: أن لا یحبّ إتّباع النّاس له فی الطریق، و المشی خلفه فی الأسواق، و لذلک علاماتٌ کثیرةٌ یطول إحصاؤها» «۱». و أفضل المعاییر لمعرفة المرائی من غیره، هو ما وردنا عن الأئمّة الأطهار، ومن جملة الأحادیث: ۱- فی حدیثٍ عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، قال: «أَمّا عَلامَةُ المُرائی فَأَرْبَعَةٌ: یَحْرُصُ فی العَمَلِ لِلَّهِ إذا کانَ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَیَکْسَلُ إذا کانَ وَحْدَهُ وَ یَحْرُصُ فی کُلِّ أَمْرِهِ عَلَی المَحمَدَةِ وَیُحْسِنُ سَمْتَهُ بِجُهْدِهِ» «۲». ۲- وَ وَرد فی نفس هذا المعنی فی حدیثٍ عن أمیرالمؤمنین، بألفاظٍ جمیلةٍ، فقال: «لِلمُرائی أَرْبَعَةُ عَلاماتٍ: یَکْسَلُ إذا کانَ وَحدَهُ، وَ یَنْشُطُ إذا کانَ فی النّاسِ، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۴۹ وَ یَزیدُ فی العَمَلِ إذا اثنِیَ عَلَیهِ، وَیَنْقُصُ مِنْهُ إذا لَمْ یُثْنَ عَلَیهِ» «۱». و ورد نفس هذا المعنی عن لقمان الحکیم أیضاً «۲». و خلاصة القول: إنّ کلّ عملٍ، کان القصد منه المباهاة للناس، فهو دلیلٌ علی الرّیاء، و مهما کان هذا القصد غامضاً و خفیّاً فی دائرة الوعی، فهو دلیلٌ علی إزدواجیّة شخصیّة الإنسان فی التعامل مع نفسه، فی الخلأ والملأ. و هذا الأمر فی الحقیقة بالغ فی الدقّة و الغموض، لدرجةٍ أنّ الإنسان یخدع وجدانه و ضمیره، بإتیان نفس الأعمال التی یأتی بها فی الملأ، و بدرجةٍ عالیةٍ من الجودة و الحُسن، فی خلوته لیقنع نفسه أنّه لا یُرائی، لأنّه یساوی بأعماله فی الظّاهر والباطن، ولکنّ الحقیقة هی إزدواجیّة ذلک الشّخص، ففی کلا الحالتین یکون مرائیاً. بالطّبع یجب إجتناب الإفراط و التّفریط فی هذه المسائل، لأننا وجدنا اناساً إمتنعوا من أداء کثیرٍ من الواجبات و حُرموا من الثّواب حذراً أو خوفاً من الرّیاء، فلم یؤلّفوا کتاباً، ولم یرشدوا أحداً من النّاس، ولم یصعدوا المنابر، لا لِشیءٍ إلّالأنّهم کانوا یعیشون الخوف من الوقوع فی الرّیاء؟! و قد ورد فی الرّوایات، أنّ من یقصد القُربة إلی اللّه تعالی، إذا أتی بعملٍ ما علانیةً، و عرف به الناس وفرح هو من ذلک، ما دام قصده هو التّقرب إلی اللّه سبحانه و تعالی، فلن یؤثّر ذلک علی عمله «۳». و لا یخفی علی القارىء الکریم، أنّ القصد من هذا الأمر، هو تشجیع النّاس إلی سلوک طریق الخیر و الصّلاح، و إمضاء أعمالهم المتقرّب بها إلی اللّه تعالی، فی السّر و العلانیة، والمهم هو قصد القُربة و إخلاص النیّة فقط. و جاءت الآیات و الرّوایات، مؤکّدةً لهذا المعنی، وحثّت الإنسان علی الإنفاق و التّصدق الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۰ فی السرّ و العلانیة، وهذا إن دلّ علی شیءٍ فإنّه یدلّ علی إمکانیّة الإتیان بالأعمال علانیةً، و بدوافع إلهیّة بعیداً عن الرّیاء. و یوجد خمسُ آیاتٍ شجّعت علی الإنفاق سرّاً و علانیةً، أو سِرّاً وجهراً «۱». مضافاً إلی أنّ قسماً کبیراً من العبادات، یؤدّی فی العلانیة، فإذا مالم یتسلط الإنسان علی نفسه فی خط الإلتزام الدینی، و یُمسک بزمامها فی دائرة النّوازع الذاتیّة، فَسیخسر هو و المجتمع کثیراً

من أشكال الثّواب و الخير، وستختل أركان بعض العبادات فی خطّ الممارسة والعمل.

علاجُ الرِّياء:

يوجد طريقان لِمُعالجة حالة الرّياء، فالرّياء مَثَلُه كَمَثَلِ سائر الأخلاق السلبيّة و السّلوكيّات الذّميمة، ففی بادیء الأمر، علينا التّركيز على معرفةِ العِلَل، و جذور هذه الحالة السّلبية فی الواقع النّفسی، لأجل القضاء عليها، ثم التّحرك نحو دراسة عواقبها المؤلمة، و الكشف عنها فی عمليّة التّصدی لها، و توخی جانب الحَذر منها. بالطّبع لقد أشرنا آنفاً، أنّ الرّياء هو: «الشّرك الأفعالی»، و الغفلة عن حقيقة التّوحيد، فإذا ما تأصلت حقيقة التّوحيد الأفعالی فی قلوبنا، و إستحكمت فی نفوسنا، و إستيقنّا أنّ العزّة للّه جميعاً، من موقع المشاهدة الوجدانية، و رأينا أنّ الرّزق والضرّ و النّفع بيده و هو المسخّر للقلوب، فسوف لن نختار سواه بدلًا، ولن نُدنّس أنفسنا و أفعالنا بحالة الرّياء الشّنيعة، التی لا تنسجم مع خطّ التّوحيد فی دائرة الأفعال، فالذی يعيش اليقين الرّاسخ بهذه الحقيقة، و هی أنّ مَنْ يكون مع اللّه تعالى، يكون كلّ شیءٍ معه، و بدونه فهو لاـ شیء، ويری بعين البصيرة، مِصداق قوله تعالى: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِی يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۱ وإذا أدركنا هذه الحقيقة القرآنية التی تقرر أنّ العزّة للّه‌تعالى: «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» «۱». أجل إذا ترسّخ الإيمان بهذه الحقائق الإيمانيّة فی أعماق الرّوح، فلا يجد الإنسان فی نفسه باعثاً على الرّياء و النّفاق، و كسب الجاه والمقام لدی الناس و المُفاخرة و المُباهاة. و قال بعض علماء الأخلاق، إنّ دعامة الرّياء وأساسِه هو حبّ الجاه و المُقام، و عند تحليلنا لمفهوم الرّياء، نجد أنّه يتكون من ثلاثة أركانٍ: «حبّ الثّناء والمدح من الناس»، و «الفرار من مذمّتهم»، و «الطّمع لِما فی أيديهم». ثم يضرب لذلك مثلًا و هو المجاهد فی سبيل اللّه، فتارةً يكون قصدُه المُباهاة و المفاخرة، و إظهار شجاعته وبطولاته للناس، واخری خوفاً من أن يتّهمه الناس بالجُبن و الخوف، و ثالثةً يكون دافعه الحصول على الغنائم، و الفائز الوحيد، هو الذی يدافع عن الحقّ و الدّين لا غير. هذا من جهةٍ، و من جهةٍ اخری، عندما يتأمل الإنسان فی سلبيات الرّياء و أضراره ونتائجه القاتلة، نری أنّه كالنّار التی تقع على عبادات الإنسان و طاعاته، فتحوّلها إلى رماد تذروه الرّياح، ولاـ يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل هو ذنبٌ عظيمٌ يسوّد وجه صاحبه فی الدّنيا و الآخرة ... الرّياء: حشرة الإرضة التی تَنخر دَعامات بيت سعادة الإنسان، لينهار به فی وادٍ سحيقٍ من الشّقاء و الظلّام .. و الرّياء بدوره نوعٌ من أنواع الكفر و النّفاق و الشّرك ... و الرّياء يسحق الشّخصيّة و الحريّة و الكرامة، و أشدّ النّاس بؤساً يوم القيامة، المراؤون. فهذه حقائقٌ تردع الإنسان، و تبعده عن ذلك الأمر الشّنيع. و لا ننسی أنّ المرائی سيفتَضِح، إن عاجلًا أو آجلًا فی هذه الدّنيا، و ستظهر حقيقته الزّائفة على فلتات لسانه و شَطحات كلماته، وهذا العامل له قسطٌ من التأثير فی عمليّة الرّدع النّفسی، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۲ لحالة الرّياء فی واقع الإنسان، مضافاً إلى أنّ لذّة العمل الصالح، و النيّة الطيّبة التی تطرأ على الإنسان، لاـ تقاس بشیءٍ، و هو أمرٌ يكفی لإخلاص النيّة. و يعتقد البعض، أنّ إحدی طرق المعالجة، هی السّعی إلى إخفاء العبادات و الحسنات، و لا يُمارسها فی العلن، ليتخلّص تدريجيّاً من هذه العقدة المستعصيّة فی الذّات المرائيّة. ولكن هذا لا يعنی، عدم الحضور فی صلاة الجَماعة و الجُمعة و الحج، لأنّها تعدّ أيضاً خسارةً كُبری لا تُعوّض.

هل النّشاط فی العبادة يُنافی الإخلاص؟

يُراود هذا السّؤال أذهان الكثيرين، و هو أنّهم يشعرون بنشاطٍ روحی، بعد الإتيان بالعبادة بالمستوی المطلوب، فهل أنّ هذا الشّعور بالنّشاط، يتقاطع مع الإخلاص، أو أنّه علامةٌ على الرياء؟. و الجواب: أنّ النّشاط إذا إستمدّ اصوله، من التّوفيق الإلهی و النّور المعنوی المستقی من العبادة، و معطياتها على روح الإنسان، فلاـ تَثريب ولا ضير، و لا يُنافی الإخلاص فی النيّة، أمّا لو كان النّشاط ينشأ من

مشاهـدة النـاس له، فـإنّه يُنافی الإخلاص، رغم أنّه لا يكون سـبَباً فی بُطلان الأعمال، شـريطةَ أن لا يتغيّر مقـدار و كيفيّـة العمل بسـبب مشاهـدة الناس له. وَ وَرد هـذا المعنی فی الرّوايات الإسـلاميّة: منها ما وَرد عن أحـد أصـحاب الإمام الباقر عليه السـلام، أنّه قال: سألتُ الإمام عليه السلام، عن الرّجل يعمل الشّیء من الخير، فيراه إنسانٌ فيسّره ذلك. قال عليه السلام: «لا بَأْسَ، ما مِنْ أَحَدٍ إلا وَهُوَ يُحِبُّ أنْ يَظْهَرَ لَهُ فی النّاسِ الخَيرُ، إذا لَمْ يَكُنْ صَنَعَ ذَلِكَ لـذَلِكَ» «۱». و فی حـديثٍ آخر عن أبی ذر رحمه الله،- عنـدما سأل الرّسول الأكرم صلی الله عليه و آله-، قـال: قلت يا رسول الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۳ اللّه: الرّجل يعملُ العمل لنفسه و يحبّه الناس. قال صـلی الله عليه و آله: «تِلكَ عاجِلُ بُشری المُؤمِنِ» «۱».

ما الفرق بين الرّياء و السّمعة:

هـذا سؤال يفرض نفسه أيضاً، فهل يوجـد فرق بين الرّياء و السّـمعة؟، و هل أنّهما يتنافيان مع إخلاص النيّـة، و يوجبان بطلان العمل؟. الجواب: الرّياء: هو فعل الخير أمام مرآی و مسمع من النّاس، لكسب الوجاهة لديهم، و ليشار إليه بالبنان من موقع المدح و الثّناء. و أمّا السّـمعة، فهی أداء أفعـال الخير بعيـداً عن أنظـار النّاس، ولكن لِيُفهمَهم لاحقاً أنّه هو الـذی فعل هـذه الامور، ليكتسب بـذلك و جاهةً لديهم، والحقيقة أن الدّافع لِكِلا الإثنين غير إلهی، فالأوّل يؤدّی عمل الخير أمام مرآی الناس، و الثّانی بصورةٍ غير مُباشـرةٍ و عن طريق السّـماع، ولا فرق بينهما فی دائرة فساد النيّة، و بطلان العمل و فقدان قصد القربة. ولكن إذا فسّرنا السمعة بأنّها أداء الفعل بقصد القُربّة، ولكن إذا علم النّاس فی الآجل و مـدحوه و أثنوا عليه، فإنّه يفرح بذلك، فلا شكَّ بأنّ هذه الحالة لا توجب بُطلان العمل. و يمكن أن يتحرك الإنسان فی سـلوكيّاته و أعماله، بقصد القُربة المطلقة، ولكنّه يرويها للناس بعد ذلك ليحتل مكانةً بينهم، «و هذا العمل يُسمی بالرّياء اللّاحق»، فهـذا السّـلوك أيضاً لا يُبطل العمل، لكنّه يُقلّل من قيمته إلی أدنی حـدّ، وخصوصاً من النّاحية الأخلاقيّة. و قد تحدّث بعض من كبار الفُقهاء، عن كيفيّة نفوذ و توغّل الرّياء فی أعمال الإنسان، و قالوا أنّها علی عَشـرِ صُوَرٍ: الصّورة الاولی: أن يكون قصده من الفعـل: مشاهـدة النّـاس له، و لاـ شكّ ببطلانها. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۴ الصورة الثّانيـة: أن يكون الهـدف فيها البارئ تعالی، و الرّياء مَعاً، و هـذه الحالـة أيضاً موجِبـةٌ: للبطلان و الإحباط. الثّالثة: أن يُرائی فی جزءٍ من الأعمال الواجبة، كما لو مارس الرّياء فی الرّكوع، أو السّـجود وحـده فی الصّـلاة الواجبة، و لا شك فی كونه يسـتوجب البُطلان، حتی لو كان هناك مجالًا للإسـتدراك، و حاله حالَ ما لو فقد وضوءه وهو فی أثناء الصّلاة، و إن كان الأحوط أن يأتی بالجزء الذی وقع فيه الرّياء، ثم إعادة الصّلاة بعد الإنتهاء. الصّورة الرّابعـة: الرّياء فی الجزء المسـتحب، كما فی القُنوت، فهو أيضاً من دواعی البُطلان. الخامسـة: أصلُ العمل و القَصد، يكون اللّه تعالی، ولكنّه يؤدّيه فی مكانٍ عام: (كالمسـجد)، من دون قصـد ربّانی فيه، وهو باطلٌ أيضاً. السّادسة: أن يُرائی فی وقت العمل، فأصـل الصّـلاة للّه‌تعالی، و لكنّه يُرائی فی أدائها فی أوّل وقتها، فعمله باطلٌ أيضاً. السّابعـة: أن يُرائی فی بعض خُصوصـيات و أوصاف العمل، كمـا لو صـلّی الجماعـة، و هو فی حالـةٍ من الخشوع والخضوع المُفتعلـة، وهو باطلٌ أيضاً، فالموصوف يتبع الأوصاف فی هـذه الحالـة. الثّامنة: أن تأتی بالعمل قربةً إلی اللّه، ولكنّه يرائی فی مقدّمات العمل، فيذهب إلی المسجد بقصد الصّلاة و الثّواب، ولكنّ حركته نحو المسـجد بقصـد الرّياء. فالكثير من الفُقهاء لا يرون بُطلان العمل لمثل هذا النوع من الرّياء، لأنّ مقدّمات الرّياء حدثت بعيداً عن العمل، وهو ما تقتضـيه القاعـدة الفِقهيّة. التّاسـعة: أن يُؤدّی بعض الأوصاف الخارجيّة بنيّة الرّياء، كما لو صـلّی للّهِ تعالی، ولكنّه يحنّك نفسـه رياءً، فالبِّرغم من قبـح هـذا العمل، ولكنّه لا يُبطل الصـلاة. «۱» عاشـراً و أخيراً: أن يتحرّك فی إتيـانه بالعمل، من موقع القربـة المطلقة للّه‌تعـالی، ولكن إذا الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۵ شاهـده الناس، فإنّه يشـعر فی قرارة نفسه بالفرح، من دون أن يؤثّر ذلك علی كيفيّـة العمل، فهـذا القسم لا يوجب البُطلان أيضاً، لأنّه لا يعـدّ من الرّياء. و نصل هنا إلی نهاية بحثنا حول الرّياء، و إن كنّا قد أعرضـنا عن كثيرٍ من الامور، إجتناباً للتّطويل.

الخطوة السّابعة: السّكوت و إصلاح اللّسان

اشارة

تناولت الرّوايات الإسلاميّة هاتين المسألتين، بمزيدٍ من الإهتمام، و كذلك علماء الأخلاق، أكّدوا عليهما فی أبحاثهم التّربوية، لإعتقادهم أنّ السّير و السّلوك إلى اللّه تعالى، لنْ يتحقّق فی واقع الإنسان إلّابالسّكوت، و حفظ اللّسان من الذنوب التی قد يقع الإنسان فيها من خلال الكلام، و إن كان، قد أتعب نفسه فی الرياضات الرّوحيّة و أنواع العبادات. أو بتعبيرٍ أدَقْ: إنّ مفتاح مسيرة التهذيب والسّلوك إلى اللّه تعالى هو الإلتزام بِهَذَينك الأمرين، ومن لم يستطع السّيطرة على لسانه، فلن يُفلح فی الوصول، إلى الأهداف السّامية و المقاصد العالية. و بعد هذه الإشارة نعود إلى بحثنا الأساسی، و دراسة الآيات و الرّوايات التی وَرَدت فی هذا المِضمار.

السّكوت فی الآيات القرآنيّة الكريمة:

فی كِلا المَوردين، إعتبر القرآن الكريم، هذه المسألة من القيم السّامية، فی خطّ الإيمان و الأخلاق، ففی بادِیء الأمرِ، إستعرض قصّة مريم عليها السلام، فعندما كانَت فی وضعها المُتأزّم، و تفكيرها فی حملها و حالة الطلق التی أصابتها، و وحدتها فی تلك الصّحراء المريعة، و قد هوّمت نحوها الهُموم من كلِّ جانب، و أشدّها إفتراءات بنی إسرائيل عليها، فتمنّت الموت فی تلك السّاعة من بارِئها، ولكن جاءها النّداء، أن لا تحزن و لا تغتم، فإنّ اللّه معها و هو الذی يتكفّل الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۶ أمرها، وهذا ما تُحدِّثنا به الآيات التالية: «فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنی مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً* فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنی قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً* وَهُزِّی إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْعَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً* فَكُلِی وَ اشْرَبی وَقَرِّی عَيْناً فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولی إِنّی نَذَرْتُ لِلرَّحْمانِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً» «۱». و إختلف المفسّرون فی الذی نادی مريم عليها السلام، فقال بعضهم: إنّه جِبرائيل عليه السلام، و سياق الآية قرينةٌ على هذا المعنی، و قال البَعض الآخر، كالعلّامة الطّباطبائی رحمه الله، إنّه إبنها عيسى عليه السلام، و كلمة: «من تحتها»، تناسب هذا المعنی، لأنّه كان بين أقدامها، علاوة على أنّ أغلب الضّمائر فی الآية الشّريفة، تعود على المسيح عليه السلام، و تَتناسب أيضاً مع كلمة «نادی»، و على كلٍّ فإنّ مَحطَّ نظرنا، هو الأمرُ بنذر السّكوت، فأيّاً كان المُنادی، جبرائيل عليه السلام، أو المسيح عليه السلام، فإنّ المهم هو، أنّ ذلك النّذر، يفضله ويرجّحه البارى تعالى، و خصوصاً أنّ ذلك الأمر، كان سائداً فی وقتها، و هو من الأعمال التی يُتقرّب بها إلى اللّه سبحانه وتعالى، فلذلك لم يعترض على مريم عليها السلام أحد، بالنّسبة إلى هذا العمل بالذّات. و يوجد إحتمالٌ آخرٌ لصوم مريم عليها السلام، و هو الصّوم عن الطّعام و الشّراب، بالإضافة لصوم السّكوت. أمّا فی الشّريعة الإسلاميّة، فإنّ صوم السّكوت حرام، لتغيّر الظّروف المكانيّة و الزمانيّة، و قد وَرد عن الإمام على بن الحسين السّجاد عليه السلام، أنّه قال: «وَصَومُ الصَّمتِ حَرامٌ» «۲». وَ وَرد فی نفس هذا المعنی فی حديثٍ آخر، فی وصايا النّبی الأكرم صلى الله عليه و آله، إلى الإمام على عليه السلام «۳». وَ وَرد عن الإمام الصّادق عليه السلام، أنّه قال: «وَ لا صَمْتَ يَوماً إِلَى اللّيلِ» «۴». و الطّبع، فإنّ من آداب الصّوم عندنا، هو المحافظة على اللّسان و باقی الجوارح من الذّنوب، قال الإمام الصادق عليه السلام فی هذا الصّدد: «إنّ الصّومَ لَيسَ مِنَ الطّعام و الشَّرابِ وَحْدَهُ إِنَّ مَريَمَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۵۷ قَالَتْ إِنّی نَذَرتُ لِلرَّحمانِ صَوماً أی صَمْتاً فَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُم وَغُضُّوا أَبْصارَكُم» «۱». و من هذه الآية و الرّوايات الشّريفة، التی وردت فی تفسيرها، تتبيّن أهميّة و قيمة السّكوت، فی خطّ التّربية و التّهذيب. و فی الآية (۱۰) من نفس السورة، توجد إشارةٌ اخرى لفضيلة السّكوت، و ذلك عندما وهب البارى تعالى يحيى عليه السلام، لنبيّه الكريم زكريّا عليه السلام، فخاطب البارى تعالى، و قال: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لی آيَةً»، فقال له: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً»، ولا تحركه إلّا بذكر اللّه. و صحيح أنّ هذه الآية لم تَحمد ولم تَذم السّكوت، ولكن قيمة السّكوت تتّضح، من جعله: آيةَ النّبى زكريا عليه السلام. وورد نفس هذا المعنى، فى الآية (۴۱) من سورة آل عمران، فبعد تلقّيه البشارة من البارى تعالى، طلب أن يجعل له آيةً فى دائرة تقديم الشّكر للبارى تعالى، فقال له: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً». و إحتمل بعض المفسّرين، أنّ إمتناع زكريا عليه السلام عن الكلام، كان بإختياره ولم يكن مجبوراً عليه، والحقيقة أنّه كان مأموراً بالسّكوت لمدّة ثلاثة أيّام. يقول الفَخر الرّازى، نقلًا عن «أبى مسلم»: أنّ هذا النحو من التّفسير جميلٌ و معقولٌ، لكنّه مخالفٌ لسياق الآية، فزكريّا عليه السلام طلب آيةً لمّا بُشّر بيحيى و السّكوت الإختيارى لا يكون دليلًا على هذا المعنى، إلّابتكلّف وتحميل على المفهوم من الآية الشّريفة. و على أيّةِ حال فإنّ هذا الاختلاف فى تفسير الآية، لا يُؤثّر على ما نحن فيه، لأنّ غرضنا من إيراد هذه الآيات، هو التّنويه بقيمة السّكوت فى القرآن الكريم، بإعتباره آيةً من الآيات الإلهيّة.

السّكوت فى الروايات الإسلاميّة:

ما ورد عن: «الصّمت»، فى الروايات الإسلاميّة، أكثر من أن يُحصى فقد أشارت الروايات إلى عدّة نقاطٍ وملاحظاتٍ دقيقة وهامة جدّاً فى هذا الصّدد، و بيّنت ثمرات جميلةً للصّمت، و منها: ۱- دَور السّكوت فى تعميق التّفكير، و ثبات العقل، فقد قال الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «إذا رَأَيْتُمْ المُؤمِنَ صَمُوتاً فَادْنُوا مِنْهِ فَإِنَّهُ يُلْقى الحِكْمَةَ، وَالمُؤمِنُ قَليلُ الكَلام كَثِيرُ العَمَلِ وَالمُنافِقُ كَثِيرُ الكَلام قَلِيلُ العَمَلِ» «۱». ۲- و جاء عن الإمام الصّادق عليه السلام، أنّه قال: «دَلِيلُ العاقِلِ التَّفَكُّرُ وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ الصَّمتُ» «۲». ۳- ما ورد عن الإمام على عليه السلام، أنّه قال: «أَكْثِرْ صَمْتَكَ يَتوفَر فِكْرُكَ و يَستَنيرُ قَلْبُكَ وَ يَسلَم النّاسُ مِنْ يَدِكَ» «۳». فيظهر من هذه الرّوايات، العلاقة الوثيقة الدقيقة، التى تربط التّفكر بالسّكوت، و دليله واضح، لأنّ القوى الفكريّة سوف تفقد التوحّد و الإنسجام، و تصيبها حالةٌ من التّشتت و الإنفلات، فى حالات الكلام الزّائد، و عندما يتخذ الإنسان السّكوت جِلباباً له، فستَتَمركز قِواه الفكريّة، ممّا يعينه على التّفكير الصّحيح، و بالتّالى إنفتاح أبواب الحِكمة بِوَجهه، ولا يُلقى الحكمة إلّاذو حَظٍّ عظيم. ۴- يُستَشفّ من بعض الأخبار، أنّ السكوت هو أهمّ العبادات، فنقرأ فى مواعظ الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله، لأبى ذر رحمه الله، قال: «أَرْبَعَ لا يُصِبنَ إلّامُؤمِنْ، الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلَ العِبادَةِ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۵۹ ۵- و يُستفاد من الرّوايات الواردة، أنّ كثرة الكلام تزرع القساوة فى القلب، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، حديثٌ يقول فيه: «كانَ المَسِيحُ عليه السلام يَقُولُ لاتكثروا الكَلامَ فى غَيرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ الَّذِينَ يكْثِرُونَ الكَلامَ فى غَيرِ ذِكْرِ اللَّهِ قاسِيَةٌ قُلُوبُهُم وَلَكِنْ لايَعْلَمُونَ» «۱». ۶- ما ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، أنّه قال: «إِنَّ الصَّمْتَ بابٌ مِنْ أَبوابِ الحِكْمَةِ، إِنَّ الصَّمْتَ يَكْسِبُ المَحَبَّةَ إِنَّهُ دَليلٌ عَلَى كُلِّ خَيرٍ» «۲». فقوله إنّ السّكوت يكسب المحبّة، لأنّ أكثر المشاحنات و الملاحاة، تصدر عن اللّسان، و السّكوت يسدّ أبواب الشّر. ۷- السّكوت نجاةٌ من الذّنوب، و مفتاح دخول الجنة، فقد ورد فى حديثٍ عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، قَالَ لِرَجُلٍ أَتاهُ: أَلا أَدُلُّكَ عَلى أَمْرٍ يُدخِلُكَ اللَّهُ بِهِ الجَنَّةَ؟، قَالَ: بَلى يا رَسُولَ اللَّه، قال صلى الله عليه و آله: «.... فاصْمُتْ لِسانَكَ إلّامِنْ خَيرٍ، أَما يَسُرُّكَ أَنْ تَكُونَ فِيكَ خِصلَةٌ مِنْ هُذِهِ الخِصال تَجُرُّكَ إِلى الجَنَّةِ» «۳». ۸- و السّكوت علامةُ الوقار، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام: «الصَّمْتُ يَكْسِبُكَ الوِقارُ، وَيَكْفِيكَ مَؤُونَةَ الإعتِذارِ» «۴». فالثّرثار كثير الخطأ، كثير الإعتذار و النّدم، لما يصدر منه مِنْ شطحات، من موقع الغفلة و الإندفاع العاطفى و الإنفعال النّفسى. ۹- و عنه عليه السلام، فى حديث أوضح وأجلى فقال: «إِنْ كانَ فى الكَلامِ بَلاغَةٌ فَفى الصَّمْتِ سَلامَةٌ مِنَ العِثارِ» «۵». فالصّمت قد يكون، أبلغ من أىّ كلام فى بعض الموارد!. ۱۰- ما ورد عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، أنّه قال: «نِعْمَ العَونُ الصَّمْتُ فى مَواطِنِ كَثِيرةٍ وَ إِنْ كُنْتَ فَصِيحاً». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۰ و هناك رواياتٌ كثيرةٌ فى هذا المجال، لم نذكرها هنا، خوفاً من الإطالة و الخروج عن مِحور البحث.

إزالة وَهم:

إنّ كلّ ما ورد فى الآيات و الأحاديث الشّريفة، من معطيات الصّمت الإيجابيّة فى حياة الإنسان وواقعه، من قَبيل تعميق الفكر ومنع الإنسان من الوقوع فى الخطأ، و صيانته من كثيرٍ من الذّنوب، و حفظ وَقاره و شَخصيّته، و عدم الحاجة إلى الإعتذار المُكَرّر، و أمثالُ ذلك، كِلّ هذا لا يعنى أن السكوت، يمكن أن يتخذه الإنسان قاعدةً على الدّوام، فالسّكوت المَطلق مذمومٌ بدوره، و خسارةٌ اخرى لا تُعوّض. و الغاية ممّا تقدم، فى مَدح السّكوت و الصّمت فى الآيات و الرّوايات الإسلامية، هى منع اللّسان عن الثّرثرة و فضول الكلام، فى خط التّربية و مصداق، أن: «قلْ خيراً وإلّا فاسْكت»، و إلّافالسّكوت فى كثيرٍ من الامور، حَرامٌ مَسلّمٌ. ألم يذكر القرآن الكريم فى سورة الرحمن نعمة البيان باعتبارها من أسمى إفتخارات البشر؟ ألا تقام أكثر وأغلب العبادات كالصلاة وتلاوة القرآن الكريم ومراسم الحج والذكر باللسان؟ ولولا اللسان، فكيف سيتمكن المؤمن من إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكيف سيكون دور الإرشاد والتربية والتعليم، وكيف سيتمكن العلماء والمصلحين من أداء دورهم فى عملية هداية الناس وإرشادهم إلى طريق الحق والسعادة؟! فالمذموم هو الافراط والتفريط والطريق الوسطى هى الجادّة! وما صدر من إمامنا السجاد عليه السلام فى هذا المضمار هو خير مرشد ودليل فى هذا المجال، حيث سأله شخص عن أيهما الأفضل: الكلام أو السكوت؟ فقال عليه السلام: «لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما آفاتٌ فَإذا سَلِما مَنَ الآفاتِ فَالكَلامُ أَفْضَلُ مِنَ السُّكوتِ، قِيلَ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۱ كَيفَ ذَلِكَ يا بنَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله؟ قَالَ: لِأَنّ اللَّه عَزَّوَجَلَّ ما بَعَثَ الأَنْبِياءَ وَالأَوصياءَ بِالسُّكوتِ، إنَّما بَعَثَهُم بِالكِلامِ، وَلا اسْتَحَقَّتِ الجَنَّةُ بِالسُّكوتِ وَلا اسْتَوجَبَتْ وِلايَةً بِالسُّكوتِ ولا تَوَقَّيتِ النّارُ بِالسُّكوتِ إنَّما ذَلِكَ كُلُّهُ بِالكَلامِ، وَما كُنْتُ لِأعدِلَ القَمَرَ بِالشَّمْسِ إنَّكَ تَصِفُ فَضْلَ السُّكُوتِ بِالكَلامِ وَلَسْتَ تَصِفُ فَضْلَ الكَلامِ بِالسُّكُوتِ» «۱». أجل لا شك أنّ لكلٍّ من الصّمت و الكلام، محاسنه و مَساويه، و الحقّ أنّ إيجابيات الكلام أكثر، ولكن متى؟، فقط: عندما يصل الإنسان، إلى مراحل سامية من التّهذيب للنفس، فى معراج الكمال المعنوى، وأمّا من كان فى بداية الطّريق، فعليه التّحلى بالسّكوت رَيْثَما تتعمق فى نفسه تلك الملكات الرّوحانية، التى يكتسبها الإنسان فى حركة الانفتاح على اللَّه، أو كما يُقال، ريثما يملك السّالك لسانه عن ممارسة اللّغو و الكلام الباطل، و بعدها يجلس لِلوَعظ والإرشاد. و بالإمكان بيان معيارٍ جيّدٍ لهذه الحالة، فنحن إذا أردنا فى يومٍ من الأيّام، تسجيل ما يصدر منّا من كلماتٍ و ألفاظٍ على آلة التسجيل، ثم أصغينا لهذه الأحاديث و الكلمات، من موقع الإنصاف و بعيداً عن التّعصب، فَسَنرى الشّريط مليءٌ بالتّفاهات و التّرهات، ولن يبقى من الكلام المفيد إلّاكلماتٍ أو جملًا قليلةً، تتعلق بالغايات الإلهيّة و الحاجات الضرورية، فى حركة الحياة والواقع العملى. و يبقى أمرٌ أخير، تجدر الإشارة إليه، أَلا و هو، أنّ «الصّمت» و «السّكوت» وَردا بمعنى واحد فى معاجم اللّغة، ولكن بعض علماء الأخلاق ذهب إلى وجود فرق بينهما، فان السّكوت هو التّرك المُطلق للكلام، و الصّمت هو التّرك المقصود للكلام الزائد واللّغو، أى: «تركُك ما لا يُعينك»، و هدف السّالك الحقيقى فى إطار تهذيب النّفس، و السّلوك المعنوى ينسجم مع: [الصّمت لا [السّكوت .

إصلاح اللّسان:

ما تقدم آنفاً من أهمية السّكوت أو الصّمت، و دوره فى تهذيب النّفوس، و الأخلاق فى الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۲ خطّ السّير و السّلوك إلى اللَّه، هو فى الحقيقة من الطّرق الحياتيّة للوقاية من آفات اللّسان، لأنّ اللّسان فى الحقيقة، هوالمفتاح للعلوم و الثّقافة و العقيدة و الأخلاق، و إصلاحه يُعدّ أساساً لِكلّ الإصلاحات الأخلاقيّة فى واقع الإنسان، و العَكس صحيح، ولأجله فإنّ الحديث عن إصلاح اللّسان، أوسع منَ مبحث السّكوت و أَشمل. و قد إكتسب مبحث إصلاح اللّسان، أهميّةً بالغةً فى الأبحاث الأخلاقيّة بإعتباره، تُرجمان القلب ورَسول العَقل، و مفتاح شخصيّة الإنسان، و نافذة الرّوح على آفاق الواقع. و بعبارةٍ اخرى: إنّ ما يرتسم على صفحات الرّوح و النّفس، يظهر قبل كلّ شىء على فَلَتات اللّسان، و اللّطيف فى الأمر أنّ قُدامى الأطباء، كانوا يُشخّصون

المرض، و يتعرّفون على سلامة الشّخص و مزاجه عن طريق اللّسان، فَلَم تكن عندهم هذه الإمكانيّات المعقدّة التى بأيدينا اليوم، فالطّبيب الحاذق، كان يتحرك فى عمليّة تشخيصه، لأمراض الباطن عن طريق اللسان، حيث يَنكشِف له من خلال ظاهر اللّسان ولونه، الأمراض الكامنة فى خَبايا جسم صاحبه. و هكذا الحال بالنّسبة لأمراض الرّوح و العقل و الأخلاق، فيمكن للّسان أن يكشف لنا المفاسد الأخلاقيّة، و السّلبيات النّفسية و التّعقيدات الرّوحية، التى تعتلج فى صدر وروح الإنسان أيضاً. و عليه، فإنّ علماء الأخلاق يرون، أنّ همّهم الأول والأخير حفظ وإصلاح اللّسان، و يعتبرونها خُطوةً مهمّةً و مؤثرةً فى طريق التّكامل الرّوحى و الأخلاقى، وقد عكس لنا أميرُالمؤمنين عليه السلام، ذلك الأمر فى حديثه الذى قال فيه: «تَكَلَّمُوا تُعرَفُوا فإنّ المَرءَ مَخبُوءٌ تَحتَ لِسانِهِ» «۱». وجاء فى حديثٍ آخر، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «لا يَستَقِيمُ إيمانُ عَبدٍ حَتّىْ يَسْتَقِيمَ قَلْبَهُ و لا يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ حَتّى يَستَقِيمَ لِسانُهُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۳ و نعود بعد هذه الإشارة إلى أصل بحثنا، و نقسّمه إلى أربعة محاور. ۱- أهميّة اللّسان بإعتباره نعمة إلهية كبيرة. ۲- العلاقة الوثيقة بين إصلاح اللّسان، و إصلاح روح وفكر الإنسان وأخلاقه. ۳- آفاتُ اللّسان. ۴- الاصول والأسس الكليّة، لِعلاج آفاتِ اللّسانِ. فى المحور الأوّل: تحدّث القرآن الكريم، فى آيتين من سورة «البلد» و «الرّحمان»، بأبلغ الكلام. فنقرأ فى سورة البَلد، الآيات (۸- ۱۰): «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَينَينِ وَلِساناً وَ شَفَتَينِ وَ هَدَيناهُ النَّجْدَينِ». فبيّنت هذه الآيات الشّريفة، النّعم و المواهب الإلهيّة الكبيرة على الإنسان فى الحياة، من قَبيل نِعمة العين و اللّسان و الشفتان، كأدواتٍ و جوارحٍ يستخدمها الإنسان لمعرفة الخَير و الشّر. نعم، فإنّ الحقيقة، أنّ أعجب جوارح الإنسان هى اللّسان، قطعةٌ من البدن، حَمَلَتْ و حُمّلت أثقل الوظائف، فاللّسان علاوة على دوره فى بلع الطّعام و مَضغِه، فإنّه يؤدى واجِبَهُ بِمهارةٍ فائقةٍ من دون أىّ إشتباهٍ، فى أداء هذه المهمّة الكبيرة، وَلَوْلا مهارته فى تَقليب اللّقمة بين الأسنان، فماذا سيكون حالنا!، وبعد الأكل يقوم بعمليّة تنظيف الفم و الأسنان أيضاً. والأهمّ من ذلك و الأعجب، هو كيفيّة الكلام، بواسطة حركات اللّسان السّريعة، و المرتّبة و المنظّمة فى جميع الجهات. و اللّطيف فى الأمر، أنّ اللّه سبحانه و تعالى، قد سهّل عمليّة الكلام، بصورةٍ كبيرةٍ بحيث أنّ اللّسان لا يملّ ولا يكلّ من النّطق و التّحدث إلى هذا و ذاك، و من دون تكلفةٍ و نفقةٍ، و الأعجب من ذلك، قابلية الإنسان للكلام، و تكوين الجمل و الكلمات المختلفة، كموهبةٍ إلهيةٍ، و ملكة أصليّةٍ فى روح الإنسان وفطرته، بالإضافة إلى إستعداده و قدرته، لتكوين و تأليف اللّغات المختلفة، وتعددها إلى الآلاف، و كلّما مرّ الزمان إزداد عددها و تنوّعها بتنوع الأقوام الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۶۴ والجماعات البشريّة. فليس عجيباً عندما يتحدث عنها القرآن الكريم، و يقول أنّها أعظم النعم؟ و الجدير بالذكر، أنّ الآية الكريمة ذكرت الشّفتين إلى جانب اللّسان، فهما فى الحقيقة يُساعدان اللّسان فى التّلفظ بالكثير من الحروف، وتنظيم الأصوات والكلمات فى عمليّة التّكلم. و من جهةٍ اخرى فإنّ الشّفتين، أفضل وسيلة للسّيطرة على اللّسان، كما حدّثنا بذلك رسولنا الكريم صلى الله عليه و آله، عن البارى تعالى، أنّه قال: «يا ابنَ آدَمَ إنْ نازَعكَ لِسانُكَ فِى ما حَرَّمَتُ عَلَيكَ فَقَدْ أَعَنْتُكَ بِطَبَقَتَينِ فأَطْبِق» «۱». و فى بداية سورة الرّحمان: (الآيات ۱- ۴)، يشير سُبحانه إلى نعمة البيان، التى هى ثمرة من ثمرات اللّسان، و بعد ذكر إسم «الرّحمان»، التى وسعت رحمته كلّ شىءٍ، يشير سُبحانه إلى أهمّ و أفضلّ المواهب الإلهيّة، يعنى القرآن الكريم، ثم خلقة الإنسان، ثم يعرّج على موهبة البيان لدى الإنسان: «الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». و بناءاً عليه فإنّ نعمة البيان، هى أهمّ موهبةٍ أعطاها اللّه سبحانه، لعباده بعد خلقهم. و إذا ما أردنا أن نستعرض دور البيان، فى تكامل ورُقى الإنسان، ودوره الفاعل فى بناء الحضارة الإنسانيّة، عندها سنكون على يقينٍ بأنّه لولا تلك النّعمة الإلهيّة، و الموهبة الربّانية، لما إستطاع الإنسان أن ينقل خبراته وتجاربه للأجيال المتعاقبة، ولما تقدّم العِلم، ولما إنتشر الدّين والأخلاق والحضارات بين الامم السّابقة و اللّاحقة. ولنتصور أنّ الإنسان، فى يوم من الأيّام، سيفقد هذه الموهبة، فممّا لا شك فيه أنّ المجتمع البشرى، سيعود فى ذلك اليوم إلى أجواء التّخلف الحضارى، و الإنحطاط فى جميع الصُّعد. عُنصر «البيان»، تتوفر فيه أداةٌ و نتيجةٌ، و بما أنّنا إعتدنا عليه، فلذلك نتعامل مع هذه الظّاهرة من موقع اللّامبالاة وعدم الإهتمام، لكنّ الحقيقة هى غير ذلك، فهو عملٌ دقيقٌ معقّدٌ فنّىٌ لا مثيل له ولا نظير. لأنّه من جهة، تتعاون الأجهزة الصوتيّة فيما بينها، من الرئة إلى الهواء الداخل إلى الأوتار الصوتيّة، و التى بدورها تتعاون، مع: اللّسان و الشّفتان

و الأسنان و الحلق الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۶۵ و الفم، لتکوین و تألیف الأصوات بسرعةٍ فائقةِ دقیقةٍ جدّاً، حتی یصل إلی الحُنجرة، التی تقوم بتقطیعه وتقسیمه حسب الحاجة. ثم إنّ قصّة وضع اللّغات البشریّة، و تعدّدها و تنوّعها هی قصةٌ عجیبةٌ و معقدةٌ، و تزید من أهمیّة الموضوع، «یقول بعض العلماء: أنّ عددَ لُغات العالم، وصل إلی حوالی (۳۰۰۰) لغة». و نحن نعلم أنّ هذا العدد لن یتوقف عند هذا الحد، و أنّ عدد اللّغات فی تزایدٍ مُستمرٍ. فهذه النّعمة الإلهیّة، هی من أهم و أغرب و ألطف النّعم، و التی لها دورٌ فاعلٌ فی حیاة الإنسان وتکامله ورقیّه، و هی الوسیلة، لتقارب البشر وتوطید العلاقات فیما بینهم، علی جمیع المستویات. و قد إنعکست هذه المسألة، فی الرّوایات بصورةٍ واسعةٍ، و منها ما وَرد عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «ما الإنسانَ لَولا اللّسانُ إلّا صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ أو بَهیمَةٌ مُهمَلَةٌ» «۱». والحقُّ ما قاله الإمام علیه السلام، لأنّه لولا اللسان فعلًا لَما إمتاز الإنسان عن الحیوان، وَ وَرد فی حدیثٍ آخر، عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «الجَمالُ فِی اللّسانِ» «۲». و نقل هذا الحدیث بصورة اخری، عن أمیرالمؤمنین علیه السلام: «الجَمالُ فی اللّسانِ والکَمالِ فی العَقلِ» «۳». و نختم بحدیثٍ آخرٍ عن عن الإمام علی علیه السلام، فقال: «إنّ فِی الإنسانِ عَشَرَ خِصَالٍ یُظْهِرُها لِسانُهُ، شاهِدٌ یُخْبِرُ عَنِ الضَّمیرِ، وَ حاکِمٌ یَفْصِلُ بَینَ الخِطابِ، وَ ناطِقٌ یَرُدُّ بِهِ الجَوابَ، وَ شافِعٌ یُدْرِکُ بِهِ الحاجَةَ، وَواصِفٌ یَعْرِفُ بِهِ الأشیاءَ، وَأَمِیرٌ یأمُرُ بِالحَسَنِ، وَ وَاعِظٌ یَنهی عَنِ القَبیحِ، وَمُعَزٍّ تَسْکُنُ بِهِ الأحزانُ، وَ حاضِرٌ (حامِدٌ) تُجْلی بِهِ الضَّغائِنُ، وَ مُونِقٌ تَلَذُّ بِهِ الأسماعُ» «۴». ولحسن الختام، نعرج علی کتاب: «المحجّة البیضاء» فی «تهذیب الأحیاء». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۶۶ ففی بدایة الکلام، و تحت عنوان: «کتاب آفات اللّسان»، یقول: (فإنّ اللّسان من نعم اللّه العظیمة، و من لطائف صُنعه الغریبة، فإنّه صغیرٌ جرمه، عظیمٌ طاعته وجرمه، إذ لا یستبین الکفر و الإیمان، إلّابشهادة اللّسان، وهما غایة الطّاعة و الطغّیان، ثمّ إنّه ما من موجودٍ أو معدومٍ، خالق أو مخلوق، متخیّل أو معلوم، مظنون أو موهوم إلّاو اللّسان یتناوله، و یتعرّض له بإثباتٍ أو نفی، فإنّ کلّ ما یتناوله العلم، یُعرب عنه اللّسان، إمّا بحقّ أو باطلٍ، ولا شیء إلّاو العلم متناول له، وهذه خاصیّة لا توجد فی سائر الأعضاء، فإنّ العین لا تصل إلی غیر الألوان و الصّور، و الأذن لا تصل إلی غیر الأصوات، والید لا تصل إلی غیر الأجسام، وکذا سائر الأعضاء، واللّسان رَحب المیدان، لیس له مردّ ولا لمجاله مُنتهی ولا حدّ، فله فی الخیر مجال رَحب، و له فی الشرّ مجری سحب، فمن أطلق عذبة اللّسان وأهمله مرخی العِنان، سَلک به الشّیطان فی کلّ میدان، وساقه إلی شفا جرفٍ هار). «۱»

علاقة اللّسان بالفکر والأخلاق:

لا شک أنّ اللّسان هو نافذة الرّوح، و هو یعنی أنّ شخصیّة الإنسان مخبوءةٌ تحت لِسانِه، و بالعکس فإنّ کلمات کلّ إنسانٍ لها دورٌ فی بلورة وصیاغة روحه ونفسیّته، فالتّأثیر بین الکلام و شخصیّة المتکلم، هو تأثیرٌ مُتقابلٌ. و الآیة الوحیدة التی تناولت، علاقة اللّسان بالفکر والأخلاق، هی الآیة (۳۰) من سورة محمد صلی الله علیه و آله، بالشّکل الذی یشخّص معها الإنسان، ما یدور فی خُلد طَرفه المقابل، عن طریق حدیثه وکلامه معه، ولذلک فإنّ الإنسان، سعی قدیماً و حدیثاً للتّرکیز علی هذا الأمر، لمعرفة خبایا و بواطن الرّجال عن طریق المحادثة و الطّب النّفسی، فنقرأ فی هذه الآیة، التی نزلت لتفضح المنافقین، قوله تعالی: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَیْنَاکَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِیمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ یَعْلَمُ أَعْمَالَکُمْ». و علی حدّ تعریف الرّاغب، فی: «مفردات القرآن»، أنّ معنی «اللّحن»، هو الخطأ فی الإعراب، أو الانحراف عن قواعد اللّغة، أو قلب الکلام من الصّراحة إلی الکنایة، و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۶۷ الإشارات، «ولحن القول» المقصود فی الآیة، هو المعنی الأخیر، وهی الکنایات و التّعبیرات ذات المعانی المتعدّدة، و الحمالة لوجوهٍ. ففی حدیثٍ عن أبی سعید الخدُری قال: (لَحْنُ القَولِ بُغْضُهُم عَلی بنَ أَبی طالبٍ، وَکُنَّا نَعْرِفُ المُنافِقِینَ عَلی عَهْدِ رَسُولِ اللّهِ بِبُغْضِتِهِم عَلی بنَ أَبی طالِبٍ) «۱». ولم تنسَ الروایات حظها فی هذا المجال، فقد وَرد: ۱- «ما أَضْمَرَ أَحَدٌ شَیئاً إلّاظَهَرَ فِی فَلَتاتِ لِسانِهِ وَ صَفَحاتِ وَجهِهِ» «۲». فهذا الحدیث یمکن أن یکون أساس الطبّ والعلوم النّفسیة، و الحقیقة أنّ اللّسان هو مرآة الرّوح. ۲- و عنه علیه السلام أیضاً: «الإنسانُ لُبُّهُ لِسانُهُ» «۳». ۳- و عنه علیه السلام أیضاً: «قُلْتُ أَربَعاً، أَنْزَلَ اللّهُ تَصدِیقی بِها فی کِتابِهِ، قُلْتُ المَرءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسانِهِ فإذا تَکَلَّمَ ظَهَرَ،

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالی (وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِی لَحْنِ القَولِ) «۴»، قُلْتُ فَمَنْ جَهِلَ شَیئاً عاداهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ؛ (بَلْ کَذَّبُوا بِما لَمْ یُحِیطُوا بِعِلْمِهِ) «۵»، وَ قُلْتُ قِیمَةُ کُلِّ امرِءٍ ما یُحْسِنُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، فِی قِصَّةِ طالُوتَ (إِنَّ اللَّهَ اصطَفاهُ عَلَیکُم وَزادَهُ بَسْطَةً فی العِلْمِ و الجِسمِ) «۶»، وَ قُلْتُ القَتلُ یُقِلُّ القَتلَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَکُم فِی القِصاصِ حیاةٌ یا اولِی الأَلبابِ) «۷»» «۸». ۴- و فی حدیثٍ آخرٍ عنه علیه السلام أیضاً قال: «یُسْتَدَلُّ عَلی عَقْلِ کُلِّ امرِءٍ بِما یَجرِی عَلَی لِسانِهِ» «۹». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۶۸ و قال علیه السلام أیضاً: «إِیاکَ و الکَلامَ فی ما لا تَعْرِفُ طَرِیقَتَهُ وَلا تَعْلَمَ حَقِیقَتَهُ فَأَنَّ قَولَکَ یَدُلُّ عَلی عَقْلِکَ وَ عِبادَتِکَ تُنْبَؤُ عَنْ مَعْرِفَتِکَ» «۱». و الحقیقة أنّ اللّسان له دور حیوی و فعّال، فی حیاة الإنسان وبناء شخصیته، وهو أمرٌ لا یخفی علی أحدٍ، وله أصداءٌ واسعةٌ فی الرّوایات الإسلامیّة، و ما ورد آنفاً لیس إلّانَزْرٌ قلیلٌ من ذاک الکمّ الکثیر. و بالطّبع فإنّ النّعم الإلهیّة العظیمة، هی رأسمالٌ عظیمٌ لبناء الذّات فی طریق التّکامل المعنوی، وکلمّا إزدادت النعم الإلهیّة، و توسّعت، إزداد الأمر خطورةً، للحفاظ علیه من الآفات و الأخطار فی دائرة التّحدیات الصعبة، التی تحاول القضاء علی شخصیّة الإنسان. و المعروف: «أنّه إلی جانبِ کلِّ جبلٍ عظیمٍ وادٍ سحیقٍ»، ففی جانب کلّ نعمةٍ و موهبةٍ، هناک خطرٌ محدقٌ، فالطّاقة الذریّة مثلًا إذا استعملت فی الأغراض السلمیّة، و الإعمار، فستبنی و تُعمّر دنیا الإنسان، وإذا ما استعملت فی الشر فستفنی العالم فی دقائق معددوة. و منها نفتح باب الحدیث، علی آفات اللّسان.

آفات اللّسان:

کما أشرنا أنّ فوائد اللّسان و برکاته البنّاءة عدیدةٌ، و کذلک آثاره السلبیّة، و ما یترتب علیه من ذنوبٍ و آثامٍ، و نتائجٍ مخرّبةٍ علی مستوی الفرد والمجتمع، وقد ذکر العلّامة المرحوم الفیض الکاشانی رحمه الله، فی کتابه: «المحجّة البیضاء»، والغزالی فی کتابه: «إحیاء العلوم»، بحوثاً مطوّلة، فذکر الغزالی عشرین نوعاً من أنواع الإنحرافات و الأخطار للّسان: ۱- الکلام فی ما لا یعنی الإنسان، «ولیس له أثر مادّی و لا معنوی فی حیاة الإنسان». ۲- الثّرثرة والکلام اللّغو. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۶۹ ۳- الجدال و المراء. ۴- الخصومة و النّزاع و اللّجاج فی الکلام. ۵- التّکلم حول المنکرات، مثل الشّراب و القمار و ما شابهه. ۶- التکلّف فی الکلام، و التّصنع فی السّجع و القافیة. ۷- البَذاءة ۸- اللّعن لغیر مستحقّیه. ۹- الغِناء. ۱۰- المِزاح الرّکیک. ۱۱- السّخریة و الإستهزاء بالآخرین. ۱۲- إفشاء أسرار الناس. ۱۳- الوعود الکاذبة. ۱۴- الکذب والأخبار الکاذبة. ۱۵- الغیبة. ۱۶- النمّیمة. ۱۷- النّفاق فی اللّسان، «أو کما یقال ذواللّسانین». ۱۸- المدح لِغَیر مُستَحقّیه. ۱۹- الکلام و التّحدث بدون تفکّر و تدبّر، حیث یُصاحبه الوقوع فی الخطأ والاشتباه عادة. ۲۰- التّساؤل عن الامور المعقدّة و الغامضة، التی تخرج عن قُدرة المسؤول، هذا و إنّ الدّقة فی البحث، أثبتت لنا أنّ الآفات لا تَنحصر بهذه الامور فقط، فالمرحوم الکاشانی و الغزالی، ربّما لم یکن قَصدهما، إحصاء جمیع عناصر الخلل و الزّیغ فی اللّسان، ولذلک فإنّنا نضیف إلی هذه الموارد العشرین، موارد اخری، و هی: ۱- التّهمة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۰ ۲- الشّهادة بالباطِل. ۳- مدح النّفس. ۴- نشر الشّائعات و الأکاذیب، التی لا تعتمد علی أساس، و إشاعة الفَحشاء و المُنکر، و إن کان من باب الإحتمال. ۵- البذاءَة و الخُشونة فی الکلام. ۶- الإصرار العَقیم: (کما أصرّ أصحاب بقرة بنی إسرائیل). ۷- ایذاء الآخرین بالکلام الجارِح. ۸- المذمّة لغیر مُستحقیها. ۹- الکُفران و عدم الشّکر باللّسان. ۱۰- الدّعایة لِلباطِل، و الترّغیب علی الذَنب، و الأمر بالمُنکر، و النّهی عن المعروف. و غَنیٌّ عن البیان، أنّ ما تقدّم آنفاً لا یشکل جمیع خطایا اللّسان، بل یمکن القول أنّ هذه الموارد الثّلاثین، من امهّات المِوارد فی هذا الصّدد. و الجدیر بالذّکر، أنّ البَعضِ أفرطوا فی هذا المجال، و نسبوا إلی اللّسان ذُنوباً هو بَریءٌ منها، کَإظهار الفقر والمَسکنة و البدعة فی الدّین، و التّفسیر بالرّأی و الجاسوسیّة ما شابَهها، فکلٌّ منها یعتبر ذنباً مُستقلًّا، فربما إرتکبت باللّسان أو بالقلم، أو بوسائل اخری، و تصنیفها فی عداد ذنوب اللّسان، لیس بالشّیء المُناسب، لأنّه علی هذا الأساس، یمکن تصنیف جمیع الذّنوب فی قائمة ذنوب اللّسان، حیث إنّها ترتکب بنوعٍ ما، بواسطة اللّسان، أو أنّ لها علاقة به، کالرّیاء والحسد والتکبر و القتل و الزّنا. و البعض أَقدم علی کلّ خطیئةٍ من خَطایا اللّسان، و قسّمها إلی أقسامٍ عدیدةٍ، و جعل کلّ قسم منها، فی فرع خاصٍّ و عنوانٍ مستقلٍ، مثل الخَسارة مع الأستاذ أو

الوالدین، أو تلقیبهم بألقاب نابیةٍ. و علی کلّ حال، علینا إتخاذ جانب الإعتدال فی کلّ شیءٍ، و إن کانت هذه التّقسیمات، فی الحقیقة لا تؤثّر فی أصلِ البحث.

الاسس الکلیّة للوقایة من أخطار اللّسان:

اشارة

تبیّن ممّا سَبق، أنّ اللّسان فی الوقت الذی یعدّ فیه نعمةً إلهیةً عظمیةً، هو فی نفس الوقت، خطرٌ جدّاً إلی درجةٍ أنّ بإمکانه، أن یکون مصدرَ الخطایا و الذّنوب، و أن یَهبُط بالإنسان فی خطّ الباطل، إلی أسفل السّافلین و یجره إلی الحَضیض. و لأجله علینا التّفکیر، فی الاصول التی تُعیننا فی تجنّب أخطاره الکبیرة، أو تقلیلها إلی أقصی حد. و نستعین فی دائرة الکشف عن أخطار اللّسان، بتوجیهات أئمّتنا العظام علیهم السلام و روایاتهم، وکذلک نَستعین بِبَعض من کلمات علماء الأخلاق، حیث وضعوا لنا اصولًا و اسساً و خطوطاً عامةً، علیها التَّعویل فی حرکتنا المعنویّة المتجهة نحو اللّه تعالی، و منها:

۱- الإنتباه الحَقیقی لأخطار اللّسان

للوقایة من أخطار أیّ موجودٍ خطرٍ علینا، فی البِدایة نَلتَزم حالة الإنتباه و التّوجه الّتام، لما یترتب علیه من أخطار، فعندما یستیقظ الإنسان کلّ یومٍ صباحاً، علیه أن یُوصی نفسه و معها علی مستوی الحَذر، من شطَحات لسانه وأفکاره، لأنّ هذا العضو من البدن إذا تعامل معه الإنسان، من موقع الإنضباط فی خطّ المسؤولیّة، فسوف یصعد به إلی أوج السّعادة و الکَمال، و إذا أطلق له العِنان، فسیورد صاحبه فی المهالک، فهو وَحشٌ ضارَی لا همّ له إلّا التّدمیر و التّخریب، وقد ورد هذا المعنی بصورةٍ جملیةٍ وتعبیراتٍ مؤثّرةٍ فی روایاتنا الشّریفة، منها ما ورد عن سعید بن جُبیر، عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله، حیث قال: «إذا أَصبَحَ إبنُ آدَمَ أَصْبَحَتْ الأَعْضاءُ کُلُّها تَشْتَکِی اللِّسانَ أی تَقُولُ إتَّقِ اللّهَ فِینا فَإنَّکَ إنْ اسْتَقَمْتَ إسْتَقَمنا وَإنْ إعوَجَجْتَ إعوَجَجنا» «۱». و جاء عن إمامنا السّجاد علیه السلام: «إنَّ لِسان إبنِ آدَمَ یُشْرِفُ عَلی جَمِیعِ جَوارِحِهِ کُلَّ صَباحٍ فَیَقُولُ کَیفَ أَصْبَحْتُم؟! الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۲ فَیَقُولُونَ بِخَیرٍ إنْ تَرَکْتَنا وَیَقُولُونَ اللّهَ اللّهَ فِینا، وَیُناشِدُونَهُ وَیَقُولُونَ إنَّما نُثابُ وَنُعاقَبُ بکَ». «۱»

۲- السّکوت

تطرّقنا سابقاً لمباحث السّکوت، بصورةٍ وافیةٍ، و نقلنا آیات وروایات کثیرة فی هذا الصّدد، فکلّما کانَ الکلام أقل، کان الزّلل کذلک، وکلّما کان السّکوت أکثر، کانتْ السّلامة تحیط بالإنسان فی حرکة الحیاة والواقع، عِلاوةً علی ذلک فإنّ إلتزام السّکوت فی أغلب الحالات، یعوّد الإنسان السّیطرة علی لسانه والحدّ من جموحه، و الوصول فی هذه الحالة النّفسیة، إلی درجةٍ لا یقول إلّاالحقّ، و لا یتکلّم إلّابما یُرضی اللّه تعالی. و یجب الإنتباه إلی أنّ المراد من السّکوت، لیس هو السکوت المطلق، فکثیرٌ من امورنا الحیاتیّة لا یتحقّق إلّابالکلام، من قبیل کثیرٍ من الطّاعاتِ و العبادات، و نشر العلوم و الفَضائل، و إصلاح ذات البَین، و أمثال ذلک، فالمقصود قلّة الکلام و الإجتناب عن فُضوله، فقد قال الإمام علی علیه السلام: «مَنْ کَثُرَ کَلامُهُ کَثُرَ خَطَؤُهُ، مَنْ کَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَیاؤُهُ، وَ مَنْ قَلَّ حَیاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَ مَنْ قَلَّ وَرَعُهُ ماتَ قَلْبُهُ، وَ مَنْ ماتَ قَلْبُهُدَخَلَ النّارَ» «۲». و نقل هذا التّعبیر، بصورةٍ اخری عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و

آله «۳». و فی حدیثٍ آخر عن الإمام علی علیه السلام، أنّه قال: «الکَلامُ کَالدَّواءِ قَلِیلُهُ یَنْفَعُ وَکَثِیرهُ قاتِلٌ» «۴».

۳- حِفظ اللّسان: «التفکّر أولًا ثمّ الکَلام»

إذا فکّر الإنسان فی مضمون کلامه، و دوافعه و نتائجه، فسیکون بإمکانه أن یَتجنّب کثیراً من الشّطحات، و الذّنوب التی تنطلق من موقع الغفلة، نعم فإنّ إطلاق العِنان لِلّسان من موقع اللّامبالاة و الإستهانة، بإمکانه أن یوقعه فی أنواع الذّنوب و المَهالک فی حرکةِ الحیاة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۳ وَ وَرد فی حدیثٍ عن الرسول الکریم صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «إنَّ لِسانَ المُؤمِنِ وَراءَ قَلْبِه، فَإذا أرادَ أنْ یَتَکَلَّمَ بِشیءٍ تَدَبَّرَهُ بِقَلْبِه، ثُمَّ أمضاهُ بِلِسانِه و إنَّ لِسانَ المُنافِقِ أمامَ قَلْبِه، فَإذا هَمَّ بِشیءٍ أمضاهُ بِلِسانِه وَلَم یَتَدَبَّرْهُ بِقَلْبِه» «۱». وَ وَرد نفسُ هذا المعنی، مع بعض الإختلاف فی کلمات أمیرالمؤمنین علیه السلام، فی الخُطبة (۱۷۶) من نهج البلاغة. و نقرأ فی تعبیرٍ آخر ورد عن الإمام الحسن العسکری علیه السلام، أنّه قال: «قَلْبُ الأَحْمَقِ فی فَمِهِ، وَفَمُ الحَکِیمِ فِی قَلْبِهِ» «۲». فَمن البَدیهی، أنّ المراد من القلب هُنا هو العقل والفکر، وَ وُجود اللّسان فی موقع الأمام أو الخلف، هو کنایةٌ عن التدبّر والتفکّر فی محتوی الکلمات و الألفاظ، قبل النّطق بها، و بالفِعل کم یکون جمیلًا، لو أنّنا حسبنا لکلامنا حسابه، و فکّرنا فی کلّ کلمةٍ نرید أن نقولها، و الدّوافع و النّتائج التی ستعقبها، و هل أنّها من اللّغو أو ممّا یفضی إلی إیذاء مؤمنٍ، أو إلی تأیید ظالم وأمثال ذلک، أو أنّها تنطلق من موقع الدّوافع الإلهیّة، و لغرض حمایة المظلوم، و فی طریقِ الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، و کسب مَرضاة اللّه تعالی؟!. ونَختم هذا الکلام، بحدیثٍ جامع لجمیع الموارد المذکورة آنفاً، یمنح قلب الإنسان نوراً و صفاءً، و قد ورد عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال: «إنْ أَحبَبتَ سَلامَةَ نَفْسِکَ وَسَترَ مَعایبِکَ، فَاقْلِلْ کَلامَکَ وَأَکْثِر صَمْتَکَ، یَتوفَّرْ فِکْرُکَ وَیَستَنِرْ قَلْبُکَ». «۳» هذه هی خلاصة دور اللّسان فی تهذیب النّفس، وطهارة الأخلاق و الاصول الکلّیة لحفظ اللّسان، و بالطّبع سوف نقدم شرحاً وافیاً، لتفاصیل أهمّ الإنحرافات و الذّنوب اللّسانیّة، کالغیبة و التّهمة والکَذب والنَمیمة ونشر الأکاذیب و إشاعة الفحشاء، وذلک فی المجلّد الثانی من الکتاب، إن شاء اللّه تعالی، بعد الإنتهاء من بیان الاصول الکلّیة لِلقیم الأخلاقیّة.

الخُطوة الثّامنة: معرفة اللّه تعالی و معرفة النّفس

اشارة

من الخَطوات الاولی فی طریق إصلاح النّفس، و التّهذیب الرّوحی، و بلورة الأخلاق و الملکات الأخلاقیة السّامیة، فی واقع الإنسان هی: «معرفة النّفس». فکیف یمکن للإنسان أن یرقی فی درجات الکمال الرّوحی و یتحرک علی مُستوی إصلاح عُیوبه، و التّخلص من رذائله الأخلاقیّة، والحال أنّه لا یعرف نفسه من موقع الوعی لذاته؟ و هل للمریض أن یذهب إلی الطّبیب، و لمّا یعرف أنّه مُصابٌ بالمرض؟ و هل لِلتائه الضّال عن الطّریق، أن یعرف وجهته، و یتحرک فی طریق العثور علی الجادة الصّحیحة، قبل أن یعرف أنّه ضالٌ عن الطریق؟ و هل للإنسان أن یُهیّیء أسباب و وسائل الدّفاع عن نفسه، و هو لا یعرف أنّ العدوّ قد کَمَن له علی باب داره؟ من الطّبیعی، أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة هو بالنّفی، فکَذلک من لا یعرف نفسه ولا عیوبه فإنّه لن یستطیع أن یتحرّک فی عملّیة إصلاح نفسه، ولن یستفید من أطبّاء الرّوح، فی خطّ التّربیة و التّهذیب. و بهذه الإشارة نعود إلی صُلب الموضوع، لنبیّن علاقة معرفة النّفس بِتهذیبها، و کذلک العلاقة بین: معرفة اللّه وتهذیب النّفس.

۱- علاقة معرفة النّفس بتهذیبها

کیف یُمکن لمعرفة النّفس أن تکون سبباً فی تهذیب النّفس؟ دلیلُهُ واضحٌ و بَیّنٌ، لأنّه: أولًا: إنّ الإنسان عن طریق معرفة نفسه، سوفَ یعَی کرامةَ نفسه، و شرفَ ذاتِه، و عظمةَ الصّنع الإلهی فی هذه الخِلقة، و بالتّالی سَیُدرِک، أهمیّة الرّوح الإنسانیّة، التی هی نفحةٌ من نفحات قُدسه، نعم فإنّه سَیُدْرِک أنّ الجوهَرة الّثمینة، التی منحه اللّه تعالی إیّاها، علیه ألّا یُضیّعها و لا یَبیعها بأبخسِ الأثمان، فلن یُضیّعها إلّامن کانَ یعیش الرّذائل الأخلاقیّة، و من غَرِق الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۵ بِوحل الذّنوب، و مستنقع الخَطیئة. ثانیاً: الإنسان بمعرفته لنفسه، سیطّلع علی الأخطار التی تحدق به، جرّاء مِیوله النّفسیة، وعنصر الهَوی و دوافع الشّهوة، التی تقع فی خطّ التّقابل، مع سعادته و تکامله المعنوی فی حرکة الواقع النّفسانی، و سیکون بإمکانه التّحرک فی دائرة المُواجهة الواعیة، للوقوف بوجهها و التّصدی لها. و من البدیهی، أنّ الإنسان الذی لا یَخبُر نفسه لن یکون علی إحاطةٍ بوجود تلک الدوافع، ویبقی کالغافل عمّا یدور حوالیه، بینما یکون الأعداء قد إحتوشوه من کلّ جانبٍ، و هو لا یُحرّک ساکناً، و بالطّبع فإنّ هذا الشّخص، سیتلقّی ضرباتٍ قاصمةٍ من عدوّه، وبعدها یخضع لواقع السّیطرة من قِبل العدو، و أنّی له ساعتها، التّدبیر و التّفکیر من موقع الشّعور الهادِیء، و البعید عن الإنفعال و التّوتر!!. ثالثاً: بمعرفة النّفس، ستظهر له خَبایا نفسه، و إستِعداداتِها المختلفة، و لأجل رُقیّها و کمالها و السّیر بها إلی اللّه، سیسعی الإنسان فی خطّ التربیّة و التّهذیب، لِبلورة تلک الإستعدادات و الکَمالات، و یستخرج کُنوزها من واقعه الذّاتی، لیقترب بواسطتها من آفاق السّماء. و حال الشّخص الذی لا یتعامل مع ذاته، من موقع المعرفة و الوَعی، کحال الذی دَفَن فی بیته کُنوزاً، و هو لا یعلم بها، وهو بأمسّ الحاجة إلیها لفقره المُدقع، فیموت جوعاً بدون أن یجد فی نفسه باعثاً علی الانتفاع بها، فی واقع الحیاة. رابعاً: إنّ کلّ واحدةٍ من المفاسد الأخلاقیّة، لها جذورها فی النّفس الإنسانیّة، و بمعرفة النّفس، سیسعی الإنسان فی عملیّة قلع تلک الجُذور، من واقع النّفس و غلق تلک الرّوافد التی تمدّها بالماء الآسن، و مُعالجة هذا الواقع السّلبی، بفتح روافد الماء الصّافی الرّقراق الذی یمدّها بالحَیاة والوِصال الحقیقی المنفتح علی الإیمان والصفاء النّفسی. خامساً: والأهم من هذا وذاک، فإنّ معرفة النّفس، تؤدّی إلی معرفة الربّ، و معرفة صفاته الجلالیّة و الجمالیّة، و التی هی من أقوی الدّوافع الذاتیّة، لتربیة المَلَکات الأخلاقیّة، و الکَمالات الإنسانیّة، و طریقٌ قویمٌ لِلنجاة من الإنحطاط و الرّذیلة، و الصّعود بها إلی أعلی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۶ مراتب الکمال المعنوی، و آفاق المَثل الإنسانیّة. و إذا أضفنا إلی ذلک کلّه هذه الحقیقة، و هی أنّ الرّذائل تقلب حلاوة السعادة إلی مرارة الشّقاء، و تجرّ البشریّة إلی حیث الویلات و الدّمار، فعندها ستتّضح مدی الأهمیّة القُصوی، لمعرفة النّفس فی حیاة الإنسان والمجتمع البشری. و قد وَرد فی کتاب: «إعجاز الطبّ النّفسی»، للکاتب «کارل منینجر»: (معرفة النّفس عبارة عن الإحاطة بقوی الخیر والمحبّة، ومعرفة عناصر الشّر و الکراهیّة فی النفس الإنسانیّة، و أیّ تجاهلٍ و تغافلٍ عن وجود هذه القوی و العناصر فی أنفسنا، و فی الغیر، بإمکانه أن یُعرّض اسس الحیاة للإهتزاز والخلَل) «۱». و فی کتاب: «الإنسان ذلک المجهول»، وردت جملةٌ تعتبر شاهداً حیّاً علی مدّعانا، فیقول: (لسوء الحظ فإنّ الإنسان المعاصر، لم یتحرّک علی مستوی التّعرف علی نفسه، إلی جانب التّقدم الصّناعی و التّطور العلمی، ولم یوفّق برنامج الحیاة، وفق واقعه الطّبیعی، و الفِطری، لذلک فَمع ما فی الحیاة العصریّة من زینةٍ و تفاخرٍ، لکنّها لم توصل الإنسان للسّعادة المنشودة، فالتّقدم الذی حصل علی مستوی العلم والتّکنولوجیا، لم یحصل بتدبیرٍ و تفکیرٍ، بل حصل عن طریق الصّدفة المَحضة ..، فلو رکّز: «غالیلو» و «نیوتن» و «لافوازیه»، وغیرهم من العلماء علی جسم وروح الإنسان، لربّما تغیّرت الدنیا، ولمّا أصحبت کما هی علیه الآن» «۲». و بناءاً علیه، فإنّ إحدی العقوبات التی أعدّها الباری تعالی، لِلمُعرضین عن اللّه من موقع التّمرد علی الحقّ، وحذّر الباری تعالی، المسلمین من الوقوع فیها، هی نسیان النّفس، و الغفلة عن الذّات: «وَلَا تَکُونُوا کَالَّذِینَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِکَ هُمْ الْفَاسِقُونَ» «۳».

۲- معرفة النّفس فی الرّوایات الإسلامیّة

و قد أغنتنا الرّوایات الشّریفة، الواردة عن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، و الائمّة الهداة علیهم السلام، فی هذا الاخلاق فی القرآن،

ج۱، ص: ۲۷۷ المجال، ومنحتنا زَخماً معرفیّاً کبیراً، علی مستوی بیان مَعطیّات معرفة النّفس، و أثرها الإیجابی فی حرکة الإنسان، فی خطّ التّکامل المعنوی، و الأخلاقی، و منها: ۱- ما ورد عن الإمام علی علیه السلام، أنّه قال: «نالَ الفَوزَ الأَکبَرَ، مَنْ طَفَرَ بِمَعرِفَةِ النَّفسِ» «۱». ۲- و یقول علیه السلام، فی النّقطة المُقابلة لِهذا: «مَنْ لَمْ یَعْرِفْ نَفْسَهُ بَعُدَ عَنْ سَبیلِ النَّجاةِ، وَ خَبَطَ فی الضَّلالِ وَ الجَهالاتِ»». ۳- وَ وَرد فی حدیث آخر، عن هذا الإمام الهمام علیه السلام: «العارِفُ مَنْ عَرِفَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَها وَ نَزَّهَها عَنْ کُلِّ ما یُبَعِّدُها» «۳». و یُستفاد من هذا التّعبیر، أنّ معرفة النّفس سببٌ للتحرر من قیود الأهواء، و أسر الشّهوات، و تطهیر النفس من الرذائل الأخلاقیّة. ۴- و نقرأ فی حدیث آخر، عن هذا الإمام الکبیر علیه السلام: «أَکْثَرُ النّاسِ مَعْرِفَةً لِنَفْسِهِ، أَخْوَفُهُم لِرَبِّهِ» «۴». و نَستوحی من هذا الحدیث الشّریف، العلاقة الوثیقة بین الإحساس بالمسؤولیّة، من موقع الخَوف من اللّه تعالی الذی یعدّ منطلقاً لتهذیب النّفس فی خطّ التّقوی، و بین معرفة النّفس. ۵- وَ وَرد فی حدیثٍ آخر، عن الإمام نفسه، یقول: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ جاهَدَها وَ مَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ أَهْمَلَها» «۵». فطبقاً لهذا الحدیث الشریف، فإنّ الدعامة الأصلیة لجهاد النفس، أو الجهاد الأکبر، کما ورد التّعبیر عنه فی الروایات الإسلامیّة، هی معرفة النّفس. ۶- وجاء فی نهج البلاغة، فی قصار الکلمات لأمیرالمؤمنین علیه السلام: «مَنْ کَرُمَتْ عَلَیهِ نَفْسُهُ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۸ هانَتْ عَلَیهِ شَهَواتُهُ» «۱». فالشّخص الذی عرف نفسه، علی مستوی کرامتها الذّاتیة، لا یعیش الذّلة فی إطار الخضوع للشّهوات، و الإستسلام للأهواء والنّوازع النّفسیّة. ۷- کما أنّ معرفة النّفس، تعتبر رکناً مُهمّاً فی تهذیب النّفس، فی خطّ التّکامل الأخلاقی و المعنوی، فالجهل بِکرامة النّفس، سبب للإبتعاد عن اللّه تعالی، ولِهذا ورد فی حدیثٍ آخر، عن الإمام العاشر: (الإمام الهادی علیه السلام): «مِنْ هانَتْ عَلَیهِ نَفْسُهُ فَلا تَأمَنْ شَرَّهُ» «۲». و مِن مَضمون ما تقدّم، یتبیّن بوضوح، أنّ من الدّعامات الأساسیّة للفضائل الأخلاقیة، و التّکامل المعنوی، هو معرفة النّفس، ولن یصل الإنسان إلی غایته المَنشودة، إلّابعد عبور ذلک الممر الصّعب، ولذلک أکّد علماء الأخلاق، کثیراً علی هذه المسألة، لِکی لا یغفل عنها السّائرون فی الطّریق إلی اللّه تعالی.

۳- معرفة النّفس طریقٌ لمعرفة الرّب

یقول الباری تعالی: «سَنُرِیهِمْ آیاتِنَا فِی الْآفَاقِ وَ فی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» «۳». وَ وَرد فی آیة اخری، قوله تعالی: «وَفِی أَنفُسِکُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» «۴». و إستدلّ بعض المحقّقین، بالآیة الشّریفة، التی تتحدث عن عالَم الذَّرّ، علی هذه الحقیقة أیضاً، و هی أنّ: «معرفة النّفس»، تعتبر الأساس والقاعدة: «لمعرفة اللّه تعالی حیث تقول الآیة الکریمة: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ، وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَی أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّکُمْ قَالُوا بَلَی شَهِدْنَا» «۵». و نقرأ فی تفسیر المیزان: «فالإنسان وإن بلغ من التّکبر و الخُیلاء ما بلغ، و غرّته مساعدة الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۷۹ الأسباب ما غَرّتهُ و إستهوته، لا یسعه أن ینکر أنّه لا یملک وجود نفسه، و لا یستقلّ بِتدبیر أمره، ولو ملک نفسه،- لوقاها ممّا یکرهه من الموت، و سائر آلام الحیاة مَصائبها، و لإستقلّ بتدبیر أمره، لم یفتقر إلی الخضوع، قبال الأسباب الکونیّة. فالحاجة إلی ربٍّ:- مَلِکٍ مُدَبّرٍ-؛ حقیقة الإنسان، والفقر مکتوبٌ علی نفسه، و الضعف مطبوعٌ علی ناصیته، لا یخفی ذلک علی إنسانٍ له أدنی الشّعور الإنسانی، والعالم و الجاهل، و الصّغیر و الکبیر، و الشّریف و الوضیع، فی ذلک سواء. فالإنسان فی أیّ منزلٍ من منازلِ الإنسانیة نزل، یشاهد من نفسه أنّ له رباً یملکه و یدبّر أمره، وکیف لا یشاهد ربّه، و هو یشهد حاجته الذاتیّة؟ ولذا قیل: إنّ الآیة تشیر إلی ما یشاهده الإنسان فی حیاته الدنیا. أنّه محتاج فی جمیع جهات حیاته، من وُجوده وما یتعلق به وجوده من اللّوازم و الأحکام، و معنی الآیة أنّا خلقنا بنی آدم فی الأرض، و فرّقناهم، و میّزنا بعضهم من بعضٍ بالتّناسل و التّوالد، وأوقفناهم علی إحتیاجهم ومربوبیتهم لنا، فإعترفوا بذلک قائلین، بلی شَهِدنا أنّک ربّنا» «۱». و بناءاً علی ذلک، یثبت لنا أنّ التّعرف علی حقیقة الإنسانیّة، بخصوصیاتها و صفاتها، هی السّبب و الأساس لمعرفة الباری تعالی شأنه. و الحدیث المعروف، الذی یقول: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عِرَفَ رَبَّهُ»، ناظر إلی هذه المسألة بالذات. و قد نقل هذا الحدیث مرّةً عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و مرّةً اخری عن أمیر المؤمنین علیه السلام، و مرّةً نُقل عن صُحف إدریس علیه السلام. فجاء فی بحار الأنوار نقلًا عن صحف إدریس

علیه السلام، فی الصّحیفة الرّابعة، و التی هی صحیفة المعرفة: «مَنْ عَرَفَ الخِلْقَ عَرَفَ الخالِقَ، وَ مَنْ عَرَفَ الرِّزْقَ عَرَفَ الرَّازِقَ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۸۰ و علی کلّ حالٍ، فإنّ مضمون هذا الحدیث قد ورد بطرق متعدّدة، فی کتاب بحار الأنوار، عن الرسولً الأکرم صلی الله علیه و آله، أو أحد المعصومین علیهم السلام، أو إدریس النبی علیه السلام، وکذلک ورد عن الإمام علی علیه السلام، فی: «غُرر الحِکَم» «۱». و قال العلّامة الطّباطبائی، فی تفسیره: «أنّ الشّیعة و السّنة قد نقلوا هذا الحدیث عن الرسول صلی الله علیه و آله، و هو حدیثٌ مشهورٌ» «۲».

التّفاسیر السّبعة، لحدیث من عَرف نفسه:

و قد وردت تفاسیرٌ عدیدةٌ لهذا الحدیث، و منها: ۱- یشیر هذا الحدیث إلی: «بُرهان النّظم»، فکلّ إنسانٍ یتعرف علی عجائب الخِلقة، فی روحه و جِسمه، و ما تتضمّن من النّظم المعقد والمحیّر فی تفاصیلها الدقیقة، فسوف ینفتح له طریق إلی اللّه تعالی، فإنّ هذا النّظم و الإنتِظام و الدّقة فی الخلقة، لا یمکن أن ینشأ، إلّابتدبیر عالم قادر مبدیء معید. ۲- و یمکن أن یکون هذا الحدیث، إشارةً إلی بُرهان: «الوجود والإمکان»، فعندما ینظر الإنسان و یُدقّق فی تفاصیل وُجوده و نشأته، یری أنّه وجودٌ مستقلٌ، من عِلمه و قُدرته و ذَکائه و سَلامته، فکلّها تحتاج إلی وجوده سُبحانه، و من دونه، فَهو لا شیء وسینتهی وجوده، وفی الحقیقة هو کالمعانی الحرفیّة، التی بدون المعانی الإسمیّة، لن یکتمل لها معنی، کجملة: «ذهبتُ إلی المسجد»، فکلمة «إلی»، وحدها لا مفهوم لها إطلاقاً، من دون إرتکازها علی کلمتی: «ذهبت» و «المسجد»، وکذلک الحال فی وجودنا بالنّسبة إلی اللّه تعالی، فکلّ شخصٍ یحسّ فی نفسه هذا الإحساس، سیعرف ربّه من موقع الإعتماد و الإیمان أکثر، لأنّ وجود الممکن محال، بدون وجود الواجب. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۸۱ ۳- و یمکن لهذا الحدیث، أن یدلّنا علی: «برهان العلّة والمعلول»، فکلّ إنسان یَتفکر فی نفسه، قلیلًا فسوف یعرف أنّه معلول، لعلّةٍ اخری منذ وجوده، و عندما ینظر لأبیه سیراه هو أیضاً معلولًا لعلّةٍ اخری، و هکذا حتی یصلَ إلی علّةِ العلل، و إلّایلزم التسّلسل، و بطلان التّسلسل، أمرٌ مفروغٌ عنه لدی الحکماء «۱». و علیه، یجب أن تصل العلل إلی العلّة الاولی، التی لا تحتاج إلی عِلّة، فعلّة العِلل: وجوده فی ذاته، فعندما یری الإنسان نفسه بهذا الوصف، فإنّه سیصل إلی الباری سبحانه و تعالی، من خلال هذا القانون العقلی. ۴- و یمکن أن یکون هذا الحدیث، إشارة إلی «بُرهان الفطرة»، فعندما یعرف الإنسان فی تأمل خَنایا نفسه، و جَوانب فطرته، فسوف یتجلّی له نورُ التّوحید، و ینفتح علی اللّه تعالی، ویصل من «معرفة النفس»، إلی «معرفة اللّه»، ولن یحتاج إلی دلیلٍ آخر یقوده إلی اللّه تعالی. ۵- و یمکن أن یکون الحدیث، ناظراً إلی مسألة: «صفات اللّه تعالی»، بمعنی أنّ الإنسان عندما یری محدودیّته، فی دائرة حالاته و صفاته فی عامل الإمکان، سیصل إلی نقاطِ ضعفهُ و یُدرک من خلال محدودیّته فی مجال الصّفات البشریّة، لا محدودیّة اللّه تعالی، لأنّه لو کان مخلوقاً مثله، لکان محدوداً أیضاً، و من فنائه إلی بَقائه تَبارک و تعالی، لأنّه لو کان مخلوقاً أیضاً لکان فانیاً، و کذلک یُدرک من خلال إحتیاجاته و فَقره، إستغناء اللّه وعدم حاجته عمّا سواه، و یُدرک قوّة الباری من خلال فَقره وحاجته هو ... وهکذا، وهذا ما یشیر إلی کلام أمیر المؤمنین علیه السلام، فی أوّل خطبةٍ، حیث یقول: «وَکَمالُ الإخلاصِ لَهُ نَفی الصِّفات عَنْهُ، لِشَهادَةِ کُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَیرُ المَوصُوفِ، وَ شَهادَةِ کُلِّ مَوصُوفٍ أَنَّهُ غَیرُ الصِّفَةِ» «۲». ۶- و نقل العلّامة المجلسی رحمه الله، تفسیراً آخر لهذا الحدیث، عن بعض العلماء، أنّه قال: (الرّوح لطیفةٌ لاهوتیّة فی صفةٍ ناسوتیّةٌ: دالّةٌ من عشرة أوجهٍ، علی وحدانیّة اللّه وَ رَبّانِیَّتِهْ: ۱- لما حرّکت التهیکل و دبّرته، علمنا أنّه لابدّ لِلعالم من مُحرّکٍ و مُدبّرٍ. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۸۲ ۲- دلّت وحدتها علی وحدته. ۳- دلّ تحریکها لِلجسد علی قدرته. ۴- دلّ إطّلاعها علی ما فی الجسد علی علمه. ۵- دلّ إستواؤها إلی الأعضاء علی إستوائه إلی خلقه. ۶- دلّ تقدّمها علیه وبقاؤها بعده، علی أزلَهِ و أبده. ۷- دلّ عدم العلم بکیفیّتها، علی عدم الإحاطة به. ۸- دلّ عدم العلم بمحلّها من الجسد، علی عدم أینیّته. ۹- دلّ عدم مسّها علی إمتناع مسّه. ۱۰- دلّ عدم إبصارها علی إستحالة رؤیته) «۱». ۷- التّفسیر الآخر لهذا الحدیث، هو أنّ جملة: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، هی من قَبیل التّعلّق بالمحال، یعنی بما أنّ الإنسان لا یستطیع أن یعرف نفسه، فهو لن یعرف ربّه

بصورةٍ حقيقيةٍ. ولكن التّفسير الأخير هذا غير مناسب، و التّفاسير السّابقة أنسب لسياق الحديث، ولا ضَير من إحتواء ذلك الحديث الشريف، لكلّ تلك المعانى الجليلة. نعم، فإنّ كلّ إنسان يعرف نفسه، سيعرف ربّه، و معرفة النّفس هى طريقٌ لمعرفة الرّب، و هى أهمّ وسيلةٍ لتهذيب الأخلاق، و طهارة النّفس و الرّوح، فذاته المقدسة هى مصدر لكلّ الكمالات و الفضائل، و أهمّ طريقٍ للسّير و السّلوك فى خط بناء الذات، و تهذيب الأخلاق، هو معرفة النّفس، ولكنّ معرفة النّفس تقف دونها موانعٌ كثيرةٌ، لابدّ من إستعراضها و بحثها.

موانع معرفة النّفس:

أوّل خطوةٍ تُتّخذ، لعلاج الأمراض البدنيّة هى معرفتها، وعليه ففى وقتنا الحاضر، يمكن الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۳ تشخيص أغلب الأمراض، بالأشعّة السّينيّة، و السّونار، و المختبرات المختلفة لتحاليل الدّم والبول، وما شابهها من الامور، حيث يستطيع الطّبيب بمعونتها، من تشخيص مواضع الخلل البدنى بدقةٍ، و بالتالى يكون بإمكانه، وضع الأدوية والعلاجات لذلك المرض، و كذلك الحال فى الأمراض الروحيّة و النفسيّة على مستوى التّشخيص والمعالجة، فإنّنا إن لم نشخّص أمراضنا الرّوحيّة، بمساعدة الطّبيب الحقيقى للنفس، ولم نتمكن من العثور على جذور الرّذائل الأخلاقيّة، فى واقعنا النّفسى، فسوف لا يمكننا الوصول إلى طريقةٍ لعلاج هذه الأمراض، و جُبران مواضع الخَلل فى عالم النّفس. ولكن أغلب الناس، يتجاهلون الأعراض الخطيرة للأمراض، وذلك لِغَلبة الأنانيّة عليهم وحبّ الذات، الذى لا يسمح لهم برؤية النّقص على حقيقته، وهذا الهروب من الحقيقة، غالباً ما ينتهى إلى عواقب غير حميدة، ولا يتوجه إليها الإنسان إلّابعد فوات الأوان، و بعد تجاوز المرض مرحلة العلاج، ففى الأمراض الأخلاقيّة، و الإنحرافات النّفسية، غالباً ما يكون حبّ الذات و الأنانية، مانعاً قويّاً لِلناس، يحول دون معرفة صفاتهم الرّذيلة، و عيوبهم الأخلاقيّة و الإعتراف بها، بل ويتذرعون بالأعذار المختلفة، فى عملية التغطية اللّاشعورية، على تشوّهات الأنا ليكون الشّخص متعالياً عن النّقد و النّقص، و بذلك يعيش مثل هذا الإنسان، حالةَ الوَهم فى ثياب الواقع. و الحقيقة أنّ الأعترافَ بالخطأ فَضيلةٌ، ويحتاج إلى عزمٍ جدّى، و إرادةٍ راسخةٍ، و إلّافان الإنسان سيتحرك على مستوى تغطية عيوبه، و يُدرجها فى طىّ النسيان، ليخدع بها نفسه و من حواليه، بالظّواهر الخادعة والعناوين الزائفة. نعم فإنّ الوقوف على العيوب و النقص، فى واقع الذّات أمرٌ مرعبٌ و مريعٌ، و غالبيّة النّاس يهربون من واقعهم فى حركة الحياة، ولا يريدون أنّ يعترفوا بأخطائهم من موقع تحمّل المسؤوليّة، لكنّ الهروب من الحقيقة، سيعود بالضّرر الكبير على صاحبه، و سيدفع الإنسان الثّمن غالياً على المستوى البعيد، جرّاء ذلك!. و على كلّ حال، فإنّ المانع الحقيقى، و الحِجاب الأصلى لمعرفة الذّات، هو حجاب حبّ الذّات، و الأنانيّة و التّكبر، وما لم تنقشع هذه الحُجب، الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۲۸۴ و تلك الغَشاوات عن النّفس، فلن يستطيع الإنسان أن يعرف ذاته، و نوازعها وستغلق دونه أبواب المعرفة الاخرى، التى تريد به النّهوض و الوصول إلى الحقّ، فى خطّ التّكامل المعنوى، و التّحذيرات التى صدرت من رسولنا الكريم صلى الله عليه و آله، شاهدٌ حيٌّ على مدّعانا، منها: «إذا أَرادَ اللَّهُ بِعَبدٍ خَيراً فَقَّهَهُ فى الدِّينِ وَزَهّدَهُ فى الدُّنيا وَبَصَّرَهُ عُيوبَهُ» «۱». و قال أميرالمؤمنين عليه السلام، فى حديثٍ آخر: «جَهْلُ المَرءِ بِعُيوبِهِ مِنْ أَكبَرِ ذُنُوبِهِ» «۲». و يُفرض علينا هذا السؤال نفسه، وهو أنّه كيف يستطيع الإنسان، أن يُزيل تلك الغَشاوات و الحُجب، التى ترين على نفسه و روحه؟. هنا أتحفنا الفيض الكاشانى فى هذا المجال، بنصائح قيمةٍ، فقال: (اعلم أنّ اللّه تعالى، إذا أراد بعبدٍ خيراً بصّره بعيوب نفسه، فَمن كَملت بَصيرته لم تخف عليه عيوبه، و إذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكنّ أكثر الخلقِ جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القَذى فى عينِ أخيه و لا يرى الجذع فى عينه هو، فمن أراد أن يقف على عيب نفسه، فله أربع طُرق: الأوّل: أنّ يجلس بين يدى بصيرٍ بعيوب النّفس، مطّلعٌ على خَفايا الآفات، و يحكّمه على نفسه، و يتّبع إشارته فى مجاهداته، وهذا قد عزّ فى هذا الزمان وجوده. الثانى: أن يطلب: صديقاً صدوقاً بصيراً متديّناً، فينصبه رقيباً على نفسه، ليُراقب أحواله وأفعاله، فما يكرهه من أخلاقهِ و أفعاله و عيوبه الباطنة و الظّاهرة، ينبّهه عَلَيها. فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمّة الدّين، كان بعضهم يقول: «رحم اللّه إمرءً أهدى إلىّ عيوبى» «۳» ، وكلّ من كان أوفر عقلًا و أعلى منصباً، كان أقلّ إعجاباً و أعظم اتّهاماً لنفسه، إلّاأنّ هذا أيضاً قد عزّ، فقلّ فى الأصدقاء من

يترك المُداهنة، فيخبر بالعَيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على القدر الواجب، فلا يَخلو أصدقاؤك عن حَسودٍ، أو صاحب غرض، يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۵ مُداهنٍ يُخفى عنك بعض عُيوبك، لهذا كان داوود الطائى قد إعتزل عن النّاس، فقيل له: لِمَ لا- تُخالط النّاس؟، قال: ماذا أصنع بأقوام يخفون عنّى ذُنوبى. ان أهل الدين يحبون أن يُنبّهوا على عُيوبهم، بنصيحة غيرهم، و قد آلَ الأُمر إلى أمثالنا، بأن وأبغضُ الخلق إلينا من يَنصحنا، و يُعرّفنا عيوبنا، و يكاد أن يكون هذا مُفصِحاً عن ضَعف الإيمان، فإنّ الأخلاق السّيئة: حيّاتٌ و عقاربٌ لدّاغةٌ، ولو نبّهنا منبّهٌ على أنّ تحت ثوبنا عقرباً، لشكرنا له ذلك و فرحنا به، و إشتغلنا بإبعاد العقرب و قتلها، و إنّما أذى العقرب على البدن، و يدوم ألمها يوماً أو بعض يوم، و نكايةُ الأخلاق الرديّة على صميم القلب، وعسى أن يدوم بعد الموت، أبداً أو آلافاً من السّنين، ثمّ إنّا لا نفرح بمن ينبّهنا عليها، و لا تشتغل العداوة معه عن الإنتفاع بنصحه. الطّريق الثّالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه، من لسان أعدائه، فإنّ عين السّخط تُبدى المساوى، و لعلّ إنتفاع الإنسان بعدوٍّ مشاحن، يذكرّ عيوبه، أكثر من إنتفاعه بصديقٍ مداهنٍ، يُثنى عليه و يمدحه، و يخفى عنه عُيوبه. الطّريق الرّابع: أن يخالط الناس، فكلّ ما يراه مذموماً، فيما بين الخَلق فيطالب نفسه بتركه، وما يراه محموداً يطالب نفسه به و ينسب نفسه، إليه، فإنّ المؤمن مرآةُ المؤمن، فيرى فى عيوبِ غيره عيوبُ نفسه، و ليعلم أنّ الطّباعَ مُتقاربةٌ فى إتّباع الهوى، فما يتّصف به واحد من الأقران أعظم منه، أو عن شىء منه، فيتفقّد نفسه ويطهّرها عن كلّ ما يذمّه من غيره، و ناهيكَ بهذا تأديباً، فلو ترك النّاس كلّهم ما يكرهونه من غيرهم، لإستغنوا عن المؤدّب، قيل لِعيسى عليه السلام: من أدَّبك؟ فقال: «ما أدّبَنى أحد، رأيت جهلَ الجاهل فجانبته» «۱».

الخُطوة التّاسعة: العبادة و الدّعاء تصقل مرآة القلب:

اشارة

الخُطوة الاخرى، هى العبادة و الدّعاء، و لأجل التّعرف على دور، العِبادة و الدّعاء فى بناء و تهذيب النّفوس، علينا أولًا التّعرف، على حقيقة ومفهوم العبادة و الدّعاء. الواقع أنّ الحديث عن هذا الموضوع، طويلٌ وعريضٌ، وقد تناوله العلماءُ، العظماءُ، فى كتبهم الأخلاقيّة والتفسيريّة و الفقهيّة، بصورةٍ مُفصّلةٍ ووافيةٍ، ولكن يمكن القول و بإختصارٍ شديدٍ: علينا قبل معرفة حقيقة العبادةِ و مفهومها، أوّلًا أن ندرس مفهوم كلمة «عبد»، و هى الأصل و الجَذر اللّغوى، لكلمة: «العِبادة». «العبُد» لُغة تُطلق على الإنسان، الذى لا حول له ولا قوّة، فى مقابِل مولاه، فإرادته تابعةٌ لإرادة مَولاه، ولا يملك شيئاً فى عرضِ ما يملكه مولاه، و لا حقَّ له فى التّقصير فى طاعة سيّده. و عليه فإنّ العبودية، هى آخر وأقصى مراحل الخُضوع والخُشوع، فى مقابل السيّد، حيث إنّ كلّ شىءٍ فى حياته يراهُ من هبته و إنعامه و إكرامه، ومن هنا يتبيّن لنا بوضوح، أنّه لا أحد يستحقّ هذه الدّرجة من العِبادة، و يكون مَعبوداً سوى اللَّه تعالى، فهو الفَيض اللّامتناهى الذى لا ينقطع أبداً. و من بُعدٍ آخر، أنّ «العُبوديّة»: هى قمّة و نهاية التّكامل المعنوى، للرّوح فى حركة التّكامل المعنوىللإنسان، و غايةُ ما يطمح إليه الإنسان، من حالة القُرب من اللَّه تعالى، و التّسليم المُطلق لِلذات المُقدسة، فالعبادة لا تنحصر بالرّكوع و السّجود و القيام و القُعود، بل إنّ روح العِبادة هى التّسليم المطلق للَّهتعالى، و لذاته المُقدسة و المَنزّهة من كلّ عيبٍ و نقص. و من البديهى أنّ العبادة، هى أفضل وسيلةٍ للرّقى المعنوى، و تحصيل الكَمال المطلق، فى حركة الإنسان والحياة، وتقف حائلًا أمام كلّ رذيلةٍ، فإنّ الإنسان يسعى لِلقُرب من معبوده، لِتَتَجلى فى نفسه إشعاعاتٌ من نور قُدسه و جَلاله و جَماله، و يكون مظهراً و مرآةً لصفات الجمال و الكَمال الإلهيّة، فى واقعه النّفسى و سلوكه العملى. و فى حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «العُبودِيّةُ جَوهَرَةٌ كُنْهُها الرُّبُوبِيَّةُ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۷ و هو إشارة لتلك الإنعكاسة الربّانية، التى تتجلّى فى العبد جرّاء العِبادة الخالصةِ، المنفتحة على اللَّه، حيث يصل بواسطتها إلى درجاتٍ من الرّقى و الكمال، بحيث يمكنه معها السّيطرة على الكَون، و يكون صاحبٌ بالولاية التَّكوينيّة، أو هو: كالحديد الأسود، الذى يحمّر جرّاء مجاورته لِلنار، وهذه الحرارة و النّورانية ليست من ذاته، لكنّها من معطيات تلك

النـار. و منها نعود لِلقرآن الكريم، لنستوحى ممّا فيه من آياتٍ حول العبادة، و ما لها من دور فى تنميـة الفضائل الأخلاقيـة: ١- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «١». ٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «٢». ٣- «وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» «٣». ۴- «إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» «۴». ۵- «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» «۵». ۶- «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» «۶». ٧- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» «٧».

تفسير و إستنتاج:

تتحرك الآيات الآنفـة الذّكر، لتؤكّد لنا حقيقةً واحدةً، ألا و هى، أنّ كلّ إنسانٍ يريد الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٨٨ الوصول إلى الكمال المطلقُ و يتحرك على مستوى تهـذيب النّفس، عليه أنّ يسـلك طريق العبادة، فالسّائر فى خطّ الإسـتقامة و التّربيـة، ولأجل أن يبنى نفسه، و يحصل على ملكة التّقوى، عليه أنّ يَعبُد و يَدعو اللَّه تعالى، من موقع العِشق و الشّوق ليوفقه فى ذلك، ويطلب منه العَون، لإزالـة شوائب نفسه، لِتّتصل النّقطـة بالبحر، و لِتَنْدَكّ ذاته بالذّات الأزليّة، و يتحول نحاس وجوده، فى بوتقة العِشق، إلى ذهبٍ خالصٍ. هنا تحرّكت «الآيـة الأُولى»، لتخاطب جميع الناس بدون إسـتثناء، أن يسـلكوا إلى اللَّه من موقع العِبادة، وأرشدتهم لِطريق التقوى، فقالَ تعـالى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». و التّأكيـد على مسألـة الخلقـة للأوّلين، لعلها تقع فى دائرة تنبيه العَرب الجاهلين، الذين كانوا يسـتدلون بعبادتهم للأصنام، بسنّة آباهم، فيقول البارى: إنّنا خلقناكم و الجِبلّة الأولين، نعم فهو الخـالق والمالـك لكـلّ شـيءٍ و لا يسـتحق العبادة أحدٌ إلّاهو، وإذا ما توجه الإنسان، حقيقـةً نحو البارى تعالى، فسـتتفتح فى جوانحه عناصـر الخير و التّقوى، لأنّ ما يوجـد من الشّوائب فى النفس، إنّما هو بِسبب التّوجه لغير اللَّه، من موقع العبادة الزّائفـة. فهذه الآيةُ تبيّن معالم الرّابطـة والعلاقـة الوثيقـة، بين العبادة التقوى. و تطرقت «الآيـة الثّانيـة»، للحديث عن عبادةٍ مهمّةٍ، و هى الصّوم و علاقته بالتّقوى، فقـال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». و من المعلوم أنّ الصّوم يُنوّر القلب و يجلوه، بحيث يحسّ معه الإنسان أنّه يعيش القُرب من الحسـنات، و البُعد عن السّـيئات و القَبائح، والإحصائيات التى ترد فى هذا الشّهر من المصادر المختصّـة عن الجرائم، تشـير إلى أنّها تصل إلى أدنى مسـتوى، فى شـهر رَمضان، و أنِّ الشـرّطة فى هذا الشّـهر المُبارك، يتفرّغون لِلأهتمام بامور اخرى، إداريّة عالقة بالأشـهر الماضـية!!. و هذا الأمر إنّ دلّ على شىءٍ، فهوَ يدلّ على أنّ الإنسان، كلّما إقترب من اللَّه تعالى، فى خطّ العبوديّـة و الطّاعـة، فإنّه يبتعـد عن الموبقات و الآثام، و القبائـح بنفس المقدار. الاخلاق فى القرآن، ج ١، ص: ٢٨٩ و أشارت «الآيـة الثّالثة»، إلى علاقة الصّـلاة بالنّهى عن الفَحشاء و المنكر، و خاطبت الرّسول الكريم صـلى الله عليه و آله، بإعتباره قـدوة واسوة للآخرين، فقـالت: «وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ». «فالفَحشاء و المنكر»، عبارةٌ عَنْ مجموعـة الأفعال غير الأخلاقيّة، التى تنبع وتنشأ من الصّـفات الأخلاقيّة، و النّزعات الشّـريرة الموجودة فى مطاوى النّفس البشـرية، حيث تؤثّر بدورها فى سلوك الإنسان، و تفرز الأخلاق الظاهريّـة لَه، و «الصّـلاة» تمثّل أداةَ ردعٍ لتلك الأخلاق المنحرفـة، فى دائرة السّـلوك، لأنّ الأذكار و الأدعيـة، تعمل على تهـذيب النّفس، و ترويضـها و تطويعها فى طريقِ الخَير و الصّـلاح، و حالـة القُرب من البارى تعالى، هذه هى التى تتولى إبعـاد الإنسان عن منبع الشّر و الرّذيلـة، الـذى هو عبارةٌ عن هوى النّفس و حبّ الـدنيا، من خلال الإنفتاح على آفاق المَلكوت، لِتَغرف نفسه من أنوار القُدس، وترتفع به إلى عالم الخلودِ و الكَمالِ المُطلق. فالمصلّى الحقيقى سيبتعد عن الفحشاء و المنكر لا مُحالة، لأنّ الصّـلاة و العِبادة تَصون النّفس من المنكرات، و تحول دون إختراق الرذائل للنّفس الإنسانيّة، وتعمل على تَفعيل عناصـر الخَير، فى أعماق الوِجدان. و تحدّثت «الآية الرابعة» عن حالة الجَزع و البخل، اللّذان هما من السّجّايا الوضيعة فى واقع الإنسان، و خُصوصاً الجَزع فى حالـة سـيطرة المشـكلات و الشّرور، و البُخـل فى حالـة إنفتـاح أبواب الثّراء أمام الإنسان، و إسـتثنت الآيـة المصـلّين، و قالت: «إِنَّ

الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ». فهذه الآيات الكريمة، تبيّن لنا بصورةٍ جيدةٍ، أنّ التّوجه للّه‌تعالى، و السّير فی خطّ العبادة و الدُّعاء و المناجات، له دورٌ هامّ فی مَحو الرّذائل الأخلاقيّة، من قبيل البُخل و الجّزع من واقع النّفس. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۰ و تشيرُ «الآية الخامسة»، إلی تطهير النّفس، بواسطة «الزّكاة»، و التی بدورها تُعتبر، من العبادات الإسلامِيَّةِ المُهِمَّةِ، فی ديننا الحنيف، فتقول: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا». و جُملة: «تُزكيهم بها»، هی دليلٌ واضحٌ علی هذه الحقيقة، و هی أنّ الزّكاة تعمل علی تطهير النفس، من البَخل و الحِرص و حُبِّ الدنيا، وتزرع فی نفسه صفة الكرم، و حبّ الخير لِلناس، وتثير فی نفسه الحركة، علی مستوی حِماية الفقراء و المحتاجين. و ما ورد من روايات فی هذا الصدد، تبيّن هذه الحقيقة أيضاً، ومنها الحديث النبوی الشريف: «ما تَصَدَّقَ أَحَدُكُم بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ- وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إلّاالطّيِّبَ-، إلّاأَخَذَها الرَّحمانُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كانَتْ تَمْرَةً فَتَربُو مِنْ كَفِّ الرَّحمانِ فی الجِنان حَتّی تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ» «۱». هذا الحديث الشّريف يبيّن تلك العلاقة الوثيقة المباشرة، بين هذه العبادة المهمّة و بين توطيد العلاقة مع اللّه تعالی، و تفعيل الحالات المعنوية فی واقع الإنسان ومحتواه الداخلی. و تتحرك «الآية السّادسة»، من موقع الإشارة إلی عبادة مهمّةٍ اخری و هی عبادة: «الذِّكر»، للّه تعالی، و ما لَها من دور فی بعث الطّمأنينة، فی واقع الرّوح فتقول: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». فالطّمأنينة تقترنُ دائماً مع التّوكل علی البارئ تعالی؛ و عدم الوقوع فی أسر الماديّات والامور الدنيويّة، من الإنخداع بِبَريق الدُنيا، و الطّمع و البُخل و الحَسد و ما شابهها من الامور، فَمع وجود هذه الحالات السّيئة فی واقع النفس، فسوف لن يذوق الإنسان معها الرّاحة و الطّمأنينة. و عليه، فإنّ ذكر اللّه تعالی بإمكانه إزالة هذه الصّفات السّلبية عن القلب، و تطهير النّفس منها لِتَتهيأ الأرضيّة المساعدة، فی تَفتّح براعم السّكينة و الطّمأنينة فی واقع القلب و الرّوح. أو بتعبيرٍ أدق، إنّ جميع الإضطرابات الرّوحية، و أشكال القلق النّفسی، فی واقع الذّات الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۱ البشريّة، ناشئة من هذه الرّذائل الأخلاقيّة، وستزول وتقلع جذورها بذكر اللّه، الذی يعمل علی تسكين روح الإنسان، و تجفيف مصادر القلق هذه، لِتحل محلّها السّكينة والهدوء النّفسی «۱». و أخيراً تناولت «الآية السّابعة»، دور الصّلاة و الصّيام فی رفع المعنويات، و تقوية عناصر الخير فی وجدان الإنسان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ». و قد فسّرت بعض الرّوايات الإسلاميّة الصّبر بالصيام «۲»، من حيث كون الصّوم أحد المَصاديق البارزة لِلصبر، و إلّافالصّبر له مفهومٌ وسيعٌ يشمل كلّ أنواع المُقاومة، و التّحدی لِلأهواء النّفسانية و الوساوس الشيطانية، فی طريق طاعة اللّه تعالی، وكذلك تَستوعب الآية حالة الصّبر علی المصائب و المحن، التی تصيب الإنسان فی حركة الواقع. و قد وَرد فی حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه كلّما أهمّه شیءٌ إندفع مُسرعاً نحو الصّلاة، وبعدها يتلو هذه الآية ثلاث مرّاتٍ: «كانَ عَلِيٌّ عليه السلام إذا أَحالَهُ أَمْرٌ فَزِعٌ قامَ إِلی الصَّلاةِ ثُمَّ تَلا هذِهِ الآيةَ: «و اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»» «۳». نعم فإنّ العبادة ترسخ فی النّفس محاسنها، و تصقلها و تعمل علی تفعيل عناصر الخير فيها، من: التّوكّل و الشّهامة و الصّبر و الإستقامة، و تستأصل الرّذائل الأخلاقيّة من قَبيل: الجُبن و الشّك و الإضطراب و التّوتر النّاشیء من حالات الصّراع، وحبّ الدنيا وتزيحها عن واقع النّفس، وبهذا تحيی العبادة فی واقع النّفس، شطراً مُهمّاً من الفضائل الأخلاقية، وكذلك تقوم بإلغاء الكثير من عناصر الشّر، و قوی الإنحراف و الرّذيلة من وجود الإنسان.

النّتيجة:

نستنتج ممّا ذُكر آنفاً: أنّ العِبادة لَها دورها الفاعل، والعميق فی تَهذيب الأخلاق، و يمكن تَلخيص هذا المعنی فی عدّة نقاط: ۱- إنّ التوجه لِلمبدأ، والإحساس بحضور اللّه تعالی، مع الإنسان فی كلّ وقتٍ و مكانٍ، يدفع الإنسان نحوَ المزيد من مُراقبة أعماله وحركاته وسكناته، و يُساعده علی السّيطرة علی ميوله الذّاتية، و أهوائه النفسيّة، لأنّ العالم محضر اللّه، والمعصية فی حال الحضور، تمثّل الإنحراف عن خطّ الحقّ، و بالتّالی فهی عين الوقوع فی لُجّة الكُفران للنعمة. ۲- إنّ التّوجه لصفات جَلاله و جَماله، التی وردت فی

العبادات و الأدعیة، یثیر فی نفس الإنسان حالةً من لُزوم الإقتباس، من تلک الأنوار القُدسیّة، و یعیشها فی واقعه الرّوحی، لیسیر فی طریق التّکامل الأخلاقی. ۳- التّوجه للمَعاد والمحکمة الإلهیّة العظیمة فی یوم القیامة، یمثّل أداةً فاعلةً لتطهیر و تزکیة النّفس، خوفاً من العقاب و الحِساب فی غدٍ. ۴- العِبادة و الدّعاء، تضفی علی الإنسان هالاتٍ من النّور لا توصف، فلا تستطیع معها ظُلمات الرّذیلة أن تقف أمامها، فیحسّ الإنسان بالقُرب الإلهی، و صفاء الضّمیر بعد کلّ عبادةٍ، شریطَة أن تکونَ مقرونةً بحضور القلب. ۵- إنّ مضامین العبادات و الأدعیة، غنیٌّ جدّاً بالتّعالیم والآداب الأخلاقیّة، فهی ترسمُ الطّریق لِلسالک نحو اللّه تعالی، و هی فی الحقیقة دروسٌ قیّمةٌ، توصل الإنسان السّالک لِهدفه السّامی، من أقصر طریقٍ، و بدونِ العبادة و المُناجاة، و خاصّةً فی حالات الخَلوة مع اللّه، تعالی و لا سیّما فی وقت السّحر، فسوف لن یصل الإنسان إلی غایته المنشودة.

تأثیر العبادة فی صقل الرّوح فی الرّوایات الإسلامیّة:

لهذه المسألة، صَداً وَاسعاً فی الرّوایات الإسلامیّة، و نشیر إلی بعضٍ منها، تارکین التّفاصیل الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۳ إلی البحوث الموسّعة: ۱- أشارت جمیع الرّوایات الإسلامیّة، التی تناولت فلسفة الأحکام، إلی دور العبادة فی تَهذیب النّفوس و صفاء القلوب، فقال الإمام علی علیه السلام، فی قِصار کلماته: «فَرَضَ اللّهُ الإیمانَ تَطْهیراً مِنَ الشِّرکِ، والصَّلاةَ تَنْزیهاً عَنِ الکِبْرِ وَالزَّکاةَ تَسبیباً لِلرِّزْقِ وَالصِّیامَ إبتلاءً لِإخلاصِ الخَلْقِ»». وَ وَرد نفس هذا المعنی، مع إختلافٍ بسیطٍ فی خُطبة الزّهراء علیها السلام فإنّها تقول: «فَجَعَلَ اللّهُ الإیمانَ تَطْهیراً مِنَ الشِّرکِ، والصَّلاةَ تَنْزیهاً عَنِ الکِبْرِ وَالزَّکاةَ تَزکِیَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً فی الرِّزْقِ وَالصِّیامَ تَثبیتاً لِلإخلاصِ» «۲». ۲- و یشبّه الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله الصّلاة بنهرٍ جاری، یتولی تطهیر البدن کلّ یوم خمس مرّاتٍ، حیث یقول: «إنّما مَثلُ الصَّلاةِ فِیکُم کَمَثلَ السّری- وهو النهر- عَلی بابِ أَحَدِکُم یَخرُجُ إلَیهِ فی الیَومِ وَاللَّیلَةِ، یَغْتَسِلُ مِنْهُ خَمسُ مرّاتٍ، فَلا یَبْقی الدَّرنُ عَلَی الغَسلِ خَمْسُ مرّاتٍ، وَلَم تَبْقَ الذُّنُوبُ عَلی الصَّلاةِ خَمسُ مِّراتٍ» «۳». و علیه فقد ذکرت هذه الرّوایات، لکلّ عبادةٍ: دوراً خاصّاً فی عملیّة تهذیب النّفوس الإنسانیّة. ۳- وَ وَرد فی حدیثٍ آخر عن الإمام الرضا علیه السلام، یشرح فیه السّبب، الذی شرّع اللّه تعالی بِسَببه العبادة، فیقول: «فَإنْ قالَ فَلِمَ تَعبَّدَهُم؟ قِیلَ لِئَلا یَکُونُوا ناسِّینَ لِذِکْرِهِ ولا تارِکِینَ لِأَدَبِهِ وَ لا لاهِینَ عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْیِهِ إذا کانَ فِیهِ صَلاحُهُم وَقِوامُهُم، فَلَو تُرِکُوا بِغَیرِ تَعَبُّدٍ لَطالَ عَلَیهِم الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُم» «۴». فیتّضح من ذلک أنّ العبادة، تجلو القلب و تُبلور الرّوح و تَحثّ علی ذکر اللّه تعالی، الذی هو الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۴ مدعاة لإصلاح الظاهر والباطن. ۴- وَ وَرد فی حدیث آخر، عن الإمام الرّضا علیه السلام، و فی مَعرض حدیثه لإحصاء فوائد الصّلاة، أنّه قال: «مَعَ ما فِیهِ مِنَ الإیجابِ وَالمُداوَمَةِ عَلی ذِکْرِ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ بِاللَّیلِ وَالنَّهارِ لِئَلا یَنْسَی العَبْدُ سَیِّدَهُ وَمُدَبِّرَهُ وَخَالِقَهُ، فَیَبْطُرَ وَیَطْغی وَیَکُونَ فِی ذِکْرِهِ لِرَبِّهِ وَقِیامِهِ بَینَ یَدَیهِ زاجِراً لَهُ عَنِ المَعاصِی وَ مانِعاً لَهُ عَنْ أَنْواعِ الفَسادِ» «۱». ۵- وَ وَرد عن الإمام الصادق علیه السلام، فی دور الصّلاة و میزان قبولها، أنّه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ یَعْلَمَ أَنْ قُبِلَتْ صَلاتُهُ أَمْ لَم تُقْبَلْ فَلْیَنْظُرْ هَلْ مَنَعَتْ صَلاتُهُ عِنَ الفَحشاءِ وَالمُنْکَرِ، فَبِقَدَرِ ما مَنَعَتْهُ قُبِلَتْ» «۲». فهذا الحدیث یُبیّن بوضوح، أنّ صحّة الصّلاة و قبولها، لها علاقةٌ طردیّةٌ بالأخلاق و الدّعوة إلی الخیر و ترک الشّر، و من لم تؤثّر صلاته، فی تفعیل عناصر الخیر و الصّلاح فی وجدانه، فعلیه أن یعید النّظر فیها حتماً، لأنّها وإن کانت مسقطة للتکلیف، إلّاأنّها غیر مقبولةٍ لدی الباری تعالی. ۶- و فی فلسفة الصّیام، قال الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «إنَّ الصَّومَ یُمیتُ مُرادَ النَّفْسِ وَشَهْوَةَ الطَّبْعِ الحَیوانِی، وَ فِیهِ صَفاءُ القَلْبِ وَطَهارَةِ الجَوارِحِ وَ عَمارَةُ الظَّاهِرِ وَ الباطِنِ، وَالشُّکْرُ عَلَی النِّعَمِ، وَالإحْسانِ إلی الفُقَراءِ، وَزِیادَةُ التَّضَرُّعِ وَالخُشُوعِ، وَالبُکاءِ وَجَعَلَ الإلتِجاءِ إلی اللّهِ، وَسَبَبُ إنْکِسارِ الهِمَّةِ، وَتَخْفِیفِ السَّیِّئاتِ، وَتَضعِیفِ الحَسَناتِ وَ فِیهِ مِنَ الفَوائِدِ ما لا یُحْصی «۳». فقد ذکر هذا الحدیث الشّریف، أربعة عشر صفةً إیجابیةً للصّوم فی واقع النّفس، و هی مجموعةٌ من الفضائل و الأفعال الأخلاقیّة، تصعد بالإنسان فی مدارج الکمال المعنوی و الإلهی. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۵ ۷- و نختم هذا البحث الواسع، بحدیثٍ عن أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال: «دَوامُ العِبادَةِ بُرهانُ الظَّفَرِ بِالسَّعادَةِ» «۱». و من أراد التّفصیل أکثر فلیراجع: «وسائل الشّیعة»، الأبواب الاولی من العِبادات، و کذلک ما ورد

فی: «بحار الأنوار». نعم فإنّ کلّ من یطلب السّعادة، علیه أن یتحرک بإتّجاه توثیق العلاقة مع اللّه تعالی، من موقع الدّعاء و العبادة.

النّتیجة:

نستنتج من هذه الرّوایات الشّریفة التی أوردناها، و الاخری التی أَعْرضنا عنها لِلإختصار، أنّ علاقة العبادة بصفاء الرّوح، و تهذیب النّفوس، و تفعیل القیم الأخلاقیّة فی واقع الإنسان، علاقةٌ طردیّةٌ، و کلّما تحرّک الإنسان فی عبادته، من موقع الإخلاص للّه‌تعالی، کان أثرها فی نفسه أقوی وأشدّ. و هذا الأمر محسوس جدّاً، فالمخلص الذی یؤدی عبادته بحضور قلبٍ، فإنّه یحسُ بالنّور والصفاء فی قلبه، و المیل إلی الخیر و النّزوع عن الشّر، ویجد فی روحه العبودیّة والخشوع والخضوع الحقیقی، بإتجاه خالقه وبارئه. و هذا الأخیر فی الحقیقة هو العامل المشترک بین جمیع العبادات، و إن کان لکلّ منها تأثیر خاص علی النفس، فالصّلاة تنهی عن الفَحشاء و المنکر، و الصّیام یقوّی الإرادة و ینشط العقل، لِیُسیطر علی جمیع نوازع النّفس، والحج یمنح الإنسان بُعداً معنویاً، یجعله بعیداً عن زخارف الدّنیا و زبرجها، و الزّکاة تقمع البخل فی واقع النّفس، و تقضی علی أشکال الطّمع والحرص علی الدنیا. و ذِکر اللّه یَهدیء الرّوح، و یمنحها الطّمأنینة والرّاحة، و کلّ ذکرٍ من الأذکار، تتجلّی فیه الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۶ صفةٌ من صفاتِ جَلاله و جَماله سبحانه و تعالی، التی تتولّی ترغیب الإنسان فی السّلوک إلی اللّه، و الإنسجام مع خطّ الرّسالة. و علیه فإنّ الشّخص الذی یؤدّی العبادة علی أتمّ وجهٍ، سینتفع من فوائدها فی دائرة المعطیات العامة، وکذلک تمنحه العبادات آثارها الإیجابیّة الخاصّة، بما یحقّق له بلورة فضائله الأخلاقیّة، و ملکاته النفسانیّة فی واقع وجوده، فالعِبادة تشکّل الخطوة والحجر الأساس، لبناء النّفس، فی خطّ التّقوی و الإیمان، و الإنفتاح علی اللّه، شَریطة الانس بمثل هذه المعانی الروحیّة، و التّعرف علی فلسفة العبادة، فلا ینبغی أن نقنع بالمحافظة علی قوی الجسم وحده، و لأهمیّة مَبحث الذّکر خصّصنا له بَحثاً مُستقلًّا عن باقی البحوث.

ذِکر اللّه و تربیة الرّوح:

أعطی علماء الأخلاق، الأهمیّة القُصوی لِلذکر، و ذلک تبعاً لما ورد، فی الرّوایات الإسلامیّة و القرآن الکریم، و اعتبروه من العناصر المهمّة فی خطّ العبادة، و تطهیر النّفس و تهذیبها، و ذکروا لکلّ مرحلةٍ من مراحل السّیر و السّلوک، الذّکر الخاص بها. فمثلًا فی مرحلة التّوبة، ینبغی للسالک فی طریق الحقّ، الإهتمام بِذِکر: «یاغَفّار»، و فی مرحلة محاسبة النّفس: «یاحَسیب»، و فی مرحلة إستنزال الرّحمة: «یا رحمان» و «یا رَحیم» ... وَ هَلُمَّ جرّا. و هذه الأذکار تتناسب و حالات الإنسان، و السّلوک الذی یسلکه الإنسان فی خطّ الإستقامة، و الإلتزام بها علی کلّ حالٍ حسنٍ، و لا تختص بعنوان: قصد الوُرود إلی ساحة الرّحمة الإلهیّة. نعم فإنّ ذکر اللّه تعالی، من أکبر العبادات وأفضل الحسنات، فی عملیّة التّصدی للتحدیات النّفسیة الصّعبة، و تحقیق الصّیانة من الوساوس الشّیطانیة. ذکرُ اللّه، یخرق حُجب الأنانیّة والغرور و النّوازع النّفسانیة، التی تُعدّ من أَقوی العوامل، لِهَدم سعادة الإنسان، ویمنح الإنسان وعیاً فی أجواء السّلوک إلی اللّه تعالی، من الأخطار التی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۷ تهدّد سعادته، ویرسم له معالم مسیرته فی حرکة الحیاة والواقع. ذکر اللّه تعالی: هو المطر الذی ینزل علی أرض القَلب، لِیسقی بذور التّقوی و الفضیلة، و یعمل علی تقویتها و تنمیتها. و الحقیقة أنّ المحاولة للإحاطة بعظمة هذه العبادة، و إحصاء معطیّاتها علی مستوی تهذیب النّفس، لا تفی بالغرض، و لا تحیط بأهمیتها فی خطّ السّلوک المعنوی للإنسان. بعد هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم، لنستوحی من آیاته، أهمیّة ذکر اللّه تعالی: ۱- «الَّذِینَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِکْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» «۱». ۲- «وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَی عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْکَرِ وَلَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ» «۲». ۳- «إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِی وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِکْرِی» «۳» ۴- «إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوکَ بِآیَاتِی وَلَا تَنِیَا فِی ذِکْرِی» «۴». ۵- «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنکاً» «۵». ۶- «وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ

عَیْنَاکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَکَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» «۶». ۷- «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّی عَنْ ذِکْرِنَا وَلَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیَاةَ الدُّنْیَا» «۷». ۸- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً* وَسَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَأَصِیلًا* هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَمَلَائِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَی آلنُّورِ وَکَانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً» «۸». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۸ ۹- «إِنَّمَا یُرِیدُ الشَّیْطَانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِی الْخَمْرِ وَالْمَیْسِرِ وَیَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ» «۱». ۱۰- «رِجَالٌ لَاتُلْهِیهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ» «۲».

تفسیر و إستنتاج:

«الآیة الاولی»: تطرّقت للحدیث عن دور ذکر اللّه تعالی، فی خلق حالة الطّمأنینة فی القلوب؛ لِتتولّی إنقاذ الإنسان من حالات الزلّل و التّوتر، وتوجهه فیها إلی تحقیق الفضائل الأخلاقیة فی واقع النّفس، فیقول تعالی «الَّذِینَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِکْرِ اللَّهِ». ثمّ یبیّن قاعدةً کلیّةً، تقول: «أَلَا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». فما یجول فی خاطر الإنسان و خُلده، من الحُزن من المستقبل و التّفکیر بالرّزق، و الموت و الحیاة و المرض و ما شابهها من امور الدنیا، کلّها تدفع الإنسان للتّفکیر الجاد فی مصیره، وتسلب منه الرّاحة النّفسیة، و تَورثه القلق الحقیقی نحو المستقبل المجهول. و کذلک عناصر: البخل و الطّمع، و الحرص، هی أیضاً من الامور التی تزرع القلق و التّوتر فی نفس الإنسان، ولکن عندما یتجسّد ذِکر اللّه الکریم، الغنی القوی، الرّحمن الرّحیم، الرزّاق فی وعی الإنسان، ویعیش الإیمان بأنّ اللّه تعالی، هو الواهب والمانع الحقیقی، فعندما تَتجسّد هذه المعانی و المفاهیم، و تتفاعل مع بعضها فی واقع الإنسان فی حرکة الحیاة، فسوف یعیش الإطمئنان، و السّکینة أمام تحدّیات الواقع، فکلّ شیءٍ یراه مسیّراً لقدرة اللّه تعالی وإرادته المطلقة، و ما شاء کانَ و ما لَمْ یَشأ لم یکن. و بهذا سیطمئن الإنسان، و یسلّم أمره إلی بارئه، و ستزرع فی نفسه حالة التّقوی و حبّ الفضائل، و هو ما نَقرأه فی الآیة الشّریفة: «یَا أَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِی إِلَی رَبِّکِ رَاضِیَةً مَرْضِیَّةً* فَادْخُلِی فِی عِبَادِی* وَ ادْخُلِی جَنَّتِی» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۲۹۹ و تحرکت «الآیة الثّانیة»، بعد ذکرها لمعطیات الصّلاة، علی مستوی النّهی عن الفحشاء والمُنکر: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَی عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْکَرِ»، إلی تقریر هذه الحقیقة و هی: «وَلَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ». نعم، فإنّ ذکر اللّه هو روح الصّلاة، والرّوح أشرف شیءٍ فی عالم الوجود، فإذا ما منَعت الصّلاة عن الفحشاء و المُنکر، فإنّما ذلک بسبب تضمّنها لذکر اللّه، لأنّ ذکر اللّه هو الذی یذکّر الإنسان بالنّعم، التی غرق بها الإنسان فی واقع الحیاة، و تذکّر نِعم اللّه، بِدوره یمنع الإنسان من العصیان و الطّغیان، و سیخجل من إرتکاب الذّنوب، هذا من جهةٍ. و من جهةٍ اخری، سیدعو الإنسان للتّفکیر بیوم القیامة، الذی لا ینفع فیه مالٌ و لا بنون، و یوم تنشر الصّحف و تَتطایر الکُتب، و یعیش المُسیئون الفضیحة و العار، فی إنتظار ملائکة العذاب التی تأخذهم إلی الجحیم، و یکتب الفوز و النّصر للمحسنین، و سیکون فی إستقبالهم ملائکة الرّحمة الذین یقولون لهم، ادخلوها بسلام آمنین، فذِکر هذه الامور، و تَجسیدها فی وعی الإنسان، سیدفع إلی التّوجه نحو الفضائل، و یمنعه من مُمارسة الرّذیلة و الإثم. و قالَ بعض المفسّرین، إنّ جُملة: «وَلَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ»، إشارةً إلی أنّ ذِکر اللّه تعالی، هو أسمی و أرقی العبادات، فی مسیرة الإنسان المعنویّة. و یوجد إحتمالٌ آخرٌ، و هو أنّ المقصود من: «وَلَذِکْرُ اللَّهِ»، هو ذِکر اللّه لِعبده، (و ذلک فی مقابل ذکر العبد للّه‌تعالی) «۱». حیث یصعد ذکر اللّه تعالی به، إلی أسمی و أعلی درجات العبودیّة، فی آفاقها الواسعة، ولا شیء أفضل من هذه الحالة المعنویّة للإنسان، ولکنّ الإحتمال الأوّل، یتناسب مع معنی الآیة أکثر. «الآیة الثّالثة»: ذکرت أوّل کلام للّه‌تعالی، مع نبیّه موسی علیه السلام، فی وادی الطّور الأیمَن، فی البُقعة المبارکة عند الشّجرة، فسمع موسی علیه السلام النداء قائلًا: «إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۰ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِکْرِی». و الحقیقة أنّ الآیة ذکرت، أنّ الهدف والفلسفة الأصلیّة للصّلاة، هی ذکر اللّه تعالی، و ما ذلک إلّالأهمیّة الذّکر، فی حرکة الإنسان المنفتحة علی اللّه تعالی، و خُصوصاً أنّها ذکرت مسألة الصّلاة، و ذکر اللّه بعد بحث التّوحید مباشرةً. «الآیة الرابعة» خاطبت الأخوین موسی و هارون علیهما السلام، من موقع نَصبهما لِمقام النّبوة و السّفارة الإلهیّة، وأمرتهما بمحاربة قوی الإنحراف و الزّیغ، و التّصدی لفرعون و

أعوانه: «اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي». فالأمر بـذكر اللَّه تعالى و عـدم التّوانى فيه، لِلوقوف بوجه طاغيـة: مثلَ فِرعون، هو أمرٌ يحكى عن دور الـذّكر و أبعاده الوسيعة، و أهميّته الكبيرة فى عمليّة السّلوك إلى اللَّه تعالى، فـذِكر اللَّه يمنح الإنسان عناصر القّوة و الشّجاعة، فى عمليّة مواجهة التّحديات الصّعبة، لِلواقع المُنحرف. وَ وَرد فى تفسير: «فى ظِلال القرآن»، فى مَعرض تفسيره لهذه الآية، قوله: (إنّ اللَّه تعالى أمر موسى و هارون عليهما السلام، أن اذكرونى، فإنّ ذِكرى، هو سِلاحكم و وسيلتكم لِلنجاة» «۱». و بعض المفسّرين فسّروا كلمة «الذّكر»، الواردة فى الآية، بإبلاغ الرّسالة، و قال البعض الآخر، أنّها مطلق الأمر بالذّكر، و قال آخرون: إنّها ذِكر اللَّه تعالى خاصّةً، و الحقيقة أنّه لا فرق بين التّفسيرات الثّلاثة، و يمكن أن تجتمع كلّها فى مفهوم الآية. و من المعلوم أنّ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و لِاجل أن يستمر فى إبلاغ الرّسالة، و التّحرك فى خطّ الطّاعة و التّصدى لقوى الباطل و الإنحراف، عليه أن يستمد القوّة و القدرة من ذكر اللَّه تعالى، و التّوجه إليه فى واقع النّفس والقلب. الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰۱ و تناولت «الآية الخامسة»، إفرازات و نتائج، الإعراض عن ذكر اللَّه تعالى فى حركة الإنسان، قال تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَومَ القِيامَةِ أَعمى . فعذابهم بالدّنيا أنّهم يعيشون ضنك العيش، وفى الآخرة العمى، و فَقد البَصر!. فضنك العيش، ربّما يكون بتضييق الرّزق على من يعيش الغفلة عن ذكر اللَّه تعالى، أو ربّما بإلقاء الحرص على قلب الغنى، فيتحرك فى تعامله مع الآخرين، من مَوقع الطّمع و البُخل، فلا يكاد يُنفق درهماً فى سبيل اللَّه، ولا يعين فقيراً ولو بشقّ تَمرةٍ، فيكون مِصداق حديث أميرالمؤمنين عليه السلام، حيث يقول: «يَعِيشُ فِي الدُّنيا عَيْشَ الفُقَراءَ وَيُحاسَبُ فِي الآخِرَةِ حِسابَ الأَغنِياء» «۱». ففى الحقيقة أنّ أغلب الأغنياء وبسبب حرصهم الشّديد على النّفع المادى، يعيشون فى حالة قلقٍ دائمةٍ، و لا ينتفعون من أموالهم بالقدر الكافى، وتكون عليهم حسرات فى الدّنيا و الآخرة. ولكن لماذا يُحشر أعمى؟ وَ لَربّما لِتشابُه الأحداث هناك، مع الأحداث فى الدنيا، فالغافل عن ذكر اللَّه تعالى فى الدنيا، و لإعراضه عن الحقيقة و آيات اللَّه تعالى، و تَجاهله لدواعى الحقّ و الخير فى باطنه، فإنّه لا يرى الحقّ بعين البصيرة، فى حركة الحياة والواقع، و لذلك سوف يُحشر أعمى فى عَرصات القِيامة.

كيف يكون ذِكر اللَّه؟

فسّرت الكثير من الرّوايات الإسلاميّة، ذِكر البارى تعالى: «بالحج»، وَ وَرد فى البعض الآخر، أنّ الذّكر هنا: بمعنى الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام. و الحق أنّ الإثنين هما مِصداقان من مَصاديق ذكر اللَّه تعالى، فالحجّ هو مجموعةٌ من الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰۲ الأعمال و السّلوكيات، تذكّر باللَّه تعالى، و كذلك على عليه السلام، فـذِكره و النّظر إليه عبادةٌ، تُعمّق فى الإنسان روح الإيمان، و تُذكّره باللَّه تعالى. «الآية السّادسة»: خاطبت الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، من موقع النّهى عن طاعة الأشخاص الذين يعيشون فى غفلةٍ، وحثّته على معاشرة الّذين يذكرون ربّهم، صباحاً و بِالغَداة و العَشِىّ، ولا يريدون إلّااللَّه تعالى، فقال تعالى «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». و من المعلوم أنّ اللَّه سبحانه و تعالى، ما كان ليعذّب أحداً بالغفلة عن ذكره، بل لأنّ مثل هؤلاء الأشخاص، ينطلقون فى تعاملهم مع الحقّ، من موقع العناد و التّمرد و التّكبّر و التعصّب لِلباطل. و بناءاً عليه، فإنّ القصد من الإغفال هو سلب نعمة الذّكر منه، لِيلاقى جزاءه فى الدّنيا قبل الآخرة، و لهذا، فإنّ ذلك لا يستلزم الجَبر. و لا نرى أحداً من هذه الجماعة، إلّامُتّبعاً لِهواه، مُتّخذاً سبيل الإفراط و التّفريط فى كلّ فعاله، لذلك تعقّب الآية قائلةً: «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». و يُستفاد من هذه الآية، أنّ الغفلة عن ذِكر اللَّه تعالى، تؤثّر سلباً فى أخلاق وروح الإنسان، و تُؤدّى به إلى وادى الأهواء، و تجرّه إلى منحدرِ الأنانية. نعم، فإنّ روح و قلبَ الإنسان، لا يسع إثنان، فإمّا «اللَّه تعالى»، و إمّا «هوى النّفس»، و لا يمكن الجمع بينهما. فالهَوى هو مصدر الغَفلة عن اللَّه تعالى، و خلقه، و سَحق جميع القِيم و الاصول الأخلاقية، و بالتّالى فإنّ هَوى النّفس، يغرق الإنسان فى عُتمة ذاته الضّيقة، و يُعمى بصره عن كلِّ شىءٍ يدور حوله فى واقع الحياة، والإنسان الذى يتحرّك من موقع الهَوى، لا يرى إلّاإشباع شَهواته، الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص:

۳۰۳ ولا مفهوم عنده لمفاهیم أخلاقیّة، مِثلَ: صلة الرحم وَ المُروّة والإیثار. «الآیة السابعة»: خاطبت الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله أیضاً، من موقع التّحذیر، عن مُخالطة المُعْرِض عن ذِکر اللّه تعالی، فقالت: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّی عَنْ ذِکْرِنَا وَلَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیَاةَ الدُّنْیَا». فی تفسیر «ذِکر اللّه»، قال البعض: أنّ المراد منها فی هذه الآیة، هو القرآن الکریم، و إعتبرها البعض الآخر، إشارةً لِلأدلّة العقلیّة و المنطقیّة، و قال آخرون، أنّها الإیمان، و الظّاهر أنّ ذکر اللّه تعالی، له مفهومٌ واسعٌ یشمل کلّ ما ذُکر آنفاً. و ذَکر آخرون، أنّ هذه الآیة تدعو لترک جهاد هؤلاء، و لهذا السّبب، نُسخت بآیات الجهاد التی نزلت بعدها، و الحقّ أنّه لا نَسخ فی البَیّن، و کلّ ما فی الأمرِ، أنّها تمنع من مُجالسة الغافلین عن ذِکر اللّه تعالی، ولا مُنافاة بینها وبین مسألة الجهاد بشرائطها الخاصة. و أخیراً تبیّن هذه الآیة، العلاقة و الرّابطة الوثیقة بین: «حبّ الدنیا» و «الغفلة عن ذِکر اللّه»، فکَما أنّ ذِکر اللّه تعالی له خصائصه، و معطیاته الإیجابیة علی الإنسان، علی مستوی تَقویة عناصر الفضیلة و ترشید القیم الأخلاقیّة، فکذلک الغفلة لها آثارها، و نتائجها السلبیّة علی روح الإنسان، علی مستوی تقویة عناصر الشّر و الرذیلة فیها. «الآیة الثّامنة»: خاطبت جمیع المؤمنین، ودعتهم إلی ذِکر اللّه تعالی، و الخروج من دائرة الظّلمات إلی دائرة النّور، فتقول: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً* وَ سَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَأَصِیلًا* هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَمَلَائِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَی النُّورِ وَکَانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً». و الجدیر بالذّکر فی هذا الأمر، أنّ الآیة الکریمة، بعد الأمر بالذّکر الکثیر، و التّسبیح له بکرةً و أصیلًا، تخبرنا عن أنّ اللّه تعالی، سیصلّی هو و ملائکته علینا، و یخرجنا من الظّلمات إلی النّور، أَلَیسَ ذلک هو هدفنا فی حرکة الحیاة، أَلَیس ذلک هو مُبتغانا من الإلتزام فی خطّ الرّسالة، و کلّ ما نریده هو، أنّ الذّکر و صلاة الربّ و الملائکة علینا، سیزرع فینا روح التّوفیق الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۴ لِلطاعة و السّیر فی طریق الخَیر، و یقلع من واقعنا بذور الشرّ، و جذور الفساد، ولتحل محلّها عناصر الفَضیلة و النّسک والأخلاق الحمیدة؟!. و قد وَرد فی تفسیر المیزان، أنّ ذیل الآیة الکریمة، هو بِمنزلة التبیّن لعلّة الأمر، ب: «الذّکر الکثیر»، و هو یؤیّد ما أشرنا إلیه آنفاً «۱». و قد وَردت تفاسیرٌ مختلفةٌ، و آراءٌ مُتغایرةٌ لعبارة: «الذّکر الکثیر»، فقال بعضهم، أن لا یُنسی اللّه تعالی فی کلّ وقتٍ و مکانٍ. و قال بعضٌ آخرٌ أنّه الذّکر و التّسبیح، بأسماء وصفات اللّه الحُسنی. و ذکرت روایات اخری، أن المقصود به، هو التّسبیحات الأربعة، أو تسبیح الزّهراء علیها السلام. و قال إبن عباس: کلّ أوامر اللّه تعالی تنتهی إلی غایةٍ ما، إلّاالذّکر فلا حدّ له أبداً، و لا عُذر لتارکه أبداً. و علی کلّ حالٍ، فإنّ «الذّکر الکثیر»، له مفهومٌ واسعٌ، و یمکن أن یجمع بین طیّاته کلّ ما ذکر آنفاً. أمّا ما ذکر من، «الظّلمات» و «النّور» فی هذه الآیة، فما المقصود منه؟. إختلفوا فی تفسیرها أیضاً، فقال البعض أنّها الخُروج من ظلمات الکفر إلی الإیمان، و قال الآخرون، أنّها الخروج من ظلمات عالم المادة، إلی نور الأجواء المعنویّة و الرّوحانیة، وقال بعضٌ آخر، إنّها الخروج من ظلمات المعصیة إلی نور الطّاعة، و لا تَنافی فی البَین هنا. إضافةً إلی أنّها، تشمل الخروج من ظلمات الرّذائل الأخلاقیّة إلی نور فضائلها، و هی أهمّ معطیات ذِکر اللّه جلّ شَأنه. «الآیة التّاسعة»: حذّرت المؤمنین من نتائج مُعاقرة الخَمرة و القِمار، فقال تعالی «إِنَّمَا یُرِیدُ الشَّیْطَانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِی الْخَمْرِ وَالْمَیْسِرِ وَیَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ». فذکرت هذه الآیة، ثلاثة مفاسد لِشرب الخمر والمقامرة: إیقاع العداوة بین النّاس، و الردع و الصدّ عن ذکر اللّه، و عن الصّلاة، و یستفاد من ذلک أنّ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۵ ذکر اللّه، کالصّلاة و المحبّة بین النّاس، أمرٌ ضروری و حیاتی للإنسان فی واقعه النّفسی، و الحِرمان منه، یعتبر خَسارةً کُبری لا تُعوّض. بالإضافة إلی أنّه یستفاد من جوّ الآیة، وجود علاقةٍ بین: «الغفلة عن ذِکر اللّه، و الصّلاة»، و «ظهور العداوة و الشّحناء و المفاسد الأخلاقیّة الاخری»، و هذا هو بیت القصید، و ما نُرید التّوصل إلیه. و فی «الآیة العاشرة»: و الأخیرة، أشارةٌ إلی رجالٍ، أحاطهم اللّه تعالی بأنوارِ قُدسه، فی بیوتٍ لیس فیها إلّاذِکرُه و تَسبیحُه و التّقدیسُ له، و هی الآیة: (۳۶ و ۳۷) من سورة النّور، فقالت: «فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَیُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ یُسَبِّحُ لَهُ فِیهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ،* رِجَالٌ لَاتُلْهِیهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِیتَاءِ الزَّکَاةِ ...». و بناءً علیه، فإنّ أوّل خُصوصیات الرّجال الإلهیین: هو المُداومة علی ذِکر اللّه فی أی وقتٍ و فی کلّ مکانٍ، حیث لا تغرّهم الدّنیا، بغرورها و زخارفها و ملاهیها الجمیلة الخدّاعة، و هو أسمی إفتخار یعیشونه فی واقعهم. ثم تذکر الآیة، خصوصیّات اخری، لهؤلاء المؤمنین فی دائرة السّلوک الدّینی، من قبیل إقامة الصّلاة و إیتاء الزّکاة.

النّتيجة:

نستنتج ممّا ذُكر آنفاً من الآيات الكريمة، والآيات الاخرى التى لم نذكرها تجنّباً لِلأطالة، أن ذكر اللّه تعالى يورث الإنسان إطمئنان القَلب، و يَنهى عن الفحشاء و المنكر، و يزّود النّفس بالقُدرة و القُوّة اللّازمة، فى مقابل التّحديات الصّعبة لِلعدو الدّاخلى و الخارجى، و يميت الرّذائل الأخلاقيّة فى قلب الإنسان، كالحِرص و البُخل و حبّ الدنيا، الذى هو رأس كلّ خطيئةٍ. فلا ينبغى للسّائر فى خطّ التّقوى و الإيمان، أن يغفل عن هذا السّلاح الفعّال، فهو الدّرع الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰۶ الحصين لكلّ من يريد أن يتحرّك، على مستوى تهذيب النّفس و تربية عناصر الفضيلة فيها، وهو السدّ المنيع للمؤمنين، مقابل قوى الشّر و الانحراف، و سلاحهم الذى يمدّهم بالقوّة و العزيمة، فى مقابل الأعداء، و الأخطار التى تحدق بهم فى هذه الدنيا، المليئة بالوُحوش الضّارية الكاسرة، التى لا تعرف الرّحمة و الشّفقة، وليكن ذِكرُهم لِلّهِ كَذِكرهم لأنفسهم، بل أشدّ و أقوى.

علاقة ذِكر اللّه، بِتهذيب النّفوس فى الأحاديث الإسلاميّة:

اشارة

إنّ إستعراض الكلام، عن أهميّة ذِكر اللّه فى الأحاديث الإسلاميّة، لا يتّسع له هذا الُمختصر، و ما نَبتغيه فى هذا المجال، هو أنّ ذكر اللّه، يعدّ من العوامِلَ المهمّة فى تهذيب النّفوس و تشذيب الأخلاق و بناء الرّوح، و قد أغنتنا الرّوايات فى هذا المجال، و ما وَرد عن المعصومين الأربعة عشر، إلى ما شاء اللّه، ولكنّنا نختار منها ما يلى: ۱- نقرأ فى حديثٍ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «مَن عَمَّرَ قَلْبَهُ بِدَوامِ الذِّكرِ حَسُنَتْ أَفْعالُهُ فى السِّرِّ وَالجَهْرِ» «۱». فقد بيّن الحديث الشّريف، هذه العلاقة و الرّابطة بوضوحٍ تامٍّ. ۲- نقرأ فى حديثٍ آخر عن الإمام عليه السلام نفسه، حيث قال: «مُداوَمَةُ الذِّكرِ قُوتُ الأَرواحِ وَ مِفْتاحُ الصَّلاحِ» «۲». ۳- و عنه عليه السلام أيضاً، قال: «أصلُ صلاحِ القَلبِ إشتِغالُهُ بِذِكْرِ اللّهِ» «۳». ۴- و أيضاً فى حديث آخر عنه عليه السلام، قال: «ذِكرُ اللّه دَواءُ أَعلالِ النُّفُوسِ» «۴». ۵- و عنه عليه السلام، قال: «ذِكرُ اللّهِ رَأسُ مالِ مُؤمِنٍ، وَرِبْحُهُ السَّلامَةُ مِنَ الشَّيطانِ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰۷ ۶- و أيضاً عن هذا الإمام الهمام عليه السلام، أنّه قال: «الذِّكْرُ جَلاءُ البَصائِرِ وَنُورُ السَّرائِرِ» «۱». ۷- و أيضاً عن إمام المتقين عليه السلام، قال: «مَنْ ذَكَرَ اللّهَ سُبحانَهُ أَحيَى قَلبَهُ وَنَوَّرَ عَقْلَهُ وَلُبَّهُ» «۲» ۸- و أيضاً عن الإمام نفسه عليه السلام، أنّه قال: «إسْتَديمُوا الذِّكْرَ فَإنَّهُ يُنيرُ القَلبَ وَهُوَ أَفْضَلُ العِبادَةِ» «۳» ۹- وَرد فى «ميزان الحكمة»، عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «اذْكُرُوا اللّهَ ذِكْراً خالِصاً، تَحْيُوا بِهِ أَفْضَلَ الحَياةِ وَتَسْلُكُوا بِهِ طُرُقَ النَّجاةِ» «۴». ۱۰- وَ وَرد عن الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة، فى وصيّته المعروفة لإبنه الإمام الحسن عليه السلام، أنّه قال: «اوصِيكَ بِتَقوَى اللّهِ يا بُنَيَّ! وَلُزُومِ أَمْرِهِ وَعِمارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ». ۱۱- وَرد فى غُرر الحِكم، عن مولى الموحدين أمير المؤمنين علىّ عليه السلام، قال: «ذِكْرُ اللّهِ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيطانِ». ۱۲- وَلِحُسن الخِتام، نَختم هذا البحث، بحديثٍ عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وإن كانت هناك رواياتٌ وافرةٌ لا يسعها هذا المختصر، قال: «ذِكْرُ اللّهِ شِفاءُ القُلُوبِ» «۶». و نَستلهم ممّا ذُكر آنفاً، أنّ ذِكر اللّه تعالى، له علاقةٌ وثيقةٌ و قريبةٌ جدّاً بتهذيب النّفوس، فهوُ ينَوّر القلب، و يجلو الرّوح من عناصر الكِبر و الغُرور و البخل و الحَسد، و الأهمّ من ذلك أنّه يطرد الشّيطان الرجيم، من واقع الإنسان الدّاخلى، وَ يُعيد لِلنفس ثِقتها. و على حدِّ تعبير بعض العلماء الأكارم، أنّ القلب لا يَخلو من أمرين، لا يجتمعان فى مكانٍ واحدٍ، فإمّا أن يتّجه لِذكر اللّه سُبحانه و تعالى و يغذيه بنوره و يطرد منه الظّلمات و الشّيطان، و إمّا أن يكون مَرتعاً و مَلعباً لِلشَيطان الرّجيم و وساوسه، يوجهه حيث يشاء. و من جهةٍ اخرى، فإنّ الذّات المقدسة هى مصدر لكلِّ الكمالات، و ذكر اللّه تعالى يُؤدّى الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۰۸ إلى أنّ الإنسان يقترب من ذلك المصدر فى كلّ يوم، و بالتّالى يتحرك فى طريق الإبتعاد عن الرّذائل الأخلاقيّة و الأهواء النّفسانية، التى تنبع من

النّقص المعنوی فی واقع النّفس. و بناءً علی ذلک یجب الإستعانة بهذا السّلاح الماضی، و النّور المخترق لِلظلمات، لِلعبور من متاهات هذا الطّریق الموحش المُظلم، المحفوف بالأخطار الجسیمة، إلی جادّة السّلام، و الکمال الإلهی فی عالم النّفس، ممّا یورث إستقرارها و إتّصالها ببارئها. و نُکمِّل بحثنا بثلاثِ نقاطٍ، و ملاحظاتٍ، لا تخلو من فائدة:

۱- ما هی حقیقة الذِّکر

یقول «الرّاغب» فی کتاب «المُفردات»: إنّ الذِّکر له مَعنیان، فمرّةً حضور الشّیء فی الذّهن، و مرّةً بمعنی حفظِ المَعارف و الإعتقادات الحقّة فی باطن الرّوح. و قال الأعاظم من علماء الأخلاق: إنّ «ذکرَ اللّه تعالی»، لیس هو لِقَلقَةِ لِسانٍ، أو مجرّد التّسبیح و التّحمید و التّهلیل و التّکبیر، فی دائرة الألفاظ والکلمات، بل هو التّوجه الحقیقی للّهِ تعالی، و الإذعان لِقُدرته و الإحساس بوجوده أینَما کُنّا. و لا شکّ أنّ مِثلَ هذا الذّکر هو المطلوب، وهو الغایة القصوی و الدّافع للإتجاه نحو الحسنات، و الإعراض عن السّیئات و القَبائح. و لذلک نقرأ عن الرّسول الکریم صلی الله علیه و آله فی حدیثٍ فی هذا المضمار: «وَلَیْسَ هُوَ سُبحانَ اللّهِ وَالحَمْدُ للّهِ وَلا إلهَ إلّا اللّهِ وَاللّهُ أَکْبرُ، وَلَکِنْ إذا وَرَدَ عَلی ما یَحْرُمُ عَلَیهِ، خافَ اللّهَ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَهُ وَتَرَکَهُ» «۱». و نقل ما یقرب لهذا المعنی فی حدیث عن الإمامین: الصّادق و الباقر علیهما السلام «۲». و نقل حدیث آخر عن علی علیه السلام، أنّه قال: «الذِّکْرُ ذِکْرانِ: ذِکْرٌ عِنْدَ المُصِیبَةِ، حَسَنٌ جَمِیلٌ وَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِکَ ذِکْرُ اللّهِ عِنْدَ ما حَرَّمَ اللّهُ عَلَیکَ، فَیَکُونُ ذَلِکَ حاجِزاً» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۰۹ و نستنتج من ذلک، أنّ الذّکر الحقیقی، هو الذّکر الذی یترک أثره الإیجابی فی أعماق روح الإنسان، و یفعّل إتجاهاته الفکریّة و العملیّة فی خطّ التّقوی و الإلتزام الدّینی، و یربّی فی النّفس و الرّوح، عناصر الخیر و الصّلاح، و یدعو الإنسان إلی اللّه العزیز الحکیم. و من یذکر اللّه تعالی علی مستوی اللّسان، و یتبع الشّیطان علی مستوی المُمارسة و العمل، فهو لیس بِذاکِرٍ حقیقی، و لا یذکر اللّه من موقع الإخلاص، بل هو کما قال الإمام علی بن موسی الرّضا علیه السلام: «مَنْ الذِّکْرِ ولَمْ یَسْتَبِقْ إلی لِقائِهِ فَقَدْ إسْتَهزَءَ بِنَفْسِهِ» «۱».

۲- مراتب الذّکر

ذکر علماء الأخلاق، أن ذّکر اللّه تعالی، علی مراتب و مراحل: المرحلة الاولی: الذِّکر اللّفظی، حیث یجری فیها الإنسان أسماء اللّه الحُسنی، و صفات جَماله و جَلاله، علی لسانه، من دون التّوجه إلی معانیها و مُحتواها، کما یفعل کثیرٌ من المصلّین السّاهین فی صلاتهم، وهو نوع من الذّکر، و له تأثیره المحدود علی آفاق النّفس و الفِکر! ولکن لماذا؟. لأنّه أولًا: یعتبر مقدمةً لِلمراحل التّالیة. و ثانیاً: أنّه لا یخلو من التّوجه الإجمالی نحو اللّه تعالی، لأنّ المصلی و علی أیّةِ حالٍ، یعلم أنّه یصلّی و هو واقفٌ بین یَدَیِّ اللّه تعالی، ولکنّه لا یتوجه لما یقول بصورةٍ تَفصیلیَّةٍ، ولکن مع ذلک فهذا النّوع من الذّکر، لا یؤثّر فی حیاة الإنسان، علی مستوی تهذیب النّفس و تربیة الأخلاق. المرحلة الثانیة: الذّکر المعنوی، وهو أن یلتفت الإنسان لمعانی الأذکار التی تجری علی لسانه، و من البدیهی أنّ التّوجه لمعانی الأذکار، و خصوصیّة کلّ واحدةٍ منها، سیعمّق الإمتداد المعنوی لمضامین الذّکر فی واقع الإنسان، و بالإستمرار و المداومة سیحسّ الذّاکر، بمعطیات هذا الذّکر فی نفسه و روحِهِ. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۱۰ المرحلة الثّالثة: الذّکر القلبی، و قالوا فی تفسیره، إنّه الإحساس الوجدانی بحضور اللّه تعالی، فی أجواء القلب، ثم جریان ذکر اللّه علی اللّسان، فعندما یری عجائب خلقته، و دقائق صنعته، من أرضٍ و سماءٍ و مخلوقاتٍ، و ما بثّ فیها من دابّةٍ، سیقول: «العَظَمَةُ للّهِ الوَاحِدِ القهّارِ». فهذا الذّکر نابعٌ من القلب، و ینبیءُ عن حالةٍ باطنیّةٍ فی داخل الإنسان. و مرّةً یشهد الإنسان فی نفسه، نوعاً من الحُضور المعنوی للّه‌تعالی، من دون واسطةٍ، فیترنّم بأذکارٍ، مثل «یا سُبُّوحُ وَیا قُدُّوسُ» أو «سُبحانَکَ لا إلَهَ إلّا أَنْتَ». و هذا الأذکار القلبیّة، لها دورها الفاعل فی تهذیب النّفوس

وتربیة الفضائل الأخلاقیّة، کما عاشت الملائکة هذا النوع من الذّکر، عندما شاهدوا آدم علیه السلام، وسِعة علمه و إطّلاعه علی الأسماء الإلهیّة، فقالوا: «سُبْحَانَکَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ» «۱». و أشار القرآن الکریم، إلی مراحلٍ من الذّکر، فقال: «وَاذْکُرْ اسْمَ رَبِّکَ وَتَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلًا» «۲». و فی مکانٍ آخر، یقول: «وَاذْکُرْ رَبَّکَ فی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَخِیفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالاصَالِ وَلَا تَکُنْ مِنْ الْغَافِلِینَ» «۳». ففی الآیة الاولی، نجد تقریراً علی مستوی التّوجه لِلذکر اللّفظی العمیق، ثم التّبتل و الإنقطاع إلی اللّه تعالی، أیْ: التّحرک من موقع الإبتعاد عن الناس، و الإتصال باللّه تعالی فی خطّ العبادة و الذّکر. و الآیة الثّانیة: تتحدث عن الذّکر القلبی، الذی یؤدّی إلی أن یعیش الإنسان، حالة التّضرع و الخوف من الباری تعالی، فی أجواء الذکر الخفی، فتتحرک عملیّة الذّکر بشکلٍ بطیءٍ من الباطن و تجری علی اللّسان.

۳- موانع الذّکر

لا توجد موانع تقف فی طریق الذّکر اللّفظی، فیمکن لِلإنسان أن یذکر أسماء و صفات اللّه الجمالیّة و الجلالیّة، و یجریها علی لِسانه فی أیِّ وقتٍ شاء، إلّاأن یکون الإنسان مُنشغلًا وغارقاً فی الدّنیا، لدرجةٍ لا یبقی وقتٌ لِلذکر اللّفظی. أمّا الذّکر القلبی و المعنوی، فتقف دونه موانعٌ و سدودٌ کثیرةٌ، أهمّها ما یَکمُنْ فی واقع الإنسان نفسه، فبالرّغم من أنّ اللّه تبارک و تعالی، مع الإنسان فی کلِّ مکانٍ و زمانٍ، و أقرب إلینا من کلّ شیءٍ: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِیدِ» «۱». أو کما ورد فی الحدیث العلوی المشهور: «ما رأَیتُ شَیئاً إلّاوَرَأیتُ اللّهَ قَبلَهُ وَبَعدَهُ وَ مَعَهُ». ولکن مع ذلک، فإنّ کثیراً من أعمال الإنسان و صفاته الشّیطانیّة، تضع الحُجب علی عینه، فلا یُحسّ بوجود اللّه تعالی أبداً، من موقع الحضور و الشّهود القلبی، و کما یقول الإمام السّجاد علیه السلام، فی دعاء أبی حمزة الثمالی: «وإنَّکَ لا تَحتَجِبُ عَنْ خَلْقِکَ إلّا أن تَحجُبَهُم الأعمالُ دُونَکَ»، و أهم تلک الحُجب، هی «الأنانیّة» التی تذهل الإنسان عن ذکر ربه. فالأنانی لا یعیش مع اللّه تعالی من موقع الوُضوح فی الرّؤیة، لأنّ الأنانیّة من أنواع الشّرک التی لا تتناسب مع حقیقة التّوحید!. و نقرأ فی حدیثٍ عن علیٍّ علیه السلام أنّه قال: «کُلُّ ما أَلهی مِنْ ذِکْرِ اللّهِ فَهُوَ مِنْ إبلِیسَ» «۲». و فی حدیث آخر عن علیٍّ علیه السلام أنّه قال: «کُلُّ ما أَلهی عَنْ ذِکْرِ اللّهِ فَهُوَ مِنْ المَیسرِ» «۳». ونعلم أن المَیسر، جُعِل فی القرآن الکریم، ردیفاً لعبادة الأوثان «۴». و نختم هذا الکلام عن موقع الذّکر، بحدیثٍ عن الرّسول الأکرم، و قد جاء فی معرض تفسیره للآیة الکریمة: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا، لَاتُلْهِکُمْ أَمْوَالُکُمْ وَلَا أَوْلَادُکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللّهِ، وَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۱۲ مَنْ یَفْعَلْ ذَلِکَ فَأُوْلَئِکَ هُمْ الْخَاسِرُونَ» «۱». قال صلی الله علیه و آله: «هُم عِبادٌ مِنْ امَّتی، الصَّالِحُونَ مِنْهُم لا تُلهِیهِم تِجارَةٌ ولا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّهِ وَ عنِ الصَّلاةِ المَفرُوضَة الخَمْسِ» «۲». نعم فإنّهم فی کلّ حرکاتهم و سکناتهم، یبتغون وجه اللّه تعالی، ولا غیر.

القُدوات فی خطّ الإستقامة

إشارة:

کلّ إنسانٍ یسعی للسّیر قُدُماً، تبعاً لِلُاسوة التی یتأسّی بها، لیواکب معها ویعیش فی رحابها، و فی آفاقها الواسعةٌ ولتنعکس صفاتها فی نفسه وذاته. و بعبارةٍ اخری، فإنّه یوجد فی قلب کلّ إنسان، مکانٌ فارغٌ لا یشغله إلّاالأبطال و القُدوات و المُثل، و لهذا السّبب فإنّ الامم البشریّة تفتخر بأبطالها الحقیقیّین أو تخترع لنفسها أبطالًا من افق خیالها، بحیث تُشکل قسماً من ثقافة الامم و الشّعوب، و أنساقاً تحتیّة تبنی علیها تأریخها، فتفتخر ببطولاتهم وتشید بهم فی معطیاتهم، و تسعی دائماً لِلاقتداء بهم فی صفاتهم وبطولاتهم. علاوةً علی أنّ (المحاکاة)، هی أصلٌ مُسَلّم به، من الاصول النّفسیة فی واقع الإنسان و حرکته فی الحیاة، وطبقاً لهذا الأصل و الأساس، فإنّ الإنسان

یسعی لیصبغ نفسه بصِبغة الآخرین، و یحاکیهم علی مستوی الممارسة و السّلوک، (خُصوصاً) الأبطال، و ینجذب لأعمالهم وصفاتهم التی تمثل قیماً مطلقة فی وعیه وثقافته. و هذا التّأثیر و التّأثر و الجذب و الإنجذاب، بالنّسبة إلی الأفراد الذین یؤمنون بالقُدوة والرّمز أقوی وأشد. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۱۴ و بناء علی ذلک، نجد فی الإسلام أصلین مهمّین، فی دائرة المفاهیم الدینیّة، بإسم «التّولّی» و «التبرّی». أو بعبارةٍ اخری: «الحبُّ فی اللّه» و «البغض فی اللّه»، وکلٌّ منهما، یحکی لنا عن حقیقةٍ مهمّةٍ فی واقع الإنسان، و تَماشیاً مع هذا الأصل المهمّ فی دائرة المعتقد، فإنّه یتوجب علی الإنسان المسلم، أن یُحبّ من یحبّه اللّه، و یکره من یُبغضه اللّه تعالی، و أن یتّخذ من الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و الأئمّة المعصومین علیه السلام، اسوةٌ له فی حرکته المنفتحة علی اللّه و الحقّ. و هذا الأمر بدرجةٍ من الأهمیة، بحیث ورد فی القرآن الکریم، أنّه من علامات الإیمان، و فی الرّوایات الشّریفة عرّف بأنّه: «أَوثَقْ عُری الإیمانِ» و أنّ حرکة الإنسان فی خطّ الإیمان، لا- تکون مثمرةً بدون: «التّولّی» و «التّبرّی»، و معه سوف تقبل منه سائر العبادات و الطّاعات. و هذین الأمرین، یعنی التولّی والتبرّی، أو الحب فی اللّه و البُغض فی اللّه، هُما من أهمّ الخُطی المؤثّرة، علی مُستوی تهذیب النّفوس و القلوب، و السّیر إلی اللّه تعالی فی خطّ الإستقامة. و علی هذا الأساس، نری أنّ کثیراً من علماء الأخلاق، و أرباب السّیر و السّلوک، یؤکّدون علی ضرورة اتخاذ الاستاذ و المُرشد فی خطّ التّربیة و التّهذیب، و سنتناوله فی المستقبل إن شاء اللّه تعالی، بصورةٍ وافیةٍ. و الآن نعرج علی الآیات القرآنیة، لنستوحی منها ما یتعلق بمسألة التولّی و التبری، و دورهما فی صِیاغة السّلوک الدّینی للإنسان: الآیات: ۱- «قَدْ کَانَتْ لَکُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِی إِبْرَاهِیمَ وَالَّذِینَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْکُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» «۱». ۲- «لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِیهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کَانَ یَرْجُوا اللَّهَ وَالْیَوْمَ الْآخِرَ وَمَن یَتَوَلَّ فَإِنَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۱۵ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ» «۱». ۳- «لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کَانَ یَرْجُو اللَّهَ وَالْیَوْمَ الْآخِرَ وَذَکَرَ اللَّهَ کَثِیراً» «۲». ۴- «لَاتَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْآخِرِ یُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ کَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ أُوْلَئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمْ الْإِیمَانَ وَأَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَیُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِکَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ» «۳». ۵- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَاتَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ» «۴». ۶- «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیَاءُ بَعْضٍ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنکَرِ وَیُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَیُطِیعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِکَ سَیَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ» «۵». ۷- «اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَی النُّورِ وَالَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ یُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَی الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ» «۶». ۸- «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَکُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ» «۷».

تفسیر و إستنتاج:

یتّضح من آیات سورة المُمتحنة، أنّ بعض المؤمنین السّذج، وخلافاً لأوامر الشّریعة و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۱۶ تعلیمات الإسلام، کانوا علی علاقةٍ سریّةٍ بالأعداء. و قد جاء فی شأن النّزول للآیات الاولی من هذه السّورة الشّریفة، و قبل فتح مکّة المشرّفة أنّه کتب أحد الأشخاص، إسمه «حاطِب بن أبی بلتعة»، لکفّار قریش رسالةً سلّمها بید إمرأةٍ، إسمها «سارة»، حذّرهم فیها، من أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله، یعدّ العدّة لفتح مکّة، فعلیهم أنّ یستعدّوا لِلقتال، فإنّ الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، قادم. حدثِ هذا الأمر، و الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، یتهیأ و یعدّ العدّة، و هو یسعی حثیثاً لِئلّا یصل هذا الخبر إلی المشرکین، حرصاً منه علی أن لا تُراق فی ذلک دماءٌ کثیرةٌ، و أن یتمّ الفتح بدون مقاومة، فأخذت هذه المرأة الرّسالة، و أخفتها فی جَدائلها، و تحرّکت مسرعةً نحو مکّة. فأخبر الأمین جبرائیل علیه السلام، الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله بالخبر، فأرسل علی أثرها الإمام علی صلی الله علیه و آله، و قال لها: أخرجی ما عندک، فأنکرت فی البدایة، ولکنّها إستسلمت أخیراً تحت واقع التّهدید بالقتل، و سلّمت الرّسالة لِعلی علیه السلام، و هو بدوره سلّمها لِلرسول الکریم صلی الله علیه و آله. فأمر صلی الله علیه و آله بإحضار حاطِب و وبّخه کثیراً، فإعتذر حاطب عن فعلته بأعذارٍ واهیةٍ، لکنّ الرسول صلی الله علیه و آله قبلها صوریّاً، فما ورد فی الآیات الاولی، من السّورة هو تحذیرٌ للمسلمین،

لإجتناب مثل هذه الأعمال، و بيان واحدٍ من الاصول والمبادىء الإسلاميّة المهمّة، على مستوى التّبرى من الأعداء وموالاة الأولياء، أو كما قِيل: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ». و فى بداية السّورة، تحرّكت الآية الكريمة لتخاطب جميع المؤمنين، من موقع التّحذير، من إقامة العلاقة الودّية والعاطفيّة مع الأعداء، و قالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ». و نعلم أنّه عندما تتقاطع أواصر «المحبّة و الصّداقة» مع أواصر «العَقائد و القِيم»، فالنّصر سيكون حليف أواصر المحبّة و الصّداقة، على حساب إهتزاز العقيدة، و بذلك ينحدر الإنسان فى خطّ البَاطل، فما نراه من التّأكيد على: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فى اللَّهِ»، أو تولّى الأولياء و التّبرى من الأعداء، نابعٌ من هذا الأساس. ثمّ تستمر الآيات، «و بالذّات فى الآية الرابعة»، على حثّ المسلمين على الإقتداء بإبراهيم الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۱۷ النبى عليه السلام، و أصحابه المخلصين، و أنّهم اسوةٌ حسنةٌ للمؤمنين، الذين يتحرّكون من موقع الرسالة: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». الاسوة «على وزن لُقمة»، تحمل مَعْناً مصدرياً، بمعنى التّأسى والإتّباع للآخرين، و بمعنى آخر هو الإقتداء بالآخرين. و من البديهى أنّ هذا الأمر، يمكن أن يكون على مُستوى الفضيلة أو الرّذيلة، و لذلك فإنّ الآية الشّريفة، عبّرت عن إبراهيم عليه السلام بأنّه قدوةٌ حسنةٌ، لأنّه قطع كلّ أواصر المحبة و وشائج المودّة، التى كانت بينه و بين قومه، فى سبيل عقيدته وتوحيده للّه‌تعالى. يقول «الرّاغب» فى «مفرداته»، إنّ كلمة «الأسى» على وَزن (عَصا)، وهى بمعنى الغمّ و الألم، فكلمة اسوةٌ أخذت من هذه المادة، و يقال لِلمصاب بمصيبةٍ: «لكَ بِفلانٍ اسوةٌ». ولكنّ بعض أرباب اللّغة، مثل: إبن فارس فى «المقاييس»، فصّل بين المعنيين، فقال: «أنّ الأوّل ناقصٌ (واوى)، و الثّانى ناقصٌ (يائى)»، و على كلّ حالٍ فإنّ القرآن المجيد، حثّ المسلمين على مسألة: «الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ»، و جعل لهم إبراهيم عليه السلام قدوةً، لأنّ إختيار القدوة الصّالحة لحركة الإنسان، فى خطّ التّقوى و الإيمان، له دورٌ عميقٌ فى طهارة روح الإنسان، و أفكاره و سلوكياته. و هذا هو ما يؤكّد عليه علماء و الأخلاق، فى عمليّة السّير و السّلوك إلى اللّه، فإنّ إختيار القدوة يُعدّ أهمَّ خطوةٍ لحركة الإنسان فى طريق الرّقى. «الآية الثانية»: إستمراراً لبحثنا الآنف الذّكر، تتحدث عن إبراهيم عليه السلام و صحبه، فتقول: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ». و فرق هذه الآية عن الّتى قبلها، فى أمرين: الأوّل: إنّ هذه الآية أكّدت على مسألة: «الحُبُّ فى اللَّهِ وَالبُغْضُ فى اللَّهِ»، بأنّها من الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۱۸ علامات الإيمان باللّه والمعاد. الثانى: إنّ التّأكيد على هذا الأمر، لا ينبع من حاجة البارى إليه، بل هو من حاجة الإنسان إليه، فى مساره التّكاملى و المعنوى إلى اللّه تعالى، و لِحفظ سَلامة المجتمع البشرى فى حركة الواقع و الحياة. «الآية الثّالثة»: ناظرةٌ إلى غَزوة الأحزاب، وهى فى الحقيقة تشيرُ إلى مُلاحظةٍ مُهمّةٍ جِدّاً، ألا و هى: أنّ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و بالرّغم من الأزمات النّفسية و التّحديات الصّعبة فى تلك الظّروف، و سوء ظنّ بعض المسلمين الجدد، بالوعد الإلهى بالنّصر فى ميادين الوَغى فإنّه بَقى صامِداً ينظّر لِلحرب، و يستخدم أفضل التّكتيكات العسكريّة، إنتظاراً لِلّحظة الحاسمة، و كان ينتظر الفُرصة للإنقضاض على عدوّه، فكان يَمزح مع أصحابه ليقوّى من معنوياتهم، و أخذ المِعوَل بنفسه لِيحفُر الخَندق بيده، و يُشجع أصحابه ويذكّرهم باللّه تعالى وثوابه، ويبشّرهم بالفتوحات المُقبلة العَظيمة. و هذا الأمر تَسبّب فى تماسك المسلمين، و مقاومتهم أمامَ عدوّهم، و جيشه الجرّار المتفوق عليهم بالعدّة و العَدَد، بالتّالى الإنتصار عليهم، فقال تعالى «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً». فالرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله، لا يُتأسّى به فقط فى ميادين الجِهاد الأصغر، بل وكذلك فى ميادين الجِهاد الأكبر، ألا وهو جهاد النّفس و التّصدى لِلأهواء المُضلّة، من موقع المحاربة، فَمن يتّخذِه اسوةً حسنةً فى هذا المضمار، فإنّه سيصل من أقرب الطّرق و أسرعها، إلى غايته و هدفِه المَنشود. و الجدير بالذّكر، أنّ هذه الآية، علاوةً على ذكرها لِمسألة الإيمان باللّه و اليوم الآخر: «لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ...»، أكّدت على ذِكر اللّه تعالى بجملة: «وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً». فهم يقتدون بقائدهم الربّانى و يستلهمون منه الإيمان، و ذِكر اللّه كثيراً حيث يحرك فيهم الذّكرُ الاخلاق فى القرآن، ج۱، ص: ۳۱۹ الكثير، عنصر الإهتمام للمسؤوليات التى القيت على عاتقهم، وَ مَنْ أَفضل من الرّسول الأكرم صلى

الله علیه و آله، لِیکون لهم اسوةً و قدوةً، فی خطّ الإلتزام الدّینی و الأخلاقی و الإنفتاح علی اللّه؟ «الآیة الرابعة»: نوهت إلی النّقطة المقابلة، ألا وَ هَی: البُغض فی اللّه تعالی فی خطّ الحقّ، فتقول: «لَاتَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْآخِرِ یُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ کَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ أُوْلَئِکَ کَتَبَ فی قُلُوبِهِمْ الْإِیمَانَ وَأَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَیُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِکَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ». فهذه الآیة الشریفة، صرّحت و أرشدت، إلی الطریق التی یجب علی المؤمن سلوکها، عند تقاطع الطّرق، و تضارب «العلاقة الإلهیّة» مع «العلاقات الاسریّة»، فلو أنّ الآباء و الإخوة و الأقرباء، تحرّکوا فی خطّ الباطل و الإنحراف و الکُفر، فإنّ طریق اللّه هی الجادّة الحقیقیّة، لِلإلتحاق بالرّکب الإلهی المقدس. و ما ورد فی هذه الآیة، من قوله تعالی: «أُوْلَئِکَ کَتَبَ فی قُلُوبِهِمْ الْإِیمَانَ وَأَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ». لیس إلّاتأکیداً علی المعنی المتقدم، و تشجیعاً لذلک الأمرالمهم الحیاتی، أی أنّ «الحُبُّ فِی اللَّهِ وَالبُغْضُ فِی اللَّهِ»، نابعٌ من الإیمان، و طریق التّکامل الحقیقی فی خطّ الإیمان، السّلوک المعنوی، و بعبارةٍ اخری: إنّ هذین الأمرین، یؤثّر أحدهما فی الآخر بصورةٍ مُتقابلةٍ، مع فارقٍ واحدٍ، و هو أنّه یجب الإبتداء فی عملیّة السّلوک المعنوی، بالإیمان بالمبدأ و المعاد، و التّکامل المعنوی یکون، من حصّة: «الحُبُّ فی اللَّهِ وَالبُغْضُ فی اللَّهِ». «الآیة السّادسة»: تطرّقت لأواصر المحبّة المعنویّة بین المؤمنین، و قالت: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیَاءُ بَعْضٍ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنکَرِ وَیُقِیمُونَ الصَّلَاةَ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۰ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَیُطِیعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِکَ سَیَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ». فهذا الرّباط المعنوی، یتّخذ من الأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر، و إقام الصّلاة و إیتاء الزّکاة، و طاعة اللّه و رسوله، أساساً و دَعامةً فی صیاغة السّلوک، حیث یعین الفرد، علی إستلهام الأخلاق الحَسنة و الأعمال النّافعة، من الآخرین، فیکون کلّ واحدٍ منهم اسوةً للآخر، و من أراد الإلتحاق بهذه الجماعة، علیه أن یکون مُشابهاً لها فی دائرة الفکر و السّلوک، دون الجماعات المنحرفة الضّالة المضلّة، التی یجب علیه البَراءة منها و الإبتعاد عنها. و فی الحقیقة، فإنّ الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، الذی یُعدّ عاملًا مُساعداً و فَعّالًا، فی عملیّة تهذیب وتربیة النّفوس، یدعوهم إلی الإلتزام بالإنضباط الدّینی و الأخلاقی، من موقع النّصیحة و التّواصی بالحقّ. «الآیة السّابعة»: فرّقت بین المؤمنین و الکافرین، علی مستوی السّلوک فی واقع الحیاة، فالمؤمنون یتّخذون من صفات جَماله و جَلاله، اسوةً لهم فی مسیرتهم المعنویّة و الأخلاقیّة، و الکافرون اسوتهم الطّاغوت، حیث تکون أعمالهم و صفاتهم إنعکاس لِأعمال وَ صفات الطّاغوت، فقالت: «اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَی النُّورِ وَالَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ یُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَی الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ». فالخروج من الظّلمات إلی النّور، یعتبر نتیجةً و ثمرةً لِلإیمان باللّه تعالی و ولایته، و الخروج من النّور إلی الظّلمات، هو من معطیات الطّاغوت و ولایته. و النّور و الظّلمة هنا، لهما مفهومٌ واسعٌ جِدّاً، بحیث یستوعبان، جمیع الفضائل و القبائح و الحسنات و السّیئات. نَعم، فإنّ الشّخص الذی یعیش فی أجواء المَلکوت، و فی ظلّ ولایة «اللّه»، فإنّه سیبدأ رِحلته و هِجرته، من الرّذائل إلی الفضائل و من القبائح إلی الجَمال الرّوحی، و من السّیئات إلی الحسنات، لأنّ صِفات جَماله و جَلاله، هی اسوته الحقّة فی رحلته المعنویّة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۱ فذاته المُقدّسة، منزّهةٌ عن کلِّ عیبٍ و نقصٍ، و هو الرّؤوف الرّحیم، الجَواد الکَریم، و هکذا یتحرّک نحو التّحلی بالفضائل الأخلاقیة الاخری، لأنّ هدفه هو وِصال المَحبوب و المَعبود. و العَکس صحیحٌ، فإنّ الحرکة من الفَضائل إلی الرّذائل هی من شأن عَبدَةِ الطّاغوت و الأوثان، التی لا تنفع فی شیءٍ أبداً. «الآیة الثّامنة»: خاطبت المؤمنین من موقع النّصیحة، بإلتزام طریق التّقوی و صحبة المؤمنین، و قالت: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا آتَّقُوا اللَّهَ وَکُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ». فی الحقیقة أنّ الجملة الثّانیة، فی الآیة الشّریفة: «کُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ»، هی إکمال لِلجملة الاولی: «اتَّقُوا اللَّهَ ...». نعم، فإنّه یتوجب علی السّالک لِطریق التّقوی و الزّهد و الطّهارة، أن یکون مع الصّادقین و تحت ظلّهم، و قد وَرد فی الرّوایات من الطّرفین: السنّة و الشّیعة، و فی الکُتب المُعتبرة، أنّ المِصداق الأکمل لهذه الآیة، هو الإمام علی علیه السلام، أو أهلَ بیته علیهم السلام. و هذه الرّوایات، موجودةٌ فی کتبٍ، مثل: «الدّر المَنثور لِلسّیوطی» و «المَناقب لِلخَوارزمی» و «دُرَر السّمطین لِلزرندی» و «شَواهد التّنزیل للحَسکانی»، و غیرها من الکُتب الاخری «۱». و کذلک أوردها: «الحافظ

سُلیمان القُندوزی» فی «یَنابیع المَودّة»، و «العلّامة الحموینی» فی «فَرائد السّمطین»، و «الشّیخ ابو الحَسن الکازرونی» فی «شَرف النّبی» «۲». و قد وَرد فی بعض الأحادیث، و بعد نزول الآیة الآنفة الذّکر، أنّ سلمان الفارسی رحمه الله، سأل الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و قال له: هل أنّ هذه الآیة عامّةٌ أو خاصّةٌ؟، فأجاب النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «أَمّا المَأمُورُونَ فَعامَّةُ المُؤمِنِینَ وَأَمَّا الصَّادِقُونَ فَخَاصَّةُ أَخِی عَلِیٌّ وَ أَوصِیائُهُ مِنْ بَعْدِهِ إِلی یَومِ القِیامَةِ» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۲ و من الطّبیعی فإنّ إتّباع الإمام علی علیه السلام و أوصیاءه، جاریةٌ و مستمرةٌ إلی یومِ القیامة، للإهتداء بِهَدیِهِم، و الإقتداء بفعالهم و أخلاقهم فی حرکة الحیاة.

النّتیجة:

یُستفاد ممّا ذکر آنفاً، من الآیات التی إستعرضت مسألة «التولّی و التبرّی»، أنّ مسألة الوُصول إلی مرتبة القُرب من الذّات المقدّسة، و تولّی أولیاءه من عباده الصّالحین، و التّبرّی من الظّالمین و الغاوین، و فی کلمةٍ واحدةٍ: «الحُبُّ فی اللَّهِ وَالبُغْضُ فی اللَّهِ»، تعدّ من أهمّ المسائل و المفاهیم، فی دائرة التّعلیمات القُرآنیة، ولها دورها الکبیر و أثرها العمیق، فی مُجمل المسائل الأخلاقیّة، فی حرکة الإنسان المعنویّة. و هذا الأساس القرآنی و المفهوم الإسلامی، له دورُه المُباشر فی جمیع المَسائل الحیاتیّة، إن علی المستوی الفَردی أو الاجتماعی، الدنیوی أو الاخروی، لا سِیّما فی المسائل الأخلاقیّة و السّلوک الأخلاقی لِلأفراد، فی تعاملهم و تَفاعلهم مع الآخرین، فی حرکة الحَیاة و الُمجتمع. فهذه المفردة العقائدیّة، فی دائرة المفاهیم الإسلامیّة، بإمکانها أن تبنی نفوس المؤمنین علی إتّباع الصّالحین و الطّاهرین، و إتخاذهم اسوة حسنة، خُصوصاً الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله و أهل بیته علیهم السلام، فی کلّ خطوةٍ یخطوها الإنسان المُؤمن فی خطّ الإیمان، و بذلک تکون من العوامل المهمّة، للوصول إلی الهدف الحقیقی من وراء خلقة الإنسان، ألا وَ هِیَ تهذیب النّفوس و تربیة الفَضائل الأخلاقیة فی واقع النّفس البشریّة.

التولّی و التبرّی فی الرّوایات الإسلامیّة:

وَردت أحادیثٌ مستفیضةٌ فی هذا الصّدد، سواء عن طریق أهلِ السُّنة أو الشّیعة، و طَرحت موضوع التبرّی والتولّی بقوّةٍ، و أکّدت علیه بصورةٍ شدیدةٍ، قلّما نَجِدُ لها نظیراً، بالنّسبة إلی المواضیع الاخری الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۳ ولا شَکَّ أنّ هذه الأهمیّة، نابعةٌ من المعطیات الإیجابیّة الکثیرة، لِمسألة التّولی لِأولیاء اللّه، والبراءة من أَعداءِه تعالی، حیث توثّق عُری الإیمان و أواصِر المحبّة و الصّداقة، مع أولیاء اللّه تعالی، و تُعمّق حالةَ الإبتعاد و النّفور من الظّالمین الفاسقین، و تنعکس هذه النّتائج علی إیمان الشّخص و أَخلاقه و تَقواه، من موقع القوّة و الصّفاء و الإمتداد فی واقع الإنسان و محتواه الداخلی، و تحثّ هذه الأحادیث النّاس، علی إختیار القُدوة الصّالحة فی عملیّة السّیر و السّلوک، فی طریق اللّه سبحانه وتعالی. و نُشیر هنا إلی مجموعةٍ من الأحادیث الشّریفة، فی هذا المجال، جمعت من کُتبٍ مُختلفةٍ: ۱- قال علیٌّ علیه السلام فی خطبته القاصعة، و فی وصفه للرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ کانَ فَطِیماً أَعْظَمَ مَلَکٍ مِنْ مَلائِکَتِهِ یَسْلُکُ بِهِ طَرِیقَ المَکارِمِ وَمَحاسِنَ أَخلاقِ العالَمِ، لَیلَهُ وَ نَهارَهُ وَلَقَدْ کُنْتُ أَتَّبِعُهُ إِتِّباعَ الفَصِیلِ أَثَرَ امِّهِ یَرْفَعُ لی فی کُلِّ یومٍ مِنْ أَخلاقِهِ عَلَماً وَ یَأْمُرُنی بِالإِقتِداءِ بِهِ» «۱». و یبیّن هذا الحدیث، أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله نفسهُ کان له من یرشده و یهدیه، ولدیه القدوة الحسنة علی شکل ملکٍ من ملائکة اللّه العِظام. و کذلک الإمام علی علیه السلام، جعل من الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله قدوةً له، فکان یتبعه فی کلّ اموره وحرکاته وسکناته، فیتعلم منه کلّ یوم أمراً جدیداً، عِلماً مفیداً، و أخلاقاً نبیلةً. فلّما کان کُلٌّ من الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله و علی علیه السلام، یحتاجان إلی القُدوة الحسنة، فی بدایة المسیر إلی اللّه، فکیف بحال الباقین؟ ۲- الحدیث المعروف: «بُنِیَ الإسلام ...»، الذی وَرد من طُرق متعدّدةٍ عن المَعصومین، و منها ما ورد عن زُرارة عن الباقر علیه السلام، أنّه قال: «بُنی الإسلامُ عِلی خَمْسَةٍ: عَلَی الصَّلاةِ وَالزَّکاةِ والحَجِّ وَالصَّوم وَالولایَةِ»، قَالَ زُرارَةُ، فَقُلتُ: وَأَیُّ شَیءٍ مِنْ ذَلِکَ أَفْضَلُ؟، فَقالَ: الوَلایَةُ أَفْضَلُ لَانّها مِفتاحُهُنَّ وَالوالی هُوَ الدَّلِیلُ عَلیهِنَّ» «۲». الاخلاق

فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۴ و من هذا الحدیث یُستفاد، أنّ الإقتداء بالقُدوة الصّالحة، یعین الإنسان علی إحیاء سائر البرامج، الدینیة و المسائل العبادیّة الفردیة و الإجتماعیّة، و هی إشادةٌ واضحةٌ بدور الولایة، فی مسألة تهذیب النّفوس و تحصیل مکارم الأخلاق. ۳- عن الإمام الصّادق علیه السلام: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله لأصحابه: «أیُّ عُرَی الإیمانِ أوثَقُ؟، فَقالُوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، وَ قالَ بَعْضُهُم الصَّلاةِ، وَ قالَ بَعْضُهُم الزَّکاةُ، وَقالَ بَعْضُهُم الصِّیامُ، وَقالَ بَعْضُهُم الحجُّ والعُمْرَةُ، وَقالَ بَعْضُهُم الجِهادُ. فَقالَ رَسُولُ اللّهِ صلی الله علیه و آله: لِکُلٍّ ما قُلْتُم فَضْلٌ وَلَیسَ بِهِ، وَلَکِنْ أوثَقُ عُرَی الإیمانِ الحُبُّ فِی اللّهِ وَالبُغْضُ فِی اللّهِ وَتَوَلّی أولیاءِ اللّهِ وَالتَّبَرّی مِنْ أعداءِ اللّهِ» «۱». و قد حرّک الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أذهان أصحابه بهذا السّؤال. و هکذا کانت سیرة الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، عندما کان یرید أن یطرح موضوعاً مهمّاً، فبعض منهم أبدی جهله، وبعض منهم قال الصّیام و ... ولکن فی نفس الوقت، الذی أکّد رسول اللّه علی أهمیّة تلک الامور فی الإسلام، قال: «الحُبُّ فِی اللّهِ وَالبُغْضُ فِی اللّهِ». و التّعبیر بکلمة: «عُری جَمع «عُروة»، هی بمثابة حلقة الوصل لِلقرب من اللّه تعالی، و إشارةٌ إلی أنّ السّلوک إلی اللّه، لا یتمّ إلّامن خلال التمسّک بهذه العروة، و الصّعود بواسطتها إلی مراتب سامیة من الکمال المعنوی، ولیس ذلک إلّالأنّ الحبّ فی اللّه و الإقتداء بأولیاء اللّه، عاملٌ مهمٌّ فی تسهیل الحرکة فی جمیع إتّجاهات الخیر و الصّلاح. و بإحیاء هذا الأصل، سوف تنتعش بقیّة الاصول الدّینیّة، ولکن مع إهماله وترک العمل به، فإنّ سائر الاصول ستَضعف و تَموت. ۴- و فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصّادق علیه السلام، أنّه قال لجابر الجُعفی رحمه الله: «إذا أرَدتَ أنْ تَعْلَمَ أنَّ فِیکَ خَیراً فَانظُرْ إلی قَلْبِکَ فَإنْ کانَ یُحِبُّ أهْلَ طاعَةِ اللّهِ وَ یُبْغِضُ أهْلَ مَعْصِیَتِهِ، فَفِیکَ خَیرٌ وَاللّهُ یُحِبُّکَ، وَإنْ کانَ یُبْغِضُ أهْلَ طاعَةِ اللّهِ وَ یُحِبُّ أهْلَ مَعْصِیَتِهِ، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۵ فَلیسَ فَیکَ خَیرٌ، وَاللّهُ یُبْغِضُکَ وَالمَرءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ» «۱». وَ جُملة: «والمَرء مَع من أحبّ»، هی إشارةٌ جمیلةً و لطیفةً إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ هذه العِلاقة ستمتد وتستمر إلی یوم القیامة، وهی دلیلٌ واضحٌ علی أهمیّة مسألة «الولایة»، فی المباحث الأخلاقیّة. ۵- فی حدیثٍ آخر عن الإمام الباقر علیه السلام، قال: أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «وُدُّ المُؤمِنِ لِلمُومِنِ فِی اللّهِ مِنْ أعْظَمِ شُعَبِ الإیمانِ، أَلا وَمَنْ أحَبَّ فِی اللّهِ وَأبْغَضَ فِی اللّهِ وَأعطی فِی اللّهِ وَمَنَعَ فِی اللّهِ فَهُوَ مِنْ أصفِیاءِ اللّهِ» «۲». ۶- فی حدیثٍ آخر عن الإمام علی بن الحسین علیه السلام، أنّه قال: «إذا جَمَعَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ الأوَّلِینَ وَ الآخَرِینَ، قامَ مُنادٍ فَنادی یُسْمِعُ النّاسَ، فَیَقُولُ: أینَ المُتَحابُّونَ فی اللّهِ، قالَ: فَیَقُومُ عُنُقٌ مِنْ النّاسِ، فَیُقالُ لَهُم إذْهَبُوا إلَی الجَنَّةِ بِغَیرِ حِسابٍ، قالَ: فَتَلَقّاهُم المَلائِکَةُ فَیَقُولُونَ إلی أینَ؟ فَیَقُولُونَ إلی الجَنَّةِ بِغَیرِ حِسابٍ!، قالَ: فَیَقُولُونَ فَأیُّ ضَرْبٍ أنْتُم مِنْ النّاسِ؟، فَیَقُولُونَ نَحْنُ المُتَحابُّونَ فِی اللّهِ، قالَ: فَیَقُولُونَ وَ أیُّ شَیءٍ کانَتْ أعمالُکُم؟، قالُوا کُنّا نُحِبُّ فی اللّهِ وَ نُبْغِضُ فِی اللّهِ، قالَ فَیَقُولُونَ، نِعْمَ أجرُ العامِلِینَ» «۳». و تعبیر «نِعْمَ أجرُ العامِلِینَ» یبیّن أنّ المحبّة لأولیاء اللّه والبغض لأعداء اللّه هو أکبر مصدر للخیر فی واقع الإنسان والحیاة والمانع عن الشر والانحراف فی مسیرة التکامل الأخلاقی. ۷- وَرد فی حدیثٍ عن الرّسول الکریم صلی الله علیه و آله: «إنَّ حَولَ العَرشِ مَنابِرُ مِنْ نُورٍ، عَلَیها قَومٌ لِباسُهُم وَ وُجُوهُهُم نُورٌ، لیسُوا بِأنْبیاءٍ یَغْبِطَهُمُ الأنْبیاءُ وَ الشُّهَداءُ، قالُوا یا رَسُولَ اللّهِ حَلِّ لَنا، قَالَ: هُم المُتَحابُّونَ فی اللّهِ وَالمُتَجالِسُونَ فِی الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۶ اللّهِ وَالمُتَزاوِرُونَ فی اللّهِ»». ۸- و إکمالًا للحدیث أعلاه، قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «لَو أنَّ عَبدَینِ تَحابا فِی اللّهِ أحَدُهُما بِالمَشْرِقِ وَالآخرُ بِالمَغْرِبِ لَجَمَعَ اللّهُ بَینَهُما یَومَ القِیامَةِ وَ قَالَ النَّبیُّ صلی الله علیه و آله: أفْضَلُ الأعْمالِ الحِبُّ فی اللّهِ والبُغْضُ فی اللّهِ» «۲». و یبیّن هذا الحدیث، أنّ أوثق العُری والأواصر فی دائرة العلاقات الإجتماعیّة، هی آصرة الدّین التی تُحقّق التّوافق و الوئام بین الأفراد، وتدفعهم لِلمحبّة لِلّهوفی اللّه، وهذه الحالة تؤثّر فی النّفوس، من موقع التّزکیة و التّهذیب. ۹- نقرأ فی الحدیث القُدسی، قال اللّه تعالی لموسی علیه السلام: «هَلْ عَمِلْتَ لی عَمَلًا؟!، قالَ صَلَّیتُ لَکَ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ لَکَ، قَالَ اللّهُ تَبارَکَ وَ تَعالی وَ أمّا الصّلاةُ فَلَکَ بُرهانٌ، والصَّومَ جُنَّةٌ والصَّدَقَةُ ظِلٌّ، والذِّکْرُ نُورٌ، فَأیُّ عَمَلٍ عَمِلْتَ لِی؟!، قَالَ مُوسی دُلَّنی عَلی العَمَلِ الَّذی هُوَ لَکَ، قَالَ یا مُوسی هَلْ وَالَیتَ لی وَلِیّاً وَ هَلْ عادَیتَ لِی عَدُوّاً قطُّ، فَعَلِمَ مُوسی إنَّ أفْضَلَ الأعمالِ، الحُبِّ فی اللّهِ والبُغْضُ فی اللّهِ» «۳». ۱۰- ونختم هذا البحث، بحدیثٍ آخر عن الإمام الصّادق علیه السلام، (رغم وجود الکثیر من الأحادیث الشّریفة فی هذا الموضوع، أنّه قال: «مَنْ أحَبَّ لِلّهِ وَأبْغَضَ لِلّهِ وَأعْطیٰ لِلّهِ وَمَنَعَ لِلّهِ فَهُوَ مِمَّنْ کَمُلَ إیمانُهُ»

«۴». و نَستوحی من الأحادیث العشرة الآنفة الذّکر، أنّ الإسلام قد أعطی الأهمیّة القُصوی، لمسألة الحُبّ فی اللّه والبغض فی اللّه، و إعتبرها أفضل الأعمال، وعلامة کمال الدّین، و أسمی من: الصّلاة و الزّکاة و الصّیام والحج والإنفاق فی سبیل اللّه تعالی، ومن یَتَحلّی بهذه الصّفة، یکون مع الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی الجنّة، بحیث یغبطه فیها الأنبیاء و الشّهداء و الصّدیقین. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۷ فهذه التّعبیرات و غیرها، تبیّن لنا دور و فعّالیّة مسألة التبرّی و التّولّی، فی جمیع البرامج الدّینیة و الإلهیّة، ودلیل هذا الأمر واضحٌ جدّاً، لأنّ الإنسان المؤمن، عندما یُحِبّ القُدوة الإلهیّةُ و الإنسان الکامل، لتقواه وإیمانه وفضائله الأخلاقیة، فإنّ ذلک من شأنه، أن ینعکس علی روحه و سُلوکه صفاتِ و سلوک هذه القدوة، و یدفعه لِلتأسّی بها فی أعماله و حرکاته و سَکناته! و هذا هو بالفعل، ما یَصبو وَیدعو إلیه علماء الأخلاق، بإعتباره أصلًا أساسیاً فی تهذیب و تربیة النّفوس، و أنّ الإقتداء بالقُدوة الصّالحة، من شأنه أن یکون شرطاً أساسیاً، لأن یسلک بالإنسان طریق الهدایة و الصّلاح، فی خطّ الإیمان و الإنفتاح علی اللّه تعالی. و من الأدلّة المهمّة، التی أوردها القرآن الکریم، و أکّد علیها رسوله الکریم صلی الله علیه و آله، هو التّذکیر بأَنبیاء اللّه تعالی و أفعالهم و تأریخهم و حیاتهم، و الغَرض من ذلک کُلّه، الإقتداء بهم و إتّباع سیرتهم. جدیرٌ بالذّکر، أنّ کلّ إنسانٍ یحبُّ البطولات و الأبطال، و یحبُّ أن یَقتدی بأحد الأبطال، لیجعله اسوةً و قدوةً فی حیاته فی جمیع أبعاده المختلفة. عملیّة إنتخاب مثل هؤلاء الأبطال، یؤثر علی حیاة الإنسان، من موقع صیاغة الشّخصیة و کیفیّة السّلوک، و علی فرض حدوثِ تغیّرٍ فی نظرة الإنسان نحو القُدوة، فَستتغیر حیاتُه بالکامل، تَبعاً لها. و الکثیر من الأفراد أو الشعوب، لمّا لم یُسعفهم الحظّ فی إتخاذ القُدوة الصّالحة، تَوسّلوا بأبطالٍ مزیّفین، کَی یُعوّضوا النّقص الحاصل لدیهم فی هذا المجال، و أدخلوهم فی ثقافتهم و تأریخهم، وألّفوا فی سیرتهم الأساطیر و الحکایات، و البطولات الخیالیّة. و البیئة و الدّعایة السّلیمة أو المغرضة، لَها دورها فی إختیار اولئک الأبطال، فیُمکن أن یکونوا من رجال الدّین، و السّیاسة، أو وجوهٌ ریاضیّةٌ أو تمثیلیّةٌ. و هذا المیل البَشری لِلأبطال، و القُدوات الإنسانیة، یمکن أن یوجّه بالصّورة الصّحیحة، و یفعّل دوره فی تربیة الفضائل الأخلاقیّة و السّلوکیات الحسنة، فی الحیاة الفردیّة و الإجتماعیّة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۸ و بناءً علی ذلک، فإنّ الآیات و الرّوایات أکّدت علی هذه الضّرورة، و هی مسألة التولّی و التبرّی، و إتّخاذ أولیاء اللّه قدوةً و اسوةً حسنةً، و بدونها ستبقی برامج التّربیة و التّهذیب، ناقصةُ المُحتوی و المُضمون.

قصّة موسی و الخَضر علیهما السلام:

إتّخاذُ المعلّم و الدّلیل، فی طریق السّیر و السّلوک إلی اللّه تعالی، من الأهمیّة بمکانٍ، بحیث أُمِرَ بَعض الأنبیاء، فی بُرهةٍ من الزّمن، للحُضورَ عند الاستاذ أو المُرشد. و من ذلک قصّة موسی علیهما السلام و الخضر، المليئة بالمفاهیم والمضامین العمیقة، و التی وَردت فی سَورة الکهف، من القرآن المجید. فقد امِرَ موسی علیه السلام، لأجل إسترفاد بعض العلوم، التی تحمل الجانب العملی و الأخلاقی أکثر من الجانب النّظری، أُمِرَ بالذّهاب إلی عالم زمانه، لِیَستقی منه العِلم، و قد عرّفه القرآن الکریم، بأنّه: «عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَیْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً». فشدّ موسی علیه السلام، الرّحال فعلًا مع أحد أصحابه، متّجهاً نحو المکان الذی یتواجد فیه الخِضر علیه السلام، و مع غَضّ النّظر عَمّا صادفاه فی الطّریق إلیه، وَصل مُوسی علیه السلام إلی المکان الموعود، فقال له الخِضر علیه السلام:: «إِنّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعی صَبراً»، ولکنّ موسی علیه السلام وعده بالصّبر. توالت الأحداث الثّلاثة، واحدة بعد الاخری، المعروفة و الواردة فی القرآن الکریم: أولها خَرق السّفینة الّتی کانوا علیها، فإعترض موسی علیه السلام، و ذکّره بخَطر الغَرق لِلسفینة بِمن فیها، فقال له الخِضر: «ألم أَقُل لَکَ إِنّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعی صَبراً» فندم و إختار علیه السلام السّکوت، حتی یوضّح له ملابسات الأمر. ولَم یَمض قلیلًا، حتی صادفوا صَبیّاً فقتله، الخِضر علیه السلام مباشرةً من دون توضیح و دلیل، فهذا الأمرُ المُریع أثارَ موسی علیه السلام مرّةً اخری، و نسِیَ ما تَعهّد به، و إعترض علی استاذه بأشدّ من الّتی قَبلها، فقال: «أَقَتَلْتَ نَفساً بِغَیرِ نَفْسٍ لَقَد جِئتَ شَیئاً إمراً». و لِلمرّة الثّانیة، ذکّر الخِضر موسی علیه السلام بالعهد الذی قطعه علی نفسه، و قال له: إذا تکرّر الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۲۹ منک هذا العمل لِلمرّة

الثّالثة، فسوف تَنقطع العلاقة بيني و بينك، و ننفصل في هذا السّفر، فعلم موسى عليه السلام، أنّ في قَتل الغلام سِرّاً مُهمّاً، فآثر السّكوت، ليتّضح له السرّ فيما بعد. و تَلتها الحادثة الثّالثة، و قد وردوا في قَريةٍ، فلم يُضيفوهما ولم يعبؤوا بِهما، فَوجد الخِضر عليه السلام جداراً يُريد أن يَنقضّ، فَأقامَه عليه السلام، و طلب العَون من موسى عليه السلام في هذا الأمر، فَرمَّم الجِدار، فضاق موسى ذَرعاً بالأمر، فَصاح: «لَو شِئتَ لَتَّخَذْتَ عَلِيهِ أَجراً». فأين يكون موضع التّعامل مع هؤلاء من موقع الرّحمة، مع كلّ تلك القساوة التي واجهوها من أهل تلك القرية؟. و هنا أعلن الخِضر عليه السلام إنفصاله عن موسى عليه السلام، لأنّه نقض العَهد ثلاثَ مرّاتٍ، ولكنّه و قبل الفِراق، أعلمه بالأسرار لتلك الحوادث الثّلاثة، فقال له: إنّ السّفينة كانت لِمساكين، و كان عندهم ملكٌ يأخذ كلّ سفينةٍ سَليمةٍ غَصباً، فَأعَبْتُها كَيْ لا يأخذها منهم، و الشّاب المقتول، كان يستحق الإعدام، لأنّه كافرٌ و مرتدٌ، و كان الخوف على أبويه من موقع التّأثير عليهما، ولئلا يحملهما على الكفر. و الجِدار كان ليتيمين في المدينة، و كان تَحته كنزٌ لَهُما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربّك أن يستخرجا كنزهما فيما بَعد، ليعيشا بذلك المال، ثم أكدّ عليه أن كلّ ذلك كان بأمر اللّه تعالى، وليس تصرّفاً من وَحي أفكاري «۱». رجع بعدها موسى عليه السلام، محّملًا بمعارفٍ و علومٍ في غاية الأهميّة. و نحن بدورنا نستلهم من تلك القصّة، عدّة دروسٍ، منها: ۱- العثور على معلّمٍ مطّلع حكيمٍ للتعلّم عنده، و الإستنارة من نور علمه، أمرٌ من الأهميّة بمكان، بحيث امِرَ رسول من رُسل اولى العزم بذلك، وقد قطع المسافات الطويلة كي يَدرس عنده، و يقتبس من فَيض علمه. ۲- عَدم تعجّل الامور، و إنتظار الفرصة المُناسبة، أو كما يُقال: «إنّ الامور مرَهونةٌ بِأَوقاتها». الاخلاق في القرآن، ج۱، ص: ۳۳۰ ۳- الحوادث الجارية حولنا، ربّما تحمل ظاهِراً و باطناً، وعلينا عدم النّظر إلى الظّاهر فقط، لِئلّا نخطأ في الحكم على الامور، من موقع العجلة و عدم التّأنّي، و علينا الأخذ بنظر الإعتبار بَواطِنها. ۴- عدم الإنضباط و الإلتزام بالعهود، ربّما يَحرم الإنسان من بعض البركات المَعنويّة إلى الأبد. ۵- الدّفاع عن الأيتام و المستضعفين، و الوقوف في وجه الظّالمين و الكفار، يُعتبر واجباً على المؤمنين، الذين يتحرّكون في خطّ الرّسالة و المسؤوليّة، و قد تُدفع في سبيل ذلك الأثمان الباهظة. ۶- أينما وصل الإنسان في مراحل العِلم و الرّقي، عليه أن لا يغترّ بعلمه، و لا يتصور أنّه وصل إلى حدّ الكمال، لأنّه قد يتسبب هذا التّصور، في تجميد حركة الإنسان الصّاعدة، و القناعة بما عِنده من العلم. ۷- إنّ للّهِ تعالى جُنوداً و ألطافاً خفيّةً تنصرُ المظلوم، بِطرقه المختلفة، وكلّ إنسانٍ مؤمنٍ، عليه أن يتوقّعها في كلّ لحظةٍ. و هناك نقاطٌ مفيدةٌ اخرى أيضاً. و هذه القصّة سواء كانت تحمل أهدافاً حقيقةً لتعليم موسى عليه السلام، أم أنّها تحمل نِداءاتٍ للناس؛ لكي يتعلموا ويقتدوا بالأعاظم من البشر، لا تختلف عما نحن بصدده. والخُلاصة: أنّ القدوة و الدّليل و الاسوة، هو أمرٌ لابدّ منه للاستزادة من العلوم، و تهذيب النّفوس في خطّ التّكامل المعنوي و بناء الذّات. ۱۴

الوجه الآخر للولاية، و دوره في تهذيب النّفوس

اشارة

لا ينحصر دور الإعتقاد بالولاية، في المسائل الأخلاقية و تهذيب النّفوس و السّير إلى اللّه تعالى، على إتّخاذ القُدوات الصّالحة و الإقتداء بكلامهم و فِعالهم، بل و بحسب إعتقاد بعض الأعاظِم و العُلماء، يوجد هناك نوعٌ آخر من الولاية، هو فرعٌ من الولاية التّكوينية، يستطيع معها القادةُ الإلهيّون، و بواسطة نفوذهم الرّوحي المباشر، في عالم الوجود و التّكوين، من معرفة النّفوس المستعدّة للتربية و الإصلاح، و التّصرف المعنوي المَباشر، في المستوى الرّوحي لِلإنسان في خطّ التّربية. و توضيح ذلك: إنّ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله و الأئمّة المعصومين عليهم السلام، هَمْ القلب النّابض لِلأمّة الإسلاميّة، و كلّ عضوٍ من الأعضاء، يكون له إرتباطٌ وثيقٌ بالقلب، سيتسنى لذلك العَضو أن يسترفِد من المنبع مَنافع أكثر، أو أنّهم بمنزلة الشّمس المشرقةِ، فكُلّما إنقشعت سُحب الأنانية عن القلب، فإنّ تلك الأشعّة ستتولى تربية عناصر الخير في النّفس، فَتورقُ و تثمرُ، و تنعكس آثارها على شخصيّة الإنسان، في إطار

السّلوک و الفِکر. و هنا تأخذ الولایة شَکلًا آخر، و تنحی مَنْحاً یختلف عن السّابق، و سیکون الکلام فیها عن المَعطیات الخفیّة الغامضة، فی دائرة التّأثیر التّربوی، غیر التی نعرفها سابقاً، فی دائرة التّصرفات الظّاهریّة. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۲ یقول القرآن الکریم: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاکَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِیراً* وَدَاعِیاً إِلَی اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِیراً». فهذه الشّمس المنیرة، و هذا السّراجُ المنیر، یتولّی وظیفتین، فمن جِهة أنّه یُضیء لِلإنسان الطریق إلی اللّه تعالی، لیعرف الطّریق الصّحیح و الجادة المؤدّیة إلی الحقّ و الصّلاح، و یبتعد عن حافّة الهاویة. و من جهةٍ اخری، فإنّ هذا النّور الإلهی، یؤثّر لا شعوریّاً فی واقع الإنسان، و یتولی إصلاح النّفس فی خطّ التّربیة الأخلاقیّة، و یساعدها فی عملیّة التّکامل و الرّقی. و کَنموذجٍ علی ذلک، ما نقرأه فی الحدیث المرفوع عن «هِشام بن الحَکم»، و مناظرته مع «عَمرو بن عُبید»، العالم بِعلم الکلام السّنی، عندما ذَهب هشام إلی البصرة، و أجبره ببیانٍ لطیفٍ و منطقی، علی الإعتراف بِلزوم وجود الإمام فی کلّ عصرٍ و زمانٍ. قال هشام: بلغنی ما فیه عَمرو بن عبید، و جلوسه فی مسجد البصرة، فعظُم ذلک علیّ، فخرجت إلیه ودخلت البصرة یوم الجمعة، فأتَیت مَسجد البَصرة، فإذا أنا بحلقةٍ کبیرةٍ فیها عَمرو بن عبید، و علیه شَملةٌ سوداءٌ، متّزراً بها، من صوفٍ و شملةٌ مرتدیاً بها، و النّاس یسألونه، فإستفْرَجت النّاس فأفرَجوا لی، ثمّ قَعدت فی آخر القَوم، علی رَکبتی، ثم قلت: أیّها العالم، إنّی رجلٌ غریبٌ تأذن، لی فی مسألةٍ!. فقال لی: نَعم. فقلت له: أَلک عَینٌ؟ فقال: یا بُنیّ أیّ شیءٍ هذا السّؤال، و شیء تراه کیف تَسأل عنه. فقلت: هکذا مَسألتی. فقال: یا بُنیّ سَلْ وإن کانت مَسألتک حَمقاء. قلت: أجبنی فیها. قال لی: سَلْ. قلتُ: ألکَ عینٌ؟ الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۳ قال: نَعم. قلت: فما تَصنع بها؟. قال: أری بها الألوان والأشخاص. قلت: ألکَ أنفٌ؟ قال: نَعم. قلتُ: فما تصنع به؟ قال: أشمُّ به الرّائحة. قلتُ: ألکَ فمٌ؟ قال: نَعم. قلتُ: فما تصنع به؟. قال: أذوقُ بِهِ الطّعام. قلت: ألک اذنٌ. قال: نَعم. قلتُ: فما تصنع بها؟. قال: أسمع بها الصّوت. قلت: أَلک قلب؟. قال: نعم. قلتُ: فما تصنع به؟ قال: امیّز به کلّما ورد علی هذه الجَوارح و الحَواس. قلتُ: أوَ لَیس فی هذه الجَوارح غِناً عن القلب؟. فقال: لا. قلتُ: و کیف ذلک، و هی صحیحةٌ سلیمةٌ؟. قال: یا بُنی إنّ الجوارح إذا شکّت فی شیءٍ، شمّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته، ردّته إلی القَلب الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۴ فیستَیقِن الیَقین و یُبطل الشّک. فقلت له: فإنّما أقام اللّه القلب؛ لِشّک الجَوارح؟. قال: نعم. قلتُ: لابدّ من القلب، و إلّالم تَستَیقن الجوارح؟. قال: نعم. فقلتُ له: یا أبا مَروان، فاللّه تَبارکَ و تعالی، لم یترک جوارحک حتّی جَعل لها إماماً، یُصحِّح لها الصّحیح، و یتیقّن له ما شکّ فیه، و یترک هذا الخَلق کلّهم فی حِیرتهم و شَکّهم و إختلافهم، لا یُقیم لهم إماماً یردّون إلیه شَکّهم و حِیرتهم، و یُقیم لَک إماماً لِجوارحک، تردّ إلیه حیرتک و شَکّک؟ قال: فَسکت ولم یقل شَیئاً، ثم إلتفتَ إلیّ، فقال لی: أنتَ هُشام بن الحَکم؟، فقلتُ: لا. قال من جُلسائه؟، قلت: لا. قال: فَمن أَنتَ، فقلت: من أهلِ الکوفة. قال: فأنت إذاً هوَ، ثمّ ضمّنی إلیه، و أَقعدنی فی مَجلسه، وزالَ عن مجلسه، و ما نطَق حتّی قُمت. قال: فَضحِک أبوعبداللّه علیه السلام، و قال: یا هُشام من عَلّمک هذا؟. قلتُ: شیءٌ أخذته منک، و ألّفته. فقال الإمام: «هذا واللّه مکتوبٌ فی صُحف إبراهیم وَ موسی». «۱» نعم، فإنّ الإمام بمنزلةِ القَلب، لِعالَم الإنسانیّة، و هذا الحدیث یمکن أن یکون إشارةً، لِلولایة و الهدایة التّشریعیّة أو التّکوینیة، أو الإثنین معاً. و کذلک ما ورد، فی حدیث أبی بَصیر وجاره التوّاب، هو شاهدٌ آخر علی هذا المَطلب: قال أبو بَصیر: کان لی جارٌ یتبع السّلطان، فأصابَ مالًا فإتّخذ قِیاناً، و کان یجمع الجَموع و یشربُ المُسکِر و یُؤذینی، فشکوته إلی نفسه غیرَ مَرّة، فلم یَنتَهِ، فلّما ألحَحتَ علیه، قال: یا هذا أنا رجلٌ مُبتلی، و أنت رجلٌ معافی، فلو عرّفتنی لِصاحبک رَجوتُ أن یَستنقذنی اللّهُ بک، فوقع ذلک فی قلبی، فلما صِرت إلی أبی عبداللّه علیه السلام، ذکرتُ له حاله. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۵ فقال لی: «إذا رجعت إلی الکُوفة، فإنّه سیأتیک، فقل له: یقول لک جعفر بن محمد: دعْ ما أنت علیه، و أَضمِنْ لک علی اللّه الجنّة». قال أبو بَصیر: فلمّا رجعت إلی الکوفة، أتانی فیمن أتی، فاحْتبستُه حتّی خَلا منزلی. فقلت: یا هذا، إنّی ذکرتُک لأبی عبداللّه علیه السلام، فقال: «أَقرِأه السّلام و قل له: یترک ما هو علیه، و أَضمن له علی اللّه الجنّة». فَبکی، ثمّ قال: اللّه، قال لک جعفر علیه السلام هذا؟ قال: فحلفت له، أن قال لی ما قلت لک. فقال لی: حَسبُک وَمَضی، فلما کان بعد أیّام بعث إلیّ و دعانی، فإذا هو خَلف باب داره عُریان. فقال: یا أَبا بصیر، ما بقی فی منزلی شیءٌ، إلّاو خرجت عنه، و أنا کما تری. فَمشیتُ إلی إخوانی، فجمعت

له ما کسوته به، ثمّ لم یأت علیه إلّاأیّاماً یسیرةً، حتّی بعث إلیّ: أنّی علیل فآئتنی، فجعلت أختلف إلیه، و اعالجه حتّی نزل به الموت. فکنت عِنده جالساً و هو یجود بِنفسه، ثم غُشی علیه غشیةً ثم أفاق، فقال: یا أبا بَصیر، قد و فّی صاحبک لنا، ثم مات، فَحَججت فأتیت أباعبداللّه علیه السلام، فإستأذنت علیه، فلمّا دخلت قال مبتدئاً من داخل البیت، وإحدی رجلیّ فی الصّحن والاخری فی دهلیز داره: «یا أبا بَصیر قد وفّینا لصاحبک». «۱» بالطّبع یمکن أن یقال: إنّ هذا الحدیث حمل فی طیّاته، جانب التّوبة العادیّة المعروفة بین الناس، ولکنّنا نقول: إن ذلک الرّجل المذنب والملیء بالمعاصی، من رأسه إلی أخُمص قدمه، لم یکنِ لیُغیّر طریقة حیاته، و اتّخاذه جانب الصّلاح و الفلاح، و علی حدّ إعترافه هو، بأنّه لولا الإمام علیه السلام و عنایته، لم یکن له أن یتحول من دائرة الظّلمة و المعصیة، إلی دائرة النّور والهدایة. و یوجد إحتمالٌ قویٌّ، و هو أنّ هذا الإنقلاب و التّحول، فی روح و سلوک هذا الرجل المذنب المستعد لِلتوبة، کان بسبب التّدخل الرّوحی للإمام علیه السلام، و تصرفه فی محتواه النّفسی، و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۶ ذلک لوجود نقطةٍ مضیئةٍ و بصیصٍ من الأمل فی أعماق قلبه، و هو تمسّکه بالولایة، حیث أدّی إلی أن یتحرّک الإمام علیه السلام إلی نجدته و إنقاذه، فی آخر لحظات حیاته و أیّام عمره. و النّموذج الآخر لهذا التّأثیر المعنوی، و الولایة التکوینیّة فی تهذیب النّفوس المستعدّة، هو ما نقله العلّامة المجلسی رحمه الله فی بحار الأنوار، عن الإمام الکاظم علیه السلام، و الجاریة التی أرسلها هارون إلیه. فقد وَرد أنّ هارون الرّشید، أنفذَ إلی موسی بن جعفر علیه السلام جاریةً خصیفةٌ، لها جمالٌ و وضاءةٌ لتخدمه فی السّجن، فقال له: «بَل أَنْتُم بِهَدِیّتِکُم تَفرَحُونَ» «۱»، لا حاجة لی فی هذه و لا فی أمثالها، قال: إستطار هارون غَضباً، و قال: إرجع إلیه وقل له: لیس بِرضاک حَبَسناک، و لا بِرضاک أخذناک، و إترک الجاریة عنده و إنصرف. قال: فَمضی و رجع، ثم قام هارون عن مجلسه، و أنفذَ الخادم إلیه لیتفحص عن حالها، فرآها ساجدةً لربّها لا ترفعُ رأسها، تقول: قُدّوسٌ سُبحانک سُبحانک. فقال هاورن: سَحرها و اللّه موسی بن جعفر بسحره، علیّ بها، فأتی بها و هی تَرتَعد، شاخصةً نحو السّماء بصرها، فقال: ما شأنک؟. قالت: شأنی الشّأن البدیع، إنّی کنت عنده واقفةً، و هو قائمٌ یصلّی لیله ونهاره، فلمّا إنصرف عن صلاته بوجهه، و هو یسبّح اللّه و یقدّسه، قلت: یاسیّدی هلْ لک حاجة اعطیکها؟ قال: وما حاجتی إلیک؟ قلت: إنّی ادخلت علیک لِحوائجک. قال: ما بالُ هؤلاء؟. قالت: فَالتفتُ فإذا روضةٌ مزهرةٌ، لا أبلغ آخرها من أوّله بنظری، ولا أوّلها من آخرها، فیها مجالسُ مفروشة بالوِشیّ و الدّیباج، و علیها و صفاً وَ وَصائِف، لم أر مثل وجوههم حُسناً، و لا مِثل لباسهم لِباساً، علیهم الحَریر الأخضر، والأکلیلُ و الدّر و الیاقوت، و فی أیدیهم الأباریق و المَنادیل، و من کلّ الطّعام، فخَررت ساجدةً حتّی أقامنی هذا الخادم؛ فرأیت نفسی حیثُ کنت. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۷ فقال هارون: یا خبیثة، لعلّکِ سجدت فَنمت فرأیت هذا فی مَنامک؟. قالت: لا واللّه یاسیّدی، إلّاقبل سُجودی، رأیت فسجدت من أجلِ ذلک. فقال هاورن: إقبض هذه الخبیثة إلیک، فلا یسمع هذا مِنها أحد، فأقبلت فی الصّلاة، فإذا قیل لها فی ذلک، قالت: هکذا رأیتَ العَبد الصّالح علیه السلام، فسئلت عن قولها، قالت: إنّی لما عَیبت من الأمر نادتنی الجواری، یا فلانة أبعدی عن العبد الصّالح، حتّی ندخل علیه، فنحن له دونک، فما زالت کذلک حتّی ماتت، و ذلک قبل موتِ موسی علیه السلام بأیّامٍ یسیرةٍ «۱». و فی هذه القصّة، نشاهد نموذجاً آخر من تأثیر الإمام علیه السلام، فی روح تلک الجاریة المستعدّة للتّربیة و الإصلاح الرّوحی، و الهدایة فی طریق الحقّ و العودة إلی اللّه تعالی. والخلاصة: أنّ تاریخ الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و الأئمّة الهداة علیهم السلام، حافل بمثل هذه الحوادث، حیث یتّفق لبعض الأشخاص، أن یلتقوا مع النّبی أو الإمام، فینقلب مَساره فی حرکة الحیاة و الواقع و یتغیّر کلیاً، و یتحوّل إلی النّقطة المقابلة، فی حین أنّ هذا التغیّر، ما کان لیحصل بواسطة الأسباب العادیة، بحسب الظّاهر، و هذا الأمر یدلّ علی أنّ الإنسان الکامل، هو الذی تولی هذه العملیّة التغییریّة، فی هؤلاء الأشخاص من خلال التّصرف و التّدخل فی النّفوس، و هو ما نسمّیه بالولایة التکوینیّة. و من المؤکّد أنّ هذه العنایة، و اللّطف و التّوجه، لم یکن إعتباطاً، بل هو لوجود نقاط قوّة فی شخصیّة الفرد المُعتنی به، لتشمله العنایة الإلهیّة، بواسطة الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، و الأئمّة الطّاهرین علیهم السلام.

کلام العلّامة الشّهید المطهّری:

نترک الکلام و القَلم هنا، للعلّامة الشّهید المطهّری قدس سره، حیث یقول فی کتابه: «ولاءها و الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۸ ولایتها»: (تستعمل هاتین الکلمتین عادة فی أربع موارد: و لاء المحبة: (أی المحبّة لأهل البیت) علیهم السلام، و ولاء الإمامة، بمعنی التّأسی بالأئمّة علیهم السلام، و جعلهم القدوة لأعمالنا و سلوکیاتنا، و ولاء الزّعامة، بمعنی حقّ القیادة الاجتماعیّة والسّیاسیة للأئمّة علیهم السلام، و ولاء التّصرف، أو الولاء الرّوحی و هو أسمی هذه المراحل). و بعدها یوضّح الأوّل و الثّانی و الثّالث، ثمّ یعرج علی المعنی الرّابع، الذی هو مورد بحثنا و یقول: (إنّ التّصرف الرّوحی والمعنوی، هو نوعٌ من القُدرة و التّسلط الخارق للتکوین، بمعنی أنّ الإنسان و من خلال عبودیّته الحقّة للّه‌تعالی، یحصل علی مقام القُرب الإلهی المعنوی و الرّوحی، و نتیجة لهذا القُرب، یصبح إنساناً کاملًا، یتحرک فی طریق هدایة الناس نحو المعنویات، و یتسلط علی الضّمائر، وتکون له قدرة الشّهود علی الأعمال، و بالتّالی یصیر حُجّة اللّه فی زمانه! فمن وجهَة نظر الشّیعة، أنّ کلّ زمان لا یخلو من إنسانٍ کاملٍ، یتمتع بقدرة التّصرف الغیبی فی العالم والإنسان، و ناظرٌ و شاهدٌ علی الأرواح والقلوب، وهذا الإنسان هو حجّةُ اللّه علی الأرض. و المقصود من التّصرف، أو الولایة التکوینیّة، لیس کما یعتقد بعض الجهّال، من أن یتولی الإنسان الکامل، مسألة القَیومیّة و التدبیر فی العالم، بحیث یکون الخالق و الرّازق و المفوض، من جانب اللّه تعالی. و هذا الإعتقاد، رغم أنّه لا یعتبر شرکاً، بل هو کما ورد فی القرآن، بالنّسبة إلی الملائکة: «المُدَبِّراتُ أَمراً وَالمُقَسِّماتِ أمراً»، فهو بإذن اللّه تعالی، والقرآن یُخبرنا أنّ لا نَنسب مسائل الخلقة و الرّزق والموت و الحَیاة، إلی غیر اللّه تعالی. ولکن المقصود، هو أنّ الإنسان الکامل، ولقربه من اللّه تعالی، یصل إلی مرحلةٍ تکون له الولایة فی التّصرف فی: (بعض امور) العالم. ثم یضیف قائلًا: ویکفی هنا أن نشیر إشارةً إجمالیةً إلی هذا المطلب، وتوضیح اسسه بالإعتماد و علی المفاهیم و المعانی القرآنیة، لِئلّا یعتقد البعض، أنّ هذا جزافاً من الکلام. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۳۹ فلا شک أنّ مسألة الولایة، بمعناها الرّابع، هی من المسائل العرفانیّة، و مجرد کونها عرفانیّة، لا یعنی نکرانها بالکامل. ثمّ یشرح بإسهاب، معطیات القرب من اللّه تعالی، و یستنتج منها، ما یلی: فعلی هذا الأساس، من المحال علی الإنسان، و بعد قربه و طاعتِه للّهِ تعالی، ألّا یصل إلی مقام الملائکة، بل وأرقی، أو علی الأقل یساوی الملائکة فی مقامهم، الملائکة التی تدبّر و تتصرف فی عالم الوجود، بإذن اللّه تعالی» «۱». ویمکن أن نخرج من هذا الحدیث بنتیجة، و هی أنّ العلاقة المعنویّة، و الإرتباط بالإنسان الکامل، یمکن أن یساعد الإنسان فی عملیّة التّصرف، و النّفوذ فی حیاة الاناس المستعدّین والمتقبلین للإصلاح، وسوقهم تدریجیاً فی خطّ التّهذیب الأخلاقی، و إبعادهم من جو الرّذائل إلی جو الفضائل الأخلاقیة والکمالات الروحیّة.

الاستغلال السّیء:

تتعرض المفاهیم البنّاءة و الصّحیحة، للُامم و الشّعوب فی کلّ زمانٍ و مکانٍ للإستغلال و التّحریف دائماً، و هذا الإستغلال فی الحقیقة لا یؤثر علی صحة و قداسة أصل المسألة. ولم تکن مسألة القدوة الأخلاقیّة فی خطّ التربیة و التّهذیب، و لزوم الإستفادة من الاستاذ العامّ و الخاصّ، لأجل السّلوک إلی اللّه و تهذیب الأخلاق، مستثناة من هذا الأمر، فجماعةٌ من الصّوفیّة طَرحوا أنفسهم، بعنوان: «مُرشد» أو «شیخ الطّریقة» و «القُطب»، و دعوا الناس لإتّباعهم و التّسلیم المُطلق إلیهم، بل و تعدّوا الحُدود، و قالوا إذا ما شاهدتم سلوکاً یصدر من الشّیخ، مخالفاً للشریعة، فلا علیک و لا ینبغی علیک الإعتراض، لأنّ ذلک یخالف روح التّسلیم المُطلق للمرشد. و یُستفاد ومن کلمات «الغزالی»، المؤید للصّوفیة، فی فصولِ متعددّةٍ من کتابه «إحیاء العلوم»، هذا المعنی أیضاً، حیث یُشمّ منها رائحة الصوفیّة، و الحقیقة أنّ فِرقاً من الصّوفیة، الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۴۰ تعتبره من کبار أعلامها، فقد قال فی الفصل (۵۱) من الجزء الخامس، الباب الخامس: (نَظَرُ الصّوفیة إنّ أدب المریدین فی مقابل شیوخهم هو، أن یجلس المرید مقابل الشّیخ مسلوب الإختیار، فلا یتصرف فی نفسه وماله إلّابأمره ... و أفضلُ أدب المُرید أمام الشّیخ: هو السّکوت و الخمود و الجمود، إلی أن یملی علیه

شیخه، ما یراه له صلاحاً فی أعماله و أفعاله ... و کلّما رآی من شیخه خِلافاً، و عسُر علیه فَهمه، تذکّر حکایة مُوسی و الخِضر علیهما السلام، فإنّ الخضر قد عمل أعمالًا أنکرها مُوسی، ولکن عندما کشف له الخِضر أسرارها إنتبه مُوسی، وعلیه فکلّما فعل الشّیخ، کان له عُذراً بلسان العِلم و الحِکمة) «۱». و یقول العارف العّطار، فی أحوال یوسف بن حسین الرّازی، عندما أمره ذو النّون المَصری: (مرشده)، الخُروج من بلدِه والعودة إلی دیاره، طلب یوسف منه برنامجاً یعمل به، فقال له ذُو النّون: علیک بِنسیان ما قرأته، و امح کلّ ما کتبته، لیُزال الحِجاب!. ونقل عن أبی سعید، قوله للمُریدین: «رَأسُ هذا الأمرِ، کَبْسُ الَمحابِرِ وَ خرَقُ الدَّفاتِرِ وَنِسیانِ العِلمِ» «۲». ونقل عن أحوال و حالات «أبو سعید الکندی»، أنّه کان قد نزل فی الخانقاه، و إجتمع عنده جمعٌ من الدّراویش، وکان یطلب العلم سرّاً، وفی یوم من الأیّام سقطت من جیبه محبرةٌ، فإنکشف سرّه: «و هو أنّه من هواة تحصیل العلم»، فقال له أحد الصّوفیین: (استر علیک عَورتک) «۳». ولا شک فإنّ الجو الحاکم هناک، کان نتیجةً لتعالیم مرشدهم فی هذا الأمر، ولکنّ الحقیقة أنّ الاسلام قد أکّد علی خلاف هذا المسلک، ففی الحدیث الوارد عن الصّادق علیه السلام، عن الرّسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّه قال: «وُزِّنَ مِدادُ العُلَماءِ بِدِماءِ الشُّهَداءِ، فَرُجّحَ مِدادُ العُلَماءُ عَلی دِماءِ الشُّهَدَاءِ» «۴». فانظر إلی الفرق بین المسلکین!!. الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۴۱ و لأجل الإطّلاع علی کیفیّة التّحریف و الإنزلاق فی منحدر الإفراط و التّفریط، و کیف تنحرف مسألةٌ معینةٌ عن المنطق و الشّرع، لدی وقوعها بأیدی مَنْ لا أَهلیّة له، علی التّنظیر فی امور الدّین؟، و کیف تَتعرض للإستغلال و التّشویه، علینا إلقاء نظرة علی کلام: «کیوان القِزوینی المُلقّب ب منصور علی شاه»، حیث یُعتبر من أقطاب الصّوفیة، فقد بیّن حدود و صلاحیّات القُطب، و قال: «لِلقطب أن یدّعی عشرةَ خُصوصیّات: ۱- أنّ عندی باطنُ الولایة التی کانت عند الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله ... مع فرقٍ واحدٍ هو، أنّه المؤسس وأنا المروّج والمدیر والحارس!. ۲- عندی القُدرة علی تربیة الأفراد، و تهذیب نفوسهم، و إزالة العناصر الخبیثة و الخصائص الشّریرة، فی واقعهم ونزعها ونقلها إلی الکفّار. ۳- أنا حرّ من قیود الطّبع و النّفس. ۴- یجب أن تؤدی جمیع عِبادات و مُعاملات المُریدین، بإجازةٍ و موافقةٍ منّی. ۵- کلّ إسم القّنه لِلمُریدین، و أجیزهم بذکره فی القلب أواللّسان، یکون هو ذلک الإسم فقط هو اللّه، ویسقط الباقی من درجة الإعتبار. ۶- کلّ المعارف الدینیّة و العقائدیّة، إن کانت قد حصلت بموافقتی، فهی صحیحة، وإلّا فهی عینُ الزّیف، و مَحض الخَطأ. ۷- أنا مفترضُ الطّاعة، و لازمُ الخِدمة، و لازم الحفظ. ۸- أنا حرٌّ فی عقائدی. ۹- أنا ناظرٌ للأحوال القَلبیّة لمریدیّ دائماً. ۱۰- أنا قسیم النّار والجنّة «۱». هذا الکلام أشبهُ بالهَذیان منه إلی البَحث المَنطقی، رغم أنّه قد لا یقبله أغلب الصّوفیین، ولکن مجرد أنّه یری نفسه بِعنوان: «قُطب»، و إدّعائه أن للأقطابِ، إختیاراتٌ و صلاحیّاتٌ لم الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۴۲ یدّعیها حتی الأنبیاء لأنفسهم، فإن ذلک یکفی، فی تبیان مدی إستغلال هؤلاء المدّعین، لمثل هذه العناوین الضّبابیّة و حاجة الناس للمعلم، فی أمر السّیر و السّلوک إلی اللّه تعالی، و ما یمکن أن یترتّب علی ذلک، من عواقبٍ سلبیّةٍ علی مستوی، سَوقِ النّاس فی خَطّ الباطل. فهذه الإدّعاءات، بعض منها من خواصّ الأنبیاء، والاخری لم یجرء علی ادّعائها أحد من الأنبیاء والأئمّة علیهم السلام، و أیّ شخصٍ له قلیلٌ من الإلمامٌ بالدّین، سیتوجه إلی فَضاعةِ الأمرِ و خُطورته. و إذا ما رَجعنا إلی کُتب أهل التّصوف، مثل، «تَذکرة الأولیاء» لِلشیخ العَطار، و «تاریخ التّصوف»، و «نفحات الانس»، و بعض أبحاث «إحیاء العُلوم»، نری أنّ الإدّعاءات و الخُصوصیّات التی یضعوها لِلأقطاب، و شیخُ طریقتهم: فضیعةٌ، و لذلک فإنّ بعض مُحقّقی الشّیعة وفقهائهم، و قفوا بِشدّةٍ و قوّةٍ، مقابل هذه الطّائفة، حتی أنّ هذا الموقف تسبّب بإیذاء بعض الّذین یتعاملون مع المفاهیم الدینیّة، من موقع الجهل و السطحیّة، لکن الحقیقة أنّ المثقفین و المطّلعین، یعلمون أنّ إطلاق العِنان لمثل هذه الأفکار المُنحرفةُ من شأنه أن یَقضی، علی فُروع و اصولِ الدّین الحَنیفِ بصورةٍ کاملةٍ. نَصل هُنا و إیّاکم إلی نِهایة أبحاثنا، عن کلّیات المسائل الأخلاقیّة، فی ظلّ الآیات القرآنیة، أبحاثٌ تعتبر الأساس و القاعدة الّتی یقومُ علیها صَرحُ الأخلاق و تهذیب النّفوس، و تفتحُ أمامنا أبواب المباحثِ المستقبلیّة، حول مصادیق الرّذائل و الفضائِل، واحدةً بعد اخری. إلهنا!: «إنّ الوصول إلی أوج الفضائل الأخلاقیّة و الحیاة، فی أجواء القُرب منک، لا تُستطاع إلّا بتَوفیقک و تَسدیدِک، فَأعنّا بعونَک، وجُد علینا بفضلک، وَ قرّبنا مِنک، و اجعلنا من أصحاب النّفوس المطمئنّة، لندخل فیمن یقعونَ مَوردا لخطابک،: «فَادْخُلی فِی عِبَادِی* وَ ادْخُلی

جَنَّتی». الاخلاق فی القرآن، ج۱، ص: ۳۴۳ رَبّنا!: إنّ حَبائلَ الشّیطانِ قویّةٌ، و سهامَه مَهلکةٌ، وهوی النّفس عدوٌّ لا یرحم، و رذائل- النّفس کالأشواک تُوخز الرّوحَ و تُؤذیها، و لا یُنجینا من ذلک کلّهُ إلّاعنایتُک الخاصّة و لطفُک الخَفی. ربّنا!: إننا نُسلّمُ الأمرَ إلیکَ فی خِتام حدیثنا، و نقرأ الدّعاء المعروفَ الواردَ عن الرّسول الکریم صلی الله علیه و آله، و نقول: «اللَّهُمَّ لا تَکِلنِی إِلی نَفْسِی طَرفَةَ عِینٍ أَبَداً» «۱». تمّ والحمد للّه الجزء الأول من کتاب الأخلاق فی القرآن فی ۲۴/ ۳/ ۱۳۷۶ ه. ش المصادف ۸/ صفر ۱۴۱۸ ه. ق

تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحاسِنَ کَلامِنا لَاتَّبَعُونا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة "الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم. مرکز "القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ– بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة –فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت– علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی. – من الأنشطة الواسعة للمرکز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةَ المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان" ومُفترَق "وفائی/ "بنایة "القائمیّة "تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة) رقم التسجیل: ۲۳۷۳ الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتب طهرانَ

۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المــركز من فضلــكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹